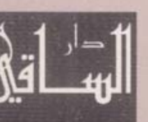
شارع العطايف

عبدالله بن بخيت

رواية



عبدالله بن بخيت

شارع العطايف

رواية



شارع العطايف

الطبعة الأولى ٢٠٠٩
الطبعة الثانية ٢٠٠٩

ISBN 978-1-85516-330-0

دار الساقي
بناية تابت، شارع أمين منيمنة (نزلة السارولا)، الحمراء، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت،
الرمز البريدي: ٦١١٤ ـ ٢٠٣٣

هاتف: ٣٤٧٤٤٢ (٠١)، فاكس: ٧٣٧٢٥٦ (٠١)
e-mail: alsaqi@cyberia.net.lb

الإهداء

.

إلى شقيقي الراحل

عبد الوهاب

الفصل الأول

اجتذبته أصوات النساء المتزايدة فنهض من فراشه وتحرّك على رؤوس أصابعه بحذر، وأطلّ من فرجة بين شرفتين على بطن البيت. لأوّل مرّة يشاهد ابنة عمّه نوف في منزله. كانت بصحبة أمّها وأختيها. كن يتحدثن بهدوء احتراماً لجثمان والدته المسجّى. تأمّل وجهها. تغيّرت كثيراً عن ذلك اليوم الذي ضمّها وقبّلها وأحرق أشواق قلبه على جسدها الظامئ. أزالت السنين من بشرتها وهج المراهقة وتشقّقاته. هدأت ملامح وجهها واختفت منه البثور. صارت امرأة في منتصف العمر. ازداد جسدها امتلاءً في مناطق الأنوثة. أصبحت أطول من أمّها وأطول من أيّ امرأة تقف إلى جانبها. اختلطت الأمور بين حبيبته المنتصبة في بطن بيته وأمّه التي ستدفن بعد قليل وتختفي من حياته إلى الأبد. امرأتان أحبّهما بعنف. واحدة ستترك وجه الأرض بعد قليل والأخرى ستبقى معه إلى يوم موته. انتزع عينيه من وجهها وطاف بهما على النساء الأخريات. وقعت عينه على منيرة النحيفة زوجة جارهم عبد الرحمن تتحدّث إلى نساء لا يعرفهن. كان حديثاً حماسيّاً لا يتّفق

مع الموقف. كانت منيرة تتحدّث طوال الوقت والمرأتان اللتان تقفان معها صامتتان تنصتان بانتباه وحماسة وكأنهما توافقان على كل ما تقول. لا يمكن أن يكون لغواً نسائياً. ربّما كانت تقدّم توجيهات. عجز عن التعرّف على المرأتين برغم أن وجهيهما مألوفان، لكن من الصعب تبيّن هويّتيهما. ربّما كانتا من نساء الجيران اللواتي لم يسبق له أن رآهنّ قبل أن يتحجّبن عنه.

اعتاد أن يشاهد يومياً النساء اللواتي يخرجن وقت الضحى يتزاورن أو يرمين بقايا الطعام والغسال أو يفاصلن مع فرقنا بائع الأقمشة المتجوّل.

كان قد استأجر غرفة صغيرة اقتطعها الدويرع من بيته وأجّرها له لتكون ورشة إصلاح سياكل. استغراقه في إصلاح السياكل، وتبتّله بحبّ ابنة عمّه جعلاه يتجاهل ميله إلى النساء. كان ينهمك بإصلاح السياكل وتلبيسها في عمل محموم ليجمع قوت يومه ويدرك مستقبله الذي يقوم على هدفين لا ثالث لهما: الزواج بابنة عمّه مهما تقادم الزمن، وقتل الرجال الذين انتهكوا رجولته.

ترك منيرة تكمل حديثها الذي لم ينقطع وتحرّك إلى الشرفة التالية، فشاهد زوجة أبو دحيم وزوجة البويز وزوجة صالح وغيرهنّ من النساء. أحسّ أن بطن البيت اتّسع أكثر من حجمه. أكثر من عشر نساء يتحرّكن فيه بسهولة. رمى ببصره على وجه نوف مرّة أخرى. وجه الحبيبة الذي تركه في ذلك السطح في ذلك المساء الصيفي الذي غيّر حياته. ستّ عشرة سنة أمضاها يتابع أخبارها ويتحسّس شغف الرجال بها وينتظر اليوم الذي سوف

يمتلكها فيه. تابع زواجها ونهايته. لن يجرؤ بعد اليوم أحد على الزواج بها. لقد وضع حدّاً لشغف الرجال بجسدها. ابن شويب هو أقرب الرجال المرشّحين لخطبتها. تمنّى من كلّ قلبه ألاّ يفعل، لأنّه سوف يموت حتّى قبل أن يدخل عليها. لقد أصبحت نوف ملكه بحكم الدم المُراق.

تحرّك ناحية الظلّ حتّى لا تلاحظه أيّ من النساء وتظنّ أنه يتجسّس عليهنّ، فظهرت الغرفة التي ترقد فيها أمّه. حاول أن يرى من فتحة الباب طرفاً منها دون جدوى. تركها ليلة البارحة ممدّدة في طول الغرفة. يبدو أن أحدهم غيّر وضعها. لو تركت بالصورة التي كانت عليها آخر مرّة لشاهد رجليها تطلان من الباب. تحرّك ناحية الروشن لعلّه يلمح طرفاً منها من الجهة المقابلة. صار مطبخ البيت تحت نظره. شاهد امرأة مليئة الجسد حسناء عمرها لا يتجاوز الثلاثين. بيضاء مشوبة بحمرة خفيفة تكاد تنافس نوف على جمالها. حاول أن يعرف من هي، فعدد الفتيات الجميلات في حلة ابن بخيت قليل. يتذكر منهنّ بنت ماجد، وأخت فهد وبنت مريم الفلسطينية. لكن هذه لا تشبه أيّاً من أصدقائه أو رجال الحارة الذين يعرفهم. يبدو عليها الحزن والكرب. لعلّها واحدة من قريبات نوف من ناحية الأمّ. انتزع عينيه عن المرأة بعد أن أحسّ بقليل من تأنيب الضمير. ليس من العدل التفرّج على نساء الآخرين في هذا الوقت على الأقلّ. أعاد نظره إلى وجه الفتاة قليلاً قبل أن يشيح بنظره ليبحث عن بنت عمّه التي لم يجدها في المكان الذي تركها فيه. دار على كلّ الشرفات المنتصبة على الحائط القصير.

حاول أن يجد نوف لكنّها اختفت. سحبها القدر من المنافسة، ربّما ذهبت إلى الديوانية تستقبل المعزّيات. وقعت عينه على سعاد شقيقة سعندي. تذكّرها جيّداً. كان يراها قبل أن تتحجّب عنه. عرفها من وجهها القبيح وعينيها المريضتين. ضاعت بشرتها الخمرية في حبّات الجدري الكبيرة التي تبدو من بعيد كأنّها ذبابات صغيرة. شعر بالاشمئزاز من شكلها. تساءل عن هذه العدالة التي تستثني فتاة مسكينة من الجمال بهذه الصورة المروّعة، لكنه قمع التجديف في داخله وردّد اللهم لك الحمد والشكر.

لاحظ أن عدد النساء يزداد. شاهد ثلاث نساء جديدات وقفن يسلّمن على والدة نوف. قدّر عدد النساء في بطن البيت بخمس عشرة امرأة في هذه اللحظة. لأوّل مرّة يشاهد هذا العدد من النساء مجتمعات دون أن يسمع صخب الأصوات الحادّة. لقد بسط الموت هيبته على المكان.

* * *

بلغت أمّه فجر هذا اليوم الذي توقّفت فيه عن الحياة التاسعة والستين. عمر مديد على إنسان تجنّبته السعادة كثيراً. اشتكت منذ سنوات بعيدة من كلّ عضو في جسدها. أوجاع حقيقية وأوجاع متوهّمة. ارتبطت معظم مطالبها في السنة الأخيرة بآلامها. كان يذهب إلى إحضار العزيمة والقراءات وغيرها من العلاجات من كلّ مكان يذكر له فيه معالج أو مقرئ قرآن. اعتاد أن يراها طريحة الفراش تئنّ وتتوجّع وتربط رأسها بعصابة وتتذمّر من الجنّ والشياطين وعيون الناس التي لا ترحم. يغذّي الشيخ سويهم

مخاوفها بقراءاته المسلّطة على الجنّ. ولكن تطوّرات مرض السلّ تفاقمت في الأشهر الأخيرة فالتهمت جميع أمراضها الأخرى. تأكّد أنها سوف تموت في أيّة لحظة. كانت هي نفسها مقتنعة بذلك. تناقص اهتمامها بشؤون حياتها حتّى كاد يتلاشى. عاشت حطام حياة حتّى قبل أن تتزوج. دخل والده حياتها كأنما قرّر القدر أن يمنحها طفلاً قبل فوات الأوان. عاشرها بضعة أشهر إلى أن حبلت ثم هجرها. كان والده مهووساً بالنساء ولكن فقره يجبره على الزواج بالكبيرات في السنّ والأرامل وقليلات الحظّ.

كثرة زيجات أبيه تركته من دون إخوة حقيقيين. سوف يستقبل المعزّين وحيداً. لا يتوقع أن يأتي إخوته من أبيه. لم يعرف منهم سوى مساعد. التقاه قبل أشهر عدّة في حراج ابن قاسم. قدّم المحرج أحدهما إلى الآخر. تبادلا التحيّات الخفيفة كغريبين وتساءلا عن بقية الإخوة والأخوات. اكتشف أن مساعد لا يعرف كثيراً عن العائلة التي استنبتها والدهما في كل مكان. بعضهم كما عرف لاحقاً يعيش خارج الرويض. خمسة عشر صبيّاً وبنتاً. يفترض أن يكون العدد أكبر من هذا بكثير لكن من حسن الحظّ أن غالبية زوجات والده كنّ كبيرات في السنّ. أيّ واحدة من أولئك المسِنّات اللواتي يقفن في بطن البيت يمكن أن تكون واحدة من زوجات والده. طلّق بعضهن قبل أكثر من ثلاثين سنة. من الصعب تتبّع تاريخ والده وتاريخ النساء اللواتي عاشرهن. عندما يستمع إلى أمّه تتحدّث عن أهل الرويض، لا بدّ أن يسمع أن فلانة سبق أن تزوجت أباك وأمّ فلان كانت زوجة أبيك وخالة فلان كانت زوجة

لوالدك. تتحدّث عن زوجات زوجها دون حسرة أو غيرة كأنّما كنّ زميلات عمل. لم تكن تعرف على المستوى الشخصي سوى عدد محدود منهنّ. معظمهنّ فارقن الحياة.

حدّثته قبل أسابيع عن عدد من إخوته زاروها في طفولته ولكنها لم تنصحه بالاتّصال بهم برغم أنهم يمتّون لها بصلة قربى. ثم أشارت إلى إخوته في الحسيوي وإخوته في جويبة وإخوته في الكوت وإخوته في كلّ مكان سافر إليه والده. عندما كانت تقصّ عليه الشؤون العائلية تتأثّر وتعاودها نوبات الكحّ.

دهمتها قبل ثلاثة أيام نوبة كحّ شديدة حتّى تعثّرت قدرتها على الكلام فنقلها إلى المستشفى. لم يجد الأطباء ما يمكن أن يقدّموه إليها سوى نصحه بأخذها سريعاً إلى مصحّة السواد بالطويف والاستمرار في تناول العلاج. كان الأطباء قد اكتشفوا منذ البداية أنها مصابة بتدرّن الرئة، وفي مرحلة متقدّمة من المرض، ويجب أن تنقل إلى المصحّة. لم يقدر المسؤولية حينذاك. تأخّر في مراجعة الوزارة وإتمام الأوراق اللازمة، ساعده على ذلك تحسّن حالتها في الأشهر الأخيرة. خفّ سعالها وتوقّف الدم النازف مع البلغم. ظنّ أن كلّ شيء صار على ما يرام. فسارت الأمور بشكل عادي حتّى اعتادها مريضة.

عاد ليلة البارحة ثملاً. دخل متسللاً حتّى لا تستقبله وتُجبره على صلاة الفجر. في طريقه إلى الدرج سمعها تسعل بطريقة غريبة. أطلّ عليها في الحجرة فوجدها منبطحة على بطنها غير قادرة على السيطرة على نوبة الكحّ والسعال. قلبها على وجهها

فوجد بقعة من الدم على المخدّة. حاول أن يتواصل معها فبدا أن عقلها مختلط. أصبحت غير قادرة على الاستجابة الواعية. مسح فمها وسقاها قليلاً من الماء ثم رطب وجهها ورقبتها وقرّب منها المروحة. أخذ السعال يخفّ، وعادت أنفاسها إلى الانتظام. خطر بباله أن ينقلها إلى المستشفى ولكنه خاف أن يُقبض عليه متلبّساً بالسكر فأجّل الموضوع إلى صباح الغدّ راجياً أن تتحسّن أكثر ويكون هو قد أفاق من سكره. استلقى على الفراش. أغمض عينيه. حاول أن يرخي جموح خياله حتّى الصباح. تعذّر عليه النوم. هناك شعور معتم يجتاحه. إذا ماتت فسيبقى وحيداً. كان منغمساً في جحيم حياته. لم يتصوّر البتة أن الفراق سمة الحياة. كان يعتقد أن الحياة جزء واحد غير منقطع. كل شيء في الحياة يخلق في هذا البيت ومع هذه المرأة. وما وراء الباب الخارجي عالم متعفّن لا يستحقّ أن يُعاش. تتصارع فيه عفونة رضيع المقبرة مع رائحة جسد نوف مع المهانة التي تلوّث رجولته. البيت هو المكان الوحيد الذي يعطيه الدفء والإحساس الإنساني والأمان. من الصعب تخيّل ما يمكن أن يحدث بعد موتها. سيلتقي أشباح البيت وجهاً لوجه. البيت صغير ومع ذلك لا يعرف فيه سوى حجرتها حيث تنام وغرفته في الدور الأول والمطبخ العاري.

لم يقوَ على النوم. تقلّب كثيراً في فراشه وأخيراً طارت السكرة فنهض وعاد يتفقّدها. ناداها كما يناديها عادة فلم تجب. أدارها على وجهها، وجد عينيها مفتوحتين. هزّها لعلّه يوقظها لكنّها ترامت بين يديه كخرقة خفيفة. تراءت له الحقيقة الملقاة في

حضنه. أسند رأسها إلى صدره وأخذ يخاطبها. يحاول أن يذكّرها بالعهد الذي ضربته على نفسها ألا تتركه أبداً. شاهد خيطاً جافّاً من اللعاب يمتدّ من فمها ويتلاشى على الخدّ. ظنّ أنّه شيء يمكن أن يتعلّق به. قرّب وجهها من أنفه وشمّه. تشي رائحته بأنه من لعاب الليلة البارحة عندما كانت على قيد الحياة. نظر إلى وجهها بتمعّن. انبسطت التجاعيد واستراحت في ارتخائها. تخفّفت من قسوة الحياة التي كانت تعبّئها. أصبح وجهها شيئاً من الأشياء المبعثرة في الحجرة. شعر أنها ليست كما كانت. لم يتخيّل أن الموت يأخذ الناس كلّ هذا البعد. لا يكاد يعرفها. لو عادت الآن لأصيب بالفزع. أمّه التي عرفها خرجت من هذا البيت. زال وجهها القديم. تذكّر المرأة التي كانت هنا ليلة البارحة. تذكّر أحاديثها الطويلة عن العالم وعن والده وعن طفولتها. يكاد يسمع صوتها متشبّثاً بالجدران والأشياء المبعثرة في الحجرة، وتذكّر حكاياتها التي لا تنقطع.

* * *

كانت الفتاة الوحيدة بين ثلاثة ذكور. جاءت هي أوّلاً إلى الدنيا، وبعد ثماني سنوات جاء أخوها محمد ثم أخوها مشعل ثم جاء أخيراً أخوها فهد. كانت أمّها قد أُصيبت بعد ولادتها مباشرة بمرض أعجزها عن الإنجاب فعاشت مع أمّها وسط القلق والفزع. وبعد محاولات مضنية جاء أخوها هديةً ربانية. فانصرف البيت والعالم عنها حتّى هي انصرفت عن نفسها. تحمّلت مع أمّها خدمة إخوتها الذكور. كلّ قريباتها اللواتي في سنّها تزوّجن أمام عينيها

وأنجبن وطلّقن وتزوّجن مرّة أخرى. مضين في جميع طرق الحياة المرسومة للمرأة. انتظرت نصيبها طويلاً. تأمّلت في الليالي وفي الأحلام وأخيراً حمدت ربّها على مصيرها فكفّت عن التفكير في الزواج. عندما جاءت الخطّابة تطلبها لوالده كانت قد فقدت الأمل وجفّ في وجدانها الإحساس بالفرح بعد أن فقدت والديها وبقيت في البيت الكبير وحيدة. أعطت كلمتها للخطّابة دون الرجوع إلى إخوتها. أخبرتهم لاحقاً. كانت على ثقة بأنهم سيفرحون. بالفعل أثّثوا لها بيت العائلة الموقوف سبالة في حلة ابن بخيت وكتبوه لها ولذريّتها من بعدها إذا دعت الحاجة. أحاطوها بعنايتهم وحبّهم. كانوا فرحين بزواجها برغم أن خطيبها لا يوجد فيه ما يمكن أن تفرح به المرأة. مجرّد رجل سيخرجها من تعاطف الناس المهين ويحقّق قبساً من أحلام يقظتها ويمنحها الطفل الذي كثيراً ما حلمت به. لا تجد بعد هذا ما تقوله عن حياتها قبل الزواج. كلّ يوم كان يشبه اليوم الذي قبله، وكلّ سنة لا تختلف عن السنة التي سبقتها. في الواقع عاشت سنة واحدة مكرّرة تسعاً وثلاثين مرّة. كان زواجها الحدث الأعظم الذي نقلها من الفراغ وألقى بها في قلب الدنيا، لكنها دخلت معركة الحياة بعد أن فقدت السلاح الوحيد الذي تملكه المرأة لتدخل به الحياة الزوجية. فقدت جسد الشابّة وروح الأنثى الوثّابة.

كانت تتحدّث عن حياتها في بيت أهلها بهدوء لا يشوبه التوتّر أو الحسرة. لم تكذب كما تفعل العوانس عادة. لم تذكر له أن فلاناً خطبها ورفض والدها، وأن فلاناً الآخر خطبها ورفضت

أمّها. كانت تؤكد أن الرجل الذي تزوّجها هو الرجل الوحيد في حياتها. هو الوحيد الذي خطبها، وهو الوحيد الذي تزوّجته. في الشهر الأوّل من حياتهما معاً كشّر عن أنيابه الذكورية حتّى ظنّت أنه لن يخرج من فراشها أبداً. ما لبث أن تراجعت حماسته. في الشهر الثاني بات ضيفاً يزورها ليلة ويغيب الليلة التي تليها ثم غاب معظم ليالي الشهر الثالث. كادت تصاب بالجنون من شدّة تعلّقها به. قلقت عليه كما تقلق المرأة المُحبّة على زوجها. خشيت أن مكروهاً أصابه. اكتشفت بعد بضعة أيام أنه كان مشغولاً بزوجة جديدة تكبرها بعشر سنوات. في البداية تصرّفت بعفوية. استيقظت فيها حساسيّة الأنثى. غضبت ولعنت وشتمت وقرّرت أن تقاطعه إذا عاد. كانت تظنّ أن حياتها تسير وفقاً لما رسمه القدر للنساء. سيعود عاجلاً أو آجلاً مبرّراً غيابه. سيكذب عليها ويختلق الأعذار. ستسامحه إذا تعهّد ألا يكرّرها. انتظرت. كان الانتظار مؤلماً في الأيام الأولى ثم أصبح مرهقاً ثم أصبح عادة وأخيراً اختفى ليحلّ محلّه اليأس، ويكون هذا اليأس هو الواقع الذي سوف تعيش فيه حتّى فجر هذا اليوم الذي ماتت فيه. خدعتها أحلام اليقظة. صوّرت لها أن الرجل والفراش والحبّ شيء واحد. تبدد هذا في الشهر الثالث من حياتها معه ثم اكتشفت ما هو أسوأ في الأشهر التالية من الهجر. اكتشفت أن المرأة والرجل والفراش والحبّ أشياء متناقضة لا يجمعها سوى الأحلام. فصارت تردّد في كلّ مرّة تتحدّث فيها عن الزواج: الحبّ لا قيمة له. يجب أن تعرف أن الرجال لا يعرفون معنى

الحبّ. كلّ ما يريده الرجل هو فراش تضطجع فيه أيّة امرأة. كانت قد حلمت بالحبّ في بداية حياتها ثم نسيته بعد أن تأخّر كثيراً. ولكن الأحلام الرخيصة أسهمت في إعادة تأجيجه مرّة أخرى عندما سمعت أن رجلاً جاء يخطبها. نصحها كثيرون من أقاربها برفض الزواج من هذا الرجل. كانت تضحك في سرّها. ليلة واحدة مع رجل تكفيها ليقال إنها تزوجت. كان كريماً معها أعطاها ليالي كثيرة من وقته. مضى معها في صورة الزوج أكثر من ثلاثة أشهر ثم انقطع. لم تعد تعرف عنه شيئاً إلى أن جاءت ورقة طلاقها دون كلمة وداع واحدة برغم أنها لم تفعل أيّ شيء يسيء إليه. نزل فحيج إلى الدنيا في غيابه، فأرسلت من يخبره بذلك. جاء مرّة واحدة بعد ثلاثة أسابيع من ولادة الطفل وأخذه بين يديه يتأمّله عند الباب ثم ترك في لفافته خمسين ريالاً ورحل. استمرّت بعد ذلك تطالبه بالنفقة ثم تقدّمت للمحكمة التي حكمت لها. ولكن لم تجد من يجبره على الدفع. عرفت أن عليها أن تتدبّر أمرها وأمر ابنها بنفسها. في البداية غضبت منه وكرهته ثم تذكّرت بعد أن هدأت فورة الغضب، أنه هو الذي أذاقها طعم الرجل وأنسلها طفلاً سيملأ حياتها. بدونه كان يمكن أن تصاب بالجنون. هو صاحب المنّة والفضل على بقائها في سياق الحياة الطبيعية. كانت تتخيّله في بعض الأحيان ملاكاً أنزله الله من السماء لإسعاد النساء سيّئات الحظ من مثيلاتها.

كان فحيج هو المنصت الوحيد إلى هذه الحكايات. كانت تعرف أنه ينصت لها دون حماسة أو جدية. حكايات ملأى

بالإهانات. قالت له أحمد الله أنك لست امرأة. كل امرأة مشروع إهانة. أحياناً يتخّيل نفسه امرأة فيشعر بالاشمئزاز.

* * *

كانت تقصّ عليه القصص بشكل متقطّع، وفي أوقات متفرّقة. لا تهدف من ورائها إخباره أو تعليمه. كانت تتحدّث معه وتتحدّث مع نفسها. كان يشعر أنها تبوح. تخفّف من ثقل التاريخ على قلبها. يأتي صوتها المشبّع بقصص الماضي شاحباً كمطلع المساء. لا يشبه صوتها عندما تناديه أو تلاغيه أو تنصحه. تأمّلها في رقدتها الأخيرة. سيختفي صوتها إلى الأبد. لن يبقى له سوى وجهها الجديد البارد. وضع يده على جبينها. شاهد خلال الحناء الشعرات البيض. أراد أن يبكي دون جدوى. الناس تبكي في مثل هذه المناسبة. لا يهمّ. نظر إلى الساعة. الثالثة فجراً.

* * *

فرش السجادة التي كانت تصلّي عليها وأنام جسدها ثم غطّاها بالجلال الذي كانت تصلّي به ووضع القرآن تحت رأسها. ستسلم إلى خالقها بالأدوات التي كانت تتوسّل بها إليه. خرج من المنزل، وعندما بلغ منزل عمّه وقف متردّداً. لأوّل مرّة منذ زمن بعيد يطرق هذا الباب. سمع صوت عمّه الأجشّ يسأل. كان صوت عمّه خالياً من آثار النوم. من الواضح أن عمّه مستيقظ استعداداً لصلاة الفجر. أحسّ أن عمّه انتبه لملابسه الملطّخة بالدم فارتبك وقال قبل أن يسأله العمّ:

- من فم الوالدة الله يرحمها.

شاهد الريبة في عينَي عمّه. كانت كمّية الدم على ملابسه كبيرة تغطي ثوبه كلّه، ومبعثرة. شعر بالرعب لكنّه تماسك وطأطأ رأسه. من حسن حظّه لم يتحدّثا كثيراً. دارت بينهما كلمات الموت المختصرة. جمعا مشاعرهما في كلمة الله يرحمها. كان عمّه يعرف عن مرض أمّه. كل شيء كان متوقّعاً. من السهل وضع الترتيبات اللازمة. لن يوجد من سيزعجها ببكاء صارخ. عاد إلى البيت وترك الباب موارباً وصعد إلى غرفته ونزع ملابسه الملوّثة بالدم ووضعها في برميل صغير معدّ سلفاً وأحرقها ثم جلس يستعدّ لشيء لا يعرف ما هو. في أقلّ من نصف ساعة بدأ يسمع أصوات نساء في البيت. كما توقّع كانت نوف أول الواصلين. لن تتخلّى عنه في هذا الوقت العصيب. أخيراً شاهدها في منزله. أوّل مرّة تطأ قدماها هذا المنزل. حلم بها كثيراً في ممرّات المنزل وفي المطبخ وفي كل زاوية فيه. كان يحلم بها دون توقّف، حتّى أصبح وجودها في بيته حقيقة. تحرّك يبحث عنها مرّة أخرى بين النساء. أخيراً لمحها تتحرك بجانب العمود الشرقي المحاذي للأوجار منطوية في عباءتها السوداء وهي تقترب من أحد الرفوف وتنحني لتلتقط إبريقاً فضاقت العباءة على جسدها فبدت كمهرة سوداء تصهل بردفيها.

* * *

كان طفلاً في الثانية عشرة من عمره عندما تعرّف على الحقيقة المذهلة لابنة عمّه. شاهد ابن وصّار يقبض على مؤخّرتها بيده وهو يعض على لسانه كأنه يقبض على جمرة. كان عمرها آنذاك

إحدى عشرة سنة. كان يجلس خلف عتبة الباب من الداخل يصلح وطاية سيكله. سمع صوت ابن وصّار وهو يصرخ ويقدّم النصائح. لم يكلف نفسه أن يخرج رأسه إلى الشارع مستعلماً عن الأمر. اعتاد سماع صراخ ابن وصّار في الحارة فاستمرّ في عمله لكنّه سمع صوت نوف تبكي فأخرج رأسه وأطلّ ليرى أصابع الرجل تشقّ مؤخّرة الفتاة الصغيرة وترفعها قليلاً عن الأرض وتدفعها إلى الأمام. وبعد ثوان شاهد باب بيت عمّه يفتح فحرر ابن وصّار مؤخّرة الفتاة بسرعة وهو يردّد:

- الله يهديكم بس، تخلون البنت تطلع في الشارع كذا. ما تعرفون أن هذا عيب يا أم نوف الله يهديك. ترى إذا شفتها مرّة ثانية بها الشلحة في السوق بأدبها تراها مثل بنتي.

ثم سمع زوجة عمّه وهي تشكر ابن وضّار على روح الفضيلة التي تلبسته وتدعو له بالجنة. فهو في حكم والدها، ومن حقّه أن يؤدبها إذا رآها تخرج مرّة أخرى إلى الشارع بهذه الشلحة الفاضحة.

عاش في داخله هذا المشهد في منطقة الظلّ المقلقة. كان يعرف المناطق الحسّاسة في الجسد. سمع ما يكفي من أمّه ومن أطفال الحارة. في إحدى المرّات عندما كان طالباً ذهب إلى الحمّامات في المدرسة، وبينما وقف يريد التبوّل إذ بأحد الطلاب الكبار يقف بجانبه. لاحظ أنه يطلّ على أعضائه التناسلية فقطع تبوّله وهرب فلحق به الطالب الكبير وضمّه وحاول تقبيله، وأثناء التعارك أطلّ الأستاذ عثمان وصرخ فيهما صرخة واحدة فحرّره

الطالب الكبير فاغتنم الفرصة وهرب. لا يعرف ما حدث للطالب. تجربة تمنّى ألا تتكرّر. كانت رائحة فم الطالب كريهة. أخبر أمّه فصارت تصرّ عليه قبل أن يذهب إلى المدرسة أن يمرّ بالحمّام وأن يفرغ كل ما في مثانته. بعدئذ بات يتجنّب التبوّل في الحمّامات العامّة وحتّى في الحياييل أثناء اللعب مع الأطفال. ثم تبيّن حقيقة التزاحم عند نافذة المقصف في المدرسة. تبيّن له أن طلاب الصفّ السادس يحاولون الالتصاق به من الخلف في الزحمة. من حسن حظّه كان فقيراً لا يأخذ مصروفاً يومياً منتظماً فنجا كثيراً من تجربة التزاحم. كان يشاهد في الفسحة الطويلة الطلاّب يحتضن بعضهم بعضاً في الزحمة. تأكد أن كثيراً من الطلاّب الكبار ينتظرون دخوله الزحمة لينقضّوا عليه. كان من أكثر الطلاب لفتاً للنظر. بياضه الشديد وميله إلى السمنة يشكلان جاذبية جنسية لقلّتها في الرويض. كما أن وجهه المستدير يشي بالصحّة والطلعة الأنثوية. ضخامة جسده إجمالاً تشي بأصوله التركية. يقال إن أجداده جاؤوا مع الحملات العسكرية التركية واستقروا في المنطقة. تمثل عائلته نطاقاً من العائلات المتعدّدة الأعراق والتي استقرّت في فترات مختلفة. بعضهم رمت به الأقدار وبعضهم جاء عبر الرقّ وتناسل في المنطقة وكوّن طبقة ثانية من مجتمع الرويض. يتذكّر أن أمّه كانت تحذّره كلّ صباح من الاختلاء بالكبار في الحمّامات أو الفصول الخالية أو التزاحم في المقصف. فتعلّم كلّ ما يتعلّمه الأطفال في عمره من أمّه. يسمعها تتذمّر من غياب الرجل في حياتهما، فلولا جارها أبو عبد المحسن جزاه الله خيراً لضاع الولد

كما تردّد. مثّل أبو عبد المحسن أباً بديلاً. يذهب إلى المدرسة عندما تطلب المدرسة حضور ولي الأمر. ويتفاوض مع الآباء الآخرين عندما يشتبك مع أبنائهم. يأخذه إلى المستشفى عند الاقتضاء، ويبحث عنه إذا تأخّر في الليل. حتّى بذل كثير من الناس عقولهم وأخيلتهم لتخمين السبب الذي يدفع أبو عبد المحسن لتقديم مثل هذه الخدمات المجانية لامرأة عزباء. ولكن لا أحد أثبت أي شيء مما يثير الخيال في علاقة أبو عبد المحسن وأم ناصر. الناس لا يريدون أن تمرّ علاقة بين امرأة ورجل دون أن تكون مجالاً للتكهّنات. لم يحاول أحد أن يربط أيضاً بين سعي أبو عبد المحسن الحثيث لمساعدة شنغافة وكفالاته المتعددة له في السجون والمخافر وهو رجل لا مطمع فيه، وبين مساعدته لأم ناصر. آخر التكهّنات أن أبو عبد المحسن يريد الزواج بأم ناصر برغم أنهما من فئتين عنصريتين مختلفتين. لا يمكن أن تسمح عائلة أبو عبد المحسن بمثل هذا الزواج. لم يكن أبو عبد المحسن الرجل الوحيد الذي تعتمد عليه أم ناصر في قضاء حاجاتها، فقد كانت تستعين بشقيق زوجها والد نوف. كان رجلاً طيباً يقدّم المساعدات الكريمة ولكنه كان حسّاساً تجاه سمعة بناته. كان يتجنّب مساعدتها في الظاهر. يحاول قدر الإمكان فصل بيته عن بيت أخيه المزواج الذي ملأ الأرض أطفالاً متشرّدين تائهين. عدا هذين الرجلين لا تجد أم ناصر من تلجأ إليه سوى نفسها، فإخوتها بعيدون عنها. لا تجدهم في المهمّات السريعة الحاسمة. ركّزت أم ناصر في بداية حياة ناصر على تعليمه علوماً لا يمكن أن يتلقّاها

الطفل إلاّ من رجال. كانت توضح له دائماً أن هناك أموراً لا يمكن تجاهلها لمن هو في مثل سنّه. فتعرّف في وقت مبكر على مناطق في الجسد محرّمة على الآخرين لم يكن يفهم في البدء ما الذي تقصده أمّه.

* * *

لم يعرف دوافع ابن وصّار عندما قبض على مؤخّرة نوف، أو نصائح أمّه المتكرّرة، أو ما الذي يريده منه طالب سنة سادسة في الحمّام. لم يعرف كلّ هذا إلاّ بعد ثلاث سنوات عندما التقى نوف في سطح منزل أهلها. كانت قد بلغت الرابعة عشرة وبلغ هو الخامسة عشرة فأصبحا جاهزين للشيء الذي ملّ سماع النصائح في شأنه. بدأ جسده يظهر رغبات لم تكن معروفة من قبل.

ذات مساء، أرسلته أمّه إلى بيت عمّه لاستعارة طاحونة القهوة. دخل بطن البيت. لم يجد أحداً. صرخ: يا أهل البيت دون جدوى، فخمّن أن الجميع في السطح يفرشون المراقد فصعد لا يلوي على شيء. شاهد نوف تقف وحدها مولية ظهرها للدرج. تستند إلى أحد الحيطان المتّجهة التي تغيب منها الشمس وقد وضعت مخدّة ترتكز عليها بمرفقيها. اهتزّت روحه، فتباطأ في سيره حتّى لا يصل إليها ويخل بالعرض الجمالي الذي تقوم به. كانت الفتاة تقف على أصابع قدميها لتوازن جسدها على الجدار الذي تتعلّق به وتحرّك كفليها البارزين مع صوتها الذي يصدح بهدوء متناغماً مع أشعّة الشمس الغاربة. كانت تترنم بأغنية الموسم:

(كم تذكّرته سويعات الأصيل

وصدى الهمسات ما بين النخيل)

تسمّر في مكانه وترك جسده الشاب يتفجّر على روعة المشهد وهو يرى جسدها يتمايل مع نغمات صوتها. بقي قليلاً يتأمّل مؤخّرتها الجميلة. لم يقوَ على الانتظار فضمّ صوته إلى صوتها ورفعه بالتدريج:

(أنت في حبّك وأنا في حبيّ

وأرى الذكرى دواء للعليل)

لم تلتفت بل رفعت صوتها أكثر وغنّت معه واستمرّ جسدها يتمايل كأنّها كانت تنتظر انضمامه إلى حفلتها فتداخل صوتاهما:

(فاتق الله بحبي يا حبيب)

ثم رفعا صوتيهما أكثر ليشقّا سكون الشمس الواهنة:

(أنا ألقاك صباحاً ومساء

في خيالي أنت يا أحلى رجاء

أنت لي حلم ونور ورجاء

فمتى يقضي بلقياك القضاء..)

وبعد أن أتمّت غناء المقطع وترنّمت بموسيقاه أوقفت الأغنية وتنهّدت من كلّ قلبها ثم التفتت وألقت عليه نظرة بعينين مشحونتين بابتسامة ومشروع ضحكة وسرور. ثم أعادت وجهها ناحية الأفق مرّة أخرى واستأنفت غناءها وتحريك ردفيها في رسالة مكشوفة لا تحتمل التأويل:

(أنت في حبّك وأنا في حبّي

وأرى الذكرى دواء للعليل.

فاتقِ الله. . .).

لقد أعد القدر كلّ شيء لتبدأ مسيرته الطويلة والمعقّدة مع هذا العالم. اقترب منها حتّى التلاصق. أحسّ بأنفاسها المتلاحقة وخدّها المتورّد. فدنا أكثر حتّى أصبحت في حضنه، فاستدارت ناحيته ووضعت يدها على كتفه في إعلان صريح بالإذعان الأنثوي. عليه أن يطفئ لهيب الأشواق الشابّة. تذكّر ما حدث من ابن وصّار قبل أربع سنوات فانطلقت يده إلى مؤخّرتها وقبضت على أحد كفليها بجُمْع أصابعه، تاركاً الإبهام يضغط على الورك ثم طوى يده الأخرى حول خصرها وشدّها بكل ما يستطيع إلى صدره حتّى اختلط وجيب القلبين، فطوّقت بيديها عنقه وأدخلت جسدها في جسده فانتصب في داخله كل شيء. مدّ يده اليمنى وراح يمسح كفلها الآخر صعوداً ونزولاً فتحسّس بروزه ونعومته وتماسكه وأخيراً غرس إصبعه. لم يكن حينذاك يعرف أنه يغرس إصبعه في مركز الكون الرجالي. قرّب فمه من عنقها وتحسّس بأسنانه جيدها في مشروع عضّات خفيفة. فدخل أنفه في طيّات شعرها فشم رائحة عرق الصيف المشبع بالأنوثة المتوهّجة. ودون تردّد سحب كفلها الأيمن وأخذه إلى أبعد مكان يمكن أن ينفصل فيه عن شقيقه، احتذاء بالدرس الذي قدّمه له ابن وصّار في ذلك الضحى المشرق. أدارها ناحية المراقد المكوّمة وأخذ يدفعها إلى الخلف بعد أن وضع فمه على فمها وراح يبتلع الرحيق المتدفّق

منه. ترامت الفتاة إلى الوراء متراخية بفتنة الجسد وأخيراً تعثّرت وتعثّر معها على كومة المراقد فوجد نفسه فوقها. بعد دقائق قليلة ضجّت بالتأوهّات وصرخات الرغبة وفوضى الأيادي المتجوّلة على تضاريس الجسدين، فاضطر أن يحرّر فمه من فمها ليصرخ معبّراً عن نهاية الجولة الأولى من حبّ أزّم حياته كلّها.

* * *

بعد حادثة السطح تغيّرت عليه نوف نهائياً. لم تسمح له بأن يلمسها أو يقترب منها. صارت تتهرّب من وجوده. اختلق أعذاراً لا حصر لها ليصعد إلى سطح بيت أهلها لكنها لم تستجب لنداءات الحبّ التي يطلقها. ساورته الظنون المختلفة. لقد استسلمت له ذلك اليوم استسلام العاشق الولهان. لا يمكن أن ترفضه بهذه السهولة. هام في أحلام حبّها حتّى جاء اليوم الذي صادفها في الشارع. كانت تسير وحدها. اقترب منها وسار إلى جانبها ثم همس في أذنها بصوت ملؤه الحبّ والحنان:

- نوف ليش تتنحشين عني.

فقالت له بحزم:

- عيب عليك أنت ولد عمي يا لله فارق لا يشوفونك الناس.

أوقعته الصدمة في حيرة فتسمّر في مكانه وراح يتابعها وهي تبتعد مطمئنة كأنّه غير موجود خلفها، بل كأنّه غير موجود أصلاً في هذه الحياة. تحرّك أخيراً وبعد تردّد انعطف مع أول شارع لكي لا يقتفي أثرها. لم يتخيّل مدى الحب الذي يكنّه لها حتّى شعر

بالعار لأنه لم يلحق بها ليقبّل قدميها باكياً. لم يرد من نوف في ذلك اليوم سوى أن يكون معبودها. تحرّك وهو يرفض نهاية حبّه الذي نبت فجأة وانهار فجأة. شعر أنها ملاك حطّ بجناحيه الأبيضين على روحه وشهوة شيطانية مزّقت جسده. قوّة عاتية سكنت بين الشهوة والحب. تمنّى منها كلّ شيء. على استعداد أن يتمرّغ حتّى في مخلّفاتها الجسدية. سار بغير هدى. اقترب أخيراً من مسجد ابن فيصل. في تلك اللحظة المرتبكة سمع الإمام يكبّر فدخل المسجد دون أن يتوضأ. لجأ إلى الله في أوّل محاولة لإنقاذ حبّه. كبّر وأذعن لخشوع الصلاة وقبل أن يتذكّر ما يقال في هذه اللحظة، اكتشف أن جاره الذي يقف جنبه كان ابن وصّار غريمه الأوّل. انتفض وكاد يقطع الصلاة. اجتاحته ذكريات مؤخّرة نوف. ترك الصلاة وتابع حركات ابن وصّار. شاهد يد ابن وصّار بعد أن قرفص أرضاً واضعاً قبضته على فخذه ثم أخذ يرفع أصابعه واحدة تلو الأخرى للتشهد. تذكر أن هذه الأصابع المبتهلة لله قد انغرست في مؤخّرة حبيبته في زمن البراءة. حاول أن يخمّن أيّ واحدة من هذه الأصابع انغرست داخل الجسد. أقرب الظن أنها الإصبع الوسطى. فهذه الإصبع يستخدمها الرجال بديلاً من العضو الذكري عند الاعتداء على النساء أو صغار السنّ في الأماكن العامة وفي المواقف المستعجلة ولدى توجيه الإهانات. في تلك الأثناء سلّم الإمام معلناً نهاية الصلاة. سلّم معهم. التفت إليه ابن وصّار وقال بخشوع:

- ناصر تراك متأخّر ركعة.

لم يجب. نهض من مكانه وهو يدقّق في الأصابع التي توقّفت عن التشهّد وانطوت على الركبة. إحداها انغرست في مؤخّرة نوف ولا بدّ أن تقطع. خرج من المسجد لا يعرف إلى أين سيذهب.

* * *

عاش ثلاث سنوات يطارد معبودته. صار ينتظرها في صباحات المدرسة. يتنقّل وراءها من بعيد كحارس. يشاهدها تسير مع أختها ابتسام وبعض طالبات المدرسة الثانية عشرة الابتدائية. كنّ يرفعن عباءاتهن إلى أن تنطوي على الأكتاف فتبرز أجسادهن في المريول المدرسي الأزرق. يشاهد أحياناً ثلاثة أولاد من طلاّب المتوسّطة الأولى يسيرون خلفهن. كان يعرف أن نوف أهم الأهداف. كانت الأبرز بضخامة جسمها وطولها وبياضها وشهرتها. يشعر بحضورها بين الفتيات. تنتصب وسطهن. تحرّك الأحداث بجاذبيتها. كان يخشى نوير الصغيرة الضئيلة بنت فهدة أن تفسدها. تعدّ نوير أشهر بنت تغازل الأولاد في الحارة. خفيفة الدم وجريئة ومثابرة. تستقبل كلمات الشباب المرمية بسرعة وتترجمها إلى عمل. في بعض الأحيان تخرج ساقها البيضاء الضئيلة فتتضاحك الفتيات في إشارة لصنع موقف مشترك مع الأولاد فيضحك الأولاد بدورهم ويرمون برسائلهم أو بكلمات الحبّ أو بالتعليقات الجنسية أو بالنكات.

كانت سكيك حلة ابن بخيت تعجّ يومياً بالمجموعات الشابّة من الجنسين. كان الصباح موعد الانفراد والمبادرات الجريئة

وتبادل الرسائل والوقوف في الزوايا والقُبل الخاطفة واللوذ بالمساجد المفتوحة إذا تفاقم الحبّ. أما ما بعد الظهر أثناء خروج الطلبة والطالبات من المدارس بشكل جماعي، فكان مكرّساً للمطاردات الشلّلية المرحة والتعليقات. كلّ مجموعة من البنات خليط من الأعمار.

كانت مدارس البنات في بدايتها. باب القبول مفتوح دون تدقيق في الأعمار. تجد طالبات في السادسة من العمر وطالبات في مرحلة المراهقة في الفصل نفسه. كان أهالي الرويض قد تدافعوا على مدارس البنات في شهوة للتعلّم غير مسبوقة. كانت الحكومة قد فرضت تعليم البنات على رجال الدين الذين حرّموا تعليم المرأة جملة وتفصيلاً، وحذّروا الأهالي من الشرّ المستطير الذي ينتظرهم إذا هم علّموا بناتهم وحذّروا من ثورة اجتماعية في تهديد مبطّن للحكومة. ولكن الحكومة كانت قد اتّخذت القرار دون الرجوع إليهم. فتحت المدارس وقمعت القليل من رجال الدين الذين فهموا اللعبة السياسية بشكل خاطئ. فتهافت الناس على تسجيل بناتهم في المدارس التي فتحتها الحكومة متجاهلين تحذيرات رجال الدين الأخلاقية والويل والثبور اللذين ينتظرانهم يوم القيامة، حتّى صارت الحافلات المدرسية الصفر تحمل فوق طاقتها ولم تستطع المباني التي استأجرتها الحكومة أن تستوعب الأعداد المندفعة. أخذت سكيك الرويض تضيء بالصغيرات المندفعات للانخراط في حزب الوعي الإنساني. لأوّل مرّة في تاريخ الرويض تُشاهد البنات يتحرّكن في الشوارع مجموعات وأفراداً. كانت العادات المرعية

تقتضي حبس البنت بعد البلوغ لتختفي عن العيون إلى أن يعلن زواجها. تقوّضت كثير من العادات والتحريمات الدينية بقرار صغير من الحكومة، ولكن من باب الحفاظ على المصالح المتبادلة بين الحكومة ورجال الدين، اتّفق الطرفان لحفظ ماء الوجه وحتى لا تسقط هيبة رجال الدين التي قد تأتي الحاجة السياسية لها، على أن يستلم قيادة تعليم البنات رجل ملتحٍ. وسلم بعد ذلك حراسة البنات لبوّابين ملتحين زيادة في حفظ ماء الوجه.

عندما صدّته نوف كانت في السنة الرابعة الابتدائية في حين أنها بلغت الخامسة عشرة من العمر. التحقت بالمدرسة بعد زوال مرحلة التردّد التي غرسها رجال الدين في نفوس الناس، ولكن بعد أن فهم الناس مصالحهم وعرف رجال الدين عزم الحكومة، زال التردّد ليحلّ محلّه الاندفاع. لم تكن طالبة جيّدة. ككثير من البنات اللواتي في سنّها اتّخذت الخروج إلى المدرسة لهواً وتسلية وقد ساعدها جمالها على ذلك. عندما تجلس للمذاكرة وحلّ الواجب المدرسي كانت تسرح في الألقاب التي أسبغها عليها الشباب المندفعون خلفها. مهرة، فرس، الفرخ، المقبر، الزطو، أم الطعوس، الغرنوق. حاول فحيج أن يشعرها بوجوده في الزوايا والمنعطفات. كانت تلاحظ ذلك فتتعابث وبعض الأولاد بغية إغاظته. سعى إلى إثارة غيرتها مع فتيات كثيرات بمساندة كبيرة من وسامته. كان يتعمّد أن ينتحي بواحدة في زاوية من زوايا الطريق الذي تمرّ فيه نوف، لكنها لم تعره أي انتباه في الوقت الذي كان فتيات كثيرات يتعلّقن به بسرعة فيفسدن خطّته.

طرأت على حياته تجربة حبّ واحدة كادت تنقذه من شغفه بنوف، لكنّها في النهاية أدّت إلى العكس. عندما اشترى والد سعندي أول جهاز تلفزيون في الحارة، وضعه في البداية في الروشن. ولكن مع تكاثر زيارات الجيران للمشاركة في مشاهدة التلفزيون اضطر إلى أن ينقله إلى المصباح الذي يغطّي مدخل الروشن من جهة البيت. وضعه أمام باب الروشن حتّى يمكن مشاهدته من الداخل والخارج. فصارت النساء يجلسن في داخل الروشن والرجال في المصابيح الخارجية، لكن هذا لم يمنع من بعض الاحتكاكات السريعة بين الجنسين. تبيّن بعد فترة أن حصّة بنت جبيل تقف في مدخل البيت تتصيّد دخوله وخروجه. كانت تعرف أن الجميع مشغولون بالتلفزيون في الدور الثاني. تستغلّ الباب المفتوح وتدخل وتنتظر في المدخل حتّى يأتي. في أحد الأيام سلّمت إليه رسالة غرام. عبّرت فيها عن حبّها وشوقها للقائه. شغلته حصّة أسابيع عدّة. صار يوازن وقت مجيئه لبيت أهل سعندي مع مجيئها. يبادلها التحيّة ومسك الأيادي. الوقت ضيّق والمكان حسّاس. فاتّفقا أخيراً أن يلتقيا في الصباح. كان ذلك خطأً إستراتيجياً اقترفته حصّة. سمحت بنقل حبّها إلى الوقت الذي تبسط نوف سيطرتها عليه. صارت تخرج من البيت مبكرة لتجده ينتظرها عند زاوية ركية السيل. أفضل مكان يمكن أن يلتقي فيه العشاق المبتدئون. زاوية مهجورة لا يمرّ بها أحد في مثل هذا الوقت. تنتهي من جهة الشرق ببيت معدية وبيت أبو دحيم. بيتان مأمونا الجانب، ومن الغرب تنتهي بزاوية تنفتح على ساحة تتوسّط

مجموعة من البيوت تتّجه في كل خدماتها إلى الجهة الأخرى من حلّة ابن بخيت. يلتقيان ثم يسيران معاً حتّى سكّة الوسيم فيقفان وتكشف له وجهها وتبتسم ثم تغطي وجهها مرّة أخرى وتتركه وتتحرّك بسرعة نحو المدرسة. كانت حصّة في الرابعة عشرة من عمرها حنطيّة اللون. تشبه ممثّلات الصف الثاني في السينما المصرية. يفكّر فيها عندما يشعر بالإخفاق. يحلم بها في أوقات الضيق والتطلّعات الميؤوس منها. كانت الفتاة على صلة بكثير من البنات وصديقة لمها أخت نوف الصغرى. تدرس معها في الصفّ نفسه. عرف ذلك لاحقاً فتمسك بها. ارتكبت الخطأ القاتل وتحدّثت عن نوف وعن أختيها ابتسام ومها. فتحوّلت من حبيبة إلى مصدر أخبار. بات يتمسّك بها أكثر فأكثر. راح يطاردها في كلّ مكان. ظنّت الفتاة أنها أشعلت لواعج الحبّ في قلبه. صارت تسلّم إليه كلّ يوم رسالة جديدة تعبّر فيها عن حبّها وهيامها به وتقصّ حكاياتها معه على زميلاتها في المدرسة حتّى أصبح نجم مدرسة البنات الثانية عشرة الابتدائية. صعبت عليه كتابة رسائل العشق في البداية إلى أن وقع على كتاب يحتوي على جميع مواقف الحبّ المعتمدة وأخذ ينسخها ثم يضيف إليها بعض الأشواق الساخنة التي يحسّ بها تجاه نوف، ثم يطرح عليها بعض الأسئلة عن زميلاتها. يحرّضها على الحديث عن زميلاتها وصديقاتها وتجارب البنات الأخريات حتّى تأتي على سيرة نوف وأختيها. وبعد فترة أصبحت حصّة مصدراً مهمّاً لآخر أخبار نوف. عرف كثيراً من المعلومات التي أسعدته.

اكتشف أن نوف لا تهتمّ بشباب المتوسّطة. عرف أنها تعلّقت فترة محدودة بمراقب مدرسة سبيكة الابتدائية. رجل في الثلاثين من عمره. وسيم وأنيق وضخم. لكنه كان أقرب إلى المراهقين في تصرّفاته. يستغلّ منصبه في المدرسة فيتعرّف من خلال صغار السنّ على أمّهاتهم وأخواتهم. يجول في الصباح في السكك. يطارد الفتيات. أشارت حصّة في إحدى رسائلها أن المراقب وقع في حبّ نوف. أحبّها حبّاً جنونياً. وقد بادلته نوف حبّاً بحبّ. استقبلت هداياه وعطوراته وقدّمت إليه بعض الهدايا. وفي أكثر من مناسبة، عبّرت عن رغبتها في الزواج منه، لكن سرعان ما فتر اهتمامها به. ذات صباح جاء جذلاً في منتهى أناقته. وقف عند زاوية المسجد التي تمرّ نوف بجانبها وعندما اقتربت منه تقدّم ناحيتها حاملاً في يده حزمة ملفوفة لا يعلم إلاّ الله محتواها. قدّمها إليها وهو مرتبك كعادته كل مرّة. ولكن بدلاً من أن تتناولها وتكشف وجهها الجميل تعبيراً عن الشكر صدّته بطريقة وقحة حتّى إن الرجل تجمّد في مكانه. لا يبدو أنه سمع ضحكات البنات التي انفجرت فجأة. ثم سمعها تقول:

- أنت شايب كبر أبوي ما تستحي تلاحق البنات.

اختفى الرجل بعد هذه الحادثة بضعة أيام ثم عاد بعد أن اندمل الجرح، وكأن شيئاً لم يكن، ولكن نوف لم توله أيّ اهتمام. تسير أمامه كأنّه غير موجود، وأخيراً عرف أن القطيعة نهائية فاختفى من السكيك التي تمرّ بها. أدفأ هذا السلوك مهجة فحيج. كان بصدد إعداد الخطّة لتأديب المراقب الغاشم تحدوه

غيرتان: غيرته على بنت عمّه وغيرته على حبيبة قلبه. فصرف النظر بعد أن علم أن حبيبته قد طردت المراقب فثابر على متابعتها أكثر فأكثر وتقصّى أخبارها. أخذ يوسع من مصادر المعلومات بتوسيع علاقته بالبنات القريبات من نوف. كان يجمع أكبر كمية من الأخبار المتعلّقة بها ويقارن بعضها ببعض ثم بما تجود به أمّه من معلومات وأخبار. اكتشف أن نوف برغم صغر سنّها مهووسة بكبار السنّ وقد تخلّصت من المراقب لأنّها اكتشفت أنه سفيه أقرب إلى المراهقين منه إلى البالغين من عمره. نهتها أمّها مرّات عدّة عن التجوّل في السطح بعد العصر. شاهدتها مرّة وهي تستعرض جسدها قبالة ابن شويب ومرّة أخرى أمام صبيه شنغافة فمنعتها من الصعود إلى السطح بمفردها. تكاد هذه الأخبار تصيبه بالجنون. بدأ يعرف السبب الذي تركته من أجله. صار يحقد على ابن شويب. أحسّ أنه غريمه وحتّى عندما قتله بعد سنوات لم يشعر إزاءه بأيّة رحمة أو تعاطف. عندما عرف أنها تستعرض نفسها أمام ابن شويب صار يركز مراقبته على كبار السنّ أكثر فأكثر. تكوّنت لديه كمّية كبيرة من المعلومات. من خلال هذه المعلومات تأكد له أنّها لا تميل إلى من هم في مثل سنّها. تجربتها مع إبراهيم كانت كافية لإقناعه بذلك. كان إبراهيم شاباً صغيراً وسيماً خلقه الله ليكون معشوق المراهقات بامتياز. كان أوّل من ركب سيارة فيات، حُلم الشباب، وقد نافست فجأة المرسيدس والبي أم دبليو. كان إبراهيم شاباً جسوراً تبلغ جرأته حدّ الوقاحة. كان يأتي في الظهيرة معلناً حضوره بتعليق البوري

بين زرافات البنات فيتناثرن على الجنبين بفزع مقصود وشتائم تتبعها على الفور ابتسامات وتنهّدات فيهدّئ من حركة السيارة حدّ التوقّف ويرفع صوت المسجّل في السيارة فتصغي الفتيات الصغيرات إلى الترجمة الفورية لتنهّداتهن:

(في سكة التايهين كنا سوى الاثنين.

باللفتة والبسمة خلانا في حيرة).

وعندما يجمع ما تيسّر من إشارات وتلويحات وسقوط مقصود للغطوات ينطلق مع انطلاقة الباص المشحون بالبنات يطاردهن من شارع إلى آخر. كانت حصّة هي الوحيدة التي لم يستطع إبراهيم هزّ قناعتها. كان قلبها قد تحجّر عند فحيج لكنّها لم تخف إعجابها بسيّارة إبراهيم وبطلعته البهيّة. كانت تحدّثه عن سطوة السيّارة الأنيقة على البنات وأخيراً أخبرته أن إبراهيم وقع في حبّ نوف. أوصى عليها إحدى قريباته وبعث لها بمجموعة قوارير عطور أبرزها عطر مدام روشيه. استحوذت المفاجأة على نوف التي تقبّلت الهديّة وعبّرت عن شكرها ثم تلقّت رسالة مطوّلة كتبت بخط يد محترفة. في كل مرّة يأتي اسمها في الرسالة كانت تجده مكتوباً بالخطّ الأحمر. كانت الرسالة على ورق لا يمكن أن تجده في مكتبات قيصيرية آل وشيقر. ورق ثقيل ملوّن رُسمت على أركانه زهور وورد وعصافير. رسالة لو تسلّمتها فتاة أخرى لأصيبت بالعته من الفرح. روت حصّة لفحيج أن نوف لم تردّ على رسالته ولم تبادله الهدايا وصارت تتهرّب من حضوره وحضور سيّارته حتّى فقد الشاب الأمل وترك المغازل في حلة ابن بخيت

وتجنّب شارع العطايف كلّه، وانتقل بسيّارته إلى ميادين أخرى. بعد اختفاء إبراهيم ببضعة أشهر اختفت نوف من صباحات المدرسة ومساءاتها. أُجبرت على ترك المدرسة بعد أن أصبحت امرأة في انتظار العريس.

المدرسة محطّة لا تستحقّ أن تتوقّف فيها الفتيات كثيراً. مرحلة من العمر تختزن ذكريات الانجذابات العاطفية. اختفت حتّى من الشوارع والسكيك التي كانت تظهر فيها مع أمّها. صارت أمّها تسير وحدها أو بصحبة إحدى أختيها. فانقطعت أخبارها عنه. وسّع علاقاته مع البنات. صار يغازل كلّ فتاة تريد أن تغازله لكي يحصل على أخبار، ولكن دون فائدة حتّى فاجأته أمّه بخبر خطبة نوف على ابن يوسف.

* * *

كان والد نوف قد تعرّف على تاجر كبير جاء من الحجاز. أخبره في الحجّ الأخير أن لديه عوداً جديداً لم يعرفه الناس من قبل. ذاع صيته بسبب غلاء ثمنه وندرته وجودته. في زيارته الأولى إلى الرويض زار بيت والدها. جلب معه حزمة صغيرة من العود قال إنّها من كمبوديا. قدّم جزءاً منها هدية وطلب أن يحرق الجزء القليل المتبقي في المسجد وطلب من والدها أن يدعو أكبر عدد من أعيان حلة ابن بخيت لصلاة العشاء. حضر ابن شويب وابن وصّار ورئيس النوّاب الشيخ سالم وابن يوسف الأب وعدد وافر من سكان الحارة. عرف الجميع أن تاجر الحجاز سيحرق كمّية من العود الكمبودي في المسجد. كان الوقت شتاء فتقرّر أن تكون

الصلاة في خلوة المسجد. قبل قيام الصلاة دخل طفلان الخلوة وفي أيديهما مدخنتان تعتليهما كمية كبيرة من الجمر الملتهب. وضعا واحدة أمام كبار السنّ عند حائط الإسناد (الروضة) والثانية في الجهة الأخرى عند مدخل الخلوة، ففكّ التاجر الحجازي لفافة استلّها من جيبه وأخرج منها أخشاباً صغيرة ووضع جزءاً منها في المدخنة التي تقع أمام كبار السنّ ثم وضع المتبقّي في المدخنة الثانية. وبعد ثوان بدأت الأنوف تشمّ رائحة لم يسبق أن شمّها أحد في حلة ابن بخيت من قبل. لم تكن تلك الساعة مكرّسة للبيع أو الشراء وإنّما هي تكريم للمسجد كما أشار التاجر، وقد أوضح أيضاً أن هذا العود يُعدّ أفضل عود في بلاد المسلمين. يأتينا من بلاد بعيدة اسمها كمبوديا حيث تعيش قلّة قليلة من المسلمين. وقد قدر الله ألاّ ينبت هذا العود إلاّ على الأراضي التي يفلحها المسلمون. ثم أسهب في الحديث عن بركات أهل كمبوديا ذاكراً أن الله أعطاهم على قدر نيّاتهم. حاول الشيوعيون صرفهم عن دينهم بشتّى المغريات، وعندما بدأ بعض شبابهم يخدعون بالدعاوى الشيوعية عاد أحدهم وهو كمبودي مسلم مهاجر، عاد من الهند ومعه شتلة من نبات غريب غرسها في أرض أحد أقاربه، وبعد ثلاث سنوات أخذ قطعة من عروقها وأحرقها أمامهم سرّاً. كادوا يصابون بالجنون. كانت رائحة من روائح الجنّة. لأوّل مرّة يشمّ مسلمو كمبوديا مثل هذه الرائحة الطيّبة الزكيّة. ثم راح تاجر الحجاز يخبرهم عن كمبوديا، أين تقع وعدد المسلمين فيها. وقال أخيراً إن هذا العود جاءنا مع الحجاج الكمبوديين القليلين. كلّه

خير وبركه. أنبته الله في أرضهم لكي لا يصدّهم الشيطان الشيوعي عن دين الله. ومن معجزاته أن كثيرين من أهل كمبوديا الكفّار حاولوا زرعه في أراضيهم دون جدوى. فانبرى رئيس النوّاب الشيخ سالم متأثّراً بمحنة إخوانه المسلمين في كمبوديا، وبأمل بيعة على عيال الشيوخ بأسعار عالية، وطلب من والد نوف أن يؤمن له عشر أوقيات معلناً أن رمضان على الأبواب حيث ستكون هديته إلى كلّ مساجد الرويض. سيوزعها مجّاناً لوجه الله. شعر ابن يوسف الأب بالغبن. لا يمكن أن تنطلي عليه ادعاءات الشيخ سالم. ليس من حقّ الشيخ سالم أن يكون أوّل من يدخل العود الكمبودي على عيال الشيوخ.

ابن يوسف من كبار التجّار يورد السيوف والخناجر والبشوت وغيرها من المستلزمات التي يحتاج إليها الشيوخ والأعيان. ووالد نوف دلاّل صغير يملك دكاناً في قيصيرية ابن زومان. ترك ابن يوسف الشيخ سالم يتم صفقته المزعومة مع الحجازي. وفي صباح اليوم التالي، ذهب إليه في الفندق وطلب منه ما توافر لديه من العود، وبعد مفاوضات وافق الحجازي على بيع الكمية كلّها التي في حوزته. أنهى الحجازي صفقته مع ابن يوسف الأب وسافر لا يلوي على شيء. عاد ابن يوسف الأب بالصفقة كلّها ولم يبق عليه الآن سوى أن يسوّي الأمر مع والد نوف، فليس من العدل أن يخرج والد نوف من الصفقة نهائياً، فقرر أن يجعله موزّعاً داخلياً. يضع عنده كمية أكبر من تلك الكمية التي كان يمكن أن يشتريها من التاجر الحجازي مباشرة، ومن باب تأكيد

حسن النيّة قرر أن يخطب نوف لابنه محيسن. كانت صفقة فريدة من نوعها. سرّت لها والدة نوف وأخواتها. لم تعترض نوف كثيراً. شعرت بكثير من خيبة الأمل لكنها فرصة لتتزوج من شاب ميسور يُعدّ والده من كبار التجّار.

* * *

كان حفل زواجها حفلاً تاريخياً. اثنان فقط لم يحضراه ابن عمّها فحيج والشيخ سالم. كان يوم العود الكمبودي المشهود. أقيم الحفل في أحد قصور ابن سويبع الضخمة. فرشت الساحة الكبيرة بزوالي ضخمة وأوقدت ثلاثة مشاب نيران يحيط بها عدد لا يحصى من الدلال الذهبيّة الملتهبة. أقيمت في أول الليل عرضة بقيادة فرقة ابن صويلح وبعد ساعتين غادر كبار المدعوّين فاستبدلت الحفلة بحفلة سامري غير مسبوقة. أغوت الطبول النساء فتركن الطقاقات في بطن البيت وصعدن إلى السطح للتفرج على الرجال. رقص الشبان على إيقاع الطبول والطيران. أخذت النشوة الشباب كلّ مأخذ. دخل المزيورين حلقة الرقص. قفز بعضهم فوق النيران المتأججة. وفي أوج الحفلة فوجئ المحتفلون بالنوّاب ينقضون عليهم وينتزعون طيرانهم ويلقون بها في النار ثم قبضوا على عدد من الشبّان بحجّة تحضير الجنّ. شاهد كثير من الناس الشيخ سالم يجلس بعيداً في سيارته يراقب نجاح رجاله في تطبيق شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على هؤلاء العصاة المارقين من الدين كما يمرق السهم. لم يتمكن الشيخ سالم من إفساد العرس تماماً. عندما انقضّ رجاله كان أذان الفجر على

وشك الرفع. استنكر الناس تصرّف الشيخ سالم ولكن لا أحد يقوى على الاحتجاج.

* * *

في الوقت الذي كان الناس فيه مشغولين بغزوة الشيخ سالم الربانيّة، كانت نوف متكوّمة في ركن غرفة صغيرة تترقّب ما يمكن أن يحدث. كانت أمّها قد ربطت سروالها بإحكام على بطنها وجعلت العقدة في الخلف. تريد أن تمنح ابن يوسف حقّ القوّة. إذا انتزعها الآن فستذعن له بقية حياتها. ولكنها عندما التقته وجهاً لوجه شعرت أنه لن يغتصبها أبداً. كان خجلاً يتصبب وجهه عرقاً ويتلعثم في الكلام. كانت الربعية قد تركتهما ليتمّا أمور الزوجية. مثّلت دور العروس الخجولة المنطوية. لم تتحدّث ولم تردّ عليه السلام. لاحظت أنه يتباطأ في الصلاة. لا يبدو على الرجل أنه مشتاق بل كان خائفاً متردّداً. شعرت أن القيادة أصبحت في يدها. إذا لم تشجّعه فلن يقترب منها. تركته ينجز صلاته ويتمتم دعواته ويلملم السجادة كأنها شغله الوحيد. أخذها إلى كلّ مكان يمكن أن يبعده عن المرأة المتكومة في ركن الغرفة. أحسّت أنه متورّط بنفسه. لا يعرف أين يجلس. أخيراً اضطرّ أن يجلس بالقرب منها بعد أن ألقى عليها تحيّة مقتضبة. مكث أكثر من نصف ساعة غارقاً في اضطرابه. حنت رأسها حتّى تبدو ضعيفة يسهل افتراسها. مدّت رجلها بصورة تبدو عفوية فصدمته بأطراف أصابعها ثم رمت بقدمها نحوه حتّى دفعت ركبته. سحب ركبته مذعوراً. كانت تتوقّع أن يقبض على قدمها ويداعبها ولكن الرجل توخّى السلامة. تذكرت

أنه تجاوز الخامسة والثلاثين. لم يتزوّج البتة. ولم تسمع باسمه في عداد شباب المغامرات العاطفية في الحارة. يعمل تابعاً لوالده. قاومت رغبتها في المقارنة بينه وبين الشيخ ابن شويب. لو تزوجها ابن شويب لكانت امرأة من الدقائق الأولى. سيؤجّل الصلاة حتّى ينتهي أمر زواجه منها. سارعت إلى خفض توقّعاتها. إنّها زوجة هذا الرجل وعليها أن ترتّب الأمر على هذا الأساس. مدّت رجلها أكثر حتّى دخلت أصابع قدميها تحت فخذه. أمّا الليلة كما يتوقّع الجميع أو لا. فالعجائز ينتظرن النتيجة على أحرّ من الجمر. لم يقاوم. ضغط فخذه على قدمها في إشارة سارّة. تعالت آمالها. انتظرت قليلاً لعلّه يساعدها على إكمال المهمة. تذكّرت اللذة التي قدّمها لها ناصر في ذلك المساء الذي لا ينسى. لا يمكن أن تقارن تلك الأغنية الضافية بصراخ الطقاقات. سمعت من الناس أن الرجل ينقضّ على زوجته ويمزّق سروالها ويأخذها عنوة من زاويتها ويلقي بها على الفراش. كانت قد رتّبت مع أمّها طريقة المقاومة حتّى يأخذها أخذَ عزيزٍ مقتدرٍ. انتهت تلك الليلة كما بدأت. لا تتذكّر كيف فسّرت أمّها والربعية غياب الانفضاض. بعد بضعة أيام قادت الألفة إلى التلاصق والحميمية وأخيراً أصبحت زوجته. عاشت معه ستّة أشهر ثم مات. كان أوّل رجل يموت قتلاً في حلة ابن بخيت. وجدوه مطعوناً في دكان أبيه في قيصيرة السدرة. كان من عادته أن يتأخّر في الدكان لكي ينهي حساباته ويعيد ترتيب البضائع استعداداً لليوم التالي. ذات صباح استغرب معظم أصحاب الدكاكين المجاورة الوضع. ليس من عادة محيسن

ابن يوسف أن يتأخّر في فتح الدكان. كان أوّل من يفتح وآخر من يغلق. اكتشفوا في خاتمة النهار التالي أن الرجل يرقد في دكانه جثّة هامدة. سيق عشرات المتهمين إلى التحقيق وبعد أشهر عدّة أُغلق ملف الجريمة دون اتّهام أحد. عادت نوف إلى بيت أهلها أرملة صغيرة. حزنت قليلاً ولكنها سرعان ما نسيت ابن يوسف. قالت لابن شويب بعد زواجها منه أنّها نسيت ملامح ابن يوسف في اليوم التالي من الفراق. لم يدر في خلدها أن زواجها من ابن شويب لن يكون أفضل من زواجها من ابن يوسف. زيّنت لها إمبراطوريته وحركاته السلطوية وأناقته وشكله الرجولي الجذّاب حياة مختلفة. صعقت من الفرح عندما علمت أنّه خطبها. انتظرت ليلة الزواج مذعورة من كمية الرجولة التي سوف تندلق عليها. ستكون قريباً في حضن حبيب السطح المسائي. الرجل الوقور الذي كان يتلصّص عليها. كانت تتخيّل لحيته المخنجرة على ذقنه تدغدغ صفحة حلقها وأنفاسه المشبعة برائحة القهوة العربية المخلوطة برائحة الأراك تتضوع في كلّ مكان. كان أكثر الرجال أناقة في الحارة. تحلم أن تزف في سيارته السراطوقا السماوية. تتخيّل غرفة نومه الملأى بالبشوت والكنادر السود والمساويك وتولات دهن العود والعطور الهندية. كانت تسمع صوته العميق القامع وهو يناديها وشخيره في منتصف الليل. اشتعلت مهابة الذكورة في عقلها المراهق الصغير.

كان حفل زواجها منه في منتهى التواضع. تقرّر أن يأتي مع أحد الأصدقاء ويأخذها بعد وليمة عشاء صغيرة. كان ذلك أحد

شروطه حتّى لا تُستشار زوجته أم عياله. عادةً جرى عليها في كل زيجاته خلال السنوات الخمس عشرة الماضية. كان قد تزوّج أكثر من ثماني نساء. كلهن أبكار صغيرات السنّ. هي أوّل امرأة راجع يدخل عليها في حياته. عندما عرفت ذلك عدّت هذا دليل عشق. ابن شويب لا يمكن أن يدخل على امرأة خاض فيها رجل قبله. لا يعتاش من فضلات غيره. في ليلة عرسها لم يفرح سواها ولم يصب بالخيبة سواها. كانت مقاربة ابن شويب أفضل من مقاربة ابن يوسف. ولكن المطلوب ليس المقاربة فقط. دخل عليها في الغرفة وسلّم ثم التقط السجّادة وأدّى الصلاة وبعد السجدة الأخيرة لم ينه الصلاة بسرعة كما توقعت، وإنما رفع يديه يدعو الله طويلاً حتّى ظنّت أنه لن يسلم أبداً. وبعد تردّد طلب من الربعية أن تغادر. قفز قلبها من محجره. حانت ساعة اللقاء والاحتضان الدافئة. نهض من فوق السجادة وسحب بشته من على ظهره وسحب غترته وطواها في عقاله ودار بهما قليلاً كأنه يبحث عن معلاق. لولا افتعال الحياء لدلته بإشارة صغيرة من يدها. الأعمى يستطيع أن يرى الحبل الممتدّ في أحد الأركان. وبعد تلكؤ طال أمده حرّر قدميه من الكنادر السود. أُنجزت كلّ المراسم، لم يبق سوى الالتفات إلى العمل، إلاّ أنه عاد مرّة أخرى إلى السجّادة وفتحها وأخذ يصلّي. وفي النهاية رفع يديه يدعو ربّه بضراعة قديس. لم تعرف سبب هذه الضراعة الطويلة إلاّ بعد نصف ساعة عندما جاء يداعبها. توقّعت أن ينقض عليها قويّاً متيناً لكن الرجل استلقى إلى جوارها وأخذ يحدّثها بكلمات لم تفهم نصفها، ويضع

يده في أماكن مختلفة من جسدها. وفي الأخير ارتخت يده وكأنها انفصلت عن جسده. رفعت رأسها فتبيّن لها أن الرجل غطّ في نوم عميق. بعد محاولات أسبوع متواصل، قام الرجل بواجب الزوجية وأصبحت زوجته بشكل كامل. لم تشأ أن تعقد مقارنة بينه وبين ابن يوسف حتّى لا تبكي على المرحوم متأخّرة. اكتشفت أخيراً أن ابن شويب لم يتزوجها، ولم يكن قادراً على الزواج بها وإنما انتصر بهذا الزواج على خصومه ومنافسيه. قضيّته الحقيقية كانت خارج البيت وليس داخله. كان يتباسط في جلساته الحميمة ويسرد قدراته الذكورية حتّى عرف في الحارة بأبو شبرين. يقال إن الفتاة بعد النوم معه تتخولف رجلاها، فلا تعود مشيتها كما كانت في السابق.

* * *

كان فحيج يجمع التفاصيل من أفواه مختلفة، بعضها صحيح وبعضها مختلق. الحقيقة الماثلة الآن أنها أصبحت أرملة ولن يجرؤ على خطبتها بعد كلّ هذا الذي حدث إلاّ مجنون. عندما انتحت وحيدة بعد سنين شعرت أن أسفها الوحيد أن الرجلين ماتا قبل أن تنجب من أيّ منهما. عزاؤها بيت ورثته من ابن يوسف وعشرين ألف ريال ورثتها من ابن شويب. بعد أن تزوّجت فحيج عرفت أنّها عاشت مع الرجلين حياة باهتة متقطعة تخلو من الذكريات الحميمة السعيدة. لم تشعر بالوحدة كما شعرت عندما كانت في ذمّة ابن يوسف. من الأسبوع الأول عرفت أنّها تزوجت من رجل فارغ لا يوجد في داخله إنسان حقيقي. كان صوته الأخن

المتطامن يثير اشمئزازها. يخرج من خياشيمه كأنّه صوت زمامير الخيزران التي يجلبها العائدون من الحج لأطفالهم. يحتاج دائماً إلى من يقوده. فتولّى والده زمام أمره في الشارع وتولّت هي زمام أمره في البيت. استسلم لسلطانها بل كان سعيداً بانقياده. الشيء الوحيد الذي يربطه بعالم الناس العاديين غيرة بسيطة يظهرها عندما يشاهدها تحدّق في صورة المذيع الشاب على شاشة التلفزيون، أو تتحدّث عنه مع إحدى أخواتها. ظنّت في البداية أن هذه الغيرة تعبير عن الحبّ ولكنها اكتشفت أن مبعثها ضعفه وخوفه من منافسة الرجال الآخرين. الحبّ آخر شيء يمكن أن يفكر فيه. لم يقدّر حتّى جمالها. كانت قد استعدت بالشلحة الشفّافة الملساء والسراويل القصيرة وحمّالات النهدين. جاءت إلى بيته مثقلة بأدوات الحبّ المختلفة. لم تثره أو تلفت نظره فتضطرّ في بعض الأحيان أن تسأله رأيه. كان كلّ شيء بالنسبة إليه جميلاً ورائعاً مهما تدنّى. عذبتها سماحته، وفي النهاية تجاهلته، فصارت تلبس وتتجمّل لخيالها. أصبح زوجها لأنّه زوجها فقط. تعطيه ما يريد عندما يريد. ولكي تغلق عليه باب الغيرة التافه أخذت تتجنّب مراقبة المذيع الشاب في حضوره فانطفأ وجوده في حياتها حتّى مات. عندما انتحت جانباً أحسّت أن موته مدبّر بإحكام لكنّها لم تهتمّ. ذرفت عليه دمعة صغيرة كان يمكن أن تذرفها على قطة أليفة تموت تحت عجلات سيارة.

* * *

تنبّه فحيج لصوت امرأة تردّد اسمه. أخرجه الصوت من

خيالات حياته كأنّه استيقظ من حلم. ابتعد عن الشرفة بسرعة ودخل غرفته ثم صرخ نعم. سمع صويلحة غسّالة الموتى تقول:

- فيه رجاجيل عند الباب يحترونك.

تأكد أن كل شيء أصبح حقيقياً. سترفع أمّه بعد قليل. ستغادر البيت إلى الأبد. سمع بكاء خفيفاً لعلّه صوت سميّرة زوجة الأهدب. هي الوحيدة التي يمكن أن تبكي في هذه المناسبة الفريدة. يعرف معظم نساء الحارة. عاش معهن طفولته وشبابه. كان النشيج الصادر من تلك المرأة مكتوماً حزيناً. سيكون ذلك النشيج هو آخر صوت حزين يسمعه في حقّ أمّه. عليه أن يصمد، فهو وحيد في هذا الخطب. سيأتي المعزّون بعد قليل. من واجبه أن يظهر تماسكاً، فأيّ ضعف سيفسّر بوضعه المشين. لم يحدّد بعد متى يجب أن يجلس وحيداً ويبكي.

سيكون بكاؤه الطقس الأخير في حفلة موتها. سوف تُمحى الحدود الفاصلة بين وجودها في هذه الدنيا وانتقالها إلى العدم. ستصبح وراءه. لن يسمح أن يحدث هذا بسرعة. عليه أن يؤخّر رحيلها من وجدانه ولو دقائق قبل أن ترفع ويصلّى عليها وتدفن.

* * *

لم يبدأ موتها ليلة البارحة. بدأت تنزلق في الموت منذ أشهر عدّة. عرف ذلك عندما كفّت عن إزعاجه بالصلاة. اعتاد من أمّه أن تنهض من نومها كلّ صباح جمعة تسخّن له السمور ليستحمّ ويخرج للصلاة إذا أراد أن يصلي. في إحدى الجمعات لم يجد

السمور ساخناً ولم يجد أي شيء في انتظاره. نزل ليتحقّق من الأمر. رآها نائمة. ناداها أكثر من مرّة. نهضت كالمذعورة وصرخت في وجهه. يا قليل الحياء ثم أخذت تتخبّط في الكلام ثم استوت واقفة واستعادت وعيها وقالت كأنّها كانت تقاوم شيئاً يريد أن يسقطها أرضاً:

- يا قليل الصلاة.

كانت تلك كلمتها المعتادة. ردّدتها باستمرار. كانت تسمّيه قليل الصلاة لقلّة اكتراثه للصلاة وغيرها من أوامر الدين ونواهيه. تماسكت وعادت إلى طبيعتها. فذهب إلى الحمّام دون أن يفكّر في هذا التغيّر الطفيف على الروتين الأسبوعي المقرّر كلّ يوم جمعة. بعد هذه الحادثة بأسابيع، لاحظ أن وزنها قلّ، وعزيمتها تدنّت وظهرت عليها علامات الكبر الشديد حتّى تراجعت قدراتها الهجومية ولكنّها استمرّت في ضغطها عليه لكي ينهض ويخرج من البيت سواء ذهب إلى المسجد أو إلى الشيطان كما تقول دائماً. لا يجوز له أن يجلس في البيت وقت الصلاة. بعد أن تتأكّد أنه نهض ودخل الحمّام ترجع إلى فراشها فيسمعها تدعو له وعليه. يختلط صوتها مع كحّات متواصلة. ثم تصمت دون أن ينقطع الكحّ. يخرج من البيت ولا يراها بعد ذلك إلاّ آخر الليل عندما يعود ثملاً. أرضية البيت ترابية يضغطها رشّ الماء اليومي فيجعلها ناعمة تمتصّ أصوات الخطوات التي تطأها. ما كان يمكن أن تسمع دخوله البيت لولا صرير باب الجذوع الذي صدئت مفاصله.

في الأيام الأخيرة، تراجعت سطوتها عليه حتّى انتهت ترتعب

منه. عندما تسمع صرير الباب تلتفّ في كنبلها وتتظاهر أنها تغطّ في نوم عميق حتّى لا يأتي إليها. حاول أن يطمئنها لكنّه عجز. صارت حركاتها الخائفة تذكّره بحادثة واحدة لم يقوَ أن ينساها حتّى آخر يوم في حياته. يريد أن ينتزعها من ذاكرته كما يريد أن ينتزع ذكرى ذلك اليوم الذي اغتصبه فيه فطيس وسويلم وحوّلاه متعةً لذكور مدينة الرويض. كان في بدء حياته مع السكر والمذلّة. كان يأتي في منتصف الليل وهو في منتهى السكر يوقظها ويطلب منها أن تدبّر له مبلغاً من المال. تضطر إلى أن تعطيه ما تملك حتّى لا تثير غضبه. مرّة وحيدة لم تتكرر ضربها حتّى كسر إحدى أضلاعها ثم خرج من البيت، وعندما عاد ظهر اليوم التالي لم يجدها في البيت. سأل الجيران فأخبروه أنّها نُقلت إلى المستشفى. فجرى كالمجنون إلى المستشفى وهو يبكي. دخل عليها. رآها ممدّدة على السرير ويداها مطويّتان على صدرها وعيناها مفتوحتان ساكنتان فظن أنّها ميتة. صاح بجنون وهو ينحني ليقبّل رجليها ويقول إذا متّ سوف أموت. نهضت من الفراش وأخذته إلى صدرها كما كانت تأخذه في طفولته. راحت تسمّي عليه وتدعو له وتقبّل رأسه ووجنتيه وتضمّه حتّى صرخت من آلام أضلاعها المكسورة التي انضغط وجهه عليها بقسوة الحبّ الأمومي.

كان الجيران يعرفون العلاقة. لا أحد يتدخّل. كان بيت عمّه يبعد حوالى أربعين متراً فقط عن بيتهما، في السكة نفسها، ولكنه لا يتذكّر أن أحداً من بيت عمّه زارهما وتدخل في مشكلاتهما. كانت والدته هي التي تزور بيت العمّ وتقوم بواجب صلة النسب.

تعرف حساسيّة وضعه. يعذّبها موقف الناس من ابنها برغم أنّها ماتت وهي لا تعرف وضعه المشين بين الرجال.

* * *

منذ أن دخل مدرسة الأحداث تغيّر تغيّراً تامّاً. أصبح لا مبالياً مع تزايد ميله إلى العنف. صار يظهر مع شاب اسمه ممدوح. بعد بضعة أشهر عرفت أن ممدوح كان لصّ دبابات يسطو على الممتلكات الخفيفة وخاصة حقائب النساء أثناء التسوّق. ارتبط اسم الحرامي باسم ابنها. وقد فكّه الله منه عندما دخل وحكم على ممدوح بثماني سنوات سجناً. جاءها خبر القبض على ممدوح مصادفة من إحدى جاراته وأكد لها فحيج الخبر بنفسه. أقامت حفلة صامتة. دعت بعض نساء الجيران دون أن تخبرهن بحقيقة المناسبة. انتهت من ممدوح ولكنها لم تنته من السلوك الذي تركه ممدوح فيه. كان طيّباً قبل أن يتعلم السكر ويتناول الحبوب المخدّرة وتنتهك رجولته. فقدت القدرة على تدبّر أمر حبّها له. تنتابه أحياناً موجة حنان عارمة فيأتي إليها ويضمّها إلى قلبه وينامان في الغرفة نفسها. كان يسمع توبيخها وأحياناً سبابها ويضحك ويعتذر ويتدلع. يذكرها بطفولته الشاحبة فتنهار مقاومتها فتأخذه إلى حضنها وتصبّ في وجدانه جرعات حنان تذيب القلب. يعيشان معاً كالأشباح. من الصعب أن تسمع أصوات أو نداءات أو حتّى قرقعات الأواني، فالبيت يكاد يخلو من الأثاث. خلال ثلاثين سنة عاشاها معاً قلّما شوهد إنسان داخل هذا المنزل سواهما. من شدّة فقرهما لا يأتيهما الضيوف إلاّ في مناسبات متباعدة. كان

منزلاً طينيّاً دفنه الركام الذي يجلبه السيل من خشاش الحارة وأتربتها حتّى أضحى تحت الأرض بنصف متر تقريباً. يحتاج من يريد أن يدخله إلى الانحناء. أرضيته لم تغطَّ بالإسمنت مثل بقية البيوت الأخرى الحديثة والمحدثة. بقي كما هو عندما شُيّد قبل أكثر من ستين سنة. تركه لهما جدّه من أمّه. لا يملكه أحد معيّن. صار وقفاً لبضع عائلات. يبقى فيه من لا يستطيع أن يكتري بيتاً ويتركه عندما ينتقل إلى العيش الأخير في قبره.

* * *

سيتزوّج ويبقى في هذا البيت. لقد تركته أمّه له كما أوصى بذلك إخوتها. سأل مرّة والدته عن إرث أبيه. ضحكت وقالت:

- أحمد ربّك إذا ماجاك أحد يطالبك بتسديد ديونه.

بعدها لم يعد إلى ذكر والده أو إخوته. مرّة واحدة شاهد فيها والده عندما طلب منه مدير المدرسة إحضار ولي أمره. كان قد دخل في مضاربة دامية مع أحد زملائه. لم تكن المرّة الأولى التي يفجّر فيها مضاربة داخل المدرسة ولكن هذه المرّة أصاب زميله بجروح بالغة نُقل على أثرها إلى المستشفى. ذهبت أمّه كعادتها إلى المدرسة تتوسّل إعادته. فرفض المدير توسّلاتها وطالب بإحضار والده فالأمر يتعلق بحقّ الطالب المُصاب ولا بدّ من الذهاب إلى المحكمة لتحديد الضرر وتقدير الدية. استعانت بأبي عبد المحسن ولكن المدير رفض أيّ إنسان غير والده. بعد يومين من التغيّب عن المدرسة فوجئ بصوت رجل يناديه من الشارع. فقالت له:

- قم شف أبوك يناديك رح معه للمدرسة عشان يرجعونك.

ركض عندما سمع كلمة أبوك. كان في شوق لرؤية الأب الذي لم يره من قبل. فتح الباب. شاهد رجلاً طويل القامة عجوزاً يلبس بشتاً من الوبر متهرّئاً. تأمّله. تلكأ على الباب في انتظار الإشارة لكي يركض ويضمّه. سمع كثيراً عن الآباء، وشاهد عدداً من آباء أصدقائه. انتظر أن يأخذه في حضنه. أخذ ينظر إليه. لاحظ الكحل على عينيه الغائرتين في التجاعيد واللحية المسودة بالأصباغ. ولكن الأب بادره قائلاً بعد أن نزع المسواك من فمه على عجل:

- وش أنك مسوى في المدرسة.

قبل أن يجيب قال له الأب مرّة أخرى:

- يا لله أمش خلنا نشوف لك حل معهم. حسبي الله عليك من ولد. تخبط ولد الناس على راسه. أنت تدري أنهم بيخفسون عينك زي ما خفست عين الولد. رح خل أمك تلبسك يالله.

تتابع لوم والده وتوبيخه فلم يجد الفرصة للكلام. عاد إلى البيت. كانت أمّه في آخر المدخل تنصت إلى المحادثة. شدّته من يده وهي تبكي. لم تفسّر له الأمر. لبس ثوبه وانتعل زنوبته والتقط شنطة المدرسة وخرج. كانت الساعة العاشرة صباحاً، لم يبقَ على خروج الطلاب من المدرسة سوى ساعتين. شاهد والده يسير مبتعداً فجرى حتّى لحق به. سارا صامتين. كان الشارع خالياً من المارّة. لم ير سوى امرأة واحدة فتحت الباب ورمت بالغسال وأغلقته.

كانت المدرسة قد أعدت محضر الحادثة، وأبلغت الشرطة. لم يقتنع أحد بأن المطلوب مجرّد طفل. ذهب بصحبة والده والجندي إلى المنطقة الخامسة وأصرّ الضابط على أن يحبس الطفل في مدرسة الأحداث إلى حين مثوله أمام القاضي. لم يترجّ والده ولم يطالب بتخلية سبيله. وافق على الفور. أخذوا الطفل ووضعوا الكلبشة في يده على مرأى من والده. أخرج والده المسواك مرّة أخرى وأخذ يلوكه في فمه باضطراب. سأله الضابط:

- ها ودك تروح معه للمدرسة.

رفض الأب ولكنه سأل:

- متى بتعرضونه على الشيخ.

فقال له الضابط:

- راجع مدرسة الأحداث معد لنا علاقة بالموضوع.

سمع ناصر المحادثة التي لم يفهم منها شيئاً. بعد سنوات عرف من والدته أن والده ترك القضية ولم يراجع فيها خوفاً من دفع الدية المقررة، وقد ذهبت هي إلى أهل الطالب المُصاب وترجّتهم وطاحت على قدمَي أمّ الطالب المجني عليه حتّى سامحوه فخرج من مدرسة الأحداث بعد أسبوعين أمضاهما مع مجموعة من الأطفال الأشقياء الذين تاهت بهم الدنيا. اصطفى منهم ممدوح الذي صار صديقه. بعد هذه الحادثة بستّة أشهر جاءهما خاله فهد ينقل إليهما الخبر ببرود:

- ترى أبو ناصر مات خلي ناصر يروح يحضر جنازته بيصلون عليه اليوم الظهر.

فقالت الأمّ بلا اكتراث:

- وشو له بزر وش يدريه عن هذي الأمور.

بعدها تلاشى والده من حياته. نسي أن الإنسان يفترض أن يكون له أب يرعاه. لم يبقَ له من أقاربه من جهة والده سوى أهل نوف. كان يسمع عن والده من هنا وهناك حتّى كرهه في النهاية. تراكمت معرفته عن والده ببطء على مدى سنوات. كان والده يعتمد في حياته على قدراته الجنسية ووسامته الغاربة. يتحايل حتّى يستولي على مدخرات نسائه. يتزوّج الواحدة بمدخرات الأخرى.

لم يكن اسم والده معروفاً حتّى عند سكان حلة ابن بخيت. كان الأطفال في الحارة يعرفونه باسم أهل أمّه. لم يعرف باسمه الحقيقي إلاّ بعد دخوله المدرسة. حتّى نوف لم تكن تعرف عمّها الوحيد جيّداً. رأته مرّة في أحد الأعياد. كانت طفلة تلعب في الشارع. سلّم عليها ومضى في طريقه. وبعد مدّة عرفت أن ذاك الرجل كان عمّها. منذ ذلك الحين لم تسمع أو تعرف عنه شيئاً. لولا ناصر وأمّه لما عرفت أن لديها عمّاً أو أبناء عمومة. كان والدها يتجاهل تلك القرابة في حديثه. لا تتذكّر أنه صحّح لها نسب ناصر وأعاده إلى العائلة. فصار ناصر قريباً وبعيداً في الوقت نفسه. كانوا ينظرون إليه بعطف مشوب بالحذر. كانت أمّ نوف تعطف على أمّ ناصر وتعاملها معاملة حسنة من قبيل العطف وليس من قبيل القربى. أدّى حذر أمّ نوف من ناصر إلى أن صارت أمّ ناصر تبقى على مسافة حتّى لا تحرج الأقارب وتسبب لهم المشكلات. لا تريد أن تنفصم العرى. تعرف نزق ابنها وتهوّره.

وكان ناصر يشعر دائماً أن نوف وشقيقاتها بعيدات عنه. خلو بيت نوف من الإخوة الذكور جعل العلاقة معقّدة، وبيت عمّه قلعة مغلقة. بعد أن صدّته نوف ورفضت استئناف الحبّ خرج من حياتها وأخذ يراقبها من بعيد. أخفى حبّه عن الجميع حتّى عن نوف نفسها. لم تعرف هذا الحبّ إلاّ متأخّرة. ظنّت في البداية أنّها انتهت منه عندما صدمته في سكّة البازمي. كانت تتوقّع كل شيء عدا أن القدر سيربط حياتها بحياته وأنها سوف تنتهي حبيبته وزوجته وقوّة الحياة الأخيرة التي ستنجز آخر انتقاماته التي أفزعت حلة ابن بخيت. كانت تعتقد أنّه لا يستحقّها. أبعد رجل يمكن أن تقبل الزواج منه. إلى أن جاء ذلك اليوم الذي انهارت فيه مشاريعها. اكتشفت أن جمال المرأة لا يصمد طويلاً. كانت قد تجاوزت الثالثة والثلاثين وانتهت أرملة لزوجين قُتلا بطريقة غامضة. لم يكونا أفضل زوجين لامرأة ظنّت يوماً من الأيام أنّها أجمل امرأة على وجه الأرض. الزوج الأوّل كان يكبرها بخمس عشرة سنة والثاني يكبرها بثلاثين سنة، وكلا زواجيها جاءا تصفية في إطار تسوية حسابات. إحساسها بأن ابن عمّها ناصر هو حبيبها نما بعد ليال طويلة قضتها في الوحدة والحزن. ليالٍ تخلّت فيها عن الإعجاب بجسدها الفاتن. راجعت الأخطاء التي وقعت هي وأبوها فيها. عاشت ردحاً من الزمن على الاعتقاد أن سمعة ناصر لا تشرّف أقريباً كان أم زوجاً. عرف سكّيراً ومن شلّة السويمي وصديق لممدوح الحرامي. تقوده رغباته الجامحة. لم يصادف جداراً أخلاقياً يمكن أن يصطدم به ويوقفه عند حدّه. كانت أمّه

حائطاً أخلاقياً وقف في وجهه في المرحلة الأولى من حياته، ولكنه استطاع تحطيمه بعد أن انهارت قيمه ومبادئه الأخلاقية. غاب عنها كثير من المعلومات عنه، كما تغيب مثل هذه المعلومات عن النساء عادة. لم تعرف نوف أيّ سلطة كانت تملكها عليه. فلم يتسنَّ لها أو لأي أحد استخدامها ضدّه أو لمصلحته. كان قد كتم حبّه لنوف حتّى عن أمّه.

* * *

لم تكن نوف تعرف أنه كان يوجّه حياتها كما كانت هي توجّه حياته، إلاّ قبل بضعة أيام من زواجها منه. كان يتابع حياتها ويحطّم كلّ من يقترب منها. غاب عن زواجيها برغم أنّه أقيم في زواجها الأول حفل باذخ يليق بفتاة بكر تعدّ أجمل امرأة عرفتها الرويض. حضر أقاربها وهم أقاربه من كلّ مكان. رفض جميع توسّلات أمّه لحضور العرس والاحتفال به. في صباح اليوم التالي شرحت له أمّه تفاصيل الزواج وبالغت في وصف ملابس نوف والبنات اللواتي كنّ يطوحن بشعورهن والطقاقات اللواتي مزّقن الطيران بأكفهن الملتهبة وحدّثته عن كمية النقوط والدخون. استمع إليها وهي تصف التفاصيل التافهة لحفلة العرس. كانت تنتظر أن يسألها عن البنات. لعلها تخطب له واحدة ويعقل. ذكرته أنّه اقترب من العشرين. لكنه بقي طوال الوقت صامتاً يسمع لأمّه وهي تمدح هذه وتنتقد تلك حتّى ملّت صمته فصمتت. وأخيراً سألها:

- شفتي ابن يوسف؟

فقالت بعد أن أنعش رغبتها في الكلام:

- مسيكين مهوب كفو رجال قصير.

فقال:

- إيه بس خذها ملعون الوالدين.

ثم قال وهو ينهض:

- يوم دخل عليها سمعتوها تصارخ.

فقالت بغضب:

- عيب عليك تقول ها الكلام يا قليل الحياء.

قفز من مكانه غاضباً ثم خرج من المنزل ليختفي أسبوعاً كاملاً. بحثت عنه في كلّ البيوت التي يختلف عليها وأوصت أبو عبد المحسن بالبحث عنه في مراكز الشرطة. لم تجد له أي أثر. بعد فترة سمعت أنه سافر إلى جزيرة اللؤلؤ. كاد يغمى عليها. ماذا يفعل ولدها في جزيرة اللؤلؤ إن لم يكن يعاقر الخمر ويعاشر النساء. سمعت كثيراً عن الإباحية في تلك الجزيرة. كان الناس في الماضي يهجرون العائدين منها أسبوعاً كاملاً إيماناً بنجاستهم. لا أحد يسلم عليهم أو يختلط بهم. هل يصبح ابنها نجساً، فأقسمت أن تزوجه مهما كلّف الأمر. عندما عاد سألته أين كنت. كانت قد أعدّت نفسها للمراوغات والإجابات المطّاطة. ستنتزع منه الإجابة مهما كلف الأمر. ولكنه أجابها بهدوء:

- في جزيرة اللؤلؤ.

إجابة بسيطة حطّمت أعصابها. سكتت. لقد قفز التحقيق إلى نهايته. لم يكتفِ باعترافه السهل والمجاني بل وشى لها بأن هذه السفرة لم تكن الأولى ولن تكون الأخيرة. تذكّرت أنّه كان يغيب

أيّاماً مدّعياً أنّه في البرّ. في إحدى المرّات ادّعى أنّه في مكّة. هل كان فعلاً في مكّة أم في جزيرة اللؤلؤ. لماذا لم يكذب عليها كما كان يفعل من قبل؟ جزعت من هذا التغير الذي طرأ عليه. لأوّل مرّة تشعر أن ابنها خرج من حياتها. أصبح شخصاً آخر. كان يجب أن يكذب عليها. يعطيها الإحساس أنه يخاف منها. بكت ذلك اليوم على سجّادتها حتّى شعرت أنّها ستفقد بصرها. لقد جاء إلى هذه الدنيا لكي تكون أمّه. لا تملك أيّ شيء آخر تعمله في حياتها. ولدته على حافة اليأس. وصلت إليه من خلال فرصة واحدة وهبها الله لها. يجب ألاّ يخرج من حياتها بل هي التي يجب أن تخرج من حياته. ستموت قبله رغماً عنه. لن تبكيه، هو الذي عليه أن يبكيها. خُلقت دموعه من أجلها. من أجل ذلك اليوم الذي سيأتي حتماً وتفارقه. يجب ألاّ تنهار هيبة الأمومة في قلبه. إنها سلطة عليه بحبّها وشغفها. ستقبل بجزيرة اللؤلؤ وغيرها. ستحتفظ به تحت هيبة أمومتها مهما كلّفها ذلك من تنازلات. مسحت دموعها وقصدته في غرفته. وجدته مستلقياً على ظهره يطوي يده على عينيه. انتبه لدخولها. نهض من الفراش وكأنه على موعد معها. زحف قليلاً ليسمح لها أن تستلقي جنبه. وضعت رأسها على مخدّته دون أن تتكلّم. أصبحت في حضنه كحبيبة. قبضت على ساعده كأنها تطلب منه أن يضمّها أكثر. أحسّ أنه ارتكب حماقة لا تغتفر. لماذا لم يكذب عليها. لماذا صدمها كأنّها شيء بلا قيمة. جاءت لتنتصر على رعونته وخساسته. بكى أخيراً. فقالت:

- رح وأنا أمك وين ما تبي.

لقد هزمته بحبّها وشغفها. هطلت دموعه. لم يجرؤ أن يضع وجهه في وجهها فرمى رأسه على صدرها وأكمل البكاء. تركته يبكي وحيداً مقابل بكائها قبل قليل.

بدا بعد ذلك أميل إلى الصمت والعزلة. تغيّرت طريقة حياته. يدخل ويخرج بهدوء يعمل طوال الوقت في دكانه. لم يكن أحد يعرف أنه كان يدبّر أمراً خطيراً. سعدت بهدوئه وظنّت أنّها بداية دخوله سن الرجولة. كانت تأخذ إليه في بعض الأحيان الشاهي وتضيف القهوة إذا كان عنده ضيوف. بدأت تشمّ رائحة الدخان. في البدء، كان يتذرع بزبائنه ولكنها بدأت تشمّ الرائحة داخل البيت. ثم بدأ يشرب في غرفته وأخيراً صارت تشاهده يدخّن وهو في طريقه داخلاً البيت أو خارجاً منه. لقد انتهى عصر صراع العادات فتجاهلت الأمر. كانت تعرف أن أولاداً كثراً يدخّنون فاعتبرت ابنها واحداً من هؤلاء. كان كل شيء بالنسبة لها أن يبقى إلى جانبها. عذّبتها فكرة فقدانه عندما كان في جزيرة اللؤلؤ. لا تريد أن تفقده. صارت تدافع عنه حتّى في مسألة الصلاة. كلّ يوم ينهي إليها أبو عبد المحسن موقف جماعة المسجد. كان أكثر المتغيّبين عن صلاة الفجر حتّى صار الإمام حميد يقفز اسمه أثناء تهيئة صلاة الفجر. بُلّغ النواب أكثر من مرّة. راقبوه وأوقفوه عدّة مرّات وكتب ما لا حصر له من التعهّدات. ولولا تدخّل الشيخ حسن وأبو عبد المحسن لجلدوه أمام المسجد. نبّهه الشيخ سالم أن تارك الصلاة يُستتاب ثم يقتل، وأخيراً نتيجة الضغوط صار

يؤدّي صلاة الفجر. أثقل شيء ينجزه في حياته. كان يأتي ثملاً ودون أن يتوضّأ يذهب أوّلاً إلى المسجد يؤكّد حضوره. ينتظر حتّى ينادي حميد اسمه. أحياناً يكمل الصلاة وأحياناً أخرى يترك المسجد ويذهب إلى فراشه. وبعد أشهر عدّة لم يقوَ على الاستمرار في هذه الحياة فترك الصلاة نهائياً رافعاً لواء العصيان.

* * *

أغلق حياته على أخبار نوف. لم يكن يسأل بشكل مباشر ولم يكن يلحّ. كان يتحيّن الفرصة ليسأل أمّه عن ابن يوسف وعن حياته مع نوف. يسألها أيضاً عن حياة الناس في الحارة بطريقة مضلّلة. كانت تجيبه بما تعرف. سألته مرّة واحدة لماذا تسأل عن نوف. تجاهل السؤال. فتبيّن أنّها لم تكن جادّة أو متحمّسة للإجابة. لم تشعر البتة أن نوف هي محرّك أحاسيسه. هناك أشياء أخرى لا تعرفها أيضاً. تلاحظ عليه تصرّفات غريبة لكن تركه الصلاة أمر مريع. قد لا تراه في الجنّة مع المؤمنين. فقرّرت أن تفعل شيئاً لإنقاذه. كانت قد لاحظت أنّ كلّ شيء ممكن بالنسبة إليه إلاّ صلاة الفجر، فقرّرت أن تبدأ معه من أصعب فريضة. فهذه الفريضة ستكون بالنسبة إليها معيار التغيّر الذي يجب أن يطرأ عليه. صارت تأتيه كلّ صباح وتوقظه. تنكد عليه نومه وفي بعض الأحيان كانت تدلق عليه غضارة ماء بارد. اشتبكت معه كثيراً حتّى عرفت في النهاية أنّه لم يهجر الصلاة فقط بل هجر الإيمان كلّه.

* * *

عندما ينبطح تحت رجل يلتفت إلى جسده فيرى نفسه ممدداً

على الأرض كأنّه ليس هو. يتأمّل مؤخّرته العارية والفحل يستعد أن يقتحمها. أوّل مرّة أذعن فيها للذكور شعر بالقرف والمهانة. كان عمره حوالى ست عشرة سنة. استدرجه سويلم وفطيس إلى مقبرة العجلية المهجورة بحجّة تدخين السجائر. قفزوا من السور المتداعي وساروا إلى مدخل المقبرة الحديدي المغلق. استدرجاه إلى غرفة متداعية مبنيّة من الطين ومغطاة بالصفيح وبقايا تنك. كان يسكنها حفّار القبور وعائلته قبل أن تمتلئ المقبرة وتُهجر وتصبح سكناً للكلاب الضالّة ومخبأ لبراميل الخمر التي يعدها اليمانية وبعض أشقياء الرويض. دخل هو وفطيس الغرفة المهجورة وأشعل فطيس سيجارة مدّها له، تناولها بكلّ حبور. كانت أوّل سيجارة في حياته. شفط منها شفطتين. أحس بالدوخة ومتعة الاكتشاف. وبعد أن عاد إليه توازنه لاحظ أن سويلم لم يدخل معهما فاستفسر فقال له فطيس: عشان يحذّرنا حتّى لا يفاجئنا أحد. ظنّ أن المسألة تتعلق بشرب الدخان فسكت، ولكن فطيس أوضح له الهدف عندما قال:

- مرّة ثانية بنجيب معنا فرشة ها المرة خلنا نسويها وقافي.

عرف حقيقة الموقف. أخذ يشفط السيجارة بقوّة ويتأمّل الدخان. التفت إلى الباب فشاهد سويلم يجلس بين قبرين ما زالت حدبتاهما قائمتين ومتماسكتين لعلّ اللذين يرقدان فيهما آخر ميتين دفنا في هذه المقبرة. من المستحيل مقاومة فطيس وسويلم. الأمل الوحيد هو أن يخرج هذان الميتان الطريان ويمدّان له يدّ العون. كان يجب أن يحذر من البداية. تذكّر أن فطيس بدأ يتقرّب إليه قبل

بضعة أيام. فطيس صاحب سوابق كثيرة في الاغتصاب. طرد من المدرسة بعد أن دين باغتصاب طالب في الصف الأوّل الابتدائي. استدرجه إلى غرفة القسم المخصوص وانقضّ عليه واستولى على جسده. اكتُشفت الحادثة مصادفة. من حسن الحظ أن الجريمة تمّت والطلاب داخل الفصول. استدعت المدرسة والد الطفل. تبيّن بعد نقاشات أن الأب عاقل وحكيم. طلب أن يجلد فطيس بالنعال مائة جلدة ويطرد من المدرسة على أن تبقى الحادثة سرّاً بين المدير والمراقب والأب. حتّى الشرطة يجب ألاّ تعلم. لا يريد الفضيحة لابنه الصغير. لم تكن تلك الحادثة الأولى التي ترتبط باسم فطيس. هناك حوادث اغتصاب كثيرة تنسب إليه. لا يتردّد في استخدام السكين لتحقيق شهواته. خدعه فطيس وسويلم. جعلاه يشعر أنه في مستواهما. تحدّثا معه كثيراً عن الأولاد الصغار ومدحا قدراته. حتّى ظن في النهاية أنّه واحد من عصابتهما. اقترب منه فطيس ووضع يده على فخذه. نهض مبتعداً فقال فطيس:

- يا لله طف السيجارة خلنا نخلص.

حاول أن يهرب ولكن فطيس قبض على حلقه ودفعه إلى الحائط بعنف وضغط عليه حتّى كاد يطفئ أنفاسه. المسألة محسومة. المقاومة الجسدية مستحيلة. تشفع دون جدوى. كلّ ما سمعه بضع كلمات مطمئنة ووعود بالستر وتهديدات قاطعة.

بعد ذلك اليوم بات كلّ ما يرجوه أن تبقى الحادثة بينه وبينهما سرّاً. وقد وعداه وأقسما له بشرط أن يلبّي طلبهما متى أرادا

فأصبح بعد ذلك صديقهما الحميم وباتت المقبرة بيته الثاني. بمرور الوقت ازداد عدد أصدقائه الحميمين الذين يأتون معه إلى المقبرة ويقضون وطرهم منه. ولكنه بقي على وفائه لفطيس وسويلم اللذين امتلكا جسده. فأصبح صديقاً وخادماً وفي بعض الأحيان يجلب لهما فلوساً من بيع جسده لبعض كبار السنّ. اتّخذ سياسة التنازل المستمرّ. لم يبقَ لديه ما يخسره. فأصبح جسده في خدمة رغباته ونزواته يتنازل به عند أي حاجة تساوره. صار اسمه فحيج. كلمة تعني الكثير بالنسبة إلى كلّ من يعرفها. أطلقها عليه أبو منيف صاحب الوانيت بعد ستّة أشهر من انتهاك جسده. حدث ذلك أثناء عودتهم من التمرين. خلا به في قبو سويد مع كبار اللاعبين الذين راحوا يتعاقبون عليه بعد صلاة المغرب إلى الساعة الحادية عشرة ليلاً. سبعة شُبّانٍ أكبر منه سنّاً. كان يسمعهم يتهامسون ويتضاحكون ويصفونه بالسعة لأنه لم يعد يتألّم من الإيلاج كما كان يفعل من قبل. سمع أبو منيف يقول صار أفحج. انقلبت الكلمة إلى اسم وصارت لقباً له. تناقصت علاقته بأقرانه حتّى فقد حسّ الصداقة. تحدّدت علاقته بالآخرين بوضعه المشين. حاول في البداية أن يحصر هذه العلاقة بأضيق نطاق ممكن. زوّر في خياله مستقبلاً يستطيع أن يعيش فيه حياتين ولكن حلة ابن بخيت حارة صغيرة مكوّنة من نحو إحدى عشرة سكّة. أهلها يعرفون بعضهم بعضاً. بيوتها متداخلة تجعل من الصعب إخفاء أيّ شيء عن الآخرين. كينونة صغيرة لا تحتمل الأسرار. في أشهر قليلة أصبح معروفاً بهذا الاسم لدى الجميع تقريباً.

يسمونه فحيج في غيابه وأثناء امتطائه. ذاع اسمه هذا حتّى خارج حلة ابن بخيت. كثيراً ما تحدث مضاربات دامية بسببه. في إحدى المرّات جاء ثلاثة أشقياء من أهل الشريقية. كانوا قد سمعوا بجماله. جلسوا في انتظاره عند دكان حزام اليماني. سمع اليماني حوارهم فعرف المطلوب. أبلغ أحد الصبية أن يبلغ فطيس عنهم. بعد قليل جاء فطيس يرافقه سويلم والعويقد وابن عمّه أحمد وبدون مقدّمات انقضّوا على شباب الشريقية. بادر فطيس أحدهم بطعنة في كتفه. كان في الواقع يريد أن يمزّق وجهه ولكن الشاب مال فجاءت الضربة في الكتف. انغرس السكين في أقصى اللحم. شاهد زميلاه الوضع ففرّا فاستفردوا بالمغدور. لاحظ اليماني أن فطيس في حالة تهيّج جنوني قد يفقد الشاب حياته. كان يضرب ويصرخ:

- جاي ابن الكلب يبي ياخذ واحد من عيال حارتنا.

تمزّق جسد الشاب من شفرة السكين ورشحت ملابسه بالدم. عرف الجميع أن المسألة في منتهى الخطورة. فقد الشاب القدرة على الوقوف المتوازن وأخذ يترنّح كأنّه فاقد الوعي. فانقلب أصدقاء فطيس يهدّئون الوضع للسيطرة على الموقف. وأخيراً تمّت تسوية الأمر بأن يخلع الشاب سرواله ويتركه ويرحل كاشفاً مؤخّرته إلى أن يختفي من الحارة.

كانت تلك من بقايا صراع الحارات. كانت الحروب تندلع بين الحارات في شهر رمضان. يعدّ فطيس من آخر رجالها الأوفياء. سيطرت عليها الشرطة وألغتها. لم يبقَ منها سوى

الحساسيّات في النفوس والتحدّيات المعزولة التي تندلع في بعض الأحيان بين المتطرفين. أصبح المرور بين الحارات خطراً. عصابات صغيرة قليلة تترصّد الناس وتتصيّدهم عند مدخل كلّ حارة. ولكن معظم الأجيال الجديدة تحوّلت من المضاربات المجانية إلى المنافسات الرياضية التي تصاحبها أحياناً صراعات دامية يثيرها شباب ما زالوا على بقايا ولاء لثقافة الماضي من أمثال فطيس. يحاولون إدخال رغباتهم الشاذّة على صراع الكرة. سخرت لهم الكرة الفرصة عندما اجتذبت صغار السنّ الذين استهوتهم الأمجاد التي يصنعها اللاعبون. كان فوز نادي الشمس أكبر ناد في الرويض على نادي التآخي الغربي بثلاثة أهداف مقابل هدفين، قد أخذ بُعداً أسطورياً بسبب الفرق الكبير بين نوادي الرويض الحديثة ونوادي المناطق الأخرى العريقة. فتحوّلت الكرة من نشاط المنحرفين وحثالة الناس إلى قضية وطنية. دعمها الكبار والصغار. غضّ عنها رجال الدين طرفهم على مضض وانخرط في لعبها وإداراتها أبناء العائلات الكبيرة فوجد فيها أمثال فطيس مرتعاً لتصيد صغار السنّ. بعضهم تسلّل إليها لاعباً وبعضهم مشجّعاً وإدارياً. ولم يعدم هؤلاء شُبّاناً صغاراً من أمثال فحيج يستولون عليهم. حتّى اشتهر بعض اللاعبين بمصاحبة مثل هؤلاء الصغار واتّخاذهم مثل الخليلات.

كان فحيج لاعباً في نادي أشبال الأنصار. بدأ يمارس الكرة منذ وقف على رجليه، ثم انضمّ بشكل تلقائي إلى فريق الأنصار الذي أسسه غانم في إحدى الحيايبل المجاورة. كان أصغر لاعب

في الفريق فاضطرّ إلى أن يلعب حارس مرمى في كثير من المباريات. وعندما بلغ الرابعة عشرة أصبح لاعباً حقيقياً. يلعب في أكثر من خانة. لا يتعدّى ملاعب الحارة. كان يتحرّك في حدود شلة حلة ابن بخيت وإن تعدّاها فشارع العطايف. كان حدثاً صغيراً وجميلاً ومحبوباً ولكن لم يفته أن كثيراً من الطيور الجارحة تحوم حوله. كان حذراً يعرف حدوده. لا يسمح باستدراجه إلى النوادي أو الأماكن البعيدة. كان يرفض أن يركب مع أحد وحيداً في سيارته، لكنه كان مقبلاً على الحياة. عندما عرفت أمّه أنه يصاحب أبناء الحارة وخاصةً سعندي اطمأنت على سلامة حياته وأوصت أبو عبد المحسن أن يشتري له ملابس الرياضة (بوت الفلو وشراب رياضي وأنجل). كلّفها مبلغ اثني عشر ريالاً. بدأ يلعب مع أصدقائه في داخل الحارة. أظهر موهبة كحارس مرمى ثم صار يلعب هاف باك. كان يأمل أن تكون سيرته مثل سيرة لاعب فريق الشمس الشهير عندما انتقل من حارس مرمى إلى مهاجم يسدّد أقوى الأهداف. واصل اللعب مع الأنصار في الحارة واضطرّ إلى أن يتخلّى عن شيء من حذره عندما انتقل فريق الأنصار إلى اللعب في الحياييل الخالية المجاورة. كانت سياكلهم تكفيهم في البداية ولكن تمدد العمران واختفاء الحياييل التي يلعبون فيها اضطرّهم إلى الخروج إلى المناطق البعيدة في ضواحي الرويض، فانضمّ إلى الفريق شباب من حارات بعيدة ومتنوّعة فتحول الفريق من شلة صغار إلى فريق له إدارة ولاعبون مسجلّون، وأخيراً دخل في صراع دوري الحواري الذي يقام في رمضان أو

في الأيام العاديّة. غذّى فريق أشبال الأنصار فريق الفوز بكثير من اللاعبين الذين شاركوا في الدوري العام.

من سخرية القدر أن فريقه أبرم في اليوم السابق على اغتصابه صفقة مع أبو منيف صاحب الونيت لينقل أفراد الفريق من الملعب وإليه بثلاثين ريالاً في الشهر. سعر متدنٍّ. في مثل هذه الحالة يجب أن يتقاضى أكثر من خمسين ريالاً، فالمسافة من حلة ابن بخيت إلى المستلز أكثر من عشرة كيلومترات تكتنفها صعوبات مرورية وزحمة سير ومسافات على أكثر من طريق ترابي وعبور حراج السيارات المزدحم. كان يعرف أن أبو منيف يحتك بالصبيان لأغراض خاصة. هذا السعر لم يكن لله. في أوّل رحلة جلس جنب أبو منيف في الكابينه فانضغط فخذه على فخذ أبو منيف فأحسّ أن أبو منيف يحرك فخذه صعوداً وهبوطاً مع قليل من التوتّر. لم يلاحظ زميلاه اللذان يجلسان معه في الكابينه نفسها الحركة. حاول سحب فخذه ليتفادى شهوات أبو منيف ولكن دون فائدة. كانت الكابينه مزدحمة. يجب أن يتصرّف فهذا العجوز الوقح قد يدمّر سمعته إذا سكت له. كلّ اللاعبين يعرفون سلوك أبو منيف وأهدافه. سبق أن حاول مع ولد سوير وتضارب وإيّاه وحاول مع هاجع ومع عبد الرحمن كابتن الفريق حتّى باتت محاولات أبو منيف مثار تعليقات ساخرة. كان فحيج يعرف أنه واحد من تطلّعات أبو منيف وأهدافه، وقد عبر أبو منيف عن ذلك بطرق عدّة غير مباشرة وبرسائل سريعة تحمل بضع دلالات، لكنها سهلة على من يريد أن يفهمها. لم يفصح عن رغبته بشكل واضح إلى الآن. ربّما لم يحن الوقت

المناسب أو لم ينضج الهدف بعد. فإذا تغاضى عن هذا الاحتكاك فهذه خطوة كبيرة قد تدفع أبو منيف إلى التقدّم خطوة من الصعب تفاديها. وخشي أيضاً أن أحد زميليه في الكابينة قد لاحظ حركة أبو منيف. يجب أن يتصرّف بسرعة وبحزم. أخيراً وبصورة لم يتوقّعها أبو منيف التفت فحيج وصرخ في الرجل العجوز:

- يا ابن الكلب وش تسوي؟

وقبل أن يجيب أبو منيف هوى بيده على وجهه. فوجئ أبو منيف بالضربة والصرخة معاً فاهتزّت السيارة وانحرفت ثم توقّفت. أخذ أبو منيف يصرخ:

- مهوب قصدي والله مهوب قصدي.

ولكن ناصر لم يتردّد في ضربه مرّة أخرى على وجهه ضربة أطارت غترته وخرّ الدم من أنفه. هب اللاعبون الصغار وفتحوا الباب وأخرجوا أبو منيف من السيّارة وهم يتضاحكون. كلّ منهم له تجربة مع أبو منيف بعضهم صدّه بالتي هي أحسن وبعضهم ضربه وبعضهم الآخر استفاد من عرضه المالي.

بعد هذه الحادثة بنحو أسبوع وبعد أن انهار كلّ شيء ذهب كالعادة مع عبد الهواشم وسعندي إلى قهاوي كيلو ستة. لم يستوعب بعد حقيقة وضعه الجديد. كان يظن أن الأمر سوف يقتصر على فطيس وسويلم وربّما رئيس نادي الأنصار إذا لزم الأمر. رتّب العالم في خياله ليبقى على شلّته وأصدقائه خاصة سعندي وعبد الهواشم فهما أقرب الناس إلى عمره وأكثر الناس حميمية وأصدق الناس معه. معظم شلّة عيال حلة ابن بخيت

يلتقون في قهوة الفرح كلّ مساء حتّى الساعة الثانية عشرة أو أكثر. مرّة يجتمعون في حلقة واسعة ومرّات يتوزّعون شللاً صغيرة متفرّقة. كلّ شلّة في زاوية. كان الصيف في نهايته. في هذا الوقت من السنة تعتبر مقاهي كيلو ستة جنّة الله الموعودة. يخرج إليها الشباب من كلّ حارات الرويض. يضع بعضهم الفرش في سياراتهم بشكل دائم. يأتون للتمتّع بشرب الشيشة والعشاء ثم يخرجون إلى التلال القريبة يقضون فيها بقية الليل. تغريهم نسائم الجو الباردة النقية التي تنبعث من الصحراء الخالية. يتجمّعون على رؤوس التلال يتمازحون ويتفاحشون في القول ويتضاحكون. وبعد أن يهدّهم التعب يستلقون على فرشهم يتأملون ملكوت الله المرصع بالنجوم حتّى يأخذهم النوم ثم توقظهم الشمس الساخنة.

تتوزع المراكيز على حافة مساحة القهوة وفي وسطها. كلّ مركازين أو ثلاثة معاً. إذا امتلأت القهوة من الصعب أن ترى من يجلس في الطرف الثاني منها. من يأتي متأخّراً عليه أن يبحث عن الآخرين. اعتادوا الجلوس في الجهة الشمالية ليروا جميع السيارات التي تقف في هذه الجهة وكلّ النازلين منها. كان سعندي أول من شاهد سيارة أبو منيف الونيت تركن في المواقف فأخبر صديقيه. كان في تلك اللحظة ينازع سعندي الشيشة ذات اللي الأحمر. شيشة السويمي الخاصة. يحضرها اليماني حالما يرى الشلّة قد وصلت حتّى قبل أن يأتي السويمي نفسه. تعتبر من أفضل الشيش في قهوة الفرح. ترك فحيج التنازع. لم يتوقّع أن يرى أبو منيف بصحبة فطيس. استوحى شيئاً غريباً في هذه الصحبة.

كلاهما يعرف أنه يأتي إلى هذه القهوة مع الشلّة. استوحش قلبه. قد يكون في الأمر شيء يخصّه. فطيس على قدر كبير من النذالة. ربّما باعه لأبو منيف. ما الذي عليه أن يفعله إذا طلب منه فطيس أن يذهب معهما. كيف سيتصرّف بين أصدقائه وبأي عذر ينسحب. لن يسمح لفطيس أن يؤجّره لأبو منيف. لن يذهب معهما الآن أيّاً يكن الثمن. ليس هنالك أحد لا يعرف الاثنين. كلاهما سمعته السيئة تسبقه أينما حل. أصيب بالرعب. إذا كان فطيس قد أخبر أبو منيف فقد انتهى الأمر. ستعلم الرويض بأسرها. سطع القرار في ذهنه. إذا حاولا انتزاعه الليلة فسيقتل فطيس. اعتاد فطيس أن يأتي إلى القهوة ويجلس مع الشلّة أيضاً، لكن المريب أن يأتي بصحبة أبو منيف. في الأمر شيء ما يجب تبيانه قبل أن تحلّ الكارثة. سعندي صديقه. منذ أن وعى الحياة رآه إلى جانبه. دخلا المدرسة معاً وجلسا في صفّ واحد وعلى ماصة واحدة. لا ينسى أن والد سعندي اشترى تشكيلتين لدرس الرسم، واحدة لسعندي وواحدة له. كانت أول أداة مدرسية يقتنيها. حاولت والدته أن تسدّد قيمتها فرفض. في ليالي الشتاء كانت أمّه تعدّ الحنيني ولا تسمح له بأن يذوقه قبل أن ينادي سعندي. في بعض الأحيان، يتأخّر سعندي عندهم في البيت فينامان على فراش واحد. ذهبا مرّة إلى نخل البويبية لصيد العصافير. كان الفرّاش عبد الحي يصنع نباطات ويبيعها للصغار. اشترى واحدة له وواحدة لسعندي. دخلا في النخل وتفرّقا لصيد العصافير وبعد قليل شعر أنه فقد سعندي فبكى. كان سعندي أكثر

سمرة وأنحف. لولا فرق الشبه بينهما لظن الجميع أنهما أَخوان. لا يتخيّل كيف ستكون ردّة فعل سعندي إذا عرف أن صديق طفولته قد سقط. إذا عرف سعندي بهذه الحقيقة فسيسيران في عالمين مختلفين. لا يتخيّل مشاعر سعندي إذا عرف أنه أصبح في قبضة فطيس وولد هواه. لا يتذكّر أنهما تحدّثا في طفولتهما عن المسائل المتعقلّة بالجسد إلاّ مرّة واحدة. كانا صغيرين عندما أظهرا أعضاءهما التناسلية وتكابرا. أيّهما أكبر. ماعدا تلك الحادثة كان كل شيء بريئاً. يتذكّر الجرائم الصغيرة التي كانا ينفذانها. يذهبان إلى المحيفرة. يتسللان في الزحمة بين الناس أمام أكوام البطيخ. يدخل سعندي بين المتزاحمين ويفتح رجله ثم يدفع بأقرب بطيخة من تحتها فيستقبلها فحيج الذي يقف خلفه بعيداً من عيون البائع ويفرّ بها. يجمعان أكبر كمية ثم يجلسان في أحد الأركان ويفتحان البطيخة تلو الأخرى وهما يتضاحكان من فرح الانتصار ثم يذهبان إلى مطعم أبو حسن ويطلبان صحن بليلة وصحن لقيمات فيأكلان ببطء في انتظار أن يتزاحم الزبائن في الدكان فيفران دون دفع الحساب. ويمرّان بقيصريّة آل وشيقر ويسرقان أقلاماً ودفاتر ومحّايات وأدوات مكتبية لا يحتاجان إليها.

ترعرعا معاً. لا يمكن أن يعرف سعندي عن الوضع الجديد. قفز واقفاً وقال:

- تكفون لا يدري فطيس أنّي كنت هنا. لا أحد يجيب سيرتي. أرجوكم الرجال يبي مني فلوس وما أقدر أسددها.

لم ينتظر ردّ الفعل على كلامه، ففطيس وأبو منيف على

وشك دخول القهوة. تحرّك بسرعة حتّى أصبح خارج القهوة. عبر الطريق العام بسرعة.

قهاوي كيلو ستة تقع تقريباً في البر. تبعد عن قلب الرويض حوالى ستّة كيلومترات كما يوحي اسمها. ترتص على الطريق المؤدّي إلى الحجاز. بعيدة من كلّ شيء. لا يمكن الوصول إليها إلاّ بسيارة. وقف في الجهة الثانية من الطريق في قلب الظلام. شاهد فطيس وأبو منيف يدخلان القهوة ويمرّان بجانب مركاز الشلّة. لاحظ أنهما لم ينتظرا كثيراً. تمنّى أن يعرف هل سألا عنه أم لا. شاهدهما ينتحيان بعيداً ويجلسان على مركاز يخصّهما. أحسّ أن المسألة ستطول. فالرجلان جاءا ليسهرا في القهوة. مشى في اتّجاه الرويض. كانت فرصة للتفكير في الأمر. سار في الطريق المظلم. كان يمكن أن يتعثّر بالأحجار المبعثرة على الطريق لولا سطوع أنوار السيارات التي تأتي من خلفه. سار يتأمّل في الحياة ويركل الأحجار الصغيرة والكراتين التي تصادفه ويعضّ شفته ويبلع ريقه ويضحك من نكات قديمة يتذكّرها ثم يختنق في قليل من البكاء، ويحاول أن يسرح بخياله في الظلام. ما كان يجب أن يتركهما يفعلان ما فعلاه بجسده لكن الخوف شلّ تفكيره حينذاك. لم يسمح له الخوف بتخيّل مدى الكارثة التي ستحلّ بكيانه. لم يفكر في تلك اللحظة خارج تلك اللحظة. لا سبيل إلى النجاة إلاّ بقتل فطيس.

* * *

سمع من بعيد صوتاً من الصعب التحقّق من هو صاحبه

يصيح. ناصر ناصر وسمع في الوقت نفسه صوت امرأة تقول بصوت قوي ينبعث من داخل البيت:

- أدخل في الروشن.

لم يقوَ على ترك منظر نوف بوجهها الذي منحه الحزن هالة نورانية مشعة تنهمر عليه خصلات شعرها الأسود المبعثر، فبدا كأنه حزمة من الورد في قبضة المساء. من الواضح أن حزنها لم يولد بسبب الموت الحاضر بالقرب منها، وإن أسهم هذا الموت في تعزيزه، ولكنّه حزن عميق تمتدّ جذوره إلى خيبة حياتها. يعرف أنه سيعاني كثيراً إذا تزوّج هذه المرأة ولكنّها قدره. سيكون حزنه وحزنها وقود الحياة المقبلة. لن يتخلّص أيّ منهما من العطب الذي أصابهما. تمنّى في هذه اللحظة أن ينزل إليها ويبكي في حضنها حظّه وحظّها العاثرين. فرصة البكاء دون إحساس بالعار. العذر جاهز. الموت يمنح البكاء والحزن فرصة. شاهد تحت عينها اليسرى تجعيدة فتنبّأ بالمستقبل، ربّما كانت بقايا كحل أو خطوطاً يرسمها الحزن على وجهها أو وربّما كان وهم الظلال الذي ينتجه شعرها المتذبذب على جبينها. إنه أجمل حزن شاهده في حياته. لعلّه لن يحصل على هذه الفرصة ليتأمّل حبيبته. ولكنه مضطرّ إلى أن يتحرّك ويتّجه ناحية درج الروشن وينزل ببطء. شعر ببرودة في أطرافه. كان عقله يعمل بنصف طاقته. لا يتذكّر أنه استقبل أحداً منذ الصيف الماضي. آخر من زاره كان ابن فهيدان على أمل أن يعملا معاً في إصلاح السياكل. كان في حاجة إلى أكثر من ثلاثمائة ريال لشراء كميات من التلبيسة بألوانها الستة

المطلوبة من الصبيان ويحتاج إلى مبلغ إضافي لتأمين مستلزمات السياكل حتّى يضمن ربحاً أكبر في دكانه. كانت فرصة كبرى. حوّل محبّته للسياكل إلى وظيفة يعيش منها بعد أن انتشرت موضة السياكل بين أطفال الرويض. صار شارع المشمسي القديم معرضاً ممتدّاً لمحال بيع السياكل وإصلاحها وزخرفتها حتّى نافست دكاكين الحلاقة والحجامة التي يديرها الأفارقة. كان يشتري الخربة ويصلح ما يمكن إصلاحه ثم يبيعه ويحوّل ما تبقّى إلى قطع غيار. حقّق أرباحاً تغطّي مصاريفه وتزيد قليلاً. كان قد ترك المدرسة قبل أن يتمّ الكفاءة المتوسطة. ترك المدرسة على أمل أن يلتحق ببعثة عسكرية إلى باكستان. سمع بها من الإذاعة ومن بعض أولاد الحارة. مدّة الدراسة ثلاث سنوات يعود بعدها رقيباً فنياً ميكانيكياً في مجال الطيران. راوده حلم الابتعاد عن الرويض. ثلاث سنوات مدّة طويلة تستريح فيها روحه من شقاء جسده المنتهك. قدّم أوراقه إلى شعبة الطيران الملكي. وسّط من يعرف دون تمييز. تدخّل خاله ووالد سعندي وأبو عبد المحسن والشيخ حسن. هبّت حلة ابن بخيت لمساعدته مدفوعة بنفحة إنسانية نقيّة. ذهب أبو سعندي إلى الناصريّة يطرق الأبواب العالية، وتحدّث أبو عبد المحسن مع شنغافة أن يكلّم الأمير أو الأميرة إنْ كان ذلك ممكناً. وقام الشيخ حسن باتصالاته الواسعة عبر القنوات الدينية. لكنه أخفق في آخر لحظة بسبب قَدَمه المفلطحة. أخبروه في قسم الطيران بالرفض، كان الرقيب المكلف إعلان النتائج في منتهى الكياسة ولكنه كان واضحاً معه. قال له إن مثل هذه المشكلة لا يمكن حلّه بالواسطة

فلا تتعب نفسك. قبل النتيجة وعاد إلى البيت خائباً. من المستحيل أن يتضاءل في المدرسة مرّة أخرى. حلم الباكستان وسّع أطماعه. فانتهت الصيفيّة ولم يعد إلى المدرسة. فكّر في مصائر مختلفة كل منها أضيق من الآخر. كأنما وقف وسط شوارع غامضة متقاطعة. انتظر مبذولاً للعابرين. قلق الحيرة يأكل روحه. لا يعرف أي الطرق كان يمكن أن ينقذه من الانتهاك. أصيب بإحباط شديد. شاهد بخياله باكستان البعيدة عن الرويض التي لا يعرفه فيها أحد. المكان الوحيد الذي كان يمكن أن ينقذه من ورطته. قرأ الشروط والامتيازات بعد التخرّج. عندما يعود سيُعيّن في إحدى القواعد العسكرية بعيداً من الرويض. كان يمكن للقدر أن يسوّي الأمور ولن يخسر هذا القدر الظلوم شيئاً. أخذه خياله إلى كلّ النهايات السعيدة. ناقش مع أمّه التفاصيل. وافقت على سفره وسط سيل من الدموع. استغاثت بحكمتها على هاجس الأمومة الضعيف وانتصرت عليها. كانت وعود الباكستان ملأى بالأيام العذبة. راتب ثمانمائة ريال وفيلاّ فاخرة في القاعدة العسكرية له ولعائلته. ولكنه كذب عليها حين وعدها بأنه سيعود في جميع الإجازات. كان في الواقع قد قرّر ألا تطأ قدماه حلة ابن بخيت أبداً. سيمضى فترة الدراسة كاملة هناك ولن يعود إلاّ بعد التخرّج متّجهاً على الفور إلى القاعدة العسكرية ثم يرسل من يحضرها إليه. وضع التفاصيل كلّها في خياله. كلّ شيء كان رائعاً واعداً بعيداً ولكن قدمه المفلطحة كانت له في المرصاد كما كان جماله.

* * *

قبل أن ينزل تفقّد الروشن. كل شيء في مكانه. عائلة عمّه وبعض نساء الجيران وضعوا دلة القهوة وإبريق الشاهي والمبخرة في وسط الروشن. أشياء لم تخطر على باله من قبل. أطلّ من الطرمة. شاهد رجلين لا يعرفهما بصحبة فطيس. نزل وفتح الباب. رحب بهم وطلب منهم الصعود. كان قد نسي هذه الأمور. لا يعرف كيف يضيف الرجال. ولكنه التقط الدلة وأخذ يصب منها في الفناجين فقفز فطيس في مبادرة كريمة وانتزع الدلة منه. وهو يردّد:

- ما يصير استرح يا ناصر خل عنك القهوة الله يرحمها ويغفر لها.

ردّد الجميع العبارة نفسها بعد أن قالوا الكلمات التي يجب أن تقال في هذه المناسبة وأخيراً لاذ الجميع بالصمت. ليس هنالك مجاملة يمكن أن تقال لاختراق هذا الصمت. لقد توقّفت علاقته الآثمة بفطيس منذ زمن طويل، ولكنه ما زال يشعر بأن ثمة شيئاً بينهما لا يمكن قطعه إلاّ بالموت. استغلّ الصمت ليتأمّل الزولية الكاشانية القديمة التي اشتراها من أبو مساعد قبل أربع سنوات من ربح أوّل صفقة بيع بسكليتات أصلحها بجهده وتعبه. يومذاك كان يتوق إلى أن يكون لديه بيت ومجلس يستقبل فيهما بشراً يسميهم أصدقاء. شعر أن هذه السجّادة هي أوّل شيء يمكن أن يربطه بعالم الرجال المحترمين. بعد بضعة أشهر أخرى استطاع أن يشتري مجموعة من المراكي والمساند المحشوّة بالتبن، ثم بدأ يؤثّث المطبخ باللوازم الضرورية. صرف معظم وقته بين دكان إصلاح

السياكل والحراج. غاص في العمل. تدنّت علاقته بأقرانه حتّى بعد أن كبر وانتفت الحاجة إلى جسده. عاد مرّة أخرى إلى مستوى الصداقة وإن كان ماضيه يفرض حضوره دائماً الأمر الذي جعله أكثر تواضعاً وطيبة. يضطرّ إلى أن يقبل المزاح الثقيل والكلام الجارح ويضحك مع الضاحكين. لا أحد يشير إلى وضعه السابق بشكل مباشر ولكنه كان يعرف ذلك من الضحكات وأحياناً لا يستطيع أن يفسّر الأمر. كان يؤلمه تصرّف الناس الطيبين الذين يدفعون إلى تغيير الموضوع عندما يلمح أحدهم إلى المواقف القديمة وهم ينظرون إليه ليروا في عينيه الشكر والامتنان. مرّ على آخر مرّة نام فيها تحت رجل أكثر من خمس سنوات. وافق بالإكراه. كانت عملية سريعة مفتعلة لم تسفر عن نهاية. كسرة عين. كان يلعب بلوت في بيت عمر. كانوا خمسة شُبّان، كل واحد كان له شريك في اللعب ما عدا سويلم الذي جاء متأخّراً. طلب منه سويلم أن يتنازل عن دوره. لقد توسّل سويلم إليه بطريقة تدلّ على الثقة بالموافقة. ولكن فحيج رفض على أساس أنه يمون وأن أيام الامتهان قد ولّت. لم يكن رفضه قاسياً. كان رفضاً مصحوباً ببعض الضحكات. على أساس أننا صديقان ويجب أن تقبل منّي الرفض. وقد دفعه عمر إلى هذا الرفض عندما قال أنا ما أبغي إلعب إلاّ مع ناصر. لكن سويلم شعر أن من حقّه أن يلعب قبل ناصر. أيّد الجميع فحيج واضطرّ سويلم إلى أن ينتظر شريكاً آخر أو أن ينتظر الفريق المهزوم ويختار أحدهما لمشاركته. انتهت اللعبة وسرى الجميع. بقي هو وسويلم يتبادلان أطراف الحديث مع عمر. طلب

سويلم ماء، وما إن اختفى عمر حتّى اقترب منه سويلم وطلب منه أن ينام. رفض فحيج. كان رفضاً مسالماً في إشارة إلى أن كلّ شيء قد انتهى. ولكن سويلم اقترب منه أكثر وسحب ساقه ولواها. كانت من أصعب اللحظات على فحيج. تذكّر أنه كان قادراً على المقاومة. لا يعرف لماذا خارت قواه وضعف. قاوم بطريقة من يطلب العفو من خصمه. استخدم قوّته أثناء الترجّي والتضاحك. يؤخّر العملية لعلّ سويلم ينتهي بنفسه. يريد من سويلم أن يتوقّف على أساس أن ما يجري ليس سوى مزاح. إذا انتهت المعركة بهذه الطريقة فسيكون قد تخلّص نهائياً من هذه العلاقة. لكن سويلم أدخل يده حتّى أمسك بالسروال وراح يسحبه من تحت. ساعده على انتزاعه محاولات فحيج الابتعاد عنه. لم يكن سويلم في حالة تهيّج جنسي. شجّع ذلك فحيج على بذل مزيد من المقاومة المحسوبة. يريد أن يتخلّص من قبضته بهدوء. لا يعرف ما الذي يمكن أن تنتهي إليه الأمور إذا انتزع نفسه منه بالقوّة الكاملة. لقد وطئه سويلم مرّات لا تحصى. لن تضيف هذه المرّة شيئاً جديداً للتاريخ المشين المشترك. حتّى في هذه المرحلة التي وصلت فيها يد سويلم إلى آخر فخذه من الأعلى، ما زال فحيج يرجو أن يتحوّل هذا الهجوم إلى مزاح. ينتهي بضحكات وشتائم أصدقاء. ولكن سويلم ألقى بنفسه عليه، فاضطرّ إلى أن يستند بكتفه إلى المسندة. والتوى بجسده حتّى أصبح بإمكان سويلم أن ينجز هدفه دون أن يكون قد نام على بطنه تماماً. لم يتردّد سويلم ولم يطلب أكثر من ذلك. يبدو أن سويلم أيضاً كان يريد أن يقطع معه نصف الطريق

لإنهاء هذا الشيء. التصق به على جنب وهزّه بضع هزّات بقوّة مرتخية لا تقود إلى المتعة. استمرّ الوضع حتّى سمعا وقع قدَمَي عمر. فقال فحيج بروح مرحة زائفة:

- لا تمزح يا سويلم يا شيخ فكّنا من مزحك الله يلعن يومك.

كانت تلك العبارة ضرورية لاستقبال عمر قبل أن يراهما بهذا الوضع. من حسن حظّه أن سويلم خالٍ من الرغبة تماماً. عندما دخل عمر الروشن وفي يده غضارة الماء كان سويلم قد نهض وفحيج يرفع سرواله وهو يردّد:

- الله يلعن أختينك أنت ومزحك يا سويلم.

لا يخفى الأمر على عمر فلم يعلق، ومدّ الماء لسويلم كأنه لم يرَ شيئاً. لم يكن سويلم قويّ البنية. كان يمكن مقاومته. ولكن الأمر لم يكن بهذه السهولة. كانت تلك آخر حادثة في الطريق المشين المرسوم على جسده.

خرجا معاً من بيت عمر وسارا حوالى مئتي متر. فكر فحيج أن يفاتح سويلم في الموضوع لينهي هذا الشيء ولكنه تردّد. لا. يجب أن ينتهي هذا الشيء بالصمت كأنّه لم يحدث. يجب أن يتجاهله الطرفان وكأنّه حدث في حياة أخرى. ما حدث قبل قليل نهاية مقبولة ارتضاها الطرفان. التاريخ المشين يتحوّل إلى مزحة ثقيلة. كان سويلم على استعداد أن يفهم الرسالة. من الواضح أن رغبته فيه قد انتهت. ما جرى يتعلق بالكبرياء لا بالشهوة. كان سويلم يريد من فحيج تنازلاً مقابل العلاقة القديمة، وفحيج يريد

تنازلاً يعبّر عن روح الأخوّة كثمن زهيد لإذلال قديم. صراع من أجل تغيير المواضع. لكن الخراج المتقيّح تحت الجلد لا يحتمل اللمس والاقتراب الناعم. يحتاج إلى خنجر يماني يفصده ويطهّره. تذكّر الدمل المتضخّم الذي ظهر على حافة فخذه من الخلف. بطحته أمّه على بطنه ثم بدأت تتحسّس رأس الدمل. كانت تلمسه برفق ولكن الألم كان لا يطاق. لم ينتبه للسكين التي كانت في يدها الأخرى. بضربة واحدة حازمة فصدته. صرخ صرخة واحدة قفز فيها الألم حتّى وصل سويداء قلبه ثم انطفأ كأنّه لم يكن البتة لتحلّ محلّه لذّة القيح الحارّ الذي تدفّق على جلده. ثم شعر بآلام خفيفة من ضغط أصابعها على حواف الجرح وهي تنظّف ما تبقّى من صديد وما يصاحبه من دم فاسد. كانت آلاماً لذيذة. السكين هي اللغة الوحيدة التي تتواصل مع الجروح في مخابئها. لا يمكن فتح موضوع كهذا بعد هذه السنين كلّها. لقد انطوى سويلم وفطيس كجرحين مغلقين متقيّحين في قاع مؤخّرته. اللمس الخفيف سيزيد من ألمهما. السكين اليمانية هي العلاج الوحيد. يجب أن يقفز الألم وينهار كما حدث مع ذلك الدمل الخبيث. سيخرجهما من مؤخّرته كما أخرجت أمّه الصديد والدم الفاسد. تأمّل الظلام الذي كانا يسيران فيه وقبل أن ينعطف مع السكّة التالية، التفت إلى سويلم وسأله:

- صحيح أنت هربت بنت الهاص.

سؤال تقني عن البلوت يجعل السهرة تكتمل. ما كان ممكناً أن تكبت لولا تهريب بنت الهاص. من الواضح أن الذي هرب

بنت الهاص كان محترفاً يجيد الخداع في لعب البلوت. شعر سويلم بالمديح المنطوي في السؤال. سويلم من المهووسين بلعب البلوت. ورقة اللعب في جيبه. يشترك مع كل الشِّلل التي تلعب بلوت حتّى وإن كان لا يعرفهم جيّداً. يسرّه أن يسمع من يمدحه. فقال من باب التمنّع الماتع والدفع نحو المزيد من المديح:

- لا يا شيخ مهوب صحيح.

فقال فحيج ليؤكد مديحه عندما أحسّ أنه ضرب على وتر السعادة عند سويلم:

- قدرت تمررها ما لاحظها أحد. أعرفك ما فيه أخبث منك في البلوت.

كان قد عبرا شارع العطايف. كان يفترض أن ينعطف سويلم ناحية سكّة سبيكة ويترك فحيج يكمل طريقه وحده، ولكنه لم يقو على مقاومة المديح ففضّل السير مع فحيج حتّى دخلا سكّة ابن فيصل ومن هناك ودّعا أحدهما الآخر بضحكات سعيدة.

عندما يخرج الأصدقاء آخر الليل بعد جولات لعب الورق الساخنة لا بدّ أن تستكمل النقاشات في الطريق. لا بدّ من بناء علاقة طبيعية. الدخول في حوار كأن الجسد غير موجود. هو واحد من الشلّة ويلعب بلوت بشكل جيّد. يتقبّل الشتائم من زملائه ويردّ عليها بحذر. كلّ شتيمة تخرج من فمه تصاحبها ابتسامة حتّى لا يأتي الرد خارج السياق ويتجاوز الحدود. الجميع يعرف تاريخه المشين ويمكن أن يستخدمه ضدّه في حال الغضب. أكثر ما كان يقلقه ابن عبيّد. سليط اللسان. يمكن أن يقول

الكلمات دون تمييز. يريد إضحاك الناس بأيّ ثمن. ليجامله كان يضحك على كل نكتة يطلقها وإن كانت سخيفة. صار من أهمّ جماهيره والمعجبين بنكاته. فلاحظ أن ابن عبيّد يلتفت إليه عندما يطلق النكتة ويرى أثرها عليه. ولكن كان عليه الحذر. فليست كل نكات ابن عبيّد بريئة، ربّما تؤدّي إلى عواقب وخيمة إذا كانت تسخر من أحد. عليه أن يدرسها بعناية قبل أن يطلق ضحكته. حدث في إحدى الليالي أن أطلق ابن عبيد نكتة على شاب اسمه الدجة فضحك فحيج ضحكة سريعة. كانت نكتة حقيقية تستحقّ الضحك. ضحك الجميع ولكن فحيج ضحك أوّلاً وبشكل انفجاري. التفت الدجة وقال بطريقة غير متوقّعة:

- حتّى المخانيث صاروا يضحكون علينا.

هبطت عليه الكلمات كالماء البارد. شعر أن معدته تريد أن تفرغ محتوياتها. إنّها غلطته لا غلطة الدجة. لقد بالغ في الضحكة وتسرّع. كان يجب أن ينتظر حتّى تنفجر الضحكات ويلحق بها وأن يوازن بين النكات البريئة والنكات الموجّهة ضدّ الآخرين. حياته تقوم على حسابات معقّدة. ولكنه عاد تلك الليلة بحسابات أخرى. لقد انتهت رغبة سويلم وغيره في جسده. ولن يسمح للشاذين أن يعبروه مرّة أخرى. كان يعرف أن لذّة جسده قد انتهت وحلّ محلّه صبيان صغار. كان يراهم في بعض الأحيان في الحراج أو في الملعب يسيرون بصحبة الأشقياء. بعضهم يسير طوعاً وبعضهم يسير بانكسار. صراع الشهوات يتواصل عبر الأجيال. صحيح أن عددهم نقص مع ازدياد حمى السفر إلى جزيرة اللؤلؤ

واكتشاف قرندول ثم السفر إلى بلاد الكواولة والدوب في عبدان. يعدّ فحيج من الفاتحين الأوائل. سافر عشرات المرّات إلى قرندول. عرف مبروكة وبنت مستورة ونهاد وبدور وسبجوه. أكثر من امرأة أحبّته. كل امرأة نام معها كانت تضمّه وتتنهّد وتسمح له عند الذروة أن يقبّل فمها. لم يأسف يوماً على وسامته الغابرة. كانت أكبر عون على تحطيم حياته. كان يمكن أن ينجو كما نجا سعندي صديقه المماثل له في السن لو كان قبيحاً مثله. وسامته نفعته في قرندول وحطمته في الرويض وقبح سعندي نفعه في الرويض وحطمه في قرندول.

* * *

يسمع في لحظات خاطفة أصوات نساء تترامى. أيقظته من سرد أيّام مؤلمة أصبحت الآن بعيدة حسب التاريخ المكتوب على الجسد. تذكّر الآن أنه يجلس مع فطيس ورجلين في عزاء. حاول أن يركّز لعلّه يسمع صوت نوف. آخر خيوط الدنيا التي سيمسك بها. سينقذ نفسه من نفسه بالزواج بهذه المرأة. اقترانه بنوف أمر حتمي لا يقبل الجدل أو النقاش. إنها الحلّ الوحيد الذي سيعيد إلى الأشياء استقامتها. إذا فاز بنوف فسيكون حقّق نصراً على كلّ الرجال في معركة حاسمة. أقرّ العالم بذلك أم رفض. إنّها فرصته الوحيدة التي سيحقّق بها اختراقاً لمنفاه القسري عن رجولته. لا يتخيّل المرء أيّ حياة يعيشها الإنسان إذا نفي خارج طبيعته الإنسانية التي ولد عليها. زواجه بها هو الأمر الوحيد الذي سيعيده إلى منطقة الأحاسيس الذكورية. رفع رأسه وألقى نظرة سريعة على

وجه فطيس. لاحظ عليه كثيراً من الجدّية واحترام الموت. قبل سنوات قليلة، كان يعيش مع هذا الرجل كزوجته. خنقته الدموع فظنّ الجميع أنه يبكي فراق أمّه. فقال له أبو ثامر:

- هذي حال الدنيا يا ناصر. كلّنا لها وأنا أخوك.

أخذ فطيس الدلة مرّة أخرى وصبّ للجميع. كاد فحيج أن ينتقل من البكاء إلى الضحك. حتّى فطيس يقدم خدمات إنسانية في الأوقات الصعبة. لا شكّ أن الموت هو سيّد الأزمنة. تطفو على سطحه حثالة العواطف المنسيّة. بدت بوادر تعاطف وحنان على وجه فطيس لم يشاهدها منذ لقائهما المشين في المقبرة. لا يمكن أن ينسى كيف توسّل إليه وقبّل يديه كي يعتق شرفه ورجولته. اكتشف أن فطيس كان يزداد شهوة وتسلّطاً عندما يسمع مثل هذه التوسّلات. تذكّر أنه انقضّ عليه بعد تلك التوسّلات وراح يقبّله ويحتضنه ويغوص في جسده صلباً مشتعل الفحولة. بلغ فطيس في ذلك اليوم غاية الهيجان. لو لم يذعن له لكان قد قتله لا محالة. تذكّر أنه كان في مقبرة من الممكن أن يدفن فيها دون أن يعلم أحد. لقد أعدّ القدر كلّ شيء لتكون الحياة على ما هي عليه الآن. لن يعود إلى الماضي لتصحيحه. لقد مضى جسده الجميل إلى غير رجعة. امتلكه هذا الرجل الذي جاء اليوم ليشاركه في الحزن على فراق أمّه. يبقى أمامه فرصة واحدة تركها له القدر لقطع الحاضر عن الماضي. يجب أن يغدر بهذا الرجل ويقتله قبل أن يزور الموت أيّاً منهما. رتّب الأمر أكثر من مرّة. لم يفشل في قتله لكنه فشل في إنزال القتل المناسب به فتركه حتّى يأتي الظرف المناسب. كان

الخنجر اليماني عزاءه الدائم. هو الرباط المقدّس الأخير بينه وبين فطيس. فكما غرس فطيس عضوه التناسلي في جسده مئات المرّات سيأتي اليوم الذي يغرس فيه هذا الخنجر مئات الطعنات. لن يقتله بل سيحطّم جسده بشكل منهجي. سينغرس هذا الخنجر في كل الأماكن التي لامسته ودمّرت رجولته. سيفسح له في المجال لكي يتوسّل ويبكي ويطلب الصفح والغفران. إنّ قتل فطيس عمل لا يقوى على تنفيذه سوى الشيطان. صار يؤجّل قتله لكي يجمع من الشيطان جميع إيحاءاته ويحدّد له المكان والزمان المناسبين. ترك الأمر مرهوناً بأمر الشيطان ومشيئته. تأمّل وجه فطيس. يريد أن يعرف من ضرب فطيس في وجهه وترك هذا الشطب الغائر. سأله مرّات عدّة ولكن فطيس كان يتهرّب من الإجابة. شيء طبيعي أن يوجد في وجه فطيس ضربة كهذه. فطيس ليس قبيحاً. يمكن أن يكون في يوم من الأيام هدفاً من الأهداف العابرة. لكنه لا يعرف شيئاً عن طفولة فطيس الذي جاء من بلدة الدريعي فتى يافعاً. حقّق على الفور مكانة مرموقة بين الأشقياء. يبدو أنه جاء متكامل الخبرة. لم يحتج إلى تدريب أو تعليم. يشرب دخاناً ويشفط بنزيناً وإذا لزم الأمر يشرب عروق شجر. كما كان رائداً في شرب الخرش ثم العرق. لا يترك شيئاً من دون أن يجرّبه. حنطيّ اللون، طويل القامة على قدر من النعومة. يتمتّع بعينين ناعستين لا تشيان بالعنف والكراهية. ساهمت هاتان العينان في خداع كثير من الأطفال. عيبه الإفراط في الخساسة وميله الفطري إلى الشذوذ. يتضافر هذان العاملان في روحه كأنّهما شيء واحد. لا يؤثر عنه

ملاحقة النساء أو التحرّش بهنّ. يعرف في الحارة أنه سطاي. يضرب بأي شيء تطاله يده. يذهب في الخصومات إلى أقصاها ممّا يضطرّه إلى أن يحمل سلاحه الأبيض أينما ذهب. وبرغم سيطرة الشهوات على روحه يتمتّع بملكة حسن التدبير التي حمته من الوقوع في قبضة العدالة ودخول السجن. طويل النفس، محاور جيّد، يرسم خططه وينتظر أن تنضج، وعندما تحين الساعة ينفّذها بحزم لا يشوبه التردّد. كلّ تقديراته كانت صائبة. يعرف الأولاد الذين ينقضّ عليهم ويكسرهم بالعنف. خدمه في ذلك انحطاطه وافتقاره إلى الشهامة. يستطيع أن يتنازل للأقوياء بسهولة. حاول فحيج أن يعرف شيئاً من تاريخه. ولكن دون جدوى. يشكّ في أن هذا الرجل العنيف الكاسر يخفي في تاريخه شخصاً سبق أن انتُهك. لا يعتدي إلاّ على الناس الذين يعرفهم. يسكن مع أهله وإخوته. تذمّر منه والده كثيراً.

* * *

نهض أبو ثامر وهو يقول:

– الله يرحمها ويسكنها الجنّة ترى الجماعة مشغولين شوي ووصوني أن أقوم بواجب العزاء بيجي بعضهم يساعدونك. وأن شاء الله بيلاقيك الباقي في المسجد أو في المقبرة.

لم يفهم ما الذي يرمى إليه أبو ثامر، فالعزاء يختلف عن العزيمة، إمّا أن يأتي المرء أو يغيب. لا يحتاج إلى الاعتذار إلاّ من كان غائباً عن البلد. ترك الأمور وردّد ببطء جزاكم الله خيراً ثم صمت بلا تعليق. نزل معهم تمتم بكلمات شكر ودعاء حسبما

تجود به لغته في مثل هذه المواقف. وقبل أن يصلا إلى الباب تباطأ فطيس حتّى خرج الجميع من البيت وهمس في أذنه:

- أي شيء تحتاجه اعتبرني مثل أخوك.

إذاً لن يأتي أحد يعزّيه. موت أمّه أقلّ من الموت العادي. مجرّد عجوز فقيرة تختفي وعزاء لرجل منقوص الرجولة. لن يتفرغ لإزعاجه أحد. صعد مرّة أخرى إلى الدور الثاني ووقف في المصباح المواجه للحجرة التي كانت تنام فيها أمّه. جذبه صوت النساء المرتبك فأطلّ. شاهد عدداً من النساء يقفن بشكل دائري ثمّ شاهد أمّه عارية ملقاة على المحمة بجسدها الضامر المتهالك فأشاح بوجهه بسرعة، وفوضى النساء وصراخهن يلاحقانه. خليط من بكاء ودعاء وإصدار أوامر. أشاح بنظره. لقد أصبحت في المرحلة الأخيرة من الاستعداد. ذهب إلى الغرفة وألقى بنفسه على الفراش وقبل أن يقع في أحد أحلامه سمع من يناديه. الصوت قريب جدّاً. رفع رأسه فشاهد خاله فهد. كان خاله قد دخل الغرفة ووقف فوقه. نهض بسرعة وعانقه. سأله الخال أن يذهب إلى بيت المؤذن حميد، وأن يطلب منه دعوة الناس إلى الصلاة. سوف يحضر الناس بعد قليل وستكون منيرة جاهزة. ابتسم في داخله. تكون جاهزة لأي شيء؟ عرسها الثاني والأخير. فهم الأمر بالطريقة التي يريد بها خاله أن يفهمها. خرج مسرعاً من الغرفة واتّجه إلى درج الروشن، وهو يقاوم الرغبة في النظر مرّة أخرى إلى بطن البيت. يعتريه الشوق لإلقاء نظرة على إحدى المرأتين.

* * *

خرج من البيت. كان النهار قد وسّع حضوره والشارع ما زال خالياً. في طريقه إلى بيت المؤذن ألقى نظرة عجلى على بيت سويلم الذي انتقل إليه مؤخراً. حاذر أن يراه أحد. لا يبدو أن أحداً عرف بما جرى. عليه أن يغادر بعد العودة من المقبرة بصحبة خاله إلى بيت خاله ويبقى معه هناك حتّى يكتشف الناس ما حدث لسويلم. لن تتّجه أصابع الاتّهام إليه أبداً. بعد قليل سيرى المقبرة التي سيُلقى فيها بجسد سويلم. ستحتاج جثته إلى وقت قبل أن تُكتشف. كان يتمنّى لو قتل سويلم في مقبرة العجلية المهجورة ودفنه هناك كما خطط. سيتعرّف موتى مقبرة العجلية على سويلم. ستذكّرهم جثّة سويلم بما جرى في ذلك اليوم. سيكسب احترامهم الصامت.

* * *

ما أروع الموتى عندما تنطوي في قلوبهم الأسرار. ما زال يحتفظ هو وإياهم بالسرّ الكبير. في إحدى المرّات تأخّر في المقبرة إلى ما بعد صلاة المغرب. كان القمر الضعيف يضفي لمعاناً نحاسياً على القبور. يجعل الأشياء أكثر نقاء وقرباً من القلب. بدا الموت المنتشر أمامه شفّافاً يرى من خلاله كل الذين ينامون خلفه. كاد يلمس زجاج الفراق الرقيق. شعر بالطمأنينة والهدوء فاستعذبت روحه النوم الطويل تحت حدبات القبور التي تبدو كقوارب صغيرة تتسابق في نهر الموت الأبدي. غلبه النعاس فمال صوب الحائط وغفا. استيقظ على صوت خفيض. ظنّ أنه كان يحلم فنهض ونفض ثوبه وقبل أن يخرج من الغرفة استوى على الأرض وأشعل سيجارة لمعت شعلتها في قلب الظلام. أخذ يسحب منها بهدوء

وعيناه تبحثان في الظلام المخفّف بضوء القمر عن أيّ شيء يعيده إلى الحياة. أصاخ سمعه لعلّه يسمع الصوت الخفيض مرّة أخرى وعيناه تحدّقان في القبرين الجديدين اللذين رآهما أوّل مرّة عندما جاء إلى هذه المقبرة. يريد أن يعرف من يرقد فيهما. فهما الشاهدان على ما حدث له في ذلك اليوم الوضيع. تخيل أن فطيس وسويلم يرقدان فيهما. استعذب الفكرة. أطفأ السيجارة وخرج من الغرفة ووقف ينظر في السماء البعيدة والأرض الملأى بالغياب، لا يعرف من يتحرّك هناك ولا من ينام هنا. في لحظة خاطفة أحسّ أن ثمة حياة تدور حوله. أربكت الظلمة مشاعره. قرّر أن يخرج من المقبرة حالاً قبل أن يتفاقم إحساس الحياة المنبعثة من القبور. ربّما كان شيئاً حقيقياً وربّما كان وهماً. لكنه لاحظ فجأة في الجهة الثانية من المقبرة شبحين فجلس فوراً على الأرض كي لا يرياه. كانت معظم القبور مفتوحة من الأمطار ونبش الكلاب الضالّة. لم يتبيّن ما الذي يفعله الشبحان. سمع ضرباً على الأرض وهمسات بعيدة. بعد ساعة تقريباً نهض الشبحان. وقف أحدهما وتلفّت في كلّ الاتجاهات كأنّهما سمعا شيئاً. انتابه الخوف فمدّد نفسه بسرعة بين قبرين. شاهد أحد الشبحين مقبلاً ناحيته. شعر بالرعب لكنه لم يكن يملك خطّة أخرى. صمد صامتاً. أخيراً تحرّك الشبحان إلى الجهة التي جاءا منها وخرجا من إحدى الفتحات في السور المتهدم. مكث أكثر من ساعة على تلك الحالة حتّى لا تكون خدعة. وبعد أن تأكّد أن كلّ شيء على ما يرام، نهض وخرج من المقبرة وذهب إلى شلّة السويمي. لم يخبر أحداً بما شاهده في المقبرة. لا يريد أن

يعرف أحد بأنه كان في المقبرة في تلك الساعة. تردّد قبل أن يعود مرّة أخرى بعد بضعة أيام إلى المقبرة مدفوعاً بالفضول العارم. ما زال القمر واهناً لكنه أكثر لمعاناً. دخل المقبرة خلسة واتّجه إلى المكان الذي شاهد فيه الشبحين يقفان. خمّن أنّهما خبّآ شيئاً في أحد القبور المفتوحة. نبش أكثر من قبر. لم يعثر على شيء. وفي اليوم التالي أحضر معه مسحاة وخبّأها في أحد القبور. انتظر أيّاماً عدّة إلى أن ازداد ضياء القمر. صار يكشف له الأشياء القريبة. حفر أكثر من قبر وأخيراً أحسّ أن المسحاة تغوص في شيء ليّن. رمى المسحاة وأخذ يحفر بيده. بدأ يشمّ رائحة كريهة تتزايد كلّما اقترب من الشيء الليّن. فتبيّن له في النهاية جثة طفل حديث الولادة. شديدة التشوّه. ربّما مزّقتها ضربات المسحاة. انتظر قليلاً حتّى فارقه الجزع ثم أعاد دفن الجثّة مرّة أخرى. التقط المسحاة وهرب. منذ تلك اللحظة لم تعد المقبرة المكان الملائم لتنفيذ رغباته. شعر فيها بحقيقة الموت. كان يجب أن يلحق بالشبحين ويعرف منهما ما علاقتهما بالرضيع. حاول أن يتذكّر أيّ شيء يمكن أن يقوده إليهما. أحدهما كان أقصر من الثاني. هل كانا رجلين أم رجلاً وامرأة. صار يقرأ في عينَي كل من يصادفه لعلّه يظفر بأي دليل على الجاني. أصبح جميع أهل الرويض متّهمين بقتل الرضيع. لا يمكن أن يتخيّل أن هناك من يجرؤ على قتل رضيع لا يتجاوز عمره يومين، أو ربّما كان وليد ذلك اليوم الذي دفن فيه. لا شكّ أن شرف امرأة يقف وراء هذه الجريمة. تذكّر أنّه رجل مهدور الشرف منذ أن اغتصبه فطيس وسويلم. تخيّل امرأة تقتل رضيعها خشية من العار. امرأة

تخبئ عارها بجريمة مشينة وهو يبذله لمن يستمتع به. حاول أن يضع قائمة بكلّ الذين اقتحموا شرفه. فطيس وسويلم وعيال ابن نقية وشنغافة وأبو منيف راعي الونيت حتّى سعندي صديقه الحميم وقائمة لا تنتهي من أناس لا يعرفهم. كل هؤلاء احتضنوه، ضمّوه وتمتّعوا بجسده. تذكّر رائحة فطيس عندما ضمّه أوّل مرّة وطوّق وسطه ووضع يده الأخرى حول رقبته حتّى كاد يخنقه ممّا اضطرّه في كلّ مرّة إلى أن يدفع بخدّه ناحية فم فطيس المحموم ليمنحه القبلة التي يبحث عنها. خيّل إليه أن أنفاسه منتنة كأن فيها شيئاً من رائحة الطفل المتعفّنة. ولا ينسى رائحة فم أبو منيف عندما ضاجعه أول مرّة. كلّ الذين ضاجعوه كانوا يطلبون منه أن ينبطح على بطنه عدا أبو منيف الذي طلب منه أن ينام على ظهره. عرف بعدها أن أبو منيف كان يريد منه أن يكون في صورة امرأة. كان يقبّله على فمه أثناء المضاجعة. كان اللعاب الساقط من فمه مريعاً. بكى في حياته كثيراً. تركّزت في ثلاثة بكاءات جرت كلّها في المقابر. المكان الطبيعي لنزف الدموع. البكاء الأوّل عندما انتهى منه فطيس وسويلم وتركاه وحيداً يمسح آثار المني من طاقيته بعد أن استخدماها لتنظيف عضويهما عقب الانسحاب من جسده. والثانية عندما شاهد جسد الطفل المتعفّن يختلط بالتراب كأنما هو مخلّفات إنسانية. والثالثة عندما أنزل أمّه داخل القبر بتوصية من الناس حتّى يكون الرجل الذي يضع لبنة الظلام الطامسة ليسدّ بها آخر علاقة لها بالشمس.

* * *

سمع أصوات النساء تزداد. بدأن يتحدّثن عن تسخين الماء.

سمع قرقعة السطول التي ستغسل بها. أزفت ساعة الرحيل. الغسل ثم الكفن فالصلاة وأخيراً حفرة ستتعفّن فيها ما شاء لها التعفّن.

* * *

بعد ثلاثة أيام من دفن والدته عاد إلى البيت. استقبلته رائحة الكافور. عطر موتى المسلمين. كان قد شمّ هذه الرائحة قبل ثلاث سنوات. شارك في غسل خاله الأكبر محمد الذي مات في حادث سيارة. طرأ عطل على فرامل السيارة في دحديرا ديراب الخطرة فهوت بين الجبال. أحضروه إلى البيت محطّم الجثّة. شعر بالغثيان من المنظر. كان المغسّل يتجنّب وضع يده على الأماكن المفتوحة في البطن. شعر بالتقزّز عندما رفع المغسّل الجثّة ودسّ قطعة طين جافة في فتحة الإست. ثم صبّ كمّية كبيرة من الماء على الجثّة فخفّت الروائح الكريهة. وبعد قليل أمرَّ كمّية من عطر الكافور. كانت الرائحة قاسية. الكافور أبعد العطور عن الابتسامات والفرح. دخل البيت الذي خلا من أمّه. حرّك منخريه مفتّشاً عن الروائح القديمة. كانت أمّه تحتفظ بعطوراتها وأدويتها في شنطة قديمة داخل غرفتها. ولكن روائح تلك العطور تتجاوز الغرفة دائماً. كان يشمّها عند الباب. كانت عطور أمّه تبادره بقوّة حضورها. كأنّها ذراعاها الحنونان المفتوحان لاستقباله. خليط من الروائح. مرّ، حلتيت، مشاط، زعفران، حبشوش، دهن عود، ند. تحتاج إلى طاقة كونية لتفكيكها. صارت شيئاً واحداً. صارت رائحة أمّه. طغت رائحة الكافور على كلّ شيء. لقد حلّ الكافور محلّ أمّه. إلى متى ستبقى هذه الرائحة النفّاذة؟ أشعل سيجارة.

وجد باب حجرتها مغلقاً. وضع يده على أكرة الباب لكنه تردّد. أرجع يده. ترك أمر فتحه إلى وقت آخر. لا يوجد ما يدعوه إلى دخول هذه الغرفة الآن. الساعة الآن السادسة مساء. في هذا الوقت كانت تتحرّك حانيةً جسدها الضعيف إمّا لتعدّ الطعام أو للذهاب إلى الحمّام. في هذا الوقت من الأيام الخوالي، تكون خارج الغرفة. سيعود إلى الغرفة عندما يأتي وقت عودتها إليها. لاحظ أن أرضية بطن البيت رطبة. بقع ماء في المنخفضات. كان الليل قد وسّع خيوطه السود على الساحة. لم يبق من ضوء الشمس سوى بقعة باهتة في سماء المنزل يطلّ منها نهار سيرحل ويأخذ معه ثلاثاً وثلاثين سنة قضاها في هذا المنزل. منذ صباح غد سينطلق إلى عالم جديد لا علاقة له بالماضي. حسابات المستقبل عسيرة. السكين وحدها هي الضوء الذي سينير دروب المستقبل. حان الوقت لتحديد مصائر هؤلاء الناس الذين آذوه. قائمة طويلة لكنها ليست مستحيلة. لقد تخلّص من أوّل قذرين. لم تعرف الحكومة من قتل ابن يوسف. ستجنّ الحكومة قبل أن تعرف من قتل سويلم. كاد أمره يُفتضح. قبل أن يطرق باب عمّه لإبلاغه بموت أمّه كان قد ذهب إلى بيت سويلم وفتحه بالمفتاح المنسوخ ودخل عليه وقتله بالطريقة التي رسمها في خياله. وجده نائماً في بطن البيت. تسلّل حتّى بلغه. أخرج الخنجر المخبأ في ربقة سرواله ونخزه به. غاص رأسه في فخذه فاستيقظ سويلم مذعوراً كأنّما كان في حلم. ولكن فحيج عاجله بطعنه في فمه. فدخل الخنجر في أعماق حلقه. فانكتم صراخه ولكنه قفز من

الفراش وجرى في تخبّط واضح. تركه فحيج ليرى أين ينتهي. ولكن سويلم عاد مرّة أخرى ناحية فحيج لا يعرف تماماً ما يجري على جسده. تركه فحيج قليلاً كي يستعيد وعيه. فالتقت عيناهما في تحديقات مهيبة. جمع سويلم كلّ قوّة ممكنة وصرخ. وش جابك يا فحيج. فقال فحيج وهو ينقض عليه بطعنة في عضوه التناسلي ثم طعنة أخرى هوى بعدها أرضاً:

- هذا اللي جابني.

صرخ سويلم. لا يعرف من أيّ ألم يتوجّع. ولكنه لم يقو على التعبير. ازداد الدم النازف من فمه حتّى أغرق ثيابه والأرض. صار يرفع يديه في وجه فحيج. يتوسّل بهما الحياة. يسحب جسده بعيداً من الخنجر الملوّث بدمه. كان فحيج يتركه. يمنحه فرصة للتوسّل والبكاء والألم والزحف على أمل الهروب من الطعن المميت. تركه يبتعد عنه حتّى تكوّم عند العمود، فجاء إليه ورفع وجهه ناحيته وسأله:

- من أنا؟

كان سويلم قد فقد القدرة على الكلام. كان يعبّر بهمهمات غير مفهومة. يحاول أن يضع يده على المكان الأكثر ألماً. فتتنقل بسرعة من فمه إلى صدره إلى أعضائه التناسلية. جلس فحيج قبالته وراح يتأمّله. تركه هكذا أكثر من نصف ساعة ثم نهض وعاجله بطعنة في عينه. صرخ سويلم آخر صرخة وقد عرف فحيج أن الرجل ما زال حيّاً. اقترب منه أكثر وطعنه بين فخذيه ثم راح يمزّق ثيابه كأنّما يسلخ جلد ذبيحة حتّى بان عضوه التناسلي فمسكه بيده

وسحبه إلى الخارج وقطعه. ثم رفع رجليه حتّى تبيّنت فتحة الإست ودسّه فيها. كان سويلم قد غرق في دمائه وفي يأسه. سقط رأسه على الأرض والتوت يده تحت رأسه وراح يئنّ بصوت مخنوق. من الواضح أنه كان ينطفئ وتُغلق في وجهه نوافذ الحياة إلى الأبد. وبالفعل بعد ثوان سكت الصوت. فاضطرّ فحيج إلى أن يستعجل الأمر فضربه ضربات عدّة في القلب والبطن وأخيراً غرس السكين في الرأس من ناحية الأذن. أضاء وجه فحيج وهج نوراني كأنّما سقطت شعلة من الجحيم في جسده. كانت ابتسامة ظفر مختنقة طوال خمس عشرة سنة. مسح السكين في ثياب ضحيته ودسّها تحت سرواله وخرج. مضى مسرعاً إلى بيت عمّه. لا يمكن أحداً أن يتّهمه بالجريمة. قتله على مدى ساعة كاملة. كان يريد أن يقتله على مدى عشر ساعات ولكن الوقت لم يكن يسعفه. كان عليه أن يذهب إلى بيت عمّه ويبلغه أمر وفاة أمّه وفي الوقت نفسه لا يمكن أن يترك أمّه ميتة في البيت. لقد نجا سويلم من الزمن المعدّ لموته. أنقذته صلاة الفجر وحبّه لأمّه. لقد تخلّص من سويلم. عليه أن يعدّ العدّة للمعركة الحقيقية. لا يكفي أن يموت فطيس. يجب أن يموت بطريقة يمتدحها الشيطان ويرضى عنها تمام الرضا. لكن فطيس أفلت مرّات عدّة وأخيراً اختفى من حلة ابن بخيت ليلقي غموضاً واسعاً على مصيره. بعد بضعة أشهر انتشرت شائعة مفادها أن فطيس مات. كانت إشاعة قويّة حتى أن الناس صدّقوها وآمنوا بها ولكن بعد وقت قصير جاءت شائعة أخرى تقول إنه في السجن. لقد قبضت الشرطة عليه في منزل أحد أقاربه بعد أن وشى

به هذا القريب. كان أهله يتكتّمون على أخباره حتّى انتقلوا من الحارة واختفت أخبارهم. وبعد بضع شائعات خفت صيته حتّى نسيه الناس. اختفاء فطيس مصيبة لا يمكن تعويضها. إنّه الجرح الذي لن يبرأ فحيج منه حتّى آخر يوم من حياته. تذكّر أنّه كاد أن يصطاده مرّة. كاد يقع في المصيدة التي صمّمها له الشيطان. كل شيء كان معدّاً. لم يبق سوى الإنجاز. اكتشف فحيج قبراً نبشته الكلاب نبشاً مبالغاً فيه حتّى ظهرت عظام الميت. عظام قديمة بقدم المقبرة. أحال الزمن لونها إلى الرصاص المشوب بالسواد. يبدو أنه من أوائل من دفن في هذه المقبرة إن لم يكن الأوّل. يقع في عمق المقبرة لا يفصله عن السور سوى خمسة قبور. لتصل إليه تحتاج أن تطأ عشرات القبور. كان قد قرّر أن يستدرج فطيس إلى هذا القبر وأن يضربه من الخلف ثم يدفعه إليه حياً ويدفن جسده بالتراب واللبن ما عدا رأسه الذي سيبقى مكشوفاً لكي يتنفس. سيحضر له الطعام والشراب وهو على هذا الوضع. عندما يتركه كان سيحشو فمه بخرقة ثم يغطي وجهه بلبنة لينغمس في الظلمة. سيحتفظ به هكذا أطول مدّة ممكنة. سيتركه يستغيث ويتوسّل. سينصت إلى توسّلاته وسيشاركه فيها. سيمنحه خبرته في ذلك. سيمنحه الدموع إذا لزم الأمر. سيقسم له أنه لن يقتله. سيمنحه الأمل كلّ يوم ثم يهوي به إلى قاع اليأس. لن يجد سبيلاً إلى إخراج مخلّفات جسده إلاّ من فمه. سيأتي يومياً ليجلس إلى جانبه. سيصطحبه في طريق العفن الذي سيمضي فيه. سيكون لديهما متّسع من الوقت ليتحدّثا في الأمور كلّها. سيكون فطيس في

تصرّفه. استعذب الفكرة. الفكرة اللذيذة نفسها التي جالت في ذهن فطيس عندما خطّط لاغتصابه وامتلك جسده. حان الوقت لتبادل الامتلاك. سيصبح جسد فطيس ملكه. صار يأتي إلى المقبرة ويتفرّج على القبر الموعود. إنه الخزنة التي سيودع فيها أعزّ ممتلكاته. في إحدى المرّات جرّب أن يتمدّد في القبر ليرى ما سيواجهه فطيس. أزاح العظام المحترقة وكوّمها في أحد الأركان. دخل القبر وتمدّد وأغمض عينيه. حاول أن يقفل خياله ويوقف عقله عن العمل. شاهد خيوطاً حمراء تتراقص وضوءاً يتلاشى. شعر أن أنفاسه تضيق. كان القبر بارداً والتراب في داخله ناعم الملمس يشي بالرطوبة. تذكّر أنّه خليط من جثّة إنسان وملايين من جثث دود العفن وبيضه الذي ينتظر جثّة إنسان ليعود إلى الوجود من جديد. لم يتخيّل أن يكون هذا المكان هو الثقب الذي يأخذ الإنسان إلى الجنّة أو إلى الجحيم. ربّما إذا أغلق في وجه الدنيا فتحت الأبواب من الجهة الأخرى على مملكة الموت. لماذا يترك الإنسان عظامه عند البوابة. ترى ما هو هذا الإنسان الذي سيمضي إلى مملكة الآخرة متخلّياً عن جسده يتفسّخ على بوابة الموت.

كل شيء أصبح معدّاً. إذا كان فطيس صبوراً ينتظر الوقت المناسب لينقضّ على فرائسه، فعليه أن يكون كذلك.

فتح باب بيته من جديد وعاد إلى حياته كأنّ شيئاً لم يكن. لن يجعل الحقد يأكله. سيحتاج إليه في الوقت المناسب. تركه في أعماقه ومضى في الحياة. عاد إلى أيّامه العادية. من حسن حظّه أن وفاة أمّه لم تؤثر في سلوكه مع الآخرين. لم يسمح لأحد بأن

يشعر بوحدته. أعاد ترتيب حياته وفقاً للوقائع الجديدة. نقل الورشة إلى البيت. جعل مدخل البيت مكاناً يستقبل فيه الزبائن. شعر بالدفء مع زبائنه من الأطفال. صار هؤلاء الصغار أهله وعزوته. يتعاطف معهم. في الصيفيّة يتجمّعون عنده منذ الصباح المبكر. يتحدّثون عن السياكل ويطلبون منه النصيحة ويقدّم إليهم خدمات مجانية كثيرة. صار مرجع الآباء ومستشارهم في هذا الأمر. حادثة واحدة نقلت حياته إلى عهدها الذي كان ينتظره. تعاقد مرّة مع الدحمي ابن منيرة لتلبيس سيكله. استغرقه العمل أكثر من ثلاث ساعات وبعد أن أتمّه اكتشف أن الطفل لم يكن يملك قيمة التلبيسة. كلّفته مواد التلبيسة وحدها أكثر من خمسة عشر ريالاً. من الصعب التنازل عن مبلغ بهذا المقدار. سمح للطفل أن يذهب ولكنه قرّر أن يخبر أمّه بالأمر لعلّها تسدّد. انتظر بضعة أيام حتّى أطلّت منيرة تكب غسال نهض واقترب من بابها وناداها ولكن قبل أن تفهم ما يريد كان زوجها عبد الرحمن يدخل الحارة من جهة شارع المشمسي. شاهد عبد الرحمن فحيج يتحدّث مع امرأته. لم يتبصّر. رجل ملأت قلبه الشكوك. يشكّ حتّى في أمّه العجوز. انقض على فحيج واشتبك معه. حاول فحيج أن يتفادى الصراع. راح يصرخ وهو يحمي جسده في محاولة للتفاهم. خرجت منيرة من البيت وراحت تشدّ زوجها دون فائدة. دخل صراع الرجلين مرحلة ساخنة من التضارب، فاضطرّت منيرة أخيراً أن تنتصر لزوجها بعد أن بدأ فحيج يضرب في وجه عبد الرحمن الذي سقط أرضاً. في تلك الأثناء، فُتح باب بيت

عمّه. أطلّت منه نساء عدّة. من الواضح أنّهن سمعن الصراخ. فجأة خرجت نوف وهي تصرخ في منيرة وزوجها. لأوّل مرّة في تاريخ حلّة ابن بخيت يرتفع صوت نوف إلى هذا المستوى. اهتزّت البيوت المجاورة ففُتح الواحد تلو الآخر. هبّت نوف ناحية منيرة ودفعتها نحوها فالتفتت منيرة إلى نوف والتحمت معها وهي تشتمها. علا صراخ المرأتين. خرج ابن وصّار وحميد المؤذن وبدأت البيوت الأخرى تُخرج سكّانها. أوّل صراع بين النساء يحدث منذ زمن بعيد. كاد ابن وصّار أن يُصعق عندما لاحظ أن نوف طرف في الصراع. تذكّر على الفور مؤخّرتها الشهيّة. فانطلق إلى الجهة التي يتصارع فيها فحيج وعبد الرحمن وهي الجهة التي توليها نوف مؤخّرتها لحظة التصارع. تفجّرت في داخله روح الأبوّة الصادقة كما تفجّرت قبل نحو عشرين سنة. تذكّرها عندما كانت في الحادية عشرة. يعرف أنّها الآن في منتصف الثلاثين من العمر. فُجع عندما شاهدها تلبس فستاناً بسيطاً يُعرف بالبرنسيس. أحدث موضة وصلت إلى الرويض. رفضه كثير من الشيوخ والمطاوعة. حرّموا لبسه لأنه يشبه إلى حدّ كبير ثوب الرجل. تصميمه الأساسي يبدو كالثوب. فضفاض مرتخِ عند الكتفين حتّى يتجاوز الصدر ثم يضيق تدريجاً حتّى إذا وصل إلى المؤخّرة اقترب منها إلى أقصى درجة دون أن يمسّها أو يضغط عليها أو يتدخّل في شؤونها. وعندما يتأكّد أنّه تعدّاها واقترب من الفخذين يعود إلى الانفراج مرّة أخرى. يبدو من النظرة الأولى فستاناً بريئاً لا يريد أن يقترح أيّ شيء. لكن تصميمه عند الخصر يؤكّد أنّه مصنوع لامرأة

تتحرّك. فحركة الجسد تفرض على المؤخّرة أن تعتدي عليه. فيتجسّد أحد الوركين بتمام تكوّره ثم يختفي فجأة ليحلّ محلّه شقيقه. مصيبة هذا الفستان الكبرى أنه لا يجمع الوركين في مشهد واحد، فيفرض على من يشاهد امرأة تتحرّك فيه أن يستعين بخياله ليجمع الشقيقين في مشهد واحد الأمر الذي يفقد الرجل الرشيد قدرته على التصرّف المسؤول. اختراع جديد مخادع. جاء وقته الآن، فنوف تتحرّك في كلّ الاتّجاهات وتسحب فحيج وتصرخ. صار الرجال يتحرّكون معاً في دائرة واحدة. كل واحد يريد أن يكون موقعه في الجهة التي توليها نوف ظهرها. لم يبادر ابن وصّار إلى فكّ الاشتباك بين المرأتين ولم يحرص كثيراً على تدخّل النساء الأخريات لفضّ هذا الاشتباك، فاندفع نحو فحيج وهو يصرخ:

- اتقوا الله انتم جيران ما يصير الله يهديكم.

لكن زوجته لم تكن على دراية بأهمية هذا الصراع بالنسبة إلى زوجها، فتدخّلت لفضّ الاشتباك بين المرأتين بمساعدة أمّ نوف وأختيها. فتداخلت النساء في كومة واحدة لا تعرف مَن ضدّ مَن. كانت زوجة أبو دحيم قد وصلت متأخّرة فأساءت فهم الموقف إذ ظنّت أن أمّ نوف وأخواتها تدخلن لنصرة نوف فأخذت تصيح:

- حرام عليكم تتجمعون عليها. مسكينة نحيفة ما تتحمّل.

كان المؤذن حميد، وهو أحد الطامعين بنوف قد وجدها فرصة ليعبّر لها عن تعاطفه معها، فقال:

- الله يهديك يا أم دحيم لا تدخلين في ذمّتك. أم نوف جزاها الله خير تبي تقصر الشر. تبي تفكّ بينهم ونوف معروف أنها

عاقلة ما قد سمع لها أحد صوت في الحارة.

ثم أضاف موجّهاً كلامه إلى النساء المتصارعات:

- يا أم نوف الله يستر عليك ترى ما يصير تحطين عقلك في عقلها.

سمع زوج منيرة كلام المؤذن حميد فقال صارخاً:

- أقول وراء ما تاكل تبن أما أنك قل خير ولا أسكت.

لم يردّ حميد على عبد الرحمن. لا يريد أن يكون طرفاً صريحاً في الصراع، فمشروع الزواج بنوف ما زال جنيناً محبوساً في داخله. أسلوب موت زوجيها جعله يتردّد في خطبتها. لم يكن في حاجة إلى فستان البرنسيس ليحزم أمره، فقد اعتاد الزواج بطليقات ابن شويب. فالرجلان يشتركان في التطلّعات نفسها والأوصاف عينها.

يبدو أن المعركة على وشك الانتهاء. كان أبو حمد خال سعندي قد وصل في تلك اللحظة وشاهد التزاحم والصراخ، فركض حتّى أصبح وسط الحشد، وفي اللحظة التي كان سيسأل عمّا يدور أمامه لمح نوف فتعرّف عليها برغم أنها كانت تحكم غطوتها على وجهها. لم يصدّق أن هذا الجسد لامرأة تجاوزت الخامسة والثلاثين. فاضطرّ إلى أن يسحب سؤاله لكي لا يلهيه أحد عن متابعة المنظر الشهي. في تلك اللحظة انسحب عبد الرحمن وزوجته من أرض المعركة بعد أن دفع ابن وصّار فحيج وأدخله البيت. بعد قليل لحقت نوف بفحيج ودخلت وراءه ووقفت معه في المدخل. شاهدته يمسك بيده ويرفعها باليد الأخرى فاقتربت منه

وراحت تتحسّس مرفقه الذي لواه عبد الرحمن. لأوّل مرّة تكون قريبة منه هذا الاقتراب الحميمي. سنوات طويلة تفصله عن ذلك المساء الذي غنّيا فيه معاً ثم افترقا. لم يجد ما يقوله. ترك أمر الكلام لها لكنّها بقيت صامته أيضاً. رفعت أخيراً عينيها وألقت نظرة على وجهه. أنقذهما صوت جاء من خارج البيت. سمعا صوت أمّها تناديها، وبعد قليل ظهرت أمامهما وهي تقول:

- وشلونك يا ناصر. وش بلا ها المجنونة هي ورجلها عليك؟

شرح لها قصّة التلبيسة بالتفصيل وأقسم أنه لم يكن في نيّته أيّ شيء تجاه المرأة. فقالت نوف بسرعة وبشكل حاسم:

- ما يخسى إلاّ هي.

فقال فحيج:

- هي ما منها خلاف عبد الرحمن ها المجنون جاء وقبل ما يتفاهم مد يده.

فقالت الأمّ:

- يا ليتك كسرتها ملعون الوالدين.

فقالت نوف:

- الين صار شاك في مرته يتبلى عيال الناس.

فقالت الأم:

- هين أوريك فيها الكلبة بنت الكلب.

فقالت نوف:

- ما عد إلا هي تمدّ يدها علينا.

كاد فحيج يصعق من هذا التعبير. من نحن؟ أدخلته نوف أخيراً في العائلة. أجمل لحظة في حياته. أربع سنوات مرّت على وفاة أمّه. لم يحصل بينه وبين نوف أيّ اتّصال مباشر. يلتقي في بعض الأحيان عمّه في المسجد أو في الشارع أو يتلقّى بادية أكل من بيت عمّه بين فترة وأخرى وخصوصاً في الأيّام الأولى عقب وفاة أمّه. انقطعت أخبارها حتّى عرف أنها تزوّجت من ابن شويب قبل سنتين. شعر بالتعاطف مع ابن شويب. لأوّل مرّة يحزن الجلاّد على ضحيّته. لقد وضعه قدره في هذا الطريق المحفوف بالدم والكراهية. لن ينتظر حتّى يطلّقها. كل من لمس مؤخّرة نوف عليه أن يموت بالطريقة المروّعة نفسها. كان قد خطّط أن يقتل ابن شويب في وقت تكون فيه نوف بعيدة. لا يريدها أن تدخل في دائرة الاتّهام. لقد أنجز كلّ شيء بطريقة ناجحة. تأتيه اليوم بعد كلّ هذا الذي جرى. لا يبدو أنّها حزينة بسبب موت زوجها الثاني. عيناها لا تشيان بأيّ شيء.

انتظر بضعة أيّام يقلّب الأمر. ليس من السهل خطبتها. رفضها سيكون كارثة. يجب أن يتريّث حتّى يتأكّد أنّها سترضى به. مضت أشهر عدّة. حتّى جاء اليوم الذي شاهد نوف تقف على رأسه وهو منهمك بإصلاح سيكل. رفع رأسه. وضع كلّ ما بين يديه ووقف. كانت تحمل على رأسها قِدراً كبيرة. يبدو أن القِدر ساخنة وملأى. كانت تضع بين القدر وبين رأسها فوطة. مدّ يده وسحب القدر من يدها ووضعها أرضاً. كانت قد ألقت بالسلام وردّ عليها باقتضاب، فقالت:

- هذا من عرس بنت خالتي.

سكت. فقالت:

- ليش ما تصير تتغدّى عندنا كل يوم أو تبيني أجيب لك الأكل هنا؟

استمرّ ساكتاً لا يعرف ما يقول. يبدو أن الأمر أصبح محسوماً. إذا لم تكن هذه الفرصة فلن تأتي أبداً. بدأت المرأة تشعر أنه غير راغب في الكلام. فقالت وهي تتحرّك:

- أيّ شيء تبيه أرسل لي واحد من ها البزرانِ.

أخيراً قال:

- نوف وش رأيك أجي أخطبك.

من الواضح أنّها لم تفاجأ. لم ترتبك ولم تبالغ في الحياء. قالت بكلّ ثقة:

- على راحتك.

وقبل أن تتركه قالت:

- شرط أن نترك حلة ابن بخيت.

فقال:

- ما عندي فلوس نشتري بيت جديد وبعدين وش أسوي بدكاني

فقالت:

- أنت يمكن تعرف أبوي يبيني أرجع أعيش معهم. بس أنا ما عد أقدر أعيش مع أحد غيرك إذا ودك.

فقال فحيج:

- وين نسكن فيه؟

- نبيع بيتي ونشتري بيت في مكان ثاني.

* * *

عندما بلغ السبعين من عمره انتحى جانباً يستحضر ذكرياته المؤلمة. اكتشف أن رائحة الطفل المتعفّنة لوّثت جميع أحداث الماضي. مضى على الحادثة أكثر من خمسين سنة. هل مات الشبحان اللذان دفنا الرضيع أم ما زالا على قيد الحياة يتعذّبان بالذكرى كما يتعذّب. ابن من ذلك الرضيع الذي جعل العالم منتناً رائحته كرائحة أنفاس فطيس؟ كان قد وضع الشبحين في قائمة القتل، التي أعدّها انتقاماً لشرفه. قائمة تضمّ كثيراً من البشر. خمسون سنة هدفه أن يتعرّف على الشبحين ويقتلهما. فهما أصل إهدار الشرف في هذا العالم. كلّما تذكّر أنّهما نجوَا من خنجره الحاد كما نجا فطيس ينفجر رأسه بالألم.

كان قد قضى ثلاثة أيام يتأمّل الرضيع المتعفّن. مرّت سنوات طويلة لكنه عجز عن نسيان ذلك الرضيع. تذكّر أنّه ذهب إلى أحد المشايخ وسأله هل يجوز غسل الميت بعد دفنه. أخذ الشيخ كلامه بسخرية وضحك. لم يجبه. ترك الشيخ. ذهب إلى البيت وحمل سطل ماء وذهب به إلى المقبرة ورشّه على قبر الرضيع. ثم توضّأ بباقي الماء وحاول أن يصلّي على القبر. تذكّر أنّه لا يعرف كيف تتمّ الصلاة على الميت. وقف متأمّلاً زهاء ساعة وفجأة شاهد سويلم يدخل المقبرة. لملم نفسه وسار بهدوء نحو غرفة

الحارس. سبق سويلم إليها حتّى لا يراه عند قبر الرضيع. أشعل كلّ واحد منهما سيجارة. حاول مسايرة سويلم كي لا يحسّ بأنّ هناك أشياء خفيّة تجري. وأخيراً أدار له ظهره ليقضي الأخير وطره. وبعد أن أنهيا فعل الفاحشة سأله كيف يصلّون على الميت. ابتسم سويلم في وجهه. إنّها سخرية القدر. لأوّل مرّة يتحدّث عن الموت في المقبرة. كيف غابت عنه حقيقة الموت المنتشرة أمامه. لم يفده سويلم في شيء عدا أنه قال إن الصلاة على الميت تتمّ وقوفاً. كلّ شيء في هذه المقبرة يتمّ وقوفاً. عندما ذهب سويلم عاد مرّة أخرى إلى قبر الرضيع. بكى عندما أحسّ أنه عاجز عن الصلاة على الميت. لقد انتقض وضوؤه بالجنابة التي حدثت قبل قليل. عليه أن يذهب إلى البيت ويستحمّ إذا أراد أن يصلّي على الرضيع، فصرف النظر. فكّر أن ينبش القبر لعلّ وجه الرضيع يشي بشيء يدلّه على أهله. لكن ما من وجه ستتركه ديدان العفن. ربّما عاونت المسحاة على تمزيقه. عندما حفر في المرّة الأولى لم يظهر له الطفل كإنسان حتّى شاهد القدمين واليدين. كان الوجه منخوراً والبطن ممزّقاً وأحشاؤه السوداء مندلقة. كم مرّ على تلك الحادثة؟ كان يجب أن يتصرّف حينذاك إذا كان يريد أن يعرف ابن من هو ومن هما الشبحان اللذان دفناه في مقبرة مهجورة. لم يخبر أحداً بالحادثة حتّى جاءت اللحظات الأخيرة من حياته. أصيب بالأزمة القلبية الثالثة والأخيرة. أُودع غرفة العناية المركزة. عرف أن لا رجعة له إلى هذه الدنيا. طلب من جميع الموجودين في الغرفة المغادرة باستثناء نوف. كانت نوف تعرف أن حياتهما ملأى

بالأسرار. ما كانا يتحدّثان في مواضيع الماضي. قرّرا في حفلة زواجهما في ذلك اليوم البعيد أن يعيشا للمستقبل. أن يخلقا عالماً بلا ذكريات. كانت تعرف أنّه الرجل الوحيد في هذا العالم الذي أحبّها. كلّ الرجال الذين أحبّوها أحبّوها من باب الظفر بمؤخّرتها الشهيّة. كانت امرأة مثيرة للصراعات. لم تكن في يوم من الأيام هدفاً للحياة الزوجية الدافئة. صارحها في البداية بضعفه وبجبنه وبأن الحياة خلقته للمذلة ولكنه لم يصارحها بحقيقة الحياة الجنسية التي عاشها. في بعض الأحيان، كانت تفاجئه وهو يبكي بنحيب صامت. لا تسأله عن السبب، تغلق عليه الباب وتتركه في نحيبه المزمن وتشغل نفسها بأمر من أمور البيت. تعود إليه بعد أن ينهي نوبة البكاء ويخرج من الغرفة ثم ترجع حياتهما إلى طبيعتها. كان بكاؤه الصامت الفتحة الصغيرة التي يطلّ منها على الماضي البعيد. أخذت نوبات البكاء تتباعد حتّى أصبحت نادرة، ولكنها لم تنقطع. ظلّ ممتنّاً لها على فكرة الانتقال من حلة ابن بخيت. كانت على كل حال ستهدم. عُيّنت أثمان معظم بيوتها. سيجري فوقها طريق الملك فهد العملاق. بعد سنوات قليلة من الانتقال سقطت حلة ابن بخيت وتركت العالم ولكنها أطلّت عليه بتمام خزيها في آخر دقيقة من حياته.

* * *

كانت نوف قد نُهكت واستُهلكت. كانت قد قررت أن تبتعد عن عالم الرجال، أن تبقى وحيدة في بيتها العائد إليها من زوجها الأوّل ابن يوسف. لم يتّهمها أحد بقتل ابن شويب. كانت في

الحجّ عندما وصلها خبر مقتله. وجدوه في السطح مخنوقاً ومطعوناً في أنحاء متفرّقة من جسده. كان موته مروّعاً. أنجزته يد حاقدة. لا يختلف عن موت سويلم. لم يشأ أبناؤه فتح تحقيق في الموضوع لكي لا يدخل موت أبيهم في سلسلة القتل المتواصلة التي حيّرت الناس. أعلنوا أنّه مات حتف أنفه. قرّروا أن يبحثوا عن قاتله بعيداً عن تحرّيات الشرطة. هكذا أغلق الملف وعادت نوف من مكّة ترثي أيّامها. كانت تعرف أن هناك من يطارد أزواجها ويقتلهم. ولكنها لم تعرف لماذا مات ابن وصّار بالأسلوب نفسه أيضاً. وجد مقتولاً في المسجد. اعتاد ابن وصّار أن يأخذ قيلولته في خلوة (القبو) المسجد الباردة المعطّرة برائحة العود. وُجدت جثّته تحت الدرج بعد أن فاحت رائحتها. من الواضح أن القاتل قد مثّل بها. جميع أصابع اليد مقطوعة ومدسوسة في فتحة الإست. كان فمه مفتوحاً ويده متيبّسة على صدره. كان إحساس الجميع أن ابن وصّار قد وقع ضحية جريمة خاطئة. لم يعرف أحد ما الذي حدث حتّى جاءت تلك الليلة من ليالي الصيف الصافية. فرشت نوف دوشقها الجديد بعد أن تهرّأ الدوشق القديم الذي تزوّجا عليه. كانت قد قرّرت أن تلبس الشلحة نفسها التي لبستها ليلة عرسها الأوّل ولكن دون جدوى. كان جسدها ازداد في مناطق معيّنة وارتخت جوانبه كما يحدث لامرأة تخطّت الأربعين. فقررت أن تلبس الشلحة التي لبستها في عرسها الثاني ولكن دون جدوى. فحشرت نفسها في شلحتها التي لبستها في عرسها عندما تزوّجت من فحيج. فانضغط جسدها وتكوّرت أجزاؤه بعد أن تلملمت

تهدّلاته. عادت إليه سيرة الشباب عندما كانت تنام في السطح وتلهب عيون ابن شويب وشنغافة. أقبلت ووقفت على رأس فحيج. كان مستلقياً على ظهره يستمع إلى صوت أم كلثوم. أرخى صوت الراديو والتفت ناحيتها. فاجأه الشكل الذي بدا عليه فخذاها المتكوّرتان وصدرها البارز. كان ينظر إليها من أسفل إلى أعلى فاختلط جسدها الشهي مع النجوم. مدّ يده وقبض على ساقها وشدّها صوبه فتداعت وسقطت على بطنها. كاد يصاب بالعته. بدت عجيزتها أكبر وأشهى ممّا تخيّل في حياته كلّها. تذكّر الصراعات التي دارت في حلّة ابن بخيت على هذه المؤخّرة. كلّ الرجال الذين لمسوا هذه العجيزة ماتوا. لم يخبرها بهذا. كانت تشكّ أنه يقف خلف موت زوجيها، ولكنها لم تفهم كيف مات ابن وصار بالطريقة نفسها التي مات بها زوجاها وسويلم. ناقشا هذا الموضوع كثيراً. كان يتهرّب من سرد ما جرى في حلّة ابن بخيت. لم تكن هي أيضاً تريد الخوض في مواضيع الماضي. لكن الشلحة الضيّقة فتحت باب الماضي على مصراعيه. قذف بساقه على فخذيها وغرس أصابعه بين كتلتَي مؤخّرتها وقال: «كلّما تذكّرت أن السافل أغاص إحدى أصابعه في هذا المكان أفكر أن أفتح قبره وأقتله مرّة أخرى». صعقت المرأة عندما سمعت هذا الكلام. قفزت من رقدتها وأدارت وجهها ناحيته وسألت:

- من تقصد؟

فقال بهدوء:

- ابن وصّار.

كادت تصاب بالجنون عندما عرفت أنه هو الذي قتل ابن وصّار. قفزت واقفة وراحت تصرخ:

- كم واحد ذبحتاه عشاني؟

قفز وراءها ووضع يده على فمها وسحبها إلى الدرج ثم إلى الدور الأرضي ووضع ذقنها في يده وقال:

- تبغين تفضحينني عند الله وخلقه؟

لملمت رأسها ودفنته بين يديها ثم أخذت تبكي بشكل هستيري وهي تدور في أرجاء الحجرة. أغلق الباب وراح يطاردها من زاوية إلى أخرى وهو يبكي:

- أنت حبيبتي قلبي تستحقين أرواح البشر كلّهم. كلّ من لمس جسمك لازم يموت. كل من غدر بي وغدر بك لازم يموت.

فقالت:

- مسكين ابن وصّار وش ذنبه ليش يتّمت بناته.

ثم راحت تصرخ:

- أنت تعرف وش صار لبناته حسبي الله عليك مساكين شف وش صار لهم.

فقال:

- أنت ما تتذكّرين كنتي صغيرة شفته بعيني يغيص أصابعه في مكان حرام عليه وعلى غيره.

عرفت نوف ما حصل لزوجيها الأوّلين وما حصل لابن وصّار وسويلم ولم تعرف ما جرى في مقبرة العجلية، وما هي حقيقة

فحيج إلاّ بعد أن أوغلا في الشيخوخة. عرفت في الساعة الأخيرة.

* * *

جلست على حافة السرير واستدارت ثم اطمأنت بعد أن وضعت يديها حوله حتّى أضحى وجهها في مواجهة وجهه وأزاحت عن فمه قناع التنفّس كأنّها تريد أن تقبّله. قالت بهدوء:

- نعم وش عندك. وصيّة؟

ثم أردفت كأنّها تتحدّث عن أمر لا أهمية له:

- أنا حاسّة أنّك بتموت ما أظنّك بتطلع من هذه الغرفة. عندك شيء تبي تقوله تكفى لا تقوله.

فقال:

- أنا عارف أن هذا يومي.

سكت وهو يتأمّل وجهها الملآن بالتجاعيد. أين ذهبت تلك الفتاة الدلوعة التي أزهق من أجلها الأرواح. لماذا أطال الله عمره في هذه الدنيا الغادرة. يبدو أنه آخر واحد على قيد الحياة من أبناء جيله من أهالي حلّة ابن بخيت. لم يسأل عن أحد ولا يعرف هل بقي أحد منهم. تدنّت قوّة خياله وضعفت رؤيته للأشياء وبدأ جهاز التنفّس يعطي إنذارات. فابتعدت عنه قبل أن تسمع ما كان يودّ أن يبوح به. جاءت الممرضة وطلبت منها التنحّي وفي الوقت نفسه كان الطبيب قد وصل. أخذ يوجّه تعليماته، فالحالة في أقصى درجات الخطر. لقد غاب عن الوعي ولكنه لم يمت بعد. دعت

من قلبها ألا يعود مرّة أخرى إلى الوعي. لقد انتهى كلّ شيء ويجب أن تزال جميع الأحداث التي جرت في حلة ابن بخيت. لا بدّ من هدم ذكرياتها كما هدمها التطور وأزال الحارات المحيطة بها وغيّر معالم ما تبقى منها. ليس للاعترافات أيّة قيمة بعد كل هذه السنين. كانت تتناهى إلى سمعها أحاديث عن سلوكه وضعفه. تذكّرت عندما تزوّجها ابن شويب اشترط عليها أن تبتعد عن بيت ابن عمّها وألا تتعامل معه. كانت قد سمعت هذا الشرط من زوجها ابن يوسف وسمعته من أهلها وسمعته من قلبها أيضاً. لم تبحث عن سبب مقاطعة الناس له. أطاعت لأنّ هذا المنع أصبح جزءاً من سياق حياتها لا يحتاج إلى تبرير أو شرح ولا يحتمل العصيان. ما الذي يريد أن يبوح به اليوم. لم يبق لها في هذه الحياة قدر ما تركت في الماضي. تريد فقط أن تعيش بعيداً عن الماضي وأيّامه التي لم تعرف فيها سوى أوقات قليلة من السعادة. لا تريد أن يفسد الاتّفاق الذي حافظ عليه أربعين عاماً متواصلة. وإذا قرّر الزمن أن يغلق واحداً من أتعس ملفاته فلا بدّ أن يغلق دون أن يترك روائحه. لم تعد هي تلك المرأة الجميلة التي أرهقها جمالها، ولم يعد هو ذلك الرجل الوسيم المُحطّم الرجولة.

لاحظت أن الدكتور ابتسم. ما أتعس هذه الابتسامة. لا بدّ أنه عاد إلى الحياة. عليها أن تستعد لشيء لم ترده البتة. بدأ يستعيد شيئاً من وعيه وأخذ ينظر إلى العالم بعينين زجاجيتين مملوءتين بالضباب كأنّما المطر أغرقهما بمياهه الملوّثة الساقطة من السماء. عادت إليه ببطء. وقالت:

- ها وش لونك

لم يرد وقبل أن يتكلّم شاهدت الممرضة تقف على رأسيهما وهي تقول:

- بابا فيه رجال يبي يسلّم على الشيخ.

فسأل بتحريك وجهه وتعجّب. التفت إلى نوف وسألها فقالت:

- يمكن واحد من شيابك.

لكن الممرضة قالت:

- يقول إن اسمه أبو فهد محمد بن مجبور.

أجبره الاسم على النطق فقال صارخاً:

- الله أكبر وش جابك هالحين يا فطيس. أجل ما مات إلين هالحين.

شعر أن حلّة ابن بخيت تريد أن تعود إليه مرّة أخرى. فقال بصوت يكاد الرعب من الماضي أن يطمسه:

- خليه يدخل.

وجهاً لوجه مع فطيس بعد تلك السنين. إذاً فطيس لم يمت ولم يدخل السجن ولم يصب بأي أذى. لقد بارك الله حياته التي امتلأت بعذابات الآخرين. هكذا تبرهن السماء على عدالتها التي لا تنضب. كان فطيس والشبحان هدفه الأساسي. تربّص بفطيس كثيراً. كان قد هيّأ له قتلات لا حصر لها تفوق في عذابها العذاب الذي أذاقه لسويلم. ربّاه كيف نجا فطيس من الميتة التي يستحقها.

تحرّك من فراشه يريد أن يبدي شيئاً من الحفاوة، ولكن فطيس سارع وطلب منه أن يبقى كما هو. تأمّل وجه فطيس. اختفى ذلك الوجه الحنطي القديم وغاصت ضربة المفكّ التي كانت تسم وجهه الناعم. لم يبق من فطيس سوى صورة باهتة تشي بأن هذا الرجل كان يوماً من الأيام شاباً متهوّراً حطّم رجولة كثيرين من يافعي حلّة ابن بخيت. ولكن ها هو وفطيس يتعفّنان في الشيخوخة كما تعفّن ذلك الرضيع في القبر المسروق.

تصافحا فأيّام الامتهان صارت بعيدة جدّاً والشابّان اللذان كانهما أصبحا في حكم الماضي. ولم يبق أحد من الشهود على الخزي الكبير. سأله عن سعندي فأجاب فطيس بحزن حقيقي بأنه مات قبل سنوات في لندن ثم تذكّرا زيارتهما لشنغافة قبل أسبوع من إعدامه. الرجل المسكين الذي راح ضحيّة وحدته. ثم طافا في الماضي كأنّما يتحرّكان على أرض ملأى بالألغام المتفجّرة. كل زاوية من الماضي لها ذكرى لا يريد أيّ منهما أن يفتحها أمام الآخر. كيف كان يصنع العار الإنساني من أبسط الرغبات ومواد الروح الأوليّة. شهوات ورغبات وحبّ السيطرة وضعف وقوّة وجمال... كلّ شيء يمكن أن يساهم في بناء العار. كانا يتحدّثان كصديقين مرهقين فقط. تسمع أنفاسهما قوية يحرّضها ضعف الشيخوخة على الخفقان. نهض فطيس وقبل أن يرحل انحنى على جبين فحيج وقال له:

- أبيك تسامحني؟

سكت فحيج طويلاً وضحك ضحكة صغيرة وقال:

- أسامحك على أيش؟

لم يكن فطيس في حاجة إلى جواب أكثر من هذا. يعرف أن فرصة السماح لم تعد موجودة. ولكن فحيج قال:

- اسمع يا فطيس عندي لك هدية كنت باعطيها لك من سنين لكن الأيّام راحت ونسيتها وينك ساكن فيه.

شعر فطيس بسعادة كبيرة وعرف أن أيّام حلّة ابن بخيت انقضت إلى الأبد. إذا كان فحيج قد نسي ما جرى فيها إذاً سيغفر له الله ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر. فأخبر فحيج أين يسكن وقبل أن يخرج اقترب منه وقبّل جبينه. فجأة طافت بفحيج رائحة الرضيع المتعفّنة أقوى ممّا كانت عليه قبل خمسين سنة عندما شمّها لأوّل مرّة. وأخيراً تصافحا وقالا كلمة في أمان الله ساخنة ونهائية. لن يلتقيا بعد هذا اليوم أبداً. ستكون في أمان الله إذا تلقّيت هديّتي. فأخذ فحيج ينادي نوف نوف نوف. هرع الجميع. سمع نوف تقول له نعم. فقال هامساً:

- فيه أحد حولك؟

فقالت:

- لا.

فقال لها كأنّه سيختصر قصّة حياته:

- روحي للأمارة وأبيك تطيحين على يد الأمير وتطلبين منه يسمح لهم يقبروني في مقبرة العجلية. أسعد لحظة في حياتي أنوم نومتي الأخيرة جنب ذاك الطفل الرضيع. ويمكن اقابل الثنين اللي

في القبرين اللي قدام غرفة الحارس هم الشهود على عاري. خذي منه إذن ابيهم يقبروني في مقبرة العجلية. لا تطلبين من غير الأمير. أذكري اسمي له أذكري اسم عايلتنا أكيد بيتذكرنا كلّنا خدمناهم ولا أظن أنه بيمن علي بحفرة في مقبرة مهجورة.

وبعد قليل قال:

- الشيء الثاني أبيك تطلعين فوق في غرفة الشغالة بتشوفين دولاب مقفول شوفي المفتاح تحته أفتحيه وبتحصلين فيه خنجر صغير.

ثم بدأ يشرح لها كيف كانت حياته مع فطيس وكيف استدرجاه إلى المقبرة وما فعله به هناك، وكيف سخّراه لشهواتهما حتّى تحول إلى متعة لكلّ ذكر لا يجد أنثى. كانت تنصت إليه كأنّها تنصت إلى قصّة عادية تحدث كل يوم. وبعد أن صمت قالت:

- ليش تقص علي ها لكلام.

فقال:

- أبغاك تقتلين فطيس. اقتليه اقتليه. قلطيه في المجلس واطعنيه طعنة غادرة.

حدّقت فيه كثيراً وتأمّلت بياضه الغابر وبدت تظهر لها الملامح الشابة الجميلة التي أثارتها في ذلك المساء البعيد، وبعد أن تنفّست كأنّها تجمع شجاعتها، قالت:

- خلاص فهمت أبشر بسعدك يا حبيب قلبي.

حرّك رأسه محاولاً أن يغمره في المخدّة. بدت عليه سكينة الراحلين. ظنّت أنه سيغادر فتحرّكت نحو الباب فرفع رأسه فتخيّلها تسير كما كانت تسير في الأيّام الخوالي. شابّة جميلة تحرّك عجيزتها فأعاد رأسه إلى المخدّة وضحك من خياله البعيد ثم تنهّد تنهيدة الموت الأكيدة. وقبل أن يستسلم لهواجس الفناء سمعها تقول:

- فيه شيء نسيناه يا حبيب قلبي.

لم تمنحه فرصة للكلام. قفزت على السرير وحنت وجهها وقرّبت شفتيها من شفتيه وقالت:

- تذكّر سطح بيتنا في حلّة ابن بخيت.

لم يرد. صمت وفجأة راح يغنّي:

أنت لي حلم ونور ورجاء

فمتى يقضي بلقياك القضاء.

فدخلت معه ببطء ولكن بثقة كاملة فصدح صوتان مملوءان بتشوّش الشيخوخة والأسى وقيم الهزيمة. كادت جدران المستشفى أن تبكي من جور الحنان الصادح. جسدان لم يجمعهما الحبّ إلاّ بعد أن أرهقهما الآخرون.

(أنت في حبّك وأنا في حبّي

وأرى الذكرى دواء للعليل

فاتق الله فاتق الله بحبّي يا حبيبي)

ثم قرّبت وجهها من وجهه حتّى تلاصقت الشفاه تقريباً فارتفع صوتاهما أكثر:

(أنا ألقاك صباحاً ومساء
في خيالي أنت يا أحلى رجاء
أنت لي حلم ونور وضياء
فمتى يقضي بلقياك القضاء
لست أدري لست أدري
بحبّك يا حبيب)

شعرت أن صوته يبتعد. هل يسافر إلى الحياة أم يغوص في الموت؟ لكنها لم تهتمّ. فقد أخذت عليه ألا يعود مرّة أخرى إلى الحياة. لقد قضى الله أن تعرف حياته الماضية معرفة مفصّلة لا تحتمل. يجب أن يموت فطيس بطريقة غادرة. طعنة غادرة في ظهره. يجب أن تكون غادرة. فتذكّرت أنها قالت ستكون طعنة غادرة.

شاهدت الابتسامة على وجهه أكثر نقاء ممّا شاهدتها طوال الأربعين سنة التي أتمّاها معاً. كأنّ كلمة غادرة هي مفتاح السعادة الذي ظلّ ينتظره طوال تلك السنين. فعاد مرّة أخرى يغنّي بصوت يكاد أن يطمسه الموت السعيد:

(وأخيراً ليس لي غير الوداع
همسة ظمأى على جمر التياع
لم أجد يا حلو في كل البقاع
لوعة أعنف من وقت الوداع
فوداعاً ووداعاً
فوداعاً يا حبيب)

كان يعرف جازماً أنّها سوف تنفّذ رغبته الأخيرة. ستقتل فطيس غدراً.

بعد ثوانٍ من الصمت ما كانت في حاجة إلى أن تعرف أنه مات. حنت رأسها وقبّلته على فمه وسقطت من عينيها دمعتان على جبينه واستقرّتا في تجعيدة من تجعيدات الجبهة ثم سحبت الغطاء وألقت به على وجهه وتحرّكت خارج الغرفة بعد أن استيقظت في وعيها حلّة ابن بخيت بملء آلامها. تذكّرت كلّ شيء كأنّه شريط يجرى قبالتها. خرجت من المستشفى ونادت سائقها وقالت له:

- تعرف شارع المخزان؟

فقال السائق الهندي نعم. ردّت فوراً إلى هناك.

دخل الجمس الأسود شارع المخزان. ثم انعطف نحو سكّة منحدرة وبعد قليل تبيّن لها سور مقبرة العجلية. رفعت جسدها وأطلّت من نافذة السيّارة فشاهدت الماضي بائساً منزوياً في نهايته. لم يبق شيء من معالم الماضي على حاله سوى الموتى. لا تتذكّر متى امتلأت هذه المقبرة. منذ أن ولدت وهي تعرف أنّها مغلقة. نزلت من السيّارة وطلبت من السائق أن يبقى. ابتعدت عن السائق ثم التفتت يميناً ويساراً وعندما تأكّدت أن لا أحد يشاهدها دخلت المقبرة. هنا سيقبر الشيخ ناصر. فحيج الأيّام القديمة. زالت الغرفة التي اغتصب فيها لكنها حتماً كانت هنا. هذا هو المدخل القديم. هي على يمين المدخل الجنوبي كما وصف لها. يقابلها من الجهة الأخرى بيت السويمي. رفعت رأسها فشاهدت اللبن

المرصوص الذي يحاول أن ينافس المقبرة على الخلود. شقّت طريقها بين القبور حتّى وصلت إلى قبر الطفل الرضيع الذي مات غدراً. وقعت عليه كأنّها كانت حاضرة يوم جاء به الشبحان ودفناه. وقفت أمامه ورفعت رأسها. شاهدت بيوت الطين تلوح لها حزينة. قريباً ستأتي التراكتورات وتنهي صخب الماضي الذي تتستّر وراءه. أتربة مرصوصة مات أهلها تنتظر مشروعاً ينهي وجودها. ستقاوم صارخة بصوت الغبار الذي ستنفثه في وجوه الغادرين الذين يريدون مسحها من الوجود ثم لا تلبث أن تستسلم. إنّها أطراف حلّة ابن بخيت تتمسّك بخلود الموتى والقبور. سيكون كلّ شيء كأنّه لم يحدث. ملايين السنين مرّت على البشر وهم يتبادلون الغدر. هذه واحدة من ملايين المقابر منذ أن تعلم البشر دفن موتاهم. لن تكون استثناءً. سيأتي اليوم الذي لن تجد من يحترم أجداثها. أيّ صراعات تافهة نشبت فيها وأيّ تفاهة أن يقبر فحيج هنا أو تلقى جثته للطيور والذباب. من سيسأل بعد ملايين السنين بل بعد عشرات السنين عن مصير فحيج. لقد تصارع فطيس وسويلم وفحيج على مرأى من موتى ومسمعهم. لم يستيقظ أي منهم ليحتجّ ولم يأت أحد من أقاربهم للدفاع عن سكينتهم. تحوّلوا إلى عظام نخرها الدود وسلّم فتاتها إلى الزمن ليجهز عليها ويحيلها إلى تراب. كم واحداً من هؤلاء انتهى مغدوراً؟

الفصل الثاني

لا بدّ أن يتخلّص من الشعور بالندم. منذ أن خرج من الرقّ قبل أكثر من خمس عشرة سنة، وهو يعيش وسط أخطائه التي لا تنتهي. اكتشف في لحظة الصفاء هذه أن الندم هو عدوّه الأول. يجب أن يعطي نفسه حقّ الخطأ وأن يغفر لنفسه كما يفعل الآخرون، وإلاّ تحطّمت روحه قبل أوانها. إنه إنسان قبل أي شيء آخر لا يختلف عن الناس في شيء.

قفز من فراشه وركض نحو الباب ومدّ يده وفتح نافذة الزنزانة الحديدية المصوّبة ناحية الممرّ ونادي بأعلى صوته: يا جندي يا جندي. لم يرد عليه أحد، فأخذ يركل باب الحديد ويهزّه بكلّ قوّة حتّى ضجت الممرّات الإسمنتية. سمع صوت السجين حسين في الزنزانة المقابلة يردّ عليه:

- أشفيك يا شنغافة أزعجتنا الله يهديك.

فردّ شنغافة بتوسّل:

- فين الخفير. يا أخي أخذ الفلوس وراح.

فصرخ حسين بصيغة الهمس:

- أسكت الله يهديك لا تفضحنا. لا يسمعك ضابط الخفر بعدين تحرمنا من كلّ شيء. مهوب على كيفه يروح ويجيء. الرجال ما يقدر يطلع من المنطقة إلاّ بعد ما ينتهي دوامه.

ترك حسين يكمل حقيقة يعرفها. هذه ليست المرّة الأولى التي يسجن فيها في المنطقة الخامسة. المنطقة الخامسة بيته الثاني. حسين رجل ساذج يريد أن يحافظ على السرّية في تعامله مع الجندي الذي يهرّب لهم الدخان. لا يعرف أن الضابط أيضاً يستفيد من العملية. عاد إلى الفراش وانكفأ عليه وهو يكاد يبكي. لم يحتج إلى سيجارة بقدر حاجته إليها الآن. أرهقه التفكير. ثلاثة أيّام متواصلة وهو يتأمّل مصيره. لقد ورّطوه أولاد الكلب. إذا أُدين في جريمة اغتصاب مراهق صغير لن يسمح له الأمير أن يعود إلى النادي مرّة أخرى، وحتى أبو عبد المحسن لن يمدّ له يد العون بعد الآن وربّما واجه عقوبة الإعدام. الشغل في النادي فرصة لا تعوّض. ثلاث سنوات في قبو النادي يأكل ويشرب ويتسلّم راتباً وشرهة من الأمير. وقد أفرد له الأمير غرفة في بيت والدته يلجأ إليها عند الحاجة. لم تأت تلك الحاجة فحوّلها أخيراً إلى مقطع خمر سرّي. إذا عرف الأمير أن بيت أمّه صار مقطع خمر فسيذبحه بدون تردّد. أقلقه هذا الهاجس. لا بدّ أن يخرج ليصلح الأمور قبل أن تفوح روائح الخميرة فيفتضح حاله. يجب أن يستمرّ المقطع. لا يهمّه رأي الأمير أو الأميرة. إنّه في حاجة قصوى إلى المال. لا يمكن أن يجمع ثمن البيت ويتزوج إلاّ من واردات مقطع الخمر. هذا أكبر مقطع صمّمه في حياته. لم

يحصل من قبل على فرصة مثل هذه. إذا باع عشرين مطارة عرق في اليوم فخلال سنة يكون ثمن البيت جاهزاً. عندئذ يتزوّج ويكفّ عن الحرام نهائياً. أمّا إذا عرفت الأميرة فسوف تقطعه إلى قطع صغيرة وترميه إلى الكلاب وتقضي على مشاريعه إلى الأبد. لا حاجة إلى تأنيب الضمير أو الخوف والتردّد. من حقّه أن يعيش مثل الآخرين. الأميرة امرأة طيبة لم يبدر منها شيء ضدّه أو ضدّ غيره. تعطف عليه وتساعده في جميع أموره لكنه ليس في حاجة ليثقل ضميره بالتفكير في ما سيحدث لها لو عرفت أن بيتها يضمّ أكبر مقطع خمر في الرويض. ثلاثة براميل كاملة تتخمّر على مهل. لا يمكن أن يكون الوحيد الذي يقوم بأعمال لا تسرّ الأميرة، فعدد الذين تؤويهم يزيد على الخمسمائة. عائلات وعزاب ومطلقات وأرامل. كلّ أصناف البشر. إنّها فعلاً طيّبة. برغم أنه لم يكن هو في يوم الأيّام من عبيدها ولا أجداده من عبيد أجدادها أو خدمها القدامى. استقبلته وآوته. لا تتردّد في استقبال كلّ من تاهت به الدنيا من خدمها أو من خدم والدها الكبير أو حتّى من خدم إخوانها وأبناء عمومتها. لا تكتفي بإيوائهم بل تطعمهم وتشربهم وتنتخب سنوياً عدداً منهم يرافقونها إلى المصايف الداخلية والخارجية. فتهافت الناس على السكن عندها أو التقرّب منها. صار بيتها مأوى لكلّ الناس حتّى أصبح مدينة داخل مدينة. إنّها أميرة طيّبة وحنونة. يشعر بعض الأحيان بالأسى لخيانتها. الوضع يفتقر إلى العدالة. لكن متى كانت العدالة موجودة أصلاً. قذف به القدر إلى أماكن غريبة وبعيدة يكابد الحياة

وحيداً. لا يعرف من هم الذين سرقوه وصنعوا منه عبداً. عليه أن يرفع نفسه من وحل المجتمع وأن يصنع قدره بنفسه. ليس من السهل أن تقاوم مصيرك وأن تكون طيباً في الوقت نفسه. رصاصات عشوائية ستنطلق حتماً. يعذّبه الندم كلّما شعر أنه أخطأ في حق من يساعده ويمدّ له يد العون. كلّ خطأ يرتكبه يجد ضميره واقفاً له في المرصاد. كل شيء له تبرير عند الناس. سيتعلّم هذا أيضاً. وجود المقطع في منزلها سوف يحقّق له أرباحاً كبيرة ولن تخسر هي شيئاً. هذا هو المنطق الذي يجب أن يسود في عقله. إذا كانت الأميرة طيّبة فليس لأنّها طيّبة دائماً. لم تخلق لتكابد عيشها ولم يكتب عليها أن تبحث عن مكان تحت الشمس. الشموس بين يديها. ثم ألم ترتكب أخطاء؟ هي طيّبة لأنّه لا يعرف شيئاً من أخطائها. لا يعرف أيّة خساسة من خساساتها. فالبشر جميعاً يتمتّعون بقدر من الخساسة.

تلقى الدرس الأوّل في خساسة البشر عندما عمل سوّاقاً لدى ابن شويب. أحبّ ابن شويب وصار مثله الأعلى. من حادثة واحدة وجد أنه لا يستحقّ أن يكوّن كل هذا الانطباع المثالي عنه. عندما عرفه قبل نحو خمس عشرة سنة كان يظنّ أن هذا الرجل من أطيب الناس وأنبلهم. كان أوّل إنسان يعمل معه بعد أن خرج من الرقّ. الذي يخرج من الرقّ كالذي يخرج من الرحم. هناك حياة جديدة تنتظره لا تشبه الحياة تحت سيادة الآخرين. يحتاج إلى بعض الوقت حتّى يتكيّف ويتعود ويألف الضوضاء والضوء والإحساس بأنه يملك نفسه. عمل عنده أجيراً: مرّة سائقاً ومرّة

صبيّاً منزلياً. تقلّب في الأعمال. في البداية شعر أن ابن شويب طيب تنتابه روح شرسة في بعض الأحايين. وبعد أشهر من العمل معه وتلقي الأوامر منه، اكتشف أنّه لا يعرف كيف يكون سيّداً. تقلّبات مزاجه الآمر تأتي من عدم قدرته على امتلاك الآخرين وإلقاء الأوامر عليهم. يشعر في بعض الأحيان أن بينهما شيئاً مشتركاً يجعل منه رجلاً طيّباً. حتّى بعد أن ترك العمل معه لبث يراه من أطيب الناس، ولكنه ليس طيّباً كما يبدو أو يحاول أن يصوّر نفسه للآخرين. من تجربته مع ابن شويب عرف شنغافة أن الإنسان الطيّب هو الإنسان الذي يعرف كيف يخفي خساساته الصغيرة عن الناس. الرجل الطيّب إمّا جبان أو ذكي. ابن شويب في منتهى الذكاء. لا تتسرّب خساساته إلى الناس إلاّ عند الضرورة القصوى. فصار مضرب المثل في المرجلة. اكتشف واحدة من خساساته مصادفة. لن ينسى تلك الحادثة أبداً. طلب ابن شويب مرّة منه أن يلحقه إلى السطح لتنظيفه بعد صلاة العصر. تأخّر شنغافة عن الموعد. عندما وصل كان أذان المغرب قد أزف. من الواضح أن ابن شويب فقد الأمل في مجيئه فراح يتجوّل في سطح منزله على راحته. لكنه فوجئ بشنغافة يقف على رأسه وهو يتلصّص على بيت الجيران. ارتبك قليلاً وفي لحظة عاد إلى الحزم المعروف عنه وطلب من شنغافة أن يذهب إلى الصندقة فوراً، وبدأ يتحدّث معه في شؤون العمل، كأنّه لم يرتكب شيئاً. تلكأ شنغافة في الصندقة ثم أخذ يسحب المراقد والفرش المتكوّمة حتّى يبدو مشغولاً. تركه ابن شويب ونزل. خرج شنغافة من الصندقة وقبل

أن يتّجه إلى الدرج اختلس نظرة على البيت الذي كان يقف جنبه ابن شويب قبل قليل. لاحظ فتاة صغيرة في الرابعة عشرة من عمرها ترقد على بطنها، فتبيّن أن الرجل الوقور كان يتفرّج على جسدها. تأمّل فيها شنغافة فبدت شهيّة تتجاوز عمرها الجنسي بسنوات. تبدو مؤخّرتها مؤخّرة امرأة في العشرين من العمر. كانت الفتاة مستلقية على بطنها على المرقد ووجهها ينظر إلى الناحية الأخرى. وساقاها منفرجتان. لم يقو شنغافة على إشاحة عينيه. ارتفعت درجة حرارته وازداد وجيب قلبه. تسمّرت عيناه على الشلحة التي ترقد على الأليتين وتشي بهما لمعتها البيضاء الحريرية. لا يعرف كم مضى من الوقت عندما سمع صوت ابن شويب يناديه. اضطرب وركض ناحية الصندقة وبذل جهداً عظيماً ليعيد أعضاءه إلى ارتخائها. من الواضح أن ابن شويب أحسّ أن شنغافة اكتشف الكنز. كان صوته مملوءاً بالغضب. عندما نزل من السطح قال له بشيء من التوتّر المشوب بالخجل:

- وش مأخّرك في السطح يا قليل الحياء؟

لم يجب بل أخذ يتأمّل في عينيه. عرف كلّ شيء من كلمة قليل الحياء. كلمة تصف الرجلين معاً في هذه اللحظة.

خرج من بيت ابن شويب يتأمّل في الحياة. لم يذكر هذا الأمر لأحد. احتفظ بتلك الحادثة الصغيرة لنفسه دون أن يعلل الأسباب. الحادثة ليست سرّاً من الأسرار. إنّها مخزون يجب أن يحتفظ به لنفسه. لم يعرف ابن شويب بل عرف الإنسان. من تلك اللحظة تكشّف له أن هناك توازناً بين الاحترام والاحتقار. اكتفى

بتقليل درجة الاحترام لابن شويب، فلاحظ بمرور الوقت أن احترام ابن شويب له قد زاد عمّا كان عليه في السابق. الاحترام المطلق يقابله الاحتقار المطلق. لم يتمكّن من تطبيق هذا الشيء على كثير من الناس. فتعلّم شيئاً جديداً صاغ حياته. لا يمكن أن تقلّل من احترامك لشخص إلاّ إذا اكتشفت شيئاً من عيوبه. الاحتقار يقوم على حقيقة لا على افتراض.

ازدادت حاجته إلى السيجارة فنهض مرّة أخرى ونادى بأعلى صوته:

- يا جندي يا أخينا.

سمعه حسين مرّة أخرى وردّ عليه:

- يا أخي يا شنغافة قلنا لك الرجال مهوب فيه.

فقال دون اكتراث لتوسّلات حسين:

- خلي ضابط الخفر يجي.

فقال حسين بحسن نيّة:

- أشفيك أنت انهبلت.

فردّ بلا مبالاة:

- أنا لازم اشرب سيجارة.

أخذ يركل الباب في سورة من جنون. وهو يصرخ يا جندي. وأخيراً تناهى صوت الضابط:

- يا شنغافة يا حيوان اش تبغى.

فقال شنغافة:

- يا أبو ناصر ممكن أكلمك شوية.

فردّ الضابط:

- يا لله جايك أشوف أش عندك.

فقال حسين:

- جبت لنفسك مصيبة.

عاد مرّة أخرى إلى فراشه وتمدّد في شوق إلى السيجارة.

عندما دخل منتصف الثلاثين من العمر بدأت تضيق المسافة بين التطلّع والحنين. لا مستقبل يرجى ولا ماضي يُشاد به. سبع سنوات قضاها في العبودية وقد أعتق دفاعة بلاء بسبب مرض ألم بالأميرة التي كانت تملكه. لا يتذكّر أنه شعر بالعبودية بالمعنى الصحيح إلاّ من كلام الناس. كان يعيش في قصر الأميرة في حي المرابيع كما يعيش الخدم العاديون. لم تكن له وظيفة محدّدة سوى أنّه عبد. ديكور للعمّات اللواتي يقتنين العبيد حبّاً بالتظاهر فقط. يأكل أفضل أكل ويسكن أفضل سكن. كان بلا صنعة سوى أنّه في بعض الأحيان يكون إلى جانب أبناء عمّته الأمراء. عندما يدخلون السوق يلبسون الملابس المزركشة وطاقيات الزري أو يزورون أقاربهم أو أصدقاءهم، كان لا بدّ أن يصطحبوه معهم فهو الدليل الأوضح على أنّهم أمراء. ما زال يحتفظ بحقّه في العودة إلى بيت عمّته، وأن يأخذ مكانه كما كان في السابق بعد التخلّص الجزئي من لقب عبد وحمل لقب خوي. ولكنه فضّل أن يخرج إلى الرويض وينضمّ إلى عالم الأحرار المعاند. خرج إلى الرويض يبحث عن شيء يشبه عبطة البدوية صديقة الأميرة التي كانت

الأميرة تأمره أن يرافقها بعد كلّ زيارة. كان يركب إلى جانب السائق وعبطة البدوية تركب خلف السائق. كانت تتعمّد أن تحادثه وتطرح عليه أسئلة تافهة لا تفسّر إلاّ أنّها تريد أن تتحدث إليه فقط، وعندما تصل إلى منزلها كانت تطلب منه ومن السائق أن ينتظرا. وبعد قليل يأتي أحد البدو من خدم والدها ليعطيهما شرهة الشيخة عبطة. عشرة ريال لكلّ واحد. مبلغ كبير. لاحظ السائق أنها لا تعطيهما شرهة إلاّ إذا كان شنغافة معه. كان شنغافة يسارع إلى إعطاء هذا التصرّف جميع التفاسير حتّى لا يبدأ السائق بالحديث الذي قد يؤدّي إلى ما لا تحمد عقباه. تمنّى أن تتوقّف عبطة عن إعطائه أي شيء وأن تتوقّف عن الاهتمام به خاصّة في الأيّام الأولى من خروجه من الرقّ. فهو الآن حرّ ولا يريد أن ينتقل من الحريّة إلى الموت. يريد أن يعرّج على الحياة التي خلق من أجلها قبل أن يخطف ويجلب ويباع. بعد فترة قصيرة خرج من القصر وسكن في بيت العبيد في حلة ابن بخيت حتّى لا يلتقي تلك المرأة مرّة أخرى. اكتفى بصورة لها في خياله. كان عمره خمسة وعشرين عاماً عندما شاهدها للمرّة الأخيرة. طويلة بيضاء عندما تتحرّك تحسّ بثقل جسدها برغم أنها كانت نحيلة. لم تكن بنت بدو بالمعنى الصحيح. لا يشاهد منها بشكل واضح وصريح سوى مؤخّرتها المنتصبة. عندما يعريها في خياله يتخيّلها متماسكة لا تعرف الرخاوة وتنفرج بطريقة جناحَي النسر. من الواضح أنّها عجيزة عنيدة تقفز من الظهر بسرعة وتتصارع مع الفخذين قبل أن تستسلم وتندمج فيهما. عندما تنزل من السيّارة تتحرّك من الناحية

التي يجلس فيها شنغافة ولكن كبرياءها تمنعها من أن تلتفت لتتأكد أن العبد قد احترق، وهو يتخيّل مؤخّرتها. لديه إحساس بأن الأميرة تغار منها. كانت أجمل من كلّ بنات القصر، وقد صدق حدسه عندما توقّع أن الأمير سوف يتزوّجها على الأميرة. لم يحضر الزواج لأنّه قد خرج من القصر. عندما يزور الأميرة كان يرى في عينيها الحزن. هي التي سبّبت لنفسها هذه المصيبة. كانت تجمع الفتيات الجميلات حولها وتتباهى بهنّ في المناسبات. تصطفيهن من بنات العائلات الكبيرة المتنفذة. اعتاد أن يسأله الأمير قبل أن يدخل إلى القصر عن ضيفات الأميرة. وعندما يعرف أن عبطة بينهن يتعمّد أن يدخل بدون استئذان. يعبر بين النساء فيضطرهن إلى أن ينهضن جميعهن ويسلّمن عليه. منذ اليوم الأوّل عرف شنغافة أن ذات المؤخّرة الجسورة هي هدف الأمير. لم يلاحظ أيّ شيء يدلّ على أن عبطة كانت تميل إليه. كان مسنّاً بعض الشيء وبخيلاً. وعبطة بنت بدو أثرياء وكرام. تحتاج إلى أمير أفضل من هذا الأمير. أو على الأقلّ إلى أمير شاب. عندما فكر في هذه الهواجس أحسّ أنه يحلم بعبطة لغيره. لا يقوى على أن يحلم بها مجرّد حلم. مرّة واحدة فقط مارس العادة السريّة بعدما استحضرها في خياله. كانت أروع عملية جنسية مارسها في حياته. صارت عبطة نموذجه. كلّما كان فوق امرأة أو صبي يغمض عينيه ويتخيّل أنه ممتطٍ عبطة. عشر سنوات لم يمارس الجنس إلاّ وعبطة حاضرة في الجسد الذي تحته. عندما حُكم عليه بالإعدام بعد سنوات بعث لها برسالة يتوسّل إليها فيها أن تتوسّط

لدى الأمير لإنقاذه من حدّ السيف. لكن حكم الإعدام نُفّذ فيه قبل أن يتلقّى منها جواباً. أمضى الأيّام التي سبقت تنفيذ حكم الإعدام فيه يدعو الله أن تسعى عبطة إلى إنقاذه ليس حبّاً بالحياة بل لكي يتأكّد أنها اهتمّت به في يوم من الأيّام. عندما سيق إلى ساحة الإعدام وعصبت عيناه بغترته واختفى العالم عن بصره وصار كلّ العالم جاهزاً لدقّ عنقه خُيّل إليه أن عبطة تقف بين الجمهور. شاهدها تحزن ثم تبكي عليه. هل جاءت لتنقذه أم لتحزن عليه. انتظر أن تتدخّل في أيّة دقيقة ممّا تبقى له في هذه الحياة. عندما أُجلس على ركبتيه وتقرر مصيره المحتوم سمع الشيخ يطلب منه أن يقول آخر وصاياه، فطلب من الشيخ أن يأخذه إلى الحمّام مدّعياً أنه يريد أن يموت على وضوء. كان أسفه الوحيد على هذه الدنيا أنه لم يمارس العادة السرية على عبطة سوى مرّة واحدة.

- اش عندك يا شنغافة.

سمع شنغافة صوت الملازم. فنهض من الفراش واقترب من باب الزنزانة وقال بهدوء:

- طالبك يا أبو ناصر زقارة تكفى الله يخليك.

فقال أبو ناصر:

- يا أخي مزعج الناس ومصحيهم من النوم عشان تشرب زقارة ما تصبر لين يجي الصبح.

فأجابه:

- والله ما أقدر يا طويل العمر ما عمري اشتهيت زقارة مثل

ما اشتهيتها اليوم تكفى يا أبو ناصر دبر لي لو حبّة. فقال الضابط يا ابن الحلال أصبر لين بكره ويكون فيها ألف حلال. فقال شنغافة بتوسّل:

- ما أدري متى أطلع من هنا وبعدين الواحد ما يصبر عن الدخان الله يلعن أبوه.

فقال الضابط:

- بكرة بتطلع.

فسأل شنغافة بدهشة:

- ليش وش صار.

فقال الضابط وهو يخرج علبة الدخان من جيبه ويخرج عدداً من السجائر ويمدّها نحوه:

- عيال ابن نقية برؤوك واليماني شهد معك دورنا كفيل وجاء أبو عبد المحسن وقع على كفالتك.

فقال شنغافة:

- طيب ورا ما تطلعوني هالحين.

فقال الضابط:

- بكرة الصباح لازم ناخذ بصماتك وفي أمان الله.

وبعد أن أشعل له السيجارة، أكمل الضابط حديثه:

- حظّك يا أم كوير حتّى الورع ما اعترف عليك. الظاهر أنه ولد هواك يا ملعون الوالدين.

فقال شنغافة:

- قسم بالله العظيم أني ما عرفته إلاّ يوم جابوه عيال ابن نقية في النادي حتّى أني استغربت وش جايبهم في ها الوقت مفروض أنهم يروحون للتمرين مع الناس.

فقال الضابط وهو يتركه:

- أكيد فرحت يوم شفت البزر معهم.

فقال شنغافة:

- الله يهديك يا أبو ناصر يعني كل الخمال فيني أنا أقسم بالله أني ما لمسته.

فقال الضابط:

- لا تحلف بالله أعرفك يا شنغافة ما تخلي ذنب الورع يفر.

فقال شنغافة:

- الله يلعن والدي أن كاني لامسه وإلاّ قربت منه. جوني وخذوا المفتاح قال لي ابن نقية أن تكميلته في القبو ويبي ياخذها فصدقته.

فسأل الضابط:

- والورع اللي كان معهم وينه.

فردّ شنغافة:

- أصلي ما كنت في النادي يوم يروحون للنادي كنت عند دكان اليماني أتقهو أنا وأياه.

فقال الضابط:

- اليماني شهد لك أنك كنت عنده.

فقال شنغافة:

- الله يجزاه خير.

فقال الضابط:

- المهم أعقل يا شنغافة طع شوري. والله ما ينفعونك سرابيتك حتّى عمتك الأميرة ما تسقيك من الماء.

فقال شنغافة:

- وش صار لعيال ابن نقية.

فقال الضابط:

- والله ما أدري الظاهر أن قضيتهم كبيرة بيخذونهم من عندنا ويودونهم للمصمك.

فسأل شنغافة:

- اعترفوا؟

فقال الضابط:

- اعترف الصغير واضطروا يعترفون. والورع اعترف عليهم كلهم. الورع هو اللي جاب لهم المصيبة. يقول أنهم خاطفينه بالدباب وماخذينه للنادي غصب.

فقال شنغافة:

- يخسي ابن الكلب والله إنه جاي معهم بشوره. ما شفت لا دباب ولا شيء، يمكن أبوه قرره وخلاه يقول كذا بعد ما أنفضح. اللي سمعته أنه كل يوم معهم والظاهر أنه في الاساس ماسك مع زغيلب وزغيلب خبيث يوم أنه شاف ولد هواه معهم دز عليهم عشان يأدب عيال ابن نقية وورطهم حسبي الله عليه.

فقال الضابط:

- وراك تعطيهم مفتاح النادي.

فقال شنغافة:

- يا ابن الحلال جاني فهيد بن نقية وأنا جالس في الدكان تكاسلت عطيته المفتاح وصار اللي صار.

فقال الضباط:

- احمد ربّك أنك ما قمت كان لين شفت الورع معهم تطيح سعابيلك.

ضحك شنغافة وقال:

- الله يكفينا الشرّ.

فقال الضابط:

- تعرفه؟

فقال شنغافة:

- عرفته بعدين ملعون الوالدين ما فيه عكس ما قطمه في الرويض وتروح روس الرجاجيل علشانه. ظنّك بيعدمونهم يا أبو ناصر.

فقال الضباط:

- والله ما أدري ما أظنهم بيخاذونهم للمصمك إلاّ عندهم علم ثاني.

فقال الضابط وهو يغادر:

- المهمّ نم هالحين تراهم بيوقظونك الصبح بدري.

فقال شنغافة:

- تكفى يا أبو ناصر الين أطلقوني خلهم ينزلوني في المحيفرة.

فقال الضابط:

- وش عندك في المحيفرة.

فقال شنغافة وهو يضحك:

- يا ابن الحلال لا يروح بالك بعيد. ولد المقمبر ضاع وبروح أشوف يمكن أحد جلبه للسوق.

فسأله الضابط:

- كم يسوي؟

فقال شنغافة:

- خمسين ستين ريال.

فقال الضابط:

- والله غالي.

فرد شنغافة:

- قطيفي طال عمرك. أبشوف يمكن أحد يجلبه للسوق ألعن امه وابوه.

فقال الضابط:

- حقين الحمام ملاعين والدين اللي بيلقاه مهوب جالبه للسوق.

فقال شنغافة:

- داري بس أبروح احذّرهم لا أحد يشتريه وبعلم سحيمان الين شافه مع أحد يعلمني. بحطّ خبر عندهم كلهم.

وبعدما أصبح الضابط بعيداً لم تعد تسمع سوى خطواته، سمعه شنغافة يقول:

- انتبه ها اليومين لا تسوى مشاكل ترى قضيتك ما انتهت إلاّ ألين يحكمون على عيال ابن نقية. خلك حذر.

سمع حسين العبارة الأخيرة فقال:

- أش صار لقضيتك يا شنغافة.

فرد شنغافة:

- أبد الحمد لله جت سليمة.

فقال حسين:

- اسمع أبو ناصر ينبهك ليش حكموا على عيال ابن نقية عشان الورع.

فرد شنغافة:

- ما قالي بس الظاهر أنهم ناوين يحكمون عليهم.

فقال حسين:

- ليش هم سووا فيه بالقوة.

فقال شنغافة:

- ما أظنه يا رجال. الورع تكسي كلٍ يركبه بس الظاهر أن احد دز عليهم ودرا أبوه وخلاه يقول أنهم غصبوه. مهوب قايل أن ولدي راح معهم بشوره.

فقال حسين:

- وأنت طلعوك منها ولا لسه.

فقال شنغافة:

- أنا ما لي علاقة أنا عطيتهم المفتاح. ما أقدر أقول لا. نويصر ابن نقية لاعب عندنا ودايم يخلي تكميلته في النادي. زد قلت للأمير ما نخلي أحد يخلي تكميلته في القبو بس الأمير ما طاع شوري.

فقال حسين بضحكة:

- بلاه عارف أنك تبي القبو لك بلحالك عشان تقطع فيه.

ضحك شنغافة وقال:

- الله يهديك بس يا حسين إلاّ أنت وش صار لك.

فقال حسين:

- بكرة الصباح بيخذوني للتحقيق.

فقال شنغافة:

- انتبه تعترف!

فأجاب حسين بحماسة:

- والله ما راح اعترف لو يقطعوني تقطيع.

فقال شنغافة:

- انتبه لا تصدّق ها البدوي مهما قال لك.

فقال حسين:

- مجنون أنا.

فقال شنغافة:

- أقول يا حسين هذا أوّل مرّة تسرق.

ضحك حسين وقال:

- ما اعترفت قدّام الضابط أعترف قدامك.

ضحك شنغافة وقال:

- أجل تصبح على خير.

تحرّك إلى داخل الزنزانة قبل أن يسمع ردّ حسين وألقى بنفسه على الفراش الممدّد على الأرض. يبدو أن صاحب الفراش الأصلي كان قصير القامة أو صبياً. لا يتجاوز طول الفراش أكثر من مائة وخمسين سنتيمتراً فاضطرّ شنغافة إلى أن ينكمش كثيراً ليبعد قدميه عن أرض الزنزانة الباردة. يعد شنغافة من أطول أهل الرويض. حاول الأمير أن يدرّبه لكي يصير حارس مرمى دون جدوى. يتجاوز طوله مائة وخمسة وثمانين سنتيمتراً. من الواضح أن أصوله من زنوج غرب إفريقيا. سواده فاحم وذو جسد ضخم وملامح زنجية مهذّبة تكسبه كثيراً من الوسامة. فشفتاه على غلظتهما منتظمتان ومطبقة الواحدة على الأخرى بشكل جمالي يجتذب النساء اللواتي يرغبن في الخروج المؤقت على حياتهن الزوجية، أو الأرامل اللواتي يشعرن بالوحدة مثل معدية التي مات زوجها وتركها وحيدة بلا أطفال. شعرت معدية أن وحدتها تناسب وحدته. امرأة بلا أهل أو أقارب. جاء بها زوجها من بلادها ولكن الله لم يوفّقها بأولاد. اختلفت مع أهله الذين تعاطفوا مع زوجته القديمة وعندما مات لم يتركوا لها من الميراث سوى البقرة والثور

وتيس وبعض الدجاجات. فعاشت تربّي الأغنام وتتصدّق بخدمات التيس والثور على كل من يملك بقراً أو أغناماً في مواسم التسافد. أهل الخير لم يقصروا معها. فمنهم من يعطيها مبلغاً مالياً، ومنهم من يعطيها أرزاقاً، ومنهم من يعطيها ملابس خصوصاً في رمضان والأعياد، حتّى أن واحداً من أهل الخير قرّر أن ينوّع في الإحسان فعرض عليها بطريقة غير مباشرة بأن يدفئ فراشها البارد في ليالي وحدتها في السنة الأولى من وفاة زوجها، ولكنها رفضته وصدّته بقوة وأخبرت زوجته وأهله، وبعدها لم يجرؤ أيّ من الرجال الطيّبين على عرض هذا النوع من الإحسان عليها. بدأت تستعين بشنغافة لقضاء حاجاتها. شعرت أنه وحيد مثلها. كل يوم أو يومين أو ثلاثة يمرّ بها ويأخذ منها البيض ويسوّقه لها، أو تيساً صغيراً يبيعه في سوق الغنم أو يأتيها بالعلف إذا تأخّر حمار ابن طريمان عن أداء واجبه. في البداية كان يقف عند الباب وتجلب له البهيمة أو تمدّ له كيس البيض ولكن بمرور الوقت صار يدخل الحوش ويسحب العنزة المطلوب بيعها ويخرج. وأخيراً صار يقضي حوائجها المختلفة التي لا تستطيع أن تقوم بها بصفتها امرأة، فتقاربت زياراته حتّى صارت يوميّة. كان يلبي مطالبها وينفّذ رغباتها دون أن يسأل نفسه مرّة واحدة لماذا، ولا يعرف لماذا بدأت تطمئن له وتمون عليه. في إحدى المرّات كانت تعدّ العدة لشراء ثلاث أغنام دفعة واحدة فطلبت منه أن يأتي غداً في الفجر كي يساعدها على إعادة ترتيب الحوش حتّى يستوعب الأغنام الجديدة. حضر شنغافة قبل صلاة الفجر. الساعة الثالثة تقريباً.

معه عتلة ومسحاة ومحفرة. دخل من باب الحوش كالعادة. وقبل أن يبدأ العمل دعته لأوّل مرّة منذ أن عرفها إلى داخل المنزل لتناول الفطور. تلكأ من باب المجاملة والتعبير عن الخجل، ولكنها قالت بحزم: تعال في الدوانية. مضت أمامه دون أن تترك له حقّ الممانعة كمن يملك سلطة لا تحتمل الرفض. كانت المرّة الأولى التي يتأمّلها كامرأة. كان الجوّ بارداً بعد أن هدأت الأمطار التي اجتاحت الرويض الأسبوع السابق. لم يكن يشعر بالبرد الشديد لكنه شعر في تلك اللحظة أنه في حاجة إلى الدفء. دخل الدوانية وشاهد النار الموقدة والأرفف المرصوصة عليها الأباريق. كانت أعدّت له مطازيز وشاهي وجهّزت بكرجاً مملوءاً بالحليب. أحس لأوّل مرّة بدفء العائلة الحقيقي. جلست خلف الأوجار. لاحظ لديها جرأة لم يعهدها من قبل. ثلاث سنوات وهو يقدم إليها خدماته شبه المجانية وهي تعامله باحترام لا أكثر ولا أقلّ. كانت تلثم وجهها عند مقابلته. ولا يمكن أن تضع عينيها في عينيه عندما تحدّثه، وكانت تناديه دائماً: أخوي شنغافة. في هذه المرة سمعها لأوّل مرّة تناديه شنغافة هكذا دون كلمة أخوي. ربّما كانت غلطانة أو مستعجلة ولكنها كرّرتها أكثر من مرّة عندما جلسا على الأوجار. فأحس أن الأخوّة بينهما قد سقطت نهائياً. امتلأت خياشيمه بدفء الأنوثة المتناثر في كل زاوية من زوايا المكان. عندما مدّت يدها إليه ببيالة الحليب أحسّ أن يدها تنتفض. كانت أصابعها تطوّق البيالة كلّها. لم يكن هناك سوى مسافة سنتميتر واحد في طرف البيالة الأعلى يمكنه أن يأخذ البيالة منها دون أن

تمس أصابعه أصابعها. تناول البيالة منها بعد أن دخلت أصابعه بين أصابعها. انتفض جسده. وازداد وجيب قلبه. رفع عينيه إلى عينيها. شاهد عينيها ملقاتين في النار الحمراء ويدها اليسرى تحرّك الفحم بعصبية وبدون هدف. ففكرها بالتأكيد مشغول بشيء بعيد تماماً عن الأوجار. هناك نار أخرى تشتعل في مكان آخر. فعجّل بشرب الحليب ومدّ لها البيالة بالأسلوب نفسه الذي استخدمته معه. لم تأخذ البيالة بل أخذت يده. أدخلت أصابعها داخل أصابعه وانتزعت البيالة عنوة. صبّت له ولكنها لم تمدّها هذه المرّة بل وضعتها على حافة الأوجار ونهضت ثم اتّجهت ناحية الباب، فتأمل قوامها القصير. كانت نحيفة نحافة مسبوغة بكل المتطلبات الأنثوية. أثارته مشيتها الملأى بتكسّر الأنوثة. تسحب له كما تسحب الحمامة للذكر. وقبل أن تخرج من الباب التفتت ناحيته وقالت بحنك مرتخٍ يشي بأن فمها امتلأ باللعاب:

- إذا خلصت من الفطور خلنا نشتغل عشان نخلص قبل الظهر.

ثم خرجت. ليس من عادة امرأة تستضيف رجلاً في منزلها وهي وحيدة. المسألة لا علاقة لها بالغنم أو الحوش فتبعها. لم تتّجه إلى الحوش. شاهدها تقف أمام حجرة في الزاوية اليمنى من بطن البيت. عندما سمعت خطواته التفتت ناحيته فلاحظ أن غطاء وجهها قد سقط كلّه. وقفت قليلاً وهي تنظر إليه ثم دخلت الغرفة. تشبعت عيناه بوجهها الأبيض الناحل وقرر أن يمتصّه بشفتيه المتورّمتين أيّاً يكن الثمن. دخل الغرفة خلفها. شاهدها

متكوّمة كالقطّة على الفراش الوثير. دخل وأغلق الباب وراءه.

منذ ذلك اليوم أصبحت دفئه الإنساني الوحيد. يمرّ بها قبل صلاة الفجر. يفطر معها، وعندما يلاحظ أن فمها امتلأ باللعاب يأخذها على الفور إلى الغرفة ينامان معاً حتّى الضحى ويخرج من باب الحوش وبصحبته أيّ شيء يثبت أنه زارها بدوافع العمل.

تسكن معدية في بيت صغير يقع على تقاطع شارعين. يقع الباب الرسمي أو باب السوق على سكة متفرّعة من السكة الرئيسة في حلّة ابن بخيت، ويقع باب الحوش على سكة أخرى أصغر ليس لها جيران من ناحية هذا الباب سوى بيتين، الأوّل مهجور لم يسكنه أحد منذ حوالى أربع سنوات، والثاني بيت رجل مسنّ أعمى يكنّى بأبو دحيم. يعتبر أبو دحيم أفقر رجل في حلّة ابن بخيت. يعمل دلاّلاً في سوق الغنم. يخرج من منزله قبل صلاة الفجر بساعة أو ساعتين ولا يعود قبل صلاة المغرب. لم يعرف أحد أنه صلّى الفجر في مسجد ابن فيصل منذ سنوات طويلة. لم يشاهده شنغافة يخرج أو يدخل. ولأنه أعمى وضعيف البنية لم يوله شنغافة اهتماماً يذكر. صادفه مرّة واحدة ذات صباح عندما اضطرّ فيها شنغافة إلى أن يزور حبيبته معدية قبل صلاة الفجر وهو الموعد نفسه الذي يخرج فيه أبو دحيم من منزله. أحسّ أبو دحيم بأن باب معدية يفتح فقال:

- صبحك بالخير يا معدية.

توقّف شنغافة وحبس أنفاسه ولاذ بالزاوية فردّد أبو دحيم مرّة أخرى:

- صباح الخير.

ساد صمت طويل أصاخ خلاله أبو دحيم سمعه لعلّه يلتقط أيّة أشارة. ثم أحس أبو دحيم أن هناك شخصاً يقف في رأس الزاوية فمشى ناحيته فاضطرّ شنغافة إلى أن يتحرك فاصطدمت رجله بحجر فتدحرج وأحدث صوتاً ضعيفاً سمعه أبو دحيم فقال:

- من أنت وينك طالع منه؟

سكت شنغافة وتحرّك بهدوء مبتعداً عن مرمى خيزرانة أبو دحيم الذي راح يحرّكها في الهواء على شكل مروحة لعلّها تصيب أحداً وهو يردّد:

- أنطق وش جاي تسوى عند بيت معدية.

خاف شنغافة أن يخرج أحد بعد أن تأكّد له أن أبو دحيم عرف بوجوده، فقرّر أن يلوذ بالفرار حتّى لو أحدث صوتاً. فجرى في جهة الباب الرئيسي ودخل سكّة البازمي واختفى.

غاب عن معدية أسبوعاً كاملاً، ولم يعد يمرّ حتّى من حلّة ابن بخيت. أخذ يتحرّى كلّ خبر يشي بردّ فعل أبو دحيم على ما جرى. مرّ أسبوع، لم يسمع شائعة واحدة فعاد ذات ظهيرة إلى حلّة ابن بخيت. تعمّد أن يأتي في هذا الوقت حتّى يكون على مرأى من الناس. سلّم على أكثر من واحد وهو في طريقه ليسجّل حضوره. قرع الباب على معدية لم يجبه أحد فطرق باب أبو دحيم. فسمع زوجته تقول:

- من عند الباب؟

فقال ليكرس براءة علاقته بها:

- أنا شنغافة ما تدرين يا أم دحيم وين معدية؟

فقالت:

- والله ما أدري يمكن راحت للسوق تبيع البيض زي العادة.

شعر بالارتياح. يبدو أن الوضع طبيعي ولكن عليه أن يتأكّد أكثر. أخذ سمته وسار بسرعة إلى سوق المحيفرة. اتّجه إلى الزاوية التي تبيع فيها النساء مشغولاتهن ومنتجاتهن الحيوانية. سار بينهن. تلفت يميناً وشمالاً باحثاً عن معدية فلم يشاهدها. شعر بقليل من القلق فاتّجه إلى مستودع باسويف الذي تشتري منه البيض المستورد من لبنان. سبق أن أخبرته أنّها تخلط بيضها المحلّي المطلوب من الناس بالبيض المستورد حتّى تزيد الأرباح. دخل المستودع فوجد عدداً من البائعات يساومن البائع. تعرف على صوت شما الدويسره. فكّر أن يسألها عن معدية ولكنه تراجع في آخر لحظة، ولم يجرؤ على سؤال صاحب المحل. في فجر اليوم التالي ذهب إلى سوق الغنم فشاهد أبو دحيم يحرج على ماعز في يده فتوجّه له وتظاهر أنه يراه مصادفة:

- صباح الخير أبو دحيم.

فردّ أبو دحيم:

- هلا صباح الخير من أنت؟

- أخوك شنغافة.

فقال أبو دحيم:

- هلا شنغافة وش عندك اليوم جاي مبكر؟ ما معك شيء من غنم معدية.

فقال شنغافة:

- لا والله يا طويل العمر.

فقال ابو دحيم:

- يا أخوي ها المرة ما تبي لها دلاّل يشتغل لها الله يهديها؟

فقال شنغافة:

- تعرف ضعيفة ومسكينة تبي توفر كل قرش.

فقال أبو دحيم:

- وأنت بعد ما تقصر معها جزاك الله خير.

اكتمل اطمئنانه فكلّ شيء يبدو طبيعياً. ودّعه وهو يقول، ودون أن يسمع إجابته:

- أبو دحيم تبي شيء؟

عاد من سوق الغنم منشرح الصدر. أحسّ أنه دخل الحياة من جديد. ذهب على الفور إلى النادي. أمضى أكثر من ساعتين يغسل ملابسه ثم استحمّ وخرج إلى دكان اليماني وأحضر ربع قالب ثلج ووضعه في الترمس. أخرج مطارة العرق من كيس الملابس القديمة في القبو.

لم يسكر في النادي منذ أشهر. لا يشرب الخمر في النادي إلاّ في ظروف استثنائية. آخر مرّة شرب فيها في النادي كانت قبل حوالى ثلاثة أشهر بناء على طلب اللاعب جنجا. يعدّ جنجا أهم لاعب في الفريق. من الصعب رفض طلبه. جميع اللاعبين والإداريين يطلبون وده. حقّق للأمير أمنية حياته. الأمير يعتمد في

النجاح على كل شيء حتّى التطيّر والحظّ والدنبوشي. فاز فريقه على فريق الشمس في أوّل مباراة يلعبها جنجا مع الفريق وكانت أيضاً أوّل مباراة يفوز فيها فريق الفوز على فريق الشمس. وضعه الأمير إله متوّجاً على كلّ العاملين واللاعبين في النادي. لا يستطيع أحد أن يردّ طلبه. عندما أسرّ لشنغافة برغبته في الخمر تلك الليلة كاد شنغافة يطير من الفرح. يعرف شنغافة أن جنجا يشرب الويسكي في بيت الأمير متى ما أراد. شربا معاً حتّى الفجر. كانت تلك آخر مرّة يشرب فيها في النادي.

امتلأ قلبه بالفرح عندما عرف أن علاقته بمعدية ما زالت سرية. قرّر هذه المرّة أن يشرب في النهار حتّى ينام مع بداية الليل ويستيقظ قبل الفجر. أفضل وقت يزور فيه حبيبته. بقي يشرب حتّى فقد وعيه. نام في مكانه. استيقظ الساعة الثانية صباحاً. نهض من فراشه وركض إلى الحمّام واستحمّ وحلق ذقنه. بدا نشيطاً وإن كانت عيناه تشيان بآثار النوم والخمر. لبس أنظف ثيابه وتحرّك على الفور إلى حلّة ابن بخيت. بعد نصف ساعة تقريباً كان يقف أمام باب معدية. لم يتردّد في قرعه. سمعها تقول مين. أنا شنغافة. فتحت الباب ودخل بسرعة. لم يسلّم عليها. اختطفها من وسطها وحملها بين ذراعيه وهو يضغطها على قلبه ويقبّلها على جبينها ووجنتيها ثم وضع شفتيه على شفتيها وسار بها إلى فراش الحبّ. بعد عشر دقائق هدأ الجسدان. عاتبته على تأخّره. لم يخبرها بحقيقة ما جرى. قصّ عليها قصصاً عدّة تبرّر غيابه فبدت متناقضة فالتبس الأمر على معدية. نهضت من الفراش ولبست

سروالها المقلّم وأشاحت بوجهها عنه. نهض وراءها وأمسك بها فلاحظ على وجنتيها قليلاً من الدموع. لا يتذكّر أن أحداً بكى من أجله أو عليه. هذه الدموع هي الأولى التي تذرف في سبيله. سحبها بهدوء وأعادها إلى الفراش وضمّها إلى قلبه ودفن رأسها في صدره العاري وبكى بصمت حتّى لا تسمعه. ولكن قطرات الدموع المنحدرة من عينيه تساقطت على جبهتها فرفعت رأسها وشاهدته يبكي. اقتربت من خدّيه وأخرجت لسانها وطفقت تلحس دموعه وتبتلعها. فانخرطا في البكاء بصوت مسموع ومن دون تحفّظ. مسحت وجهها في وجهه فاختلطت الدموع. شهدت تلك الغرفة ولادة حبّ غير مسبوق بين الأرملة والعبد. عرف منذ ذلك الحين أنّها تحبّه من كلّ قلبها، وتأكّد أنّه يحبّها عندما لاحظ أنّه يمارس معها الجنس من دون أن تحضر عبطة لتفصل بينهما ومن دون أن يتخيّل مؤخّرة نوف. لقد أنشأ اللّه لهما مكاناً في جنّة الحبّ. اكتشف أنّها نسيج وحدها. أخذت مشاعره وعواطفه إلى عالم جديد. فأخلص لها. إنّها المرأة التي لن يجدها أبداً فقرّر أن يتزوّجها مهما كلّف الأمر. كان قد جمع حوالى ثلاثة آلاف ريال مودعة عند أبو عبد المحسن. أخبرها بذلك. قرّبت فمها من فمه كأنّها تريد أن تقبّله ولكنها قالت:

- عندي سبعة آلاف ريال، فيه بيت في شارع ابن سويلك يسوى اثنا عشر ألف.

فقال:

- وهذا البيت وش فيه.

فقالت:

- لا أريده.

لم يسألها لماذا. ضمّها إلى قلبه ووضع رأسها على زنده حتّى التصق فمها بحلمته وطوى يده الأخرى على وسطها ورمى بفخذه على عجيزتها العارية وسحبها إلى داخله بكلّ العنف الذي لا يسمح بإيلامها فبدا جسدها الصغير في داخل جسده كخطوط أنثوية بيضاء رسمت على أرضية سمراء مشرقة. غطّا في نوم عميق. استيقظا على أذان الظهر. أصبح الوقت حرجاً. لا يمكن أن يخرج من البيت في هذا الوقت. وقت خروج الأطفال من المدرسة والناس تجول في السكيك. ضحكت من موقفه. طلبت منه أن يذهب إلى الحوش ويذبح التيس الصغير ويسلخه. استغرب لكنّه امتثل دون أن يسأل. عندما عاد إلى بطن البيت سمع ضجيج الأواني في المطبخ فعرف أنّها تعدّ لحفلة الحبّ. طلبت منه أن يترك التيس على حاله دون تقطيع وأن يذهب إلى الدوانية ويرتاح. لكنه وقف خلفها وضمّها إلى جسده ثم أمال وجهها ناحيته وقبّل خدّها. صرخت أن يتركها ولكنّه أصرّ فاستدارت ناحيته وحاولت ضربه بالملاس فتفادى الضربة فألقت بالملاس على الأرض وانقضّت عليه وأخذت شفته السفلى بأصابعها وسحبتها فانحنى منقاداً لها حتّى بلغ فمه فمها فرضعت شفته حتّى كادت تدميها. أفقدها الحب صوابها وأعمتها الشهوة فراحت تتشعبط فيه لترفع صدرها إلى صدره فرفعها عن الأرض حتّى يصبح فمها في موازاة فمه وتركها تستهلك القبلة المحمومة التي ألقت بروحها فيها. بعد

قليل تركت شفته وارتخت بين يديه. أنزلها إلى الأرض فانحنت والتقطت الملاس والتفتت إلى القدر المنصوبة على الكولة. وقالت اذهب قبل أن ألتفت إليك مرّة أخرى. لن تنجو شفتاك من شوقي هذه المرّة. تركها وذهب إلى الدوانية وجلس في المكان نفسه الذي ألقيت فيه بذور الحبّ أوّل مرّة. سحب المسندة ووضعها تحت رأسه وغطّ في نوم خفيف. صحا على صوتها. شاهد سماطاً كبيراً وعليه تبسي مملوء بالرز يعلوه جسد التيس الذي ذبحه قبل ساعة. كانت تجلس قربه. دنا منها وضمّها وعصرها فصرخت. لم يعبأ بتوسّلاتها. سحبها ثم رفعها ووضعها في حضنه. أمسك ذقنها وأدار وجهها ناحيته ووضع فمه على فمها وقبّلها وراح يمتصّه وينظّف فمها بلسانه. قاومت حتّى حرّرت فمها من فمه وهي تصرخ وتضحك وتتمايل في حضنه مردّدة: تنتقم مني يا عدو الله. ثم أدارها مرّة أخرى وجعل ظهرها على صدره بعدما أجلس عجيزتها في حضنه وباعد بين يديها وأدخل يديه وضمّها بقوّة فالتحم ظهرها في صدره. اضطرّت إلى أن تفتح رجليها حتّى لا تقعا في التبسي. تركته يتصرّف في جسدها بالطريقة التي يراها بعد أن يئست من الخلاص. أخذت تقطع اللحم وتمزجه بالرزّ. مرّة تضع لقمة في فمه ومرّة في فمها. أمضت ذلك اليوم كلّه في حضنه.

صارا يحسبان تكاليف البيت ويعدّان رؤوس الغنم ومنتوج البقرة والدجاج. لم يخبرها بأمر مقطع الخمر مصدر دخله الأصلي والأموال التي يجنيها من ابتزاز الساحر الماحي. قرّر أن يبعدها عن

حياته الضائعة. إنّها طهر العائلة الذي يشتاق إليه. مرّة سألته عن مصدر كل هذه الفلوس فقال لها إنّها صدقة يجمعها في رمضان من زياراته لبيوت الأمراء. لم تسأله بعد ذلك. آمنت أن شنغافة لا يمكن أن يكذب عليها. صارت تعطيه الفلوس وتخبره بمكاسبها بدقّة ويقوم هو بمساعدتها. أولته ثقتها كاملة. في إحدى المرّات طلبت منه أن يأتي في الصباح المبكر ليأخذ كمية من البيض ويوصلها إلى بيت الشيخ حسن. جاءها بعد أذان العشاء. تضارب موعدها مع وقت التئام الشلة فأخذ البيض معه إلى بيت السويمي على أمل أن يأخذه في الصباح إلى بيت الشيخ. نسي الأمر وراح يسكر مع الشلّة. وفي الصباح شاهد السويمي يقلي بيضاً على غير عادته، فتذكّر بيض معدية. أصيب بسورة من الجنون. استغرب الجميع. كمية البيض التي قلاها السويمي لا تحتاج إلى كلّ هذا الغضب والجنون. أربع بيضات من كيس ملآن بالبيض لا يتعدّى سعره في السوق ثلاثة ريالات. اعتاد شنغافة أن يحضر معه مطارة خمر ولحماً كلّ يوم تقريباً. كان كريماً دائماً مع الشلّة. لم يفهم أحد السرّ ولم يخبر أحداً بذلك. اضطرّ إلى أن يذهب إلى السوق وأن يشتري كمية البيض نفسها ويأخذها إلى الشيخ. لكن الأحداث لم تسر وفقاً لإرادته. كانت زوجة الشيخ قد أرسلت ابنها الصغير إلى معدية تسأل عن البيض. عرفت معدية أن شنغافة لم يأخذ البيض إلى بيت الشيخ. أعطت الطفل كيس بيض آخر وانتظرت. في تلك الأثناء، اشترى شنغافة بيضاً من السوق وأسرع به إلى بيت الشيخ. أخبروه في بيت الشيخ أن البيض وصل. اكتشف أن معدية

عرفت. دارت به الدنيا. ترى كيف يفسّر الأمر لها. تردّد. لا يمكن أن يذهب الآن إلى بيت معدية. مرّ باليماني واشترى ربع قالب ثلج واتجه إلى النادي. نزل إلى القبو وأخرج مطارة العرق. ثم عاد وجلس في الحجرة المخصّصة للأمير. المكان المكيّف الوحيد في النادي. شغّل المكيّف وجلس على مكتب الأمير المريح. بدأ يشرب. لا يعرف كم مضى عليه من الوقت. سمع خطوات تقترب. حاول لملمة الأشياء. وقبل أن يتمّ له الأمر شاهد الأمير يقف فوقه. نزع الأمير العقال عن رأسه وهوى به عليه. حاول شنغافة أن يفرّ من أمام الأمير ويتفادى ضربات العقال القاسية لكن عيد خادم الأمير كان له في المرصاد. منعه من مغادرة الغرفة. بعد ثوان دخل أسعد السوداني ودفع شنغافة وألقاه أرضاً. انقضّ عليه الأمير بالضرب والجلد بالعقال والرفس. لم يصرخ أو يتوسّل حتّى تعب الأمير وتمزّق العقال على جسده. خرج الأمير من المكتب وهو يقول لعيد:

- اسحب ها الكور بساقه وأنطله في السوق لعد أشوف وجهه.

بعد بضعة أيام نسي الأمير قسمه كعادته. كرّر ارتكاب أخطاء صغيرة ومتناثرة إلى أن جاء ذلك اليوم الذي ارتكب فيه غلطته التي لا تغتفر.

* * *

شعر بالصباح عندما سمع حسين يقول له مودّعاً:

- في أمان الله يا شنغافة.

قفز إلى باب الزنزانة وفتح الكوّة الصغيرة وشاهد الجندي يجرّ حسين مكبّلاً بالسلاسل في يديه وقدميه وصاح به:

- حسين شدّ حيلك زي ما اتفقنا لا تعترف لو يقص رقبتك.

سمع حسين يقول:

- أبشر أبشر لاتخاف علي.

فقال شنغافة:

- تراهم بيعلقونك من رجليك ويدودلونك من السقف. انتبه.

فقال صوت آخر من الواضح أنّه الجندي الذي يسحب حسين:

- اسكت يا حيوان لا تخوف الرجال.

فقال شنغافة:

- وش أخوفه. أنتم ما في قلوبكم رحمة.

فقال حسين:

- هذا عبد مأمور. الضابط فريج هو اللي الله يفكّنا منه ويكفينا شرّه.

فقال شنغافة:

- لا يهمّك خله يسوّي اللي يبي. كلّها كم يوم ويمل.

عاد إلى فراشه يتأمّل في الحرّية التي حصل عليها. استلقى على الفراش. ذهبت به الهواجس إلى أيّام بعيدة وأحلام اندثرت لا يعرف الآن أين هي معدية وماذا حلّ بها. عليه أن يجدها ويعتذر

إليها أو يموت. على الأقل يعيد إليها فلوسها التي أودعتها عنده أيّام سطوة الحب.

أشعل السيجارة الثانية. تفحّص العالم الذي يخوض فيه دون هوادة. إن اعترف حسين فمن الممكن أن يبتروا يده، وإذا اعترف عيال ابن نقيه فقد يقطعون رؤوسهم. الناس يموتون بمحض اعترافهم. تطاير دخان السيجارة في أرجاء الغرفة. فصرخ بأعلى صوته دون أن ينهض من السرير:

- يا حسين انتبه تعترف.

فسمع حسين يقول:

- لا تخاف والله لو يقطعوني تقطيع.

فقال صارخاً:

- ترى بياخذونك على طول للشيخ ويسجلون اعترافك بعدها والله ما يفكك بداوينك كلّهم. والله أن تصير أعضب مثل مناحي. تذكر مناحي زين. لا تنسى وش صار لمناحي.

هل كان لدى مناحي أيّة فرصة للنجاة بيده؟ كانت فرصته الأخيرة أن يعلن براءته ولكنه لم يفعل. دفعه الجلاد إلى ساحة الصويفة بمساعدة ثلاثة جنود. انتصب في قلب الساحة على مرأى من الخلق الذين ينتظرون هذه المناسبة كلّ يوم جمعة. طوّقه أحد الجنود من وسطه من الخلف فأخذ الجلاّد يده اليمنى وسحبها بقوّة وغمسها في زيت ساخن، فصرخ مناحي من ألم الحرق وفي لحظة خاطفة أخرج الجلاّد سكيناً حادّاً طويلاً وقطع يده من رسغها. صرخ الحشد. أخذ مناحي يصرخ من كلّ قلبه. لقد اكتشف الألم

أخيراً. عرف أنه فقد عضواً من جسده إلى الأبد فتغيّر شكل صراخه وتحوّل إلى أنين. شعر شنغافة بالتقزّز، فقال ليدفع عن نفسه أيّ شعور بالرحمة. مناحي روّع الناس. جعل المرء يخاف على نفسه. لا أحد يستطيع ترك عياله وحدهم في البيت. لا يمكن أن تكون الرويض آمنة إلاّ إذا قطعوا أيادي الحراميّة. بيوت الرويض متراصّة. يستطيع أي إنسان أن ينتقل من بيت إلى البيت الآخر عبر السطوح. تذكّر عندما طلبوه للشهادة في المحكمة. ذهب إلى هناك في وقت مبكّر. لم يشعر بالندم عندما وقف قبالة القاضي وقصّ ما شاهده في ذلك اليوم. ارتاب في دخول مناحي بيت آل سليمان فقرع الباب ليتأكّد، أطلّت امرأة فقال لها:

- تو شفت مناحي داخل عليكم انتم عازمينه.

فتساءلت المرأة:

- وش مناحي؟

فعرف شنغافة أن الرجل استغلّ الباب المفتوح ودخل. لا شكّ أنّه الآن مختبئ في الروشن أو في إحدى الغرف. فقال للمرأة:

- وين عيالك؟

فقالت:

- جوا قاعدين.

فقال:

- عجلي خذيهم وأطلعوا من البيت روحوا بيت الجيران الظاهر أن مناحي نواي لكم نيّة شينة.

فصرخت المرأة ودخلت البيت. انتظرها شنغافة حتّى خرجت

من البيت تجرّ أطفالها وراءها، فذهب مسرعاً إلى المسجد وصاح في الجماعة. يا جماعة شفت مناحي دخل بيت آل سليمان. ترك الناس المسجد على الفور. ركضوا إلى بيت آل سليمان لكنّهم تردّدوا في الدخول. أخبرهم شنغافة أن عائلة سليمان عند الجيران. وبعد مشاورات عاجلة دخل شنغافة وإمام المسجد وولد سعود. فتشوا البيت. لم يجدوا أثراً للرجل. فصعدوا إلى السطح فلاحظوا برميلاً مسنداً إلى جدار البيت المجاور، حتماً استخدمه مناحي للهروب من بيت سليمان. فأطلّ شنغافة على الجماعة وصاح:

- الظاهر أن الرجال طب على بيت سعيد.

فصرخ أحد الرجال:

- في بيتي ملعون الوالدين.

قفز شنغافة وولد مسعود من السطح على بيت سعيد في الوقت الذي دخلت فيه الجماعة البيت من الباب. من حسن الحظ أن بيت الدويرع التالي لبيت سعيد عالي لا يسعف مناحي للقفز إليه والهروب منه. وجدوه أخيراً في عشّة المراقد ملتفّاً بإحدى البطانيات. كان مذعوراً. لم يقاوم. سحبه شنغافة وابن مسعود قبل وصول الجماعة. سار معهما بهدوء وسكينة. فتشا جيوبه لم يجدا أيّ سلاح. استغرب شنغافة، فالرجل لم يتوسّل أو يطلب الصفح. يبدو أنّه فقد الأمل في النجاة ففضّل الاحتفاظ بكرامته. ترك الناس تلعنه وتسبّه وهو صامت، أخيراً جاء ونيت الشرطة وألقي فيه كأنه عنزة.

اعترف بعدها مناحي بسرقات لا حصر لها. كان شنغافة قد

تعرف على مناحي أوّل مرّة قبل أكثر من خمس سنوات عندما أحضروه للجلد في الصويفة. كان شنغافة متّهماً بالسكر ومناحي متّهماً بالسرقة. لاحظ أن مناحي هو الوحيد الذي لم يتلثم بغترته. يبدو أن السرقة ليست عاراً في نظره. لا يوجد شيء يمكن أن يخجل منه. كرهه حينذاك. عرف اسمه من المنادي الذي يطلّ من النافذة على الساحة وينادي الموقوفين، ثم يقرأ على الناس جريمة كلّ واحد قبل البدء بجلده. كل السجناء الذين جلدوا متّهمون بجرائم سكر واغتصاب بمن فيهم شنغافة ما عدا مناحي الذي كان يقام عليه حكم تعزيري بسبب عدد من السرقات. سُجن وجُلد بعد تلك الحادثة ولكن مناحي لم يرتدع. حتّى جاء ذلك اليوم الذي قطعت فيه يده من المفصل. تمنّى الناس لو أن هذا العقاب نفذ فيه من أول سرقة. بعد قطع يده توقّف نهائياً عن السرقة وأصبح شحّاذاً. لا يمكن أن يعمل بيد واحدة. ليبقى على قيد الحياة عليه أن يتسوّل ويحمل عاره أينما ذهب. تجده في كثير من الأحيان جالساً لدى أحد الأبواب يأكل ممّا جاد به أهل البيت وقد أجاز له المطاوعة الأكل باليد اليسرى. لم ينبذه أهل الرويض بل أحسنوا إليه وتعاطفوا معه وكأنّ كارثة طبيعية حلّت به وأزالت يده من موضعها. بعد فترة نسي الناس أخباره القديمة. صار واحداً من مئات الشحّاذين الذين يجوبون المدينة. فكر شنغافة أن هذا ما سوف يحصل له. عندما يجمع ثمن البيت ويتزوّج سينسى الناس شنغافة الداشر بائع الخمر. النسيان واحدة من فضائل أهل الرويض.

تسرّبت أشعة الشمس من النافذة العلوية، هذا يعني أن الساعة تعدّت الثامنة صباحاً. بدأ يسمع ضجيج السيّارات الصاعدة والنازلة من طلعة المشمسي. استيقظت الرويض. سمع صوت سيّارة الإسعاف بضع مرات. من سيموت الآن ومن سيشفى؟ لم يأت أحد كي يأخذه إلى مكتب البصمات. لربّما نسوه. لا أهمية لسجين بلا جريمة. نهض من فراشه وفتح كوّة الزنزانة وصاح. يا أخوان لازم أروح للبصمات عشان يطلعوني. لم يرد عليه أحد. يبدو أن الزنزانات الأربع خالية من السكان. من سيقله إلى جبوه حيث مديرية البصمات. أعلن استعداده للذهاب بنفسه إلى المديرية ما دام هناك إطلاق سراح. لكن لا أحد يسمع زعيقه. اضطر إلى أن يعود إلى فراشه وينتظر. قبل ستة أشهر تقريباً اضطرّ إلى أن يبقى في هذه المنطقة نحو عشرة أيام في الزنزانة الشرقية قبل أن ينقل إلى سجن المستلز لقضاء الأشهر الثلاثة المحكوم بها. كان قد قُبض عليه وهو يخرج من بيت السويمي. كانت غلطته. رعونته أوقعته في الورطة. كلّ أصدقائه نجوا ذلك اليوم. كان يفترض أن يخرج الساعة الثالثة صباحاً أو ينتظر إلى أن تظهر الشمس. لكنه أصرّ على أن يخرج بعدما تضارب مع السويمي لأسباب لا يتذكّرها. كان في حالة سكر مقيم. فصادف خروج الناس من صلاة الفجر. سبق أن رفع إمام المسجد بضع شكاوى على السيومي. ترصد لهم النوّاب مدة أسبوع. أخيراً اصطادوا شنغافة ومنصور الذي يأتي لأوّل مرّة عند السويمي. لبد النوّاب خلف المسجد يراقبون البيت على أمل أن يفتح باب السويمي وينقضّون

على البيت ليأخذوه بالجرم المشهود. لكن شنغافة كان قد أغلق الباب وراءه قبل أن يستطيع أيّ من النوّاب الوصول إليه واقتحامه. عندما أحضروا شنغافة إلى مركز النوّاب وضعوه في الحمّام كعادتهم مع ضيوفهم وأغلقوا عليه الباب. سمع الشيخ سالم يقول لرجاله:

- أنا ما أبي ها العبد ولا ها القصاب أبي الصلبي ملعون الوالدين اللي يجمع السرابيت عنده.

سمع أحد النوّاب المتحمّسين يقول في نفاق ظاهر للشيخ:

- يا شيخ تراه يخلي مرته ترقص لهم.

من حسن حظّ شنغافة في تلك اللحظة أنّه كان محتجزاً في الحمام، لا يستطيع أن ينال من هذا المطوِّع الناشئ. تمنّى أن ينقضّ عليه ويخنقه وأقسم ألاّ يتركه قبل أن يرى روحه تفارق جسده. اضطرّ إلى أن يقول بأعلى صوته:

- يا ابن الكلب السويمي أشرف منك ومرته أشرف من أمك.

شعر الشيخ سالم بالمهانة من كلام هذا العبد فتبنّى قضيّته شخصيّاً. أخذ يتابعها ثم طلب من القاضي بحكم القرابة أن يضاعف العقوبة عليه. حكم القاضي عليه أربعة أشهر مع مئة وستّين جلدة، وعندما احتجّ شنغافة على الحكم ضاعف القاضي عدد الجلدات وقضى بإضافة شهر لتصبح مدّة الحكم خمسة أشهر وأربعمائة جلدة نُفّذت على ثلاث دفعات على مرأى من أهل الرويض. أطلق سراحه بعد آخر دفعة من الجلد. سُلخ جلده من الضرب. عندما أنزلوه إلى ساحة الجلد فشاهد المطوع الصغير بين

المطاوعة الجلاّدين. ليس من عادة النوّاب حضور هذه المراسم الطهرانية. يبدو أن المطوع الصغير قرّر الانتقام منه. أحسّ بذلك عندما لاحظ أنّه تقدّم منه ليتأكّد أنّه الشخص الوحيد الذي لا يضع أيّ شيء تحت الثوب يحمي به ظهره وعجيزته من لهيب الخيزران. أكّد للجلادين أن الشيخ سالم قد أوصى بتغليظ الضرب على شنغافة وانتدب المطوع الشابّ لحضور وجبة الجلد الأخيرة. بعد تنفيذ الجلد أخذوه إلى مكان البصمات وسجّلت عليه سابقة وأُطلق سراحه. لا أهل ولا أحد يمكن أن يساعده ويضمّد جروحه. فتذكّر معدية. كانت العلاقة بينهما في أوجها ولكن الساعة الآن الحادية عشرة صباحاً والناس تتحرّك في الشارع. لم يكن لديه أيّ خيار. مشى من جبوه طوال الطريق. مشى أكثر من كليومتر اضطرّ خلالها إلى أن يقف في إحدى السكك وعندما تحقّق من خلوها من المارّة خلع سرواله ودسّه في جيبه. فصار يمشي وهو يسحب ثوبه عن عجيزته وظهره حتّى لا يلمس الجروح، كأن ناراً تلحقه وتلسعه حتّى أنه تخيّل نفسه راكضاً لعلّه يسبق جروحه الملتهبة. إلى أن وصل إلى بيت معدية وهو يتأوّه ويعضّ أصابعه. قرع الباب. لم يجب أحد. شعر أن الدنيا تخلّت عنه. اضطرّ إلى أن يذهب إلى النادي. حنق على نفسه وعلى قراره أن يأتي إلى معدية. كان يعرف أن معدية في هذا الوقت تبيع بيضها في المحيفرة. عليه الآن أن يسير حوالى ثلاثة كيلومترات كي يسحب جهنم المشتعلة في جسده. أخذ معه علبة فازلين أخضر. دخل النادي ثم تعرّى وانبطح في المدخل. وضع مرآة

صغيرة على فخذيه وأسندها بمخدّة لعلّها تساعده على توزيع الفازلين بشكل عادل على مساحات ظهره وعجيزته. تذكّر أن المطوع ركّز على مكان ما من مؤخّرته لا يتذكّره، فقرّب المرآة ليحدّد أماكن الجروح البليغة، فلاحظ أن هناك تسلّخاً في المنطقة الواقعة بين الفخذين تحت العجيزة نفسها، وأمال جسده وسحب عضوه بعيداً وتفحّص خصيتيه فلاحظ أنّهما مدمّاتان. أصيب بشيء من الفزع، كيف لم يحسّ بالضرب على خصيتيه؟ هل فقد حتّى هذا الإحساس المختلف؟ تنهّد ليدفع الألم الجديد الذي بدأ يتصاعد من خصيتيه. أحسّ بالألم عندما عرف بوجوده. شاهد أن نصف ظهره وعجيزته ونصف فخذيه مسلوخة. حمد الله. لقد سهلت المهمة. لا يحتاج إلى أحد كي يساعده. عليه أن يأخذ أيّة كمية ويضعها في أي مكان، فكل مكان يحتاج إلى مرهم. ابتدأ من الجهة السفلية من فخذيه مروراً بمؤخّرته إلى منتصف ظهره. فكلّ هذه المنطقة صارت جرحاً واحداً. لقد وزّعوا الضربات على جسده من الخلف. إنه عدل رجال الدين الذي لا حدود له. ستون جلدة نُفّذت على ظهره بقسوة رجال الدين المشهودة. كل المحكومين يحصون الضربات واحدة بعد الأخرى. كان يفعل ذلك في المرّات السابقة، لكن الأمر اختلف في هذه المرّة. المتفق عليه ألاّ يرفع الجلاّد يده أثناء الضرب إلى الأعلى، ولكن توصية الشيخ سالم أُخذت في الاعتبار وأصبح الضرب مفتوحاً. عندما وصل في العدّ إلى الجلدة الأربعين فقد القدرة على التركيز. لا يتذكّر هل بلغ العدّ الستين جلدة. لكن زيادة الجلدات تسرّ المطوع

ولن تضيف إلى عذابه شيئاً. تركهم يفعلون بجسده ما يريدون. اختلط الألم بالعذاب بالمهانة. إنه إنسان وحيد في قبضة من يؤمن أنه يطهّره وينقّيه من الخطايا بطريقة ممزوجة بحقد شخصي وعنصرية. لم يكن هو الوحيد الذي جُلد. كل يوم جمعة بعد الصلاة مباشرة يُجلد نحو عشرة أشخاص. يُجلبون من أكثر من سجن ومنطقة. من حسن الحظّ أن أكثر المتفرجين من الأطفال. كانوا يصفقون ويهلّلون عندما يصرخ المطوع الله أكبر مستمتعاً بآلام السجين وصرخاته خصوصاً إذا حادت الخيزرانة ونزلت على مكان موجع أو عظم من عظام الحوض الناتئة. تنتقل إليهم نشوة المطوع بالنصر على أعداء الدين. لا يتذكّر أنّه رفع صوته من شدّة الألم. كان يئنّ ويتحرّك عندما يركّز الجلاّد على نقطة واحدة لكي يدميها. لم يفكر البتة في الانتقام من هؤلاء الذين يجلدونه. كان يعتقد أنّهم يطهّرون روحه. يمحون خطاياه السابقة ليفتح له الربّ سجلاً جديداً يعود هو فيملأه بالخطايا فيأتي إلى المطاوعة مرّة أخرى لإفراغه بثمانين جلدة على ظهره وعجيزته. كان الجلاّد يقول له في كلّ مرّة:

- ابشر بالخير يا شنغافة. اللي ما يخاف ربه ما له إلاّ هذا.

يضحك شنغافة ثم ينبطح ويأتي مطوع ويثبت كتفيه بالأرض. ثم يبدأ العد. الضربة الأولى هي الضربة المؤلمة. ميزة الجلد على المؤخّرة أن الأوجاع الناجمة عنه تنقص مع كلّ جلدة إضافية حتّى إذا وصل المطوع إلى الجلدة الثمانين يكون الضحيّة قد فقد الإحساس بالألم نهائياً. يصبح جسده في خدمة الطهارة. فالمطوع

الذي يجلده هو أيضاً في حاجة إلى الأجر والثواب. هناك علاقة ربانية بين الجلاّد والضحية. فكل جلدة يوقّعها الجلاّد على ضحيّته تسجّل له حسنة في سجله يوم القيامة. فعجيزة شنغافة السوداء أقصر الطرق وأسهلها إلى الجنة. إذا قُدِّر لشنغافة أن يعيش سنوات أخرى يكون عشرات المطاوعة قد ضمنوا مقاعدهم الدائمة في الجنة.

* * *

قبل أن يأخذه النعاس سمع قرقعات حديد. أحد ما في الممر. نهض من فراشه وجرى وفتح نافذة الزنزانة وصاح:

- يا جندي. فينكم يا أخي.

سمع صوت أحد الجنود يقول من بعيد.

- أش عندك يا شنغافة؟

فقال:

- يا أخي أبو ناصر قال لي البارح أنهم بيفكوني الصباح واللي ها الحلين ما جاء أحد.

فقال له الجندي:

- من قال لك أنهم بيطلعونك. أنت انهبلت.

فقال شنغافة بشيء من الجزع:

- وش تقول يا جندي.

فقال الجندي:

- أقول أنثبر وكل تبن وأسكت.

فقال شنغافة بتوسّل ظاهر:

- يا ابن الحلال تأكّد. ترا الجماعة بروني ما لي علاقة وبعدين أبو عبد المحسن كافلني رح شف مكتب ضابط الخفر أبو ناصر.

لم يردّ عليه أحد بعد ذلك. انتظر أكثر من ساعة لعلّ أحداً يأتي ويتفاهم معه. ولكن يبدو أن هناك شيئاً ما غير طبيعي. مضت أكثر من ثلاث ساعات على النهار. حتماً تمّ التخلّص من معاملات الليلة الماضية، فسيّارة المحكمة تغادر الساعة الثامنة وفي داخلها جميع السجناء المطلوب تسجيل اعترافاتهم. في هذا الوقت يكون الطاقم قد تغيّر. جرى تسليم النوبتجية لفريق الطاقم الجديد. لا يمكن أن يكون نسيانه حتّى هذا الوقت فيه خطأ. فصرخ يريد أن يعرف، أيّاً يكن الثمن، ما الذي يجري في شأن مصيره. لا يكون عيال ابن نقيه غيّروا اعترافاتهم وأعادوا إدخاله في القضية مرّة أخرى. الله يلعن أبوهم عيال الكلب. عاد إلى الفراش وألقى بنفسه عليه وأشعل سيجارة وراح يراقب الدخان وهو يغادر الزنزانة من النافذة العالية التي تطلّ على الشارع العام. سمع فجأة حسين يرفع عقيرته من الألم. يصرخ:

- يا ربّي ربّاه. حسب الله عليك يا فريج. هين والله ما أخليها لك.

نهض شنغافة من الفراش واقترب من فتحة الزنزانة وصرخ:

- سلامات يا حسين.

- آخ آخ الله يا يسلّمك الله.

يتنفّس بصعوبة.

فقال شنغافة:

- تصبر يا ابن الحلال.

فقال حسين بإعياء شديد:

- بلاك ما شفت اللي شفته والله لأذبحه في يوم من الأيام. الله يعينا ويّاك. يقول إنه بيشتغلني باكر توه ما قضا مني ملعون الوالدين.

فقال شنغافة:

- كلّها ثلاثة أيّام ويملّ شدّ حيلك. عليك بالصبر ترى هذا أهون لك من قطع يدك تصير طرار من مثل مناحي مسيكين. يا ليتك تشوف ظهري عشان تعرف وش أنا فيه.

فقال حسين بصوت ضعيف:

- أدري أدري.

فرد شنغافة:

- تعال شف ظهري أحمر تقول ظهر شامي من هالمطاوعة ملاعين الوالدين. أحمد ربك أن ما جوك المطاوعة هذولا ما يخافوا الله.

لم يردّ حسين. يبدو أنه غفا من التعب والألم. تحرّك شنغافة نحو الفراش واستلقى ورفع رأسه يحدّق في السقف الذي يحجب السماء. بينه وبين السماء مسافات طويلة ومعقّدة. لكنه تذكّر أن لكلّ إنسان مهما تضاءل، مكاناً في هذا العالم، حتّى الكائنات

الصغيرة كالحشرات تجد لها موطئ قدم وأسلوباً تعيش به في مناورات لا تعرف الكلال حتّى يأتي من يفترسها. فالموت لا يأتي بطريقة مستقيمة وواضحة.

* * *

سمع أذان الظهر. يبدو أن يوماً ثانياً سيمرّ قبل أن يطلق سراحه. ازدادت حركة الناس. هناك وقع خطوات مبعثرة في كلّ مكان في المنطقة. لم يبق في حوزته سوى سيجارة واحدة أجّل تدخينها بضع مرات حتّى لا يقع فريسة لشهوة التدخين مرّة أخرى. يسمع أصواتاً كثيرة في المنطقة وطقطقات وتوسّلات وفتح أبواب زنزانات وضرب الحديد بعضه ببعض. يبدو أن هناك شيئاً غير عادي يجري. عليه أن ينتظر حتّى يرى. يجب ألاّ يزجّ بنفسه في معمعة لا يعرف ما هي. بعد قليل سمع وقع خطوات. هبّ من فراشه وتعلّق في النافذة. شاهد الضابط أبو ناصر يتقدّم ناحيته. سمعه يقول:

- يالله يا شنغافة حضّر نفسك.

فقال وهو يضحك مسروراً:

- وش عندي أحضره همّلتوني الله يهديكم.

كان بصحبة الضابط جندي ضئيل الجسم يحمل في يده أصفاداً. فتح الباب وأخذ يد شنغافة وكبّلها فقال شنغافة دون أن ينظر إلى الجندي الذي أخذ يديه بدون استئذان:

- وشوله الكلبشة يا أبو ناصر.

فقال الضابط:

- إذا خذوا بصماتك ذيك الحزة يفكونها منك أنت ما زلت سجين. نسيت.

فقال شنغافة:

- وين سجين معه أنا مظلوم. ثلاثة أيام في السجن بلا سبب وتحطّون في يدي كلبشة وتاخذون بصماتي.

كانت محادثة فارغة ما أفضت إلى شيء ولكنها تعبّر عن سعادة شنغافة بلحظة الخروج المنتظرة. سار الثلاثة حتّى المدخل. رأى فجأة عيال ابن نقية مقيدين بعضهم ببعض وأمامهم جنديان. انتابه القلق. لماذا قال له الضابط إن عيال ابن نقية نقلوا إلى سجن الصمك. دفعه الجندي ليقف إلى جانبهم. كان أبو ناصر قد اختفى. شاهد أحد الجنديين يحمل ملفاً أخضر. حتماً ملف القضية. حاول أن يخمّن إلى أين سيأخذونهم. جرت العادة أن السجين لا يمكث طويلاً في المنطقة. سوف يأخذونهم إلى سجن المستلز. لا يمكن أن يأخذوهم إلى المحكمة. فموعد المحكمة قد سلف وهو في الوقت نفسه لم يقرّ بالجريمة حتّى يأخذوه لتسجيل اعترافه. فوج المحكمة يتحرّك الساعة الثامنة يومياً. إذاً قضيّته لم تنته. لم يقوَ على الصبر، التفت إلى عيال ابن نقية وسأل:

- وش صار.

لاحظ آثار دموع على وجه ابن نقيّة الصغير. لم يردّ عليه أحد. بعد قليل جاء أبو ناصر وقال:

- يالله يا شنغافة تراهم بياخذونك لجبوه عشان بصماتك وبعدين يطلقون سراحك وقلت لهم يوصلونك معهم للمحيفرة.

لم يثق بكلام الضابط. يبدو أن الضابط يخفي عنه شيئاً خطيراً. صمت عيال ابن نقية يثير شكوكه. فالتفت إلى أكبرهم وقال بحدّة:

- يا خوي يا صالح وين الجماعة بياخذونا.

فقال صالح:

- كانك بتروح معنا فحنا رايحين لسجن المستلز.

ارتعب. سجن المستلز يعني أن المسألة ستطول وإجراءات الأمس لم تعد ذات قيمة. من غيّر أقواله؟ سأل محدّثاً نفسه أكثر مما يحدّث الآخرين:

- بس أنا وش دخلني في المسألة.

لم يردّ عليه أحد. كان الموكب قد تحرّك، وعليه أن يتحرّك. سحبه الجندي بيده برفق لكن بحزم. استسلم لقدره وسار بسرعة الحشد المقيّدة أرجلهم. انتابه بصيص من الأمل عندما لاحظ أنّه الوحيد الذي لم تُقيّد رجلاه. عيال ابن نقية مربوطون بعضهم ببعض. نزل الدرج بسهولة وقبل أن يصبح في الشارع لفّ غترته على وجهه وأبقى فقط على عينيه. ركب الونيت بدون مساعدة. واستقرّ في قاع الصندوق. كان النهار في أوجه والشارع مكتظاً بالمارة والمراجعين. لاحقتهم أنظار المارّة الفضوليين الذين يبطئون السير ليتفرّجوا على المساجين المكبّلين. حاول أن يفتح حواراً مع

عيال ابن نقية دون جدوى. لم يكن أيّ منهم ينظر إليه. بدا عليهم أنّهم يعرفون ما الذي يحدث. حتماً اعترفوا وزجّوا به معهم. من السهل انتزاع اعتراف ثلاثة ارتكبوا جريمة مشتركة وخصوصاً إذا كان بينهم صغير في السنّ لم يتجاوز السابعة عشرة. كانوا في حالة مزرية. يبدو أنّهم ناموا ليلتين في وضع سيّئ جدّاً. تحرّك الونيت. سار في شوارع الرويض المكتظّة. تعدى دخنة فاطمأن، أصبحت المحكمة وراءه. تأكّد أنّه في طريقه إلى جبوه. شعر ببعض الراحة والطمأنينة. بعد قليل توقّف الونيت أمام مركز البصمات ونزل الجندي وطلب من شنغافة أن ينزل. ثم تحرّك الونيت بعيال ابن نقية واختفى. وقف مع عدد كبير من الموقوفين أكثر من ثلاث ساعات. سلّم عليه أكثر من جندي. سأله أحدهم مازحاً:

- ها كم جالون عرق شارب ها المرة يا شنغافة.

ضحك وجلس على كرسي حتّى جاء دوره فأخذوا بصماته. فكّ الجندي الأصفاد من يده وقال له الجندي هيه في أمان لله. خرج من المبنى. التقطه ضوء الحرية أخيراً.

إنّها الحرّية التي يعرفها شنغافة أكثر من أيّ إنسان في هذا العالم. سار بتؤدة. صار يسمع صوت نعليه. يراقب الناس في الحارات التي يدخلها. يتمنّى أن يشرح لهم النعيم الذي يعيشونه دون أن يحسّوا به. لم يكن معه فلوس للتاكسي ولكن هذا لا يهمّ. فالمسافة لا تتعدّى ساعة مشي. في آخر لحظة عدل عن الذهاب إلى سوق الحمام. عليه أن يذهب إلى النادي ويتفقد أشياءه. انحرف ناحية شارع العطايف وسار حوالى نصف ساعة

ماراً بمدرسة البنات التي تحوّلت إلى سجن للنساء. أخيراً دخل شارع المخزان. كان أوّل شيء صادفه قهوة بخشة. شم رائحة الجراك. تردّد قبل أن يدخل القهوة. لكن الجوع شجّعه. عدد الزبائن قليل في هذا الوقت. لا يأتي إلى القهوة سوى بعض الموظّفين الذين يخرجون من مكاتبهم بذريعة صلاة الظهر فيأتون لشرب رأس أو رأسين من الشيشة. جلس على مركاز قصيّ. أولى وجهه ناحية الشارع يتفرّج على الحركة الخفيفة للسيارات. انتظر القهوجي أن يأتي بنفسه. لم يكن في مزاج للصراخ على القهوجية. صمت يتأمّل في الحريّة التي تجوب الشارع. الناس يتحرّكون بدافع من الحياة التي تجري في عروقهم. كلّ يذهب إلى مكان مشابه للمكان الذي يذهب إليه الآخر. لا يعرفون كيف يجدّدون حياتهم. تحكمهم العادة حتّى يصل بهم الزمن إلى الشيخوخة فيموتون دون أن يحدثوا شيئاً مهمّاً في هذا الكون الكبير. معظم الناس مثل الحشرات يعيشون ولا يعلمون لماذا. بعد قليل جاءه بخشة صاحب القهوة بنفسه. سلّم عليه وجلس معه. كان خبر القبض على شنغافة وعيال ابن نقية قد تضاءل لدى شيوع خبر مقتل سويلم. قال له بخشة:

- الحمد لله على السلامة.

لم يكن شنغافة يعرف أن بخشة يعني سلامة غير السلامة التي يظنّها شنغافة. فقال بغير اكتراث:

- الله يسلّمك.

فقال بخشة:

- ربّ ضارة نافعة يا رجال. الحمد الله أنك في السجن كان اتهموك.

لم يفهم شنغافة ما الذي يقصده بخشة. كان جائعاً فلم يدقق في كلام اليماني فقال:

- تكفي يا بخشة سوى لي شوية مقلقل تراي ميت من الجوع من يومين ما أكلت شيء وترى ما معي فلوس. فقال بخشة:

- ما يهمّك الله يحيك ثم صرخ واحد مقلقل يا قهوجي وزبط واحد شاهي أبو أربعه وجيب معاك قلة مويه يا لله بسرعة يا ولد.

ثم التفت وألقى ثقل انتباهه على شنغافة وقال له:

- أنت يمكن ما تدري أش إلي صار لسويلم.

صعق عندما عرف أن سويلم مات ميتة شنيعة. شرح له بخشة ما تناقلته الناس عن الجريمة. وقال له إن اسمك في عداد المتّهمين. حمد الله أنّه كان في السجن. وأكد له أنّها جريمة كبيرة ولكن لم يُقبض على أحد حتّى الآن. بحثا عن متّهم بين سكان الرويض كلّها. من المستحيل ترشيح أحد لارتكاب جريمة بهذا الحجم والشناعة، لا يمكن أن يرتكب أهل الرويض جريمة بهذه البشاعة. فاتّفقا على أن القاتل جاء من خارج الرويض. إنها جريمة انتقام لشرف مهدور. لم يتعوّد الناس في الرويض هذا النمط من الجرائم. لم يكن في مزاج يسمح له بالتفكير في أمر شنيع كهذا. ولكنه حمد الله أنّه كان في السجن. كان يمكن أن يدخل في سين جيم، فسويلم من شلّته، يلتقيه في أماكن كثيرة. جاء القهوجي

يحمل صحن المقلقل على طوفرية إلى جانب براد الشاي وقارورة شطة مع حبحر أخضر طازج ورغيفين كبيرين. انفتحت نفسه للأكل. التقط قطع اللحم الصغيرة المغموسة في الطماطم والبصل. القهوة ليست المكان المناسب لتناول الأكل. يأتي الناس هنا لشرب الشيشة. يطلب بعضهم مقلقلاً أو شكشوكة ليستمتع بالشيشة. القهاوي تقدّم أكلات خفيفة يسمّونها تصبيرة وأكثر من يأكل في القهوة هم شريطية الخضار الذين يأتون للنوم في القهاوي وفي الصباح الباكر يذهبون إلى سوق الخضار للتحريج على منتجات مزارعهم. هؤلاء لا يهمّهم جودة الطبخ. يستأجرون المركاز مزوّداً بشرشف. تتحوّل القهوة في الليل إلى فندق سريع للشريطية وبعض التائهين. تصاعدت رائحة الكشنة واللحم المطبوخ الممزوج برائحة الكاز المتبخّر من الكولة. أخذ الملعقة وتناول اللقمة الأولى بدون خبز. انتهى من أكل صحن المقلقل في أقلّ من خمس دقائق. فكّر أن يطلب صحناً آخر لكنه تذكّر أنّه لا يملك فلوساً. لا يريد أن يحرج بخشة. أكمل بقية الخبز بدون إدام. شعر أن هذا يكفيه إلى الليل. سيذهب إلى مطعم عبده السوداني. هناك سيجد الأكل المناسب والنظيف. تذكّر المكرونة والكمونية وكبسة الرز. أخذ يقضم الخبز مع الشاهي وأخيراً شرب رأس شيشة مع ما بقي من براد الشاهي. تمدّد على المركاز. شعر بسعادة غامرة. خرج من ورطتين بضربة حظّ واحدة. لكن خياله الملوّث بالتعاسة لم يتقبّل طغيان السعادة الطارئ فأخذ يقلّصها بالشكوك والشعور بالوحدة. تذكّر أنّه يعيش على حافة العالم. في

أيّة لحظة قد يقع في الهاوية. لا يعرف المدّة التي سيتهاوى فيها حتّى يصطدم بالأرض الصلبة التي ستقطع أوصاله. حلم أنه يقع من أعلى جبل في قميلان. كان في طريقه إلى موت حتمي كما مات صالح الدوسر قبل سنتين عندما تعارك مع سامر. أحسّ أنّه يدفع نفسه إلى الأسفل. يريد أن يصل إلى القاع لينتهي. كلّما طالت المسافة التي يهوي فيها ازدادت سرعته وازداد ألم ارتطامه. تجنّب حواف الجبل حتّى لا تتقاذفه الحواف المسنونة. لا يريد أن يصرخ من الوجع. يعضّ شفته بقسوة فيركّز الألم فيها. يخدع حواس الدماغ الناقلة للألم. تكنيك يتفادى به الصراخ وقد تعلّمه من كثرة الجلد في ساحة العدل. النهاية الصامتة أفضل مصير يتمنّاه.

عندما كان في الرقّ حلم بالحرية. أصبح الآن في أقصى درجاتها. لا ولد ولا عائلة ولا أهل ولا شيء يمكن أن يحدّ من حريّته أو يقلّصها. يمتلك قوّة على جسده وعلى أخلاقه ويقرر مصيره دقيقة بعد دقيقة. ليس هنالك أحد يخاف عليه أو يخجل منه. ترى أي قدر قذف به في هذه الحريّة الموحشة؟ كافأه الله بحريّة أشدّ قسوة من العبوديّة. يكفيه منها الشعور بالوحدة. ما كان على معدية أن تورّطه في حبّها ثم تختفي في المجهول. كان يجب أن تعرف أنّها لم تكن حبيبة قلبه ومنى حياته. كانت هي الحياة بالنسبة إليه. كانت نظامه الأخلاقي وقيده الجميل. إنّها اللحظة الوحيدة التي عاشها كإنسان. منذ أن ضمّها إلى صدره بدأت تتقلّص علاقاته الآثمة. دخل في حياته شيء يثير الخشية والخوف

والخجل. اختنق في الذكرى. لا يريد معدية أن تعود، يريد فقط أن يشكوها إلى أحد. من هو هذا الإنسان الذي سيقول له إنّ حبيبتي هجرتني. لم يعد يطمع بمعدية. يطمع فقط بإنسان يقصّ عليه قصته مع معدية. يريد أن يشكوها ويحمّلها المسؤولية. عواطف الإنسان نهر متدفّق يتوزّع بين بشر متعدّدين. يبوح لأمّه بآلامه ويبوح لأبيه بطموحاته ويبوح لأخيه بحكاياته وبقية الجداول تتناثر بين الأصدقاء والناس الآخرين. عواطفه تتحجّر في قلبه. تتضخّم يوماً بعد يوم. سيأتي اليوم الذي تنفجر فيه ويصبح شنغافة في عداد الأموات. أحياناً يصاب بالفزع حتّى من فكرة موت الوحدة. إذا مات وحيداً في غرفته فسيبقى أيّاماً قبل أن تكتشف جثّته. سيتعفّن هذا الجسد الأسود الجميل قبل أن يغلق عليه في قبره. منهم هؤلاء الذين سيعتنون بجثّته، حتماً أبو عبد المحسن أحدهم. تذكر أبو عبد المحسن. لقد جاء الرجل وكفله، عليه أن يذهب إليه ويشكره. هو الرجل الوحيد في الرويض الذي يشعر أنّه قريب منه.

أيقظه بخشة. لقد حان وقت صلاة العصر. سيغلق القهوة. عليه أن يرحل قبل أن يأتي النوّاب ويأخذوه مرّة أخرى إلى السجن. شعر أنه أخذ قسطاً وافراً من الراحة فدبّ النشاط في روحه. كان مجرّد حلم مزعج. أخذ غترته وطواها على رأسه بشكل بنت البكار. خرج من المقهى. خلال ثوان قليلة انتابه التردّد بين الذهاب إلى النادي أو قصر الأميرة ليتفقد المقطع. ليس من الحكمة أن يذهب إلى قصر الأميرة في هذا الوقت. ربّما

يفاجئه واحد من سكان القصر ويحرجه. الناس هناك طيبون لا يميّزون بين بيتهم وبيوت الآخرين. قصر الأميرة مفتوح للجميع. الأفضل أن يذهب الآن إلى النادي يتفقد أشياءه، وفي الليل عندما يخمد الناس يذهب إلى القصر. لن يتغيّر وضع المقطع في ساعات. تحرّك في شارع المخزان نزولاً حتّى بلغ حديقة الفوطة وانحرف ليدخل شارع السويلك. شاهد من بعيد باب النادي مغلقاً. كان أمله أن يجد أحمد اليماني. كان قد ترك مفتاح النادي مع اليماني صاحب البقالة أثناء القبض عليه لكي يسلّمه للسوداني مساعد الأمير. من الواضح أن السوداني غير موجود أيضاً في النادي. قفل راجعاً واجتاز سور حديقة الفوطة. دخل بين كتلة من الأشجار. خلع نعليه ولفّهما في غترته ووضعهما كمخدّة ثم ألقى بجسده على الحشائش. شعر برطوبة الجوّ المنعشة. كان الهواء ربيعياً. ترك يديه تقطعان العشب البارد وتتحسّسان نعومته وعيناه تتأمّلان في صفحة سماء المساء الصافية. أخرج السيجارة من جيبه ووضعها في فمه. انتظر أن يمرّ أحد ويشعلها له. سمع من بعيد صخب أولاد. خمّن أنهم طلبة يذاكرون في الحديقة. أنصت قليلاً إلى جدالهم. لم يستسغ الموضوع. يتحدّثون عن مدرّس الرياضيات. من الواضح أنهم يكرهونه ولكن بلا حقد. فحديثهم عنه تتخلّله نكات غير واضحة وضحكات. رفع رأسه ليراهم. كانوا أربعة شُبّان يجلسون في حلقة. يبدو أن موسم الامتحانات قد اقترب، فالطلاب يتكاثرون في الحدائق قبل شهرين أو ثلاثة من الامتحان النهائي. لو صبرت عليه معدية لكان ممكناً أن ينتج

واحداً مثلهم بعد سنين قليلة. شاهد أحدهم على قدر من السمرة المشوبة بحمرة وبياض. هذا أقربهم شبهاً بابنه إذا جاء من رحم معدية الأبيض. لو أن معدية صبرت قليلاً لكان لديه طفل وبيت واسم وعنوان. أحزنه أنّها اختفت دون أن تستردّ فلوسها التي أودعتها عنده. مسكينة تركت تعب عشر سنين. كيف ذهبت المجنونة وتركت سبعة آلاف ريال. سبعة آلاف مبلغ كبير جداً يمكن أن يتزوّج به. من غير المعقول أن يتزوّج بفلوس معدية. ضحك عندما تذكّر أنه سوف يتزوج بفلوس خطيبته وحبيبة قلبه الوحيدة. تخيّلها أمّه وليست حبيبته. أورثته مالها. اختلطت عليه ذكرى معدية كما تختلط عليه آلامه وأوهامه. قام وألقى نظرة فاحصة على الصبي الأسمر. عاينه يضحك من كل قلبه. ركّز على ضحكته. هل تشبه ضحكته هو أم ضحكة معدية أو أنها مزيج من الضحكتين؟ حاول أن يجد فيه المسافة بينه وبين معدية. تمنّى أن يقوم ويقبّل جبين الولد ولكنه خاف أن يتّهم بشيء ثان. قاوم رغبته. هذا ابن الناس لا علاقة له بمعدية أو غيرها. قبل قليل خرج من السجن ولن يعود إليه بضربة خيال جانحة. هناك أمور كثيرة عليه أن يعالجها. ازدادت ضحكات الصِبية. يبدو أن مدرّس الرياضيات مكروه فعلاً. يتحدّثون في أمور كثيرة لكنهم يعودون دوماً إلى مدرّس الرياضات ليشتموه. تذكّر أن مادّة الرياضيات كان اسمها الحساب عندما دخل المدرسة قبل سنوات. في البداية أرسلته الأميرة ليتعلّم القرآن عند ابن سنان. درس ثلاثة أشهر. حفظ جزء عمَّ كاملاً لكنّه تعرقل مع بداية جزء تبارك. أخيراً شعر

بالملل. اكتشف في أوّل أيّامه أن لا علاقة له بالتعلّم. عليه أن يسير في الحياة بقوّة الدفع المنبعثة من أحاسيسه. مدّ الفلوس لابن سنان وقال له إن عمتي تطلب مني أن أتوقّف عن التعلّم. لم تكتشف العمّة انقطاعه عن الدرس إلاّ بعد بضعة أشهر. ألحقته في السنة التالية بالمدارس الحكومية. جلس في الفصل مع أطفال في سن أبنائه. يردّد معهم الحروف الأولى من الأبجدية والأرقام من واحد إلى عشرة. شعر أنّه مادّة لتندّر المدرّسين المصريين والشوام. معظم المدرّسين من أهل الرويض أصغر منه. يتخرّجون في الابتدائية ثم يلتحقون بمعهد المعلمين مدة سنتين يعودون بعد ذلك إلى التدريس في المدرسة نفسها. انسحب من المدرسة بعد سنة دراسية واحدة تعلّم فيها كتابة بعض الحروف والأرقام. أمور قلّما يحتاج إليها في حياته. رأى الأمير فيه حارس مرمى زاخراً بكل الإمكانات. تتوافر لديه مقوّمات الحرّاس العالميين، الطول والشجاعة والذكاء، فطلب الأمير من السر أحمد مدرّب النادي أن يدرّبه يومياً ويخلق منه حارس مرمى. بعد بضعة أشهر أعلن السرّ أن شنغافة لا يمكن أن يكون غير حارس مبنى النادي، يحرسه في الليل من اللصوص والحراميّة. غضب الأمير وقال في سورة غضب الكور كور ما فيه فائدة. بعد تلك التجربة انتهت سيرة التعلّم والتدريب في حياته. استقر عند الحدود الدنيا في كلّ شيء. توزّعت قدراته عند هذا المستوى كما يتوزّع الماء في الأواني المستطرقة. لا يُعتمد عليه إلاّ في الوظائف الدنيا والبسيطة. من حسن حظّه أن تسعين في المائة من الوظائف في الرويض هي عند

الحدود الدنيا المتّفقة مع قدراته. اتّفق وعيه مع عمله بطريقة مثالية. كان يمكن أن يتزوج وينجب ويعيش بناء على الصدقات والشرهات والراتب الزهيد الذي يأتيه من النادي لكن تورّطه في بيع الخمر ضاعف مستوى أطماعه.

بدأ روّاد الحديقة يتكاثرون. غالبيتهم من طلبة المتوسطة والثانوي. يفترشون سجاجيد الصلاة ويفتحون كتبهم. لاحظ أن معظمهم لا يذاكرون. يتقافزون ويتمازحون ويشتم بعضهم بعضاً. أحاطوا به. ازدادت الضجّة حتّى أصبح الجلوس في الحديقة أمراً متعذّراً. نهض ونفض ثيابه ليخلصها من الحشائش التي علقت بها. مرّ بينهم وسلم عليهم باقتضاب. وعندما بلغ السور سمع أحدهم يقول:

شنغافة أبو نغافة. فانفجرت الضحكات الشابّة. ليست المرّة الأولى التي يسمع هذه العبارة. تجاهل الأمر. كأنّه لم يسمع. اجتاز السور قفزاً وعبر الشارع بسرعة حتّى لا يسمع المزيد. ليس وارداً الرد أو الرجوع وتأديب الصبيّ. بزارين الرويض ملاعين والدين. إذا استدرجوه فسيكون ألعوبة. عبر الشارع واتّجه على الفور إلى مبنى النادي وجلس على عتبة الباب. كانت الساعة تشير إلى السادسة. نصف ساعة ويصل ونيت النادي من الملعب.

* * *

يقع النادي على الطرف الشمالي من شارع السويلك. ينتصب أمامه أحد أكبر مباني الرويض الحديثة. مبنى مكوّن من ثماني طبقات، تضمّ الطبقة الواحدة أكثر من عشر شقق. يسكنها الشوام

والمصريون وبعض العرب الآخرين. اعتاد في الأمسيات عندما يتفرّق روّاد النادي أن يجلس أمام الباب يتأمل في السيّارات والمارّة. أحياناً ينضمّ إليه عمر السوداني طبّاخ الأمير وبعض عيال الحارة يتناقشون في أمور الدَوري واللاعبين والنساء. في كثير من الأحيان، يشاهدون امرأة بيضاء تنشر الغسيل في إحدى البلكونات. يدهشهم تراكم الشحم الذي يغطي ذراعها فيظهر المرفق كأنه حفرة. يصف ابن نفوس أذرع نساء عمارة الزهرة بالسيدلان ثم يأسف أن البلكونة لا تُظهر من المرأة إلاّ جزءها العلوي ويتنهّد ثم يتمنّى أن يرى الشحم المتلبّد تحت سراويلهن. كان شنغافة يضحك ويؤكد أن شحم مؤخّرة امرأة واحدة في عمارة الزهرة أكثر من مجموع شحوم مؤخّرات نساء الرويض كلهن. فيصرخ محمد على كلاي:

- الشحم في البل والمطاريس في الغنم.

كلاي شابّ رومانسي صغير. لقب كلاي لنحافته وهزال جسمه. يدّعي أنّه على علاقة بواحدة من نساء العمارة. في كل مرّة يتحمّس للدفاع عن سكان العمارة يلتفت إليه ابن نفوس ويقول له:

- انتبه لنفسك والله لو تصك عليك ها الضرنط أن ما تدري إلاّ خصيانك تتدودل مع مناخرك.

فيضحك الجميع دون إحساس بالمرارة. جلسات الليل أمام النادي مفتوحة للأحلام والأوهام والأكاذيب الصغيرة والنكات والتعليقات وحتّى المقالب. تؤمّن عمارة الزهرة والمستوصف

المجاور مواد حالمة تكفي الحالمين بالفتيات البيض. اعتادوا سماع قصص كلاي وغرامياته مع بنات العمارة الشاميات. لا يصل في أوهامه إلى الدرجات القصوى من الحبّ. يكتفي بحكاية قبلة أو تنهيدة أو رسالة أو نظرة وسرد الوعود. يتركونه يمضي في أحلامه الصغيرة. الأوهام الناعمة ضرورية في أجواء الرويض الجافّة. تخلق نوماً سعيداً أو عادة سريّة تصل لذّتها إلى السماء. يعرف شنغافة البنت الشامية التي يحوم حولها كلاي. عمرها نحو ستّ عشرة سنة. طالبة في مدرسة البنات المجاورة لحديقة الفوطة. صهباء لا تحرّك شهوات المتمرّسين ولكن ملامحها الوسيمة وخصوصاً شفتها السفلى التي تبدو كحلوى التوفي وجسدها الصغير، تثير الأرواح المحرومة. إذا شاهدها شنغافة يتمنّى أن يعضّ قطعة التوفي حتّى تصرخ. لا تثير عنده أكثر من هذه الرغبة. يجدها فتاة مناسبة لكلاي. يستمتع بقصص كلاي حولها. يحسّ أن كلاي أقرب إلى الصدق من حقيقة وجود هذه الفتاة على الطبيعة. فالفتاة مناسبة للقصص التي يخترعها هذا الشاب. أحياناً لا يصدق أنّها فتاة حقيقية. عندما يراها تدخل العمارة في مريولها المدرسي وحقيبتها في يدها ينفيها من حقيقة وجودها ويراها أكثر وضوحاً وحياة في أكاذيب كلاي وقصصه. اخترعها كلاي بشكل أفضل ممّا هي عليه، ويجب أن تبقى دائماً هناك. لا يريد أن يصدّق الحقائق ولا يريد أن يكذّب الأوهام.

كان شنغافة يستمتع بالجلوس مع الشلّة. تأخذه من وحدته. تستمرّ الجلسة حتّى ساعة متقدّمة من الليل. أحياناً يأتي ابن أبو

عبيد ويأخذهم بسيارته لاستكمال السهرة في قهاوي كيلو ستة.
الكلام نفسه يعاد باستمرار. النساء والكرة.

* * *

كان فريق الفوز حديث التأسيس. أسّسه الأمير وهو في العشرين من عمره. برغم ذلك أثبت الفريق قوّة لا يستهان بها. في أوّل مباراة له مع فريق الشمس مني بهزيمة ساحقة ولكن هذا لم يقلّل من حماسته أو يفتّ من عضده. جنّد الأمير كلّ إمكاناته واستورد اللاعبين من مناطق أخرى. وضع هدفاً لم يحد عنه حتّى يوم موته. هزيمة فريق الشمس كل عام مهما كلّف الأمر. بعد ثلاث سنوات من تأسيس الفريق وانتقاله إلى دوري الأولى استطاع أن يكون المنافس الأوّل على بطولة الدوري وفي الوقت نفسه صار عقدة لفرق كثيرة، وخاصةً فريق الشمس. جميع شباب الرويض أحبّوا الكرة بسبب هذه المنافسة الحامية ما عدا شنغافة. لم يهتمّ شنغافة بالكرة البتة. لعب في بداية حياته في الحواري مع أقرانه في الحارة ومع سادته من الأمراء. عندما أعتق طلبت منه الأميرة أن يبقى في القصر خادماً لكنه رفض. لحق بامرأة عجوز أُعتِقت منذ سنوات تسكن في بيت العبيد في حلة ابن بخيت وانضمّ إليها. كانت تعامله كابنها. سكن معها في الغرفة نفسها. كان يناديها أمي حتّى ظنّ كثير من الناس أنّها أمّه الحقيقية. لكن المرض لم يمهلها كثيراً. استيقظ في أحد الأيام على أنينها الخافت. نقلها على الفور إلى مستشفى الأمير العسكري بعد أن فقدت القدرة على النهوض والحركة. مكثت في المستشفى أكثر من أسبوع ثم فارقت الحياة.

ما زال شنغافة يظنّ أن الحياة حرمته الكثير بموت حسينة. مجرّد أن يعتقد الناس بأنها أمّه يمنحه الدفء والإحساس بأنه إنسان حقيقي. في كلّ مرّة يجلس مع الآخرين يقصّ قصصاً ملفّقة يحاول أن يشير فيها إلى وجودها في حياته. وفي أحيان كثيرة ينهض في عزّ الجلسة وهو يقول:

- اسمحوا لي بأخذ الوالدة مشوار وأرجع.

ولكن حسينة لم تمنحه كثيراً من وقتها. ماتت بعد سنوات قليلة من انضمامه إلى غرفتها وتركته وحيداً. كان موتها السبب الحقيقي الذي دفعه إلى ترك بيت العبيد والسكن في النادي. لن ينسى يوم وفاتها أبداً. ماتت في الصباح. جاء الساعة العاشرة لزيارتها في المستشفى، فأخبروه أن جثمانها نقل إلى الثلاّجة. شعر بصعوبة في البلع ولكنه ابتسم في وجه الدنيا التي لا تني ترتكب الحماقات. لكلّ إنسانٍ عزيزٌ يموت. تذكّر هذا فطفح على سطح قلبه شيء من السعادة. لو لم تمت حسينة لخسر الجانب المرّ من الحياة. تحمّس لوفاتها ليثبت للدنيا أن لديه أعزاء يموتون. لكن لا يعرف بالضبط ما الذي عليه أن يفعله. طلب منه العامل المصري المسؤول عن ثلاجة الموتى أن يحضر سيّارة لكي ينقلها إلى البيت فوراً. أيّ بيت؟ لا ينسى حوار الأكاذيب العفوية، الذي دار بينهما أثناء الانتظار. عندما سأله المصري:

- هي أمّك؟

فقال شنغافة:

- نعم.

كان يظنّ أن الأمر سينتهي عند هذا الحدّ أو بقليل من المواساة. ولكن المصري تمادى في الأسئلة فأخذ يجيبه بأكاذيب مقتضبة. حدّث المصري عن إخوته وأخواته وبيت العائلة في حلّة ابن بخيت إلى آخر القصص الملفّقة. اضطر أخيراً إلى أن ينهض تاركاً المصري بين موتاه المثلجين بحجّة أنه سوف يستعجل إخوته. خرج ومشى حتّى بلغ شارع المطار. ألقى بجسده في أوّل تاكسي ثم غرق في الصمت. لا يعرف إلى من يلجأ. خطر على باله أوّلاً ابن شويب لكنه عدل عن الفكرة. تذكّر أن الرجل مغرور. يحاول أن يضع نفسه في عداد علية القوم. أصوله المتواضعة ستصدّه عن مساعدة عبد يريد أن يدفن عبدة. كان الوقت في عزّ الظهر وعزّ الصيف لا أحد في الشارع. يكاد يشمّ رائحة شواء الجدران من لهيب الشمس الحارقة. أوقف التاكسي في أوّل سكّة من سكيك حلّة ابن بخيت. نزل من التاكسي وسار على مهل كأنه يريد تبديد الوقت. يريد أن يمدّ الزمن إلى ما لانهاية. كل الرجال الموجودين في بيت العبيد هذه الأيام من المسنين باستثناء عثمان. لا يمكن أن يمنح عثمان الفرصة لكي يكفر عن خطيئته. يجب أن يبقى عثمان على عقدة الذنب إلى الأبد. لقد ماتت حسينة وهي تدعو عليه مع كلّ صلاة. شاهد حسينة في إفاقتها الأخيرة في المستشفى. سمعها تدعو على عثمان. من الواضح أنّها ستغفر لكلّ الناس الذين آذوها إلاّ عثمان. لن يكون هو السبب في التخفيف عن عثمان. سيتركه في عذابه. موت حسينة حطّم فرصته الأخيرة في الحصول على الغفران

والنجاة من ضميره. تجنّب المرور بمحاذاة بيت العبيد حتّى لا يصادف أحداً من نزلائه فيضطرّ إلى أن يخبره بموت حسينة. لا يعرف ما الذي عليه أن يفعله بالخبر. التفّ مع سكّة البازمي واتّجه ناحية دكان اليماني فالتمعت الفكرة في ذهنه. قفل عائداً ولف من سكة حسن ثم عاد مرّة أخرى من سكة ابن نفوس إلى سكة البازمي واتّجه على الفور إلى بيت أبو عبد المحسن. الساعة الثانية ظهراً. الناس في منتهى الإنهاك. الجميع مغمى عليهم في قيلولتهم. قرع الباب دون تردّد. إذا رفض أبو عبد المحسن أو تلكأ فستكون آخر علاقته بالبشر. فكّر بطريقة سريعة. فكّر أن يترك حسينة في ثلاّجة المستشفى في عهدة المصري ليتدبّر أمر دفنها، في النهاية هي مجرّد امرأة غريبة لا يعرف عنها سوى أنّها من عبدات الشيوخ وقد أُعتِقت قبل أكثر من عشرين سنة. أحسنت إليه بعض الوقت بعطفها وأحسن إليها بقليل من ماله. فجأة شعر بالخزي من هذا التفكير البذيء فبكى. عضّ شفته حتّى لا يظهر نواحه لكنّه لم يستطع أن يسيطر على دموعه. كان قد قرع الباب. فتح له أبو عبد المحسن فشاهد الدموع المنسكبة على وجهه فسأله على الفور عن حسينة. فأخبره أنّها في ثلاّجة مستشفى العسكري. قالها بخليط من الحزن والخجل. أبو عبد المحسن أكثر الناس إحساساً بوجود شنغافة في هذا العالم. صار مسؤولاً عنه. لا يشاهد في شنغافة سوى الإنسان. يضعه باستمرار في ظلّ ظروفه الموضوعية. وعندما تعاتبه زوجته على اندفاعه يقول لها إذا كان مقدّراً لي أن أدخل الجنّة فسوف أدخلها بفضل شنغافة وأمّ ناصر. فتصمت زوجته وتدعو له

بالتوفيق. ذهب أبو عبد المحسن وشنغافة على الفور إلى المستشفى وتسلّما الجثة. كانت زوجته قد هيّأت كلّ شيء: الكفن والماء الساخن والكافور وحتى المحمة. امتلأ بيت أبو عبد المحسن بحزن يكفي الإنسانية كلها ولكن بلا دموع. انتهت حفلة الموت البسيطة بعد صلاة المغرب. خرج شنغافة من المقبرة وذهب فوراً إلى دكان اليماني واشترى ربع قالب ثلج وذهب إلى النادي وأغلق الباب على نفسه وشرب حتّى الثمالة. وفي اليوم التالي جاء عدد بسيط من الناس إلى النادي للتعزية. أخيراً جلس وحيداً يتذكّر ملامح حسينة. لا يبدو أن أصولها زنجية. ربّما كانت حبشية أو بلوشية. عاش معها ثلاث سنوات لا يتذكّر أنّها حدّثته عن ماضيها. كانت تتحدّث معه عن الشأن اليومي، عن الأكل وعن الشرهات وعن بيوت الأمراء وعن الناس وعن الأشياء الصغيرة التي تحيط بها وأحياناً عن أمراضها. لاحظ أنها تركّز على حياته هو ومستقبله. قطيعة مع الماضي لا يمكن وصلها. بعد تقصٍّ تبيّن أن حسينة تملك بيتاً صغيراً في مصدة. حاول أبو عبد المحسن أن يسجّل البيت باسم شنغافة ولكن المطاوعة رفضوا، فعاد إلى أملاك الدولة كما كانت صاحبته. بعد أيام قليلة بدأت ذكرياتها تتلاشى. مضت الحياة في سيرورتها بلا حسينة. في أحد الأيام كان يزور صديقاً في مكتب البلدية، فعلم أن عثمان يراجع قسم الصكوك والأملاك للاستيلاء على البيت مدّعياً أنّه من عصبتها. كاد يصاب بالجنون. قرّر أن يسوّي الأمر مع هذا الرجل باقتلاع الأمر من جذوره. لأوّل مرّة يذهب إلى بيت العبيد منذ أن تركه. دخل البيت

واتّجه على الفور إلى غرفة عثمان في الدور الثاني، فألفاه جالساً على فراشه يروح بالمهفة على وجهه. فوجئ عثمان بانبعاث شنغافة كالصاعقة، وقبل أن يتكلّم كان شنغافة قد انقضّ وأمسك بحلقه ووضع رجله في بطنه. حاول أن يصرخ ولكن جسده الضئيل لم يسعفه. غرس شنغافة أظفاره في حلقه وشدّد قبضته وضغطه على الحائط، فاختنقت الكلمات في حلقه. ظن عّثمان في البداية أن شنغافة جاء من أجل البيت. ولكن شنغافة أعفاه من التخمين:

- أبغاك تقول لي ها الحين وش سويت لحسينة. تعترف بكلّ شيء.

أصيب عثمان بالرعب. كان يظنّ أن سرّه ذهب مع حسينة. لم يتخيّل أن العجوز يمكن أن تخبر أحداً بما حدث في تلك الليلة المشؤومة. شعر عثمان أن شنغافة جاء ليقتله. استغلّ غضبَ شنغافة واندفاعه الجنوني فمدّ يده وقبض على عضوه التناسلي وسحبه. اضطرّ شنغافة نتيجة ضغط الألم والمفاجأة، أن يترك حلق عثمان ويبحث عن الخلاص. استغلّ عثمان ارتباك شنغافة ليفر من الغرفة. أفاق شنغافة وأقسم أن يقبض عليه. انحدر الرجلان من الدرج كالسيل الهادر. استيقظ البيت بكل عجائزه المهترئين ولكن عثمان صار في وسط حلّة ابن بخيت يصيح بأعلى صوته:

- يا المسلمين يا أهل التوحيد شنغافة بيذبحني. سكران جاي يذبحني.

في لحظات كانت حلّة ابن بخيت في الشارع تتابع الأحداث. نساؤها ورجالها وأطفالها. لم يفكر شنغافة في العواقب. نسي أن

فمه يفوح برائحة العرق من سكرة ليلة البارحة. تدخل ابن وصّار والمؤذن حميد وبعض الرجال المارين. أوقفوا شنغافة وهم يسألون لكن شنغافة لم يستطع أن يشرح الأسباب التي دفعته إلى الاعتداء على عثمان، هو نفسه لا يعرف السرّ. السرّ لدى عثمان وفي قلب حسينة المدفون في مقبرة العود، فاكتفى بالشتائم والضرب المتواصل وهو يردّد بين كلّ كلمة وأخرى بأن عثمان نذل وخسيس. لم يشفع له هذا الكلام. آمن الجميع بأنّه سكران. أخيراً وصل النوّاب. التمّ عليه أكثر من سبعة مطاوعة. أوسعوه ضرباً ثم لفّوا غترته على حلقه وسحبوه. صار ينقاد لهم بخنوع. أيّ تلكؤ أو مقاومة سيموت خنقاً. سار يسبقهم باحثاً عن أنفاسه. فقد القدرة على النطق وجحظت عيناه. أخيراً اتّهم بشرب الخمر والاعتداء على الآمنين. حُكم عليه ثلاثة أشهر ومائتي جلدة. كانت هذه آخر هدية تلقّاها من أمّه حسينة.

عندما خرج من السجن لم يجد لعثمان أيّ أثر. كاد يصاب بالجنون. يريد أن يعرف ما الذي فعله بحسينة حتّى كرهته كلّ هذا الكره. غفرت لكل الذين آذوها وأذلوها إلاّ عثمان. عرف أن عثمان اختفى في اليوم نفسه الذي دخل فيه السجن ولم يعد البتة إلى حلّة ابن بخيت. الرجل نذل ولكن ما هي النذالة التي فعلها بامرأة تغفر حتّى للنخاسين الذين استعبدوها، ولم تغفر له. أخيراً ألقى بسرّ عثمان وحسينة في ضميره. تركه للأيام. سيأتي اليوم الذي يصادفه فيه. لن يفلت من يده في المرّة المقبلة.

* * *

جلس شنغافة على عتبة باب النادي مستذكراً الأيّام القديمة. يقلّب في حنان النساء المفقود. فقد حسينة وعندما التأمت حياته في حضن معدية فقدها هي الأخرى. يتمنّى النساء ويحصل على السجون. حاول أن يتذكّر كم مرّة دخل السجن. قد تكون هذه المرّة السادسة. لن تكون علاقته بالسجن في هذا المستوى دائماً. كل شيء يتغيّر ويتطوّر:

- الله يكفينا الشرّ.

ردّد في قرارة نفسه. التفت ليبدّد الصورة القاتمة للمستقبل الذي ينتظره. ضحك قليلاً في أعماقه وتساءل لماذا يكون أفضل من الماضي. تنهّد والتفت. شاهد الممرض المصري العجوز يقف أمام بوابة المستوصف. مدّ يده وحيّاه. سأله المصري:

- كنت فين يا شنغافة ما شفتك من كم يوم.

ابتسم شنغافة وحرّك يده كأنه يريد أن يقول في مكان ما بعيد. في الحقيقة لا يوجد مكان أبعد من استلاب الحرية والنفي. ابتسم الممرض وقبل أن يعلّق أطلّت شاميّة من شاميات عمارة الزهرة من بلكونة في الدور الثاني، وصرخت مناديةً صاحب البقالة التي تقع تحت بلكونتها. صرفت انتباه الرجلين. أنزلت دلو خوص. سحبه البقّال وعبّأه بالمقاضي وهزّه فرفعته المرأة ثم اختفت. مشهد يتكرّر باستمرار. جزء من يوميّات الممرض المصري وشنغافة. يجلس كلّ واحد منهما على عتبة عمارته. يتبادلان أحاديث مقتضبة بأصوات مرتفعة ويشاهدان نساء

عمارة الزهرة في البلكونات. لا أحد يعرف ما الذي يدور في ذهن الآخر. من الواضح أن الممرض المصري تجاوز الستين. يعيش في الرويض بلا أسرة. يتّخذ من المستوصف سكناً له. يشاهده في بعض الأحايين ينظّف الحوش أو يذهب إلى البقالة لإحضار سجائر للأطباء من بني جلدته. لم يسأله عن هويّته الحقيقية. هل هو ممرض أم فرّاش؟ لكن الرجل يلبس ملابس الممرضين ويعاين المرضى ويعطي حقناً فصنّفه الجميع ممرضاً. يفتح المستوصف الثامنة صباحاً ويغلقه الساعة الثانية عشرة ثم يفتح مرّة أخرى الساعة الرابعة مساء حتّى الساعة التاسعة. استغرب شنغافة بقاء الممرض في هذا الوقت عند الباب. شاهد عدداً كبيراً من المرضى يدخلون ويخرجون. يفترض أن تكون فترة زيارة المرضى. قبل أن يفكّر في الموضوع وصل ونيت النادي. سمع صراخ اللاعبين الذين انقضّوا عليه وأخذوه بالأحضان. الحمد الله على السلامة ابو الشناغيف. لم يذكر أحد السجن. سلّموا عليه كأنه قادم من سفر. شاهد جريب والهيب وبسّام الفلسطيني ومرزوق ابن أبو سطل وأحمد السوداني ومسفر وعدداً من مشجّعي النادي المتعصّبين. دخل النادي وانضمّ إلى صراخهم وضجيجهم. شعر بالدفء الإنساني. ثلاثة أيام قضاها محتجزاً كأنّها ثلاث سنين. فاحت في خياشيمه رائحة الجزم المبعثرة والكور القديمة والجوارب والأناجل وبقايا ملابس اللاعبين الملقاة في كل مكان من النادي. سمع الشتائم والتعليقات والنكات والصرخات. لهجات هي خليط من لهجة

أهل الرويض ولهجة أهل الغربية ولهجتي المغتربين السودانيين والمصريين. عالم الكرة تذوب فيه الفروق الطبقية وتختفي العنصرية والمناطقية. تتسامى فيه روح الأخوّة. حتّى الأمير يتخلّص من إمارته. لا أحد يميزه إذا اندمج بين الشُبّان. علم شنغافة على الفور أن تمرين اليوم هو التمرين ما قبل الأخير لملاقاة فريق الشمس. سرعان ما دبّت فيه روح العمل. بدأ يلعن ويسبّ ويشتم والشباب يغسلون جواربهم المتعفنة ويتضاربون على الحمّام الوحيد في النادي. عجل الله يلعن أمك. أنت يا خول لا تلعن الأم. وش قاعد تسوى في الحمام تعصر مصارينك. في أي لحظة سيصل الأمير. سيكون النادي بعد قليل شعلة من النشاط والعمل. يتمتّع الأمير بروح عملية. سوف يبدأ على الفور جلسات الاستماع والمناقشة والبدء بالترتيبات، فيوم الأربعاء المقبل موعد التمرين الأخير قبل لقاء فريق الشمس يوم الجمعة. سترسم الخطط وتحاك المؤامرات وتُشحن النفوس. لا يقبل الأمير سوى النصر. لا مانع من أن يهزم فريق حواري فريقَه. كل مباراة مع فريق الشمس هي مباراة نهائية. غداً سيلتحق الجميع بالمعسكر. سيكون التجمّع في النادي الساعة العاشرة صباحاً. سيأخذهم الونيت إلى بيت الأمير. يجب أن يكون اللاعبون وطاقم التدريب في حراسته الشخصية. أربع وعشرون ساعة في عزلة تامّة عن العالم الخارجي. لن تتكرّر مأساة المباراة السابقة. اكتشف الأمير مؤامرة ابن سالم، التي أدّت إلى هزيمة فريقه المنكرة. لن يسمح الأمير بأن يخدع مرّة أخرى. لن يغفر لنفسه

عندما ترك ابن سالم يتسلّل إلى فريقه حتّى وصل به الحال إلى أن عيّنه في منصب سكرتير النادي وسمح له بإقامة صداقات مع اللاعبين. بدأت المؤامرة على صفحات الجرائد. خدعته تلك الحملة التي شنّتها الصحف على العداء بين رئيس نادي الشمس وابن سالم الذي كان يشغل منصب نائب الرئيس. لم يتخيّل البتة أن انشقاق ابن سالم عن نادي الشمس كان مجرّد خدعة. سوف تضعف جماهير فريق الأعداء. صار ابن سالم من أركان النادي ومن المقرّبين للأمير في غضون أسبوعين. في ليلة المباراة النهائية التي عقد عليها الأمير الآمال، أنجز ابن سالم ما جاء من أجله. استدرج هويش حارس مرمى الفريق وأخذه إلى أحد مقاهي كيلو ستة ثم خاتله ووضع له في إبريق الشاهي كمية كبيرة من حبوب الكنغو المسهّرة. لم يستطع هويش النوم في تلك الليلة فدخل المباراة في اليوم التالي وهو في منتهى الإرهاق. استغرب المتفرجون سلوك هويش. أهداف تافهة تلج مرماه. انتهت تلك المباراة بأربعة أهداف دون مقابل. بعد التحقيق المكثّف عرف الأمير المؤامرة الدنيئة التي حاكها فريق الشمس ضد فريقه. غيّرت تلك المباراة مفهوم الكرة في الرويض. خرج الأمير من تلك المباراة مجلّلاً بالخزي والهزيمة. لم يذهب مع الفريق إلى النادي كعادته. ذهب إلى بيته وغاب أسبوعاً حتّى ظن كثير من جماهير النادي والأوساط الرياضية أن الأمير ربّما ترك فريق الفوز نهائياً. لكن في يوم الخميس التالي، خرج فجأة، فبدا أقوى من السابق. تجلّت قوّته في مرحه وبرودة أعصابه. الأمر الوحيد الذي رفض

الخوض فيه هو مباراة يوم الجمعة الماضية. بعد بضعة أيام جمع أعضاء الشرف ومحبّي النادي وعدداً من أهم اللاعبين وطاقم التدريب وألقى فيهم واحدة من خطبه التاريخية. شرح فيها معاني الحبّ والولاء لفريق الفوز وكرّر أكثر من مرّة أن فريق الفوز له من اسمه نصيب، وأن ما حدث يجب أن يكون درساً ولقاحاً ثم أعلن وضع إستراتيجية جديدة. بندها الأوّل أن يكون للفريق حارسان قويّان ثم التفت إلى السرّ مدرب الفريق وقال له أحملك المسؤولية. أريد أن أرى حارس مرمى إضافياً للفريق خلال الأشهر الأربعة المقبلة. تدبّر الأمر. عليك أن تجوب الرويض كلها. تتابع كل فرق الحواري حتّى تعثر على مبتغاك. لا أريد من الآن فصاعداً الاعتماد على حارس واحد. وبعد أن تأكد أن السر فهم الرسالة التفت إلى الحضور وأعلن أن علينا أن نجد طريقنا لاختراق الصحافة. علينا أن نجد صحافيين موالين حتّى لو دفعنا لهم أجوراً للوقوف إلى جانب فريقهم فريق الفوز. ثم أعلن أن الفريق لن يدخل أي مباراة دون معسكر. واستطرد الأمير بعد ذلك في تفاصيل المستقبل. من الواضح أن غياب الأمير لم يكن بدون سبب أو نتيجة. لقد غيّرت تلك المؤامرة مفهوم الصراع الرياضي في الرويض. تحوّلت من منافسة كروية تدور رحاها على أرض الملعب وفي أعماق حناجر الجماهير الشابة إلى صراع على جميع المستويات. لم يكن الأمير ساذجاً أو قليل الحيلة ولكنه كان صغير السنّ. صقلته تلك التجربة. بدأ يقدّم رشاوى ويشتري الذمم ويرسل الجواسيس ولم يتردد البتة في اعتماد الدنبوشي في

كل مباراة بشكل رسمي. صار يوظّف العامل النفسي. لا أحد يعرف هل يؤمن بفعل الدنبوشي أم لا ولكن لا أهمّية لذلك هناك من يؤمن بالدنبوشي وعلى الأمير أن يستغل ذلك. انفجر صراع حقيقي بين الفريقين. صار النادي ثكنة عسكرية. قلعة تتطلّب السرّية واليقظة فتصاعد دور شنغافة. أصبح جاسوساً ومراقباً ومراسلاً وأحياناً كثيرة وسيطاً مع بعض السودانيين من خبراء السحر والدنبوشي. الحادثة كشفت موهبة الأمير الإدارية والقيادية. الرجل الذي لا يصلح في هذا المكان يصلح في مكان آخر. كلّ رجل في هذا العالم لم يخلق عبثاً. لا بدّ أنه خلق لوظيفة معيّنة من واجب القائد الناجح أن يكتشفها. بات لشنغافة أكثر من دور. لم يعد مجرّد حارس وبوّاب. في أوّل تغيّر صريح في وظيفته طلب منه الأمير أن يذهب إلى السوق، وأن يحضر ثلاثين متراً من قماش بلون شعار فريق الشمس، وأن يقطّعها ويخيّطها على شكل أعلام تمثّل فريق الشمس. استغرب الجميع. نفّذ شنغافة طلب الأمير في أوّل مهمّة له خارج عمله التقليدي في النادي. طلب منه أن يحضرها إلى المعسكر وأن يفرشها على مدخل النادي ومداخل الغرف والحمّامات حتّى يدوسها اللاعبون في ذهابهم وإيابهم من باب الاحتقار وإثارة الكراهية. سرعان ما وظّف خبرة شنغافة في تربية طيور الحمام. طلب منه أن يحضر حمامتين قبل كلّ مباراة ويذبحهما ويمسح بدمهما أحذية اللاعبين قبل ركوب الونيت المتّجه إلى الملعب من باب التأثير النفسي وإيهام اللاعبين. سارت الأمور بعد ذلك على ما يرام حتّى جاء

ذلك اليوم الذي عرف فيه الأمير أن شنغافة يطبخ تلك الحمائم ويأكلها، فأصيب بنوبة من الغضب والجنون. نسي أن يبلغه بتحذيرات الساحر. كان عليه أن يدفن الحمائم في أقرب حيالة. في إحدى المباريات تلقّى فريق الفوز هزيمة منكرة برغم كمية الدنبوشي والمبالغ التي صرفها الأمير على تلك المباراة. دافع الساحر عن سحره وفسّر سبب الهزيمة بتصرّفات شنغافة الكارثية. طلب الأمير من عبيده وخدمه إحضار شنغافة وبطحه على بطنه وضربه حتّى شارف الموت. لم يقوَ أحد على التدخّل. عرف شنغافة بعد فترة أن الأمير كان ينفّذ تعليمات الماحي. أعماه الغضب فنسي جبروت الساحر وقدراته الخارقة. تحرّى شنغافة بيت الماحي فعرف أنه يسكن في حلّة العود مع عدد من أبناء جلدته الذين يعملون طبّاخين في بيوت الأمراء والمطاعم. تحرّى الوقت الذي سيجده فيه وحيداً. فشخص إليه ذات صباح. فتح له الماحي الباب. لم يتوقّع الماحي أن يأتي شنغافة بغية الانتقام. أبدى شنغافة هدوءاً وسكينة وسأل:

- هل في البيت أحد غيرك؟

فقال الماحي:

- لا.

ظنّ الماحي أن شنغافة يحمل طلباً من الأمير. دعاه إلى الدخول وأخذه إلى غرفة العمليات. غرفة صغيرة مظلمة تحت الدرج. كانت تستخدم حمّاماً صغيراً للتبوّل فقط. انتظر الساحر أن يبدأ شنغافة الكلام ولكن شنغافة التفت فشاهد قاعدة حديدية

ذات ثلاث أرجل تُستخدم لتجليس الأواني على النار. أخذها شنغافة من مقبضها وهوى بها على رأس الساحر وقبل أن يفيق الساحر من الصدمة ألحقها بضربة ثانية فهوى الرجل على مجموعة الأدوات السحرية التي كان يوهم بها زبائنه. تبعثرت الأدوات. انهار أخيراً على الأرض. تناثرت الدماء في كلّ مكان. شعر الساحر أنه مقبل على موت محقّق. فبدأ يترجّى ويردّد أنّه أب وله أطفال تركهم في السودان. إذا مات فسيموتون. اكتشف شنغافة تلك اللحظة زيف الساحر. تبيّن له أن الأمير والنادي واللاعبين كانوا مخدوعين. زاد غضب شنغافة عندما تذكّر أنّه كان أحد المخدوعين. شرح له الساحر كلّ شيء ثم عرض عليه المشاركة في الأرباح. منذ ذلك اليوم بدأ شنغافة يحقّق دخلاً إضافياً من ابتزاز الساحر وتهديده.

* * *

الساعة الثامنة ليلاً، وصل الأمير. دخل مكتبه على الفور ونادى المدرّب ومساعد المدرّب وطبيب العلاج الطبيعي. وبعد حوالى الساعة سمع شنغافة أحداً يناديه. تردّدت الأصداء في النادي:

- الأمير يبغاك يا شنغافة الأمير يا شنغافة يا ثور الأمير يدورك عجل.

كلّ من سمع النداء كرّره. لم يكن النادي كبيراً. ثلاث غرف وساحة صغيرة وقبو وحمّام واحد. يكفي أن يناديه شخص واحد

من أيّ مكان ليسمع. أحسّ شنغافة أن الأمير يريده لشيء مهمّ جدّاً. تذكّر مقطع الخمر المنصوب في بيت أم الأمير. فكّر قليلاً. لا يمكن أن يكون هذا هو السبب. دخل الأمير النادي في منتهى الهدوء وفي مزاج أقرب إلى الكآبة. لا يبدو عليه أيّ غضب. لو كان قد اكتشف المقطع لدخل النادي كالعاصفة واتّجه إليه وقطّعه بالعقال أو حتّى أطلق عليه النار. طمأنه هذا الهاجس. فالأمير ينتظره في المكتب. يريد الاجتماع به. لأوّل مرّة يناديه بهذه الحماسة والجدّية. ألقى شنغافة ما بيده وسار إلى مكتب الأمير بهدوء مصطنع وأعصاب مضبوطة. شعر شنغافة أن هناك شيئاً مهمّاً يريد الأمير إبلاغه به. دخل شنغافة المكتب. رأى الأمير يجلس وحده وفي يده سيجارة في وضع من يفكر بشكل جدّي. أشار الأمير بيده إلى الكرسي ففهم شنغافة من الإشارة أن يجلس فجلس. بعد قليل من الصمت والهدوء أطفأ الأمير السيجارة قبل أن ينتهي منها تماماً ثم سحب ظهره من مسند الكرسي ووضع مرفقيه على الطاولة حتّى أصبح وجهه قريباً من وجه شنغافة. قال له بهدوء وبصوت ملؤه الحنان:

- وشلونك يا شنغافة.

قبل أن يجيب تأمّل شنغافة في عينيه وفي الابتسامة العطوف التي تحيط بمحياه. شعر في لحظة خاطفة بأن الأمير صار أقرب إليه من نبض قلبه. فاستأنف الأمير قبل أن يسمع جواب شنغافة قائلاً:

- عسى ما جلدوك زي العادة.

لم يرفع رأسه ولم يقوَ على الكلام. نفى شنغافة الأمر بهزّة من رأسه. فهمها الأمير فقال:

- الحمد الله كنت عارف أنك بريء ها المرة. بس مهوب كل مرّة تسلم الجرة. تعرف يا شنغافة أن حظّك يكسر الحصا.

رفع شنغافة رأسه لأوّل مرّة وطالع في وجه الأمير فقال له الأمير:

- أكيد فهمت وش أقصد.

لم يجرؤ شنغافة على أن يقول ما جال في خاطره. لقد فهم تماماً ما يريد أن يبوح به. فقال الأمير بصوت عميق:

- جاني العلم الأكيد. اليوم الصبح رفعت أوراق عيال ابن نقية للمقام السامي.

فقال شنغافة في سؤال لا ينتظر جوابه:

- اليوم الصبح؟

تذكّر أنّه في هذا الوقت كان مقيّداً بالأغلال معهم. الكبير كان متبرّماً صامتاً والصغير يبكي والأوسط في بلاهة من دخل في عته لا رجعه منه. كانوا مقيّدين بطريقة تدلّ على مصير مشؤوم. فقال شنغافة:

- وش ظنك بيصير يا سمو الأمير.

فقال الأمير:

- الوضع خطير يا شنغافة. الله يكفينا الشرّ. احمد الله أنّك طلعت منها.

شعر شنغافة برغبة في البكاء لاحظها الأمير فبدا عليه التأثّر بل لمس شنغافة لمعة الدموع في عينَي الأمير. شعر أنه مأساة يحيط بها البكاء من كلّ جانب. موت حسينة واختفاء معدية ومقتل سويلم وأخيراً عيال ابن نقية. ما الذي يحدث في هذا العالم؟ أعاد الأمير ظهره إلى مسند الكرسي بعد أن سحب سيجارة من علبته الملقاة على الطاولة. همّ شنغافة أن يشعلها له ولكن الأمير منعه بحركة من يده التي امتدّت إلى الولاّعة الذهبية الفاخرة وأشعل السيجارة بنفسه. سحب منها سحبتين متتاليتين وراح يتأمّل الدخان الكثيف المنبعث من فمه وهو يهزّ الكرسي. صورة لقلق عميق ينتابه. ثم ابتسم وانحنى مرّة أخرى ناحية شنغافة. كلّ الظروف مهيأة للبوح الإنساني. بدأت الحواجز تتطامن حتّى كاد يرى الإنسان المتخفّي في ثياب الإمارة. شاهد في عينيه تلك القيم التي تخفيها دواعي الكبرياء والتراث الطويل من الأمر والنهي. صار في لحظة إنساناً بسيطاً يحزن ويحبّ ويمرض ويشيخ وفي النهاية يموت. بدأ يمزّق عنه ملابس العز والعلياء ويكشف ذلك الكائن البائس الذي تقوده المصادفات إلى مصير الكائنات جميعاً. فقال الأمير كأنّما كان يقرأ ما يجول في رأس شنغافة:

- شف يا شنغافة بعد كم سنة لا أنا ولا أنت في ها الدنيا. ولا أي واحد من ها اللي تشوف. لا تضيع باقي عمرك ببلاش. أنا كنت عارف أنك بريء لكني أعرفك زين تسويها وتسوي أكثر.

قال تلك الكلمات ثم سكت وأعاد ظهره إلى مسند الكرسي. يريد أن يستريح من ثقل الكلمات الحميمية المتصارعة مع ميراث

الإمارة في داخله. خرجت من إنسان إلى إنسان. سكت الرجلان. كلاهما يريد أن يستريح من التواضع الذي فرض حضوره بينهما. بدا كأنّهما ينصتان إلى بقايا صخب اللاعبين الذين يتشاتمون ويتصارعون في غرف النادي الأخرى. قاوم الأمير الصمت الذي ران على المكتب فقال:

- ما رحت تسلم على عمتك.

لم يفهم شنغافة ما يرمي إليه الأمير فلاذ بالصمت. لا يتذكّر أنه سلّم على الأميرة أكثر من ثلاث أو أربع مرّات في حياته كلّها. الأميرة لا تبالي بهذه الشكليات. إذاً الأمير لا يرمي إلى السلام والمجاملات. لا يمكن أن يكون الأمر مجرّد سلام. لا يظنّ أبداً أن الأميرة أو الأمير حريصان على سلام شنغافة. لا بدّ أن سموّه يتّجه إلى أمر آخر خطير. قاوم التخمينات التي ترامت في داخله حتّى لا يميل إلى طرق قد تضرّه فاضطرّ إلى أن يجيب بشكل بسيط ومستقيم معبّراً عن جزء من حقيقة ما حدث:

- ما حبيت أروح للأميرة في العصر وثيابي مهيب نظيفة قلت أجي للنادي أغير ثيابي وبعدين في الليل أروح للقصر.

فقال الأمير:

- أنت رجّال طيّب ومسكين يا شنغافة وحبيب لازم تروح لعمّتك الأميرة. تراها ترقد في المستشفى.

صعق شنغافة من الخبر وقبل أن يعلّق قال الأمير:

- أبيك تصلّي اليوم بصدق وتدعو لها من قلبك.

أحسّ شنغافة بخطورة المرض الذي تعانيه الأميرة. الأمراء لا يبوحون بضعفهم للآخرين. إخفاء الضعف جزء من القوة التي تزرع المهابة في نفوس الناس.

شعر شنغافة أن الأميرة تحتاج إلى كلّ الأدعية التي يقدر على إنتاجها الضعفاء والطيبون وكلّ من قيل إن الله يسمع منهم أكثر. ما الذي سيحلّ بالناس الذين يعيشون على جودها وكرمها. مئات الأسر الفقيرة والتائهة ستنضم إلى أفواج الشحّاذين إذا ماتت. لم يحسّ شنغافة في يوم من الأيام أنه قديس أو نبيّ أو حتّى إمام مسجد. تذكّر أن آخر مرّة صلّى فيها بضراعة كاملة عندما صلى على حسينة. مرّ على تلك الحادثة أكثر من خمس سنوات. كان ذلك في مسجد ابن فيصل خلف حميد. لا يعرف ما الذي حلّ بروح حسينة عندما استقبلتها الملائكة مجلّلة بدعوات المرابي الربانية. نظر في عينَي الأمير. لاحظ الخشوع وجلال التائبين. الوقت يمضي سريعاً. سيعيش الأمير أصعب أيّام حياته. تضرّع إلى الله أن تتحسّن حالتها قبل المباراة الحاسمة حتّى يتسنّى للأمير إدارة شؤون الحياة خارج قلق الموت المتربّص بأمّه. عرف منه أنّها ترقد الآن في مستشفى المشمسي في الدور الخامس حيث يرقد المرضى من علية القوم، ولا يعلو عليهم سوى السماء التي يجلس فيها الشافي ربّ العالمين. لملم الأمير أشياءه ونهض وخرج من المكتب تاركاً شنغافة يفكر في المصير بالطريقة التي يراها. لحق به شنغافة. كانت الصيحات قد تلاشت وغادر الناس النادي. عاد فراغه. أطفأ الأنوار. خرج إلى الشارع فشاهد سيّارة الأمير تغيب

في الأفق الأخير من شارع السويلك ثم وهي تنعطف شرقاً في طريق المشمسي الجديد. سيكون بعد قليل في المستشفى عند أمّه. بدأ يحسّ بالجوع. تحرّك في الاتّجاه المعاكس حتّى بلغ شارع المخزان. بعد عشر دقائق وصل إلى مطعم عبده السوداني. كما توقّع وجد معظم عيال حلّة ابن بخيت يحتشدون على أكثر من طاولة. اتّجه إلى الطاولة التي يجلس إليها فحيج وزغاليب والسويمي. هبّ الجميع وسلّموا عليه بفرح أخوي عزّ مثيله. كانوا سعداء بنجاته من الجريمة الكبرى التي حدثت مساء يوم أمس. تلاشت الاتّهامات. لم يعد هناك مشتبه فيه محدّد من أولاد الحارة. قصّوا عليه الواقعة بحذافيرها وأخبرهم بمرض الأميرة وبما جرى له في السجن، وأخيراً أخبرهم بما سيحلّ بأولاد ابن نقيّة. توقّعوا جميعاً أن يُعدموا يوم الجمعة المقبل. سحب عبده السوداني كرسياً وانضمّ إليهم. فقصّ شنغافة عليهم قصّة أولاد ابن نقية مفصّلة. اتّفقوا أخيراً على زيارة سعندي. شعروا بالتعاسة. سويلم يموت غيلة وسعندي يرقد في المستشفى بعد محاولة قتل تعرّض لها، وأخيراً الحكم على عيال ابن نقية بالإعدام. أصبحت حلّة ابن بخيت مرتعاً للمصائب.

* * *

بدا مستشفى المشمسي يعجّ بالأضواء وتكتظّ جنباته بالسيّارات الفارهة. لأوّل مرّة يشاهدون بوّابته الرئيسة مشرعة على مصراعيها في هذا الوقت من الليل. يقف أمامها عدد كبير من الجنود والحرس والأخوياء بملابسهم التقليدية. شاهد شنغافة مرزوق

الفهد بسيفه الذهبي المتدلّي ومجنّده المحشو بالرصاص يمتدّ من كتفه اليمنى نزولاً إلى وركه اليسرى ويتقاطع مع حزام مسدسه المتدلّي عند حوضه الأيمن، مما يضفي عليه مهابة أخوياء الشيوخ الأشدّاء. شاهده يوجّه الحشد ويدقّق في الداخلين. يتفحّص ركّاب السيّارات ويسأل عن هويّاتهم. سلّم عليه شنغافة. أشار مرزوق على الجندي أن يسمح لشنغافة وزملائه بالدخول. فوضى السيّارات والراجلين ضيّقت الطريق بين البوابة الخارجية والمدخل الرئيس للمستشفى. تدافعوا مع الحشود إلى أن بلغوا البوّابة الداخلية. اتّفقوا على زيارة سعندي أوّلاً ليتركهم بعد ذلك شنغافة ويذهب وحده للسلام على الأميرة. وجدوا سعندي مستلقياً على السرير في تمام وعيه وصحّته. شرح لهم ما جرى حسب رواية الشرطة ابتداءً من لحظة خروجه من بيت السويمي حتّى أفاق قبل بضعة أيّام وطمأنهم أخيراً على سلامته. وعده الطبيب بالخروج خلال أيّام. أجريت له عمليات عدّة نجحت جميعها. صار يحرّك يديه ورجليه دون صعوبة أو عناء مع قليل من الخدر في أطراف أصابع يده اليسرى. كان خبر مقتل سويلم قد وصله. اختلفوا في الربط بين ما حدث لسويلم وما جرى له حتّى إن بعضهم ربط الأمر بموت ابن يوسف قبل سنوات. بقيت وتيرة الحياة في حلّة ابن بخيت كما هي منذ سنين طويلة لم يدخل عليها أي شيء جديد يرفعها إلى هذه المستوى من العنف. تشعّب بهم الحديث. تذكّر عبده السوداني أيّامه الأولى عندما جاء إلى الرويض. سكن أوّلاً في العجلية ثم انتقل إلى عمارة بجوار شيشة البنزين وأخيراً استقرّ

في شارع العطايف في مدخل حلّة ابن بخيت. كان ذلك قبل أكثر من خمس وعشرين سنة. غطّت معظم الجهة الغربية من حلّة ابن بخيت مجموعة نخيل يتوسّطها نخل البويبية الباقي بعض معالمه حتّى الآن. تم تقطيع النخيل والأشجار وتحوّلت الأراضي في سنة تقريباً، إلى بيوت طينية على الطراز الحديث. يتذكّر أن بيت مانع وأبو عبد المحسن ومسجد البازمي وصفّ البيوت المجاورة كانت تتصارع مع أسوار النخيل المتهدّمة. ثم قال بصوت يشوبه الحنين:

- ما بقاش من ديك الأيام الحلوة إلاّ مقبرة العجلية.

التفت شنغافة دون إرادة منه وألقى نظرة خاطفة على وجه فحيج. لمع في ذهنه الماضي، عشر سنوات مضت على أوّل مرّة تمتّع بجسد هذا الرجل. كان شابّاً جميلاً. أقرب إلى جمال المرأة منه إلى وسامة الرجل. غابت وسامته تحت الشاربين الكثيفين. كأنّما صار أكثر سمرة. اخضرّ وجهه بمنابت الشعر. لم يتوقع البتة أن ينبت في وجهه الشعر بهذه الكثافة حتّى بلغ أدنى الحلق. يكاد يلتقي مع شعر صدره. كثافة شعر تمنحه فحولة أمام كلّ من لا يعرف تاريخه. كان فحيج يجلس على حافة السرير عند قَدَمَي سعندي. ظلّ معظم الوقت صامتاً. يرمي ببعض التعليقات السريعة. تذكّر شنغافة المرّة الأولى التي تمتّع فيها بجسده مقابل مطارة عرق. كان قد سمع عنه. حاول معه دون فائدة، حتّى جاء اليوم الذي قبضت فيه الحكومة على غسّال الملابس اليماني أحد أهم مسوّقي الخمر في الرويض، ثم طوّقت شارع السبالة في بادرة غريبة، ففر صغار الموزعين. رافق هذه الحماسة تعيين أحد الأمراء

المتديّنين وكيلاً لوزارة الداخلية. فخلت المدينة من الخمر تقريباً. عز وجوده فارتفع سعره كثيراً. اقترب سعر مطارة العرق من سعر زجاجة الويسكي. فلجأ معظم الناس إلى شرب الكولونيا. تحسّس شنغافة حينذاك خطورة الموقف فعمد إلى إلغاء القطعات الجديدة وأفرغ برميل التخمير الكبير وأخفى ما لديه من عرق جاهز. دفن بعضه في أكثر من حيالة وفي مقبرة العجلية أيضاً. توقّف فترة طويلة عن التسويق، وبعد أن قرأ حجم الأخطار والثغرات الممكنة صار يتعامل مع عدد محدود جدّاً من الزبائن إمّا من باب الثقة أو لأنّهم مستعدّون لدفع مبالغ طائلة وتسلّم البضائع بطريقة معقّدة لا تثير أيّ شبهة، أو أنّهم من أصحاب النفوذ كالضبّاط وكبار الموظّفين. استمرّ الوضع الخطر أكثر من ستة أشهر. جفّت فيها الرويض من العرق. بعض الشلل عانت الأمرّين من شرب الكولونيا. يُعدّ شرب الكولونيا مخاطرة كبرى. مات كثير من الناس بسببها مع أن هناك من يقول إن الذين ماتوا قتلهم السبيرتو المسروق من المستشفيات وليس الكولونيا. جرّب فطيس وسويلم شرب الكولونيا ولكنهما لم يستطيعا التخلّص من الرعب. خافا أن يحدث لهما ما حدث لفتى الغزلان.

كان شنغافة يتوق إلى جسد فحيج ولكنه كان يعرف أن فحيج تحت سيطرة فطيس. الاقتراب منه مخاطرة كبرى. في أحد الأيام أخبره بخشة صاحب قهوة المخزان أن فطيس جاء بضع مرّات يبحث عنه. ليس غريباً أن يسأل عنه في قهوة بخشة. تعتبر قهوة بخشة أحد الأماكن الأساسية التي يختلف إليها شنغافة. أيّ إنسان

يريد شنغافة يجده إمّا في النادي أو في هذه القهوة أو في قهاوي كيلو ستة. لم يستغرب. على الفور خمّن أن فطيس مقطوع من العرق. لم يسع إلى لقائه. مرد الكلب القصّاب قال بينه وبين نفسه. بعد بضعة أيام صادفه في إحدى قهاوي كيلو ستة. كان فطيس يجلس مع عدد من الشباب، لم يعرف منهم شنغافة سوى سويلم. دعاه فطيس للجلوس معهم ولكن شنغافة اعتذر وانتحى على مركاز في الجهة الثانية من القهوة. بعد قليل جاءه فطيس وجلس معه وطلب شيشة وعقب سواليف عامة قال فطيس:

- ممكن يا شنغافة تدبر لنا شوية عرق.

كان شنغافة مستعداً لمثل هذه المحادثة. كان قد أدارها في ذهنه بضع مرّات حتّى حفظ جميع تفاصيلها وأعدّ لها كلّ الأجوبة الممكنة، فقال:

- والله يا فطيس أنت عزيز وغالي وما ينرد لك طلب. بس تعرف ها الأيام الشرطة والنوّاب في كلّ مكان. ما عد الواحد يقدر يسوى شيء أصبر علينا كم أسبوع وإن شاء الله يفرجها رب العالمين.

فقال فطيس:

- يا ابن الحلال حاول تشوف لنا ولو مطارة وحدة وأبشر بسعدك.

فقال شنغافة:

- والله ودي لكن ما أملكه، حتّى أنا إذا بغيت أشرب أروح للحلّة عند واحد قريب لي.

فقال فطيس بعد أن شعر بأن الباب مفتوح للمساومة خصوصاً أنّه يعرف ألاّ أقارب لشنغافة:

- جب لنا منه وبحقه ما راح نقصر معه.

فقال شنغافة:

- الرجال ما يبيع يا لله يقطع حقّ راسه.

انفتحت شهيّة فطيس أكثر. إذاً هناك مصنع ينتج. فقال:

- كم يبي وحنا نعطيه يعتبر نفسه عازمنا.

فقال شنغافة فاتحاً على الهدف المرجو:

- شف يا فطيس قريب إن شاء الله أبحاول آخذ منه شوي وأبعزمك أنت وسويلم وفحيج. من زمان والله وأنا أفكر أعزمكم ثلاثتكم.

فقال فطيس:

- ما تقصّر أعرفك رجل كريم اعتبر الحلال واحد.

من الواضح أن فطيس فهم مضمون الرسالة، فقال مختصراً الموضوع:

- حنا دايم نلتقي في مقبرة العجلية لكن إذا بغيت نزورك في البيت ثلاثتنا قل لنا أي وقت وأبشر بسعدك.

فقال شنغافة:

- ها الأيّام صعبة في البيت.

فقال فطيس:

- أجل تعال بكره مسيان في مقبرة العجلية. تلقانا في غرفة حفار القبور. لا يشوفك أحد.

ثم قال وهو ينزل من المركاز وعينه تبحث عن نعليه:

- بس تكفى نبغى عرق نظيف.

حسم فطيس الأمر. أخرج الموضوع من المجاملات الفارغة إلى المساومة الحقيقية. سعد شنغافة بهذه النقلة العملية. كان يعرف أن فطيس نذل على استعداد أن يؤجر أمّه إذا لزم الأمر، فقال:

- لا من ها الناحية أطمأن هذا عرق بيتي إلين جربتاه بتخلي أمك تدعي لي.

لم يمنحه فطيس الوقت ليساوم على الفلوس. اتّضح أن المبادلة هي مطارة عرق مقابل جسد فحيج فقط. تحلّب ريقه. تذكّر جسد الشاب الأبيض الريّان. فأجّل مسألة الفلوس للمرّات المقبلة. ونادى القهوجي وطلب رأساً جديداً وبراد أبو أربعة طايفي.

في مساء اليوم التالي، التقط شنغافة مطارة عرق وأغلقها جيداً وغسّلها حتّى يزيل ما علق بسطحها من رائحة الخمر النفاذة ثم لفّها في سجّادة. حملها في كفّه كما يحمل تلاميذ المدرسة كتبهم. دخل المقبرة وقبل أن يتّجه إلى غرفة حفّار القبور أخرج المطارة وأخفاها في أحد القبور المفتوحة ثم لفّ السجّادة بعناية بطريقة توحي أن في داخلها شيئاً واتّجه إلى غرفة حفّار القبور. وجد فطيس وسويلم وفحيج يجلسون على فرشة متهرّئة فاطمأن. بعد تحيّات سريعة قال فطيس ببرود واستهتار:

- يالله يا سويلم خلنا نتركهم مع بعض.

نهض سويلم. قبل أن يخرجا قال فطيس مرّة أخرى:

- حنا بناخذ معنا القشّ وبنترككم على راحتكم.

ثم التفت إلى فحيج وقال:

- إذا خلص منك تعال لنا في اللي أنت خابر.

اضطرب شنغافة من هذا الأسلوب الوقح. لم يراع شعور الشاب المسكين. شعر بقليل من الألم لكن يبدو أن فحيج معتاد مثل هذه المعاملة من فطيس فقال شنغافة لإتمام الصفقة:

- بتحصل القش في القبر شفه على يدك اليمين وأنت رايح تحت الفتحة الكبيرة.

خرج فطيس ثم لحق به سويلم بعد أن أخذ السجّادة معه. أنهى الأمر مع فحيج دون متعة حقيقية. كانت القبور تقف له في المرصاد وصدى وقاحة فطيس تحوم حوله. بعد تلك المرّة تمكّن منه كثيراً. ولكنه لم يعد يتذكّر متى كانت المرّة الأخيرة التي انتهكه فيها. حتماً قبل أكثر من خمس سنوات عندما بدأ فطيس يخفف من سيطرته عليه. دخل في حياته أقوياء جدد ينافسون فطيس. توزّعت القوى التي تملك جسده المبذول، فصار يمنحه بالكيفية التي يراها حتّى تحوّل إلى مصدر دخل له وجسر لإقامة علاقات تخصّه. صار التفاهم معه مباشرة. حاول شنغافة أن يبعد التفكير في الماضي حتّى لا يعاوده الندم على أفعاله الخاطئة. عليه أن يمضي قدماً في الحياة دون أن يلتفت إلى الوراء. صار الماضي كيساً متعفّناً مملوءاً بالعذاب والندم والذلّة والأحزان المتلاحقة. يستطيع شنغافة أن يضع قائمة بالناس الذين ذاقوا المهانات وتجرعوا أنواعاً عدّة من الذلّ. ألم يسرق ويجلب ويباع. أيّ

اعتداء أبعد من هذا؟ سحب عينيه عن وجه فحيج. لو تأمّل فيه أكثر لاضطرّ إلى أن يدخل في جسده. يغوص في الخراب العظيم المتفشي فيه. اكتفى منه بالصورة الخارجية. شاهد رجلاً اخشوشنت أماكن اللذّة فيه. كبر واسودّ بالشعر. انطفأ ذلك الجمال الذي دمّر حياته.

* * *

بعد أن خفت الحديث بادر عبده السوداني وأخبر سعندي بوفاة أم فحيج. صعق شنغافة من الخبر. ضاع خبر وفاتها في خضم الأخبار الكبيرة. مقتل سويلم ورفع أوراق عيال ابن نقية للمقام السامي ومرض الأميرة. تضاربت مشاعره. لم يعد في قلبه متسع حتّى لحزن صغير ولكنه تحرّك ناحية فحيج وقال بعد أن لمعت الدموع في عينيه:

- أحسن الله عزاك يا ناصر والله ما دريت إلاّ هالحين.

نزل فحيج من السرير واستقبل شنغافة ثم سهل له قبلة على جبينه. زحف في الوقت نفسه سعندي. حاول أن يقترب من فحيج ولكن فحيج أسرع إليه وضمّه قبل أن ينهض من السرير. انفرطت الحزازات الخافتة. طافت على المكان أحزان الشابين وذكرياتهما القديمة. كانا كالشقيقين في أيّام مضت. باعدت بينهما الشهوات والاعتداءات ووضعت كلاً منهما في عالم مختلف. شعر شنغافة بأن الماضي يريد أن ينفجر كالدمل المملوء بالصديد. هناك عقبة في طريق البكاء المشترك. لا يمكن ترميم الشروخ التي أحدثتها الأيّام. كان يعرف أن سعندي الذي عاش طفولته الأولى معه

كشقيقه اعتدى هو أيضاً عليه. تسلّل في غمرة العواطف الغامضة وقال مستأذناً:

- يا الله يا جماعة بروح أسلم على الأميرة قبل أن تنام.

ودّعه الجميع وخرج من الغرفة دون أن يلتفت إليهم أو يسترق النظر على المرضى الآخرين.

* * *

كلّ يوم يمرّ يضطرّ إلى أن يجري تحديثاً على حدود أطماعه وآماله. لم يعد هناك متّسع من الوقت. اقترب من الأربعين. إذا لم يتزوّج الآن فلن يتزوّج أبداً. إذا لم يشتر بيتاً الآن فلن يشتري بيتاً أبداً. ثلاث سنوات على غياب معدية. أين أرضها الآن. يريد فقط أن يعيد إليها فلوسها. سبعة آلاف ريال مبلغ كبير يكفي لشراء البيت الذي كانت تسكنه أو البيت الذي كانت تفكر فيه في شارع السويلك. لماذا كانت تفكر في ترك حلّة ابن بخيت. حلّة أحلامها الأولى التي جاءت إليها في يوم من الأيّام عندما كانت شابة جميلة. أحضرها زوجها ضمن حملة أهل الرويض على الزواج من خارج الرويض. كان عمرها آنذاك سبع عشرة سنة. إذا كان أهلها زوجوها من رجل لا يعرفون عنه شيئاً ولم يأت أحد يسأل عنها، فحالها أسوأ من حاله. باعها أبوها وهو باعه من خطفوه. كانت حزينة. لم يسأل عنها أيّ من أهلها بعد ذلك. غاصت في العالم الجديد. دخلت عالم الرويض ببياضها الشديد ولهجتها الغريبة. كان زوجها يملك بيته الذي يسكنه ويملك سيّارة تاكسي ويملك مندفة قطن تدرّ عليه مبالغ جيّدة. مات مصادفة. خرج من بيته في

إحدى الفجريات ليشتري خبزاً فصدمته سيارة ومات على الفور. في ذلك الوقت لم تكن هناك سيّارات تجوب سكيك حلّة ابن بخيت. لم يكن الوقت أو الظرف أو المكان مناسباً للموت. كان في بداية تأسيسه لأسرة جديدة تضاف إلى أسرته الأولى. ربّما لو استولد معدية لتغيّر حالها. ترك ثلاثة أولاد صغار وامرأتين. عاش صراعاً مرّاً مع أهله وأهل زوجته الأولى. تحالفت الأسرتان ضد معدية. لم يقوَ على مواجهة ضغوط أهله وأهل زوجته الأولى. صار يأتي إلى معدية خلسة وينام معها ثم يتركها ويذهب إلى زوجته الأولى. أحسّت معدية في بداية حياتها معه أنه كان يشفق عليها. تحوّلت من متعة إلى عبء. أحسّت أنّه يفكّر في التخلّص منها مراضاة لأهله وزوجته الأولى فكرهته واحتقرته. تحدّثت عنه في حضور شنغافة مرّة واحدة أثناء حديثها عن تربية الحيوانات. كان زوجها يظنّها خبيرة في الأغنام والأبقار بحكم أصولها الفلاحية. يريد أن يزيد ثروته على حسابها. عندئذ سيقنع أهله بقبولها. جاء الأمر لمصلحتها. اشترى ثلاثة رؤوس غنم وبقرة وبعض الدجاج. مات بعد ثلاثة أشهر من شرائها. لولا هذه الثروة التي جاءت مصادفة لما حصلت على شيء من الإرث. لجأت إلى المحكمة لتأخذ حقّها من المندفة والتاكسي والبيت الذي يسكنه مع أولاده، ولم توفّق. ذهبت إلى المحكمة مرّة واحدة فقط. شعرت أن كاتب المعاريض يلمح إلى مساعدتها مساعدة خاصة. ثم لاحظت أن كلّ مَن تبيّن أنّها أرملة ووحيدة يلمح إليها. عرفت أن الأمر في كل مكان متساوٍ. على المرأة في النهاية أن تعيش على أقلّ قدر من

الحقوق. الجميع يحوم حول جسدها والجميع سوف يتقول عليها وكلّ كلمة تقولها ستكون ضدها. خافت من الاتّهامات والأطماع ورغبات الرجال التي لا تنتهي فاكتفت بالبقرة وثلاثة رؤوس من الغنم والدجاج. كانت محاطة بالناس ولكنها لم تشعر بأنها جزء من العالم. بدأ شنغافة يتتبّع سرّ تعلّقه بها. دارت الدنيا ليصنع الله امرأة على مقاسه. ذراع تمتد له في صحراء تخلو حتّى من السراب الجميل. يعذّبه أن تتحوّل هي إلى سرابه الجميل في النهاية. كانت لحماً ودماً وأنفاساً وجسداً صغيراً جميلاً يملأ حضنه بحبّ وشوق. كانت إنساناً يبكي من أجله ويصرخ في وجهه ويعاتبه وينقضّ عليه بالضرب أو بالقبل. عرف أنّها حبيبته وزوجته الواعدة عندما بدأت تغضب وتصرخ في وجهه وتهدّده بالطرد من بيتها وتحرمه من الأكل إذا جاء متأخّراً. تشتمه بأقسى الكلمات وهي تضمّد له جرحه أو تدهن كاحله الملتوي. لو لم تترك هذا المبلغ الكبير معه لأمكنه ذلك أن ينجو من ذكرياتها ويتحرّر من التحسّر عليها كما تحرّر من حسينة. لا يعرف كيف يتصرّف بهذه الفلوس، ولا يريد أن يخبر أحداً عنها. فلوس معدية قضيّة تخصّه وحده. لن تختلط بأمواله التي جمعها من بيع العرق ومن الصدقات والشرهات والاحتيال على الأمير. سبعة آلاف ريال ثمرة حبّ تحرّك مسافات بعيدة ليصل إليهما في مصادفة كونية لا تتكرّر. ضاق بمعدية وفكر أن يشتمها لكنه لم يجرؤ. يريد أن يعرف ما الذي حلّ بها. الناس يرتكبون الأخطاء ويحصلون على التسامح والغفران فلماذا تستثنيه حبيبته من ذلك؟

نهض من الفراش في مزاج سيّئ مع إحساس بالتعب بعد سهرة البارحة. شرب حتّى غرق في الخمر بعد ثلاثة أيّام لم يذق فيها لذّة السكر. عليه الآن أن يذهب إلى بيت الأمير بغية الإعداد للمعسكر الذي سيبدأ بعد ظهر اليوم. الأمير في انتظاره لكي ينقده الألف والمئتين ريال لخياطة أعلام فريق الشمس حتّى تكون جاهزة لدعس الأقدام الحاقدة وشراء حمامتي الدم المسحور ثم المرور على الماحي لإحضار صرار الدنبوشي. ستأخذه هذه المرّة سيّارة الأمير حفاظاً على سرّية المشروع ومنعاً لأيّ تدخّل مفاجئ من فريق الشمس. جميع التحرّكات والاستعدادات يجب أن تكون تحت السيطرة. فالأمير يدخل حرباً لا تشكل فيها الخطّط الرياضية وقدرة اللاعبين سوى الجزء الثانوي من صراع القوة. يعرف شنغافة أن كلّ هذه مجرّد خرافات لكنه يؤمن أن الأمير يتحرّك بشكل مؤاتٍ. الحشد الكامل لأسباب القوّة هو الطريق الصحيح للنصر. من يؤمن بالخرافة ينتفع بها ومن لا يؤمن يستخدمها ضدّ من يؤمن بها. هذا هو مبدأ الأمير. مثلها مثل الدعوات الصالحة والشتائم، تسمعها كجزء من اللغو اليومي، ولكن إذا أحيطت بالطقوس ومهابة المكان وأضيف إليها رجل دين ملتح، أصابت الموجَّهة له بالرعب. سيأتي بالصرار وسيسلمه للكابتن ابن صويلح الذي سيدفنه في المرمى الذي تحتشد خلفه جماهير فريق الشمس ثم يمرّ ركضاً بين لاعبي فريق الشمس أثناء التسخين في الملعب قبل بدء المباراة بدقائق لتحديد لاعبي الخصم للجن المكلّفين. هكذا تقتضي تعليمات الساحر الماحي. سينتزع من الماحي ثلاثمائة ريال

حسب الاتّفاق. مبلغ كبير يفوق راتبه الشهريّ. تمنّى أن تكون جميع المباريات مع فريق الشمس. فالأمير يصرف عليها بلا حساب. سمع طرقات متواصلة على باب النادي. صرخ بأعلى صوته:

- الباب مفتوح دفه بس.

وبعد دقائق سمع ضجيج عدد من اللاعبين وبعض المشجّعين. ميّز صوت جنجا من بينهم. استغرب. المفترض أن يكون قد انقطع عن زيارة النادي وبيت الأمير. انتهى عزّه إلى الأبد. لم يعد لاعب الأمير المفضل. في الأمر سرّ سيجلوه بعد قليل. سمع نقراً على باب الحمام وصوت سعيد السوداني ينادي: يا لله يا شنغافة يا بغل الساعة إحدى عشر بيذبحك الأمير إذا تأخرنا. رح شف اللي وصاك عليه الأمير بسرعة. أكيد الماحي يستناك.

خرج من الحمّام ولم يجد السوداني. اتّجه إلى الصالة فوجد اللاعبين من عيال حارة حوطة سعد وشارع العطايف وشارع المخزان وبعض المشجعين. أقلقه وجود جنجا بينهم. تمنّى ألاّ يسبّب له مشكلة. فالأمير صار يكرهه. الأمير إما أن يحبّ أو يكره. شكر الله حين شاهد سائق الوانيت يجلس مع اللاعبين. شقّ طريقه في الصالة وسلّم باقتضاب وطلب من السائق أن يأخذ اللاعبين فوراً إلى المعسكر. خرج من النادي بسرعة البرق حتّى لا تقع عيناه على عيني جنجا. شاهد سيّارة الأمير السرطوقا تنتظره على الرصيف الثاني، فعبر الشارع دون أن يلتفت. لكن كما توقّع

سمع صوت جنجا يناديه. أكمل عبور الشارع ووقف لدى باب السيارة والتفت في حركة من فوجئ بالصوت ليبدو بريئاً. بعد تحيّة مقتضبة بدأ جنجا يتذمّر من معاملة الأمير له. من الواضح أنّها بداية لطلب يخصّ الأمير فسارع شنغافة قائلاً وهو صادق، إنه الآن في طريقه إلى عمل ضروري وليس لديه وقت لسماع شكواه وطلب منه أن يأتي إليه في وقت آخر ثم ركب السيّارة حتّى قبل أن يسمع ردّ جنجا. ولكن جنجا فتح باب السيّارة الخلفي وركب وهو يقول:

- أقصّ عليكم قصّتي في السيّارة وتوصلوني على دربكم.

من حسن حظ شنغافة أن السائق السوداني يعرف مزاج الأمير وطبيعته فطلب من جنجا النزول فوراً. وقال:

- إذا عرف الأمير أننا سمحنا لك بركوب سيّارته فصلنا أنا وشنغافة ولا أظنّ أنك ترضى علينا بذلك.

فقال جنجا:

- يا جماعة الخير أنا ما أبي أرجع للنادي ولا أرجع للكورة أبيكم بس تقولون للأمير يقابلني. ثم قال أبي منك يا شنغافة تدخلني على أمّ الأمير.

فقال السوداني بتوتّر: يا ابن الحلال فكنا من شرك. أنزل من السيّارة قبل ما يطلع اللاعبين ويشوفونك راكب معنا. الأمير بيعرف الله يخليك.

فقال شنغافة متشجّعاً:

- صحيح الله يخلّيك يا جنجا أنزل وبعدين نتفاهم.

شعر شنغافة بالأسى. قبل بضعة أشهر فقط كان يحسد هذا اللاعب على الحظوة التي يتمتع بها عند الأمير. واليوم يمنع الأمير مجرّد ذكر اسمه في النادي أو في بيته. الله يكفينا شديد الحبّ والكراهية، فكلاهما مدمّر. خسر جنجا مكانته عند الأمير حين ربح الفريق إحدى مبارياته مع فريق الشمس بدونه ويقال إن جنجا لم يحسن تقدير الامتياز الذي خصّه الأمير به. كان الأمير مقتنعاً اقتناعاً تامّاً بضعف جنجا الفني وبعد تلك المباراة فقد تعويذته. شعر أن النصر لا يأتي بفضل وجود جنجا وإنما بفضل الضغط النفسي الذي يحدثه الدنبوشي الذي يستورده الماحي من أفريقيا.

سمع مرّة الماحي يشرح للأمير المواد المستوردة من السودان ومن تشاد ومن بعض الدول الإفريقية. توتّر شنغافة من هول الأكاذيب لكنه صمت. يشكّ أن الأمير يصدّق. موادّ تافهة تركب في حمّام مهجور ثم تلفّ في قرطاس اسمنت وتلحم بغراء تلاميذ المدارس ثم يكتب عليها بعض الشخبطات من الخارج بماء الزعفران وأحياناً بمادّة مذابة من تشكيلة التلاميذ الملوّنة التي تسمّى السحريّة. يحدث في بعض المرّات أن يصل شنغافة قبل أن يجهز الماحي الدنبوشي فيركباه معاً. كانا يتضاحكان أثناء العمل. معظم الدنبوشي المستخدم في دوري هذا العام نتف من شعر شنغافة وقليل من المادّة المتخمّرة في الحمّام يسمّيها أهل الرويض مغراب يرشّ عليها كميّة كبيرة من العطر حتّى تعطي رائحة لم تمرّ على خيال من قبل. كانت تلك الرائحة تفرض حضورها القوى على كلّ من يقترب من الصرار وتشي بأنها قادمة من عوالم لم يطأها بشر.

لم يعرف شنغافة أن رئيس النواب الشيخ سالم كان يراقب تصرّفات الماحي ويتربص به. قبل أشهر عدّة ماتت زوجة أخي الشيخ بعد مرض جلدي شخّصه الأطباء بأنه سرطان الجلد. ولكن الشيخ سالم أصرّ على أن زوجة أخيه ماتت بعد أن تعرضت لعمل سحري وأقسم أن يقتصّ من الساحر. كان اسم الماحي مطروحاً على طاولة الشيخ. لا يمكن إخفاء اسم ساحر في مدينة صغيرة كالرويض. جماهير نادي الفوز يتحدّثون بخفوت عن تعاون الماحي مع ناديهم. لم يكن الماحي يكتفي بصناعة دنبوشي الكرة. كان يحقّق بعض المكاسب من علاج بعض الحالات المختلفة. يفكّ السحر ويزيل آثار العين ويساعد الأزواج على أداء واجباتهم الزوجية ويعمل أيضاً كمعالج شعبي. كان بيت الماحي تحت رقابة النوّاب فأضاف النوّاب اسم شنغافة إلى قائمة المراقبين.

كان حيّ العود مرتعاً للسحرة والمقرئين والمعالجين الشعبيين. وقد أسهم وجود أكبر مقابر الرويض فيه إلى إعطائه مهابة الصمت والموت. وعزّز تلك الأجواء السحريّة أن معظم ساكنيها من العبيد المحرّرين وأخلاط من الأجانب واليمنيين السود الذين تجوب نساؤهم أحياء الرويض، وقليل من البدو. أثارت سيّارة الأمير الفاخرة فضول أطفال الحارة. فتجمّعوا حولها. لأوّل مرّة تدخل سيّارة من هذا النوع الحيّ. شعر شنغافة بشيء من التباهي. نزل من السيارة ودون أن ينظر في الحشود الملتفة انتزع من جيبه الريالات القليلة وأخذ يوزّعها عليهم. كان الماحي قد سمع بوق السيارة فخرج واستقبل شنغافة. أخذ يشتم الشحّاذين

ويبعدهم عن الباب. ترك شنغافة السائق في السيّارة ودخل مع الماحي وبعد قليل خرج باللفافة المتفّق عليها. تحرّكت السيّارة بصعوبة حتّى أصبحت السكيك الضيّقة وراءها فانطلقت بأقصى سرعتها في طريقها إلى القصر.

* * *

وصلت السيّارة إلى قصر الأمير في وقت قياسي. بدا الأمير في أحسن حالاته. لا يبدو عليه القلق. نشط وحيويّ. فكر شنغافة أن يسأله عن أمّه لكنه تردّد. استنتج من حيويّة الأمير أن كلّ شيء على ما يرام. سعد بهذا الإحساس. كان يتمنّى من كلّ قلبه أن تعود الأميرة إلى قصرها وضيوفها المعوزين. عندما زارها ليلة البارحة في المستشفى شعر أنّها كانت تعبة تضع على وجهها ابتسامة صغيرة تخفي خلفها مرضها عن الناس. الإنسان الطيّب يعرف أنّه طيّب. كل من يسلّم عليها كانت تناديه بالاسم وتسأل عن صحّته وعن أحواله وتشدّ على يده قبل أن يرحل. لا تخطئ في أسماء حتّى أقلّ الناس قيمة. تتذكّر أسماء أبنائهم وزوجاتهم والمشكلات الصغيرة التي يعانونها. خرج تلك الليلة من المستشفى بخليط من الحزن والسعادة. دعا لها من قلبه. تردّد قبل أن يذهب إلى قصرها ويتفقّد المقطع. شعر بقليل من تأنيب الضمير. لكن دوافع الحياة أقوى من وخزات الضمير. وجد القصر خامداً يخلو من معظم سكّانه. تسلّل إلى غرفته. استقبلته روائح التخمير وأصوات فقاعات الخميرة. حمد الله على أن كل شيء يسير وفقاً لما خطط له.

طاف في بيت الأمير ووزّع أعلام فريق الشمس عند جميع الحمامات والمداخل والأبواب الخارجية. لن يتحرّك أحد دون أن يدعسها. كانت الصالة الكبرى قد خصّصت لنوم اللاعبين. وُضع فيها عدد كبير من الفرش والشراشف والمخدات، أما صالة الطعام فقد خصّصت لإيواء الإداريين والجهاز التدريبي وخصصت الملاحق الخارجية للفرّاشين والطبّاخين ومعهم شنغافة. يجب أن يبقى اللاعبون والجهاز التدريبي بعيداً من الآخرين أيّاً تكن صفتهم. سيغلق باب القصر الداخلي ولن يسمح لأحد بعد مغرب اليوم بالدخول أو الخروج حتّى وقت التحرّك إلى الملعب عصر يوم الجمعة. أخذ الأمير صرار الدنبوشي من شنغافة. قلبه بين يديه ثم شكره بابتسامة رضا واختفى. عندما شعر شنغافة أنه قام بواجبه خير قيام وتأكّد من رضا الأمير سحب نفسه وانسلّ من القصر. لا أحد يحتاج إليه بعد الآن ولن يلاحظ الأمير غيابه. عاد إلى النادي يحضّر لسهرة الليلة. كان قد وعد سعندي وفحيج والسويمي بتدبير الخمر. ستكون حفلة تحتشد فيها العواطف المتشوقة لجمع الشمل بعد انقطاع طويل. لم تجتمع الشلّة منذ حادثة طعن سعندي. ثلاثة أسابيع تقريباً. أصيبوا بحالة من الخوف والتردّد. صاروا يجتمعون في القهاوي أو في النادي. جلسات حشمة كما يسمّونها، خالية من الخمر والطرب. كانت الجريمتان مثار نقاش طويل لدى أهل الرويض كلها. بحثوا في جميع الاحتمالات. جاء مقتل سويلم ليحلّ اللغز بلغز أصعب منه. تأكّد للجميع أن قاتل سويلم والمعتدي على سعندي شخص واحد. إنسان جاء من خارج

الرويض. سعد سعندي عندما مالت التحليلات إلى أن المعتدي عليه كان يظنّه سويلم. حتّى ضابط الشرطة أيّد ذلك. تحرّر من الخوف الذي لازمه منذ عاد إليه وعيه.

عندما عاد شنغافة من السلام على الأميرة تلك الليلة إلى غرفة سعندي في المستشفى، كان عبده السوداني قد رحل وحلّ محلّه الفنان فتى الغزلان. التقت غالبية شلّة السويمي في غرفة المستشفى. سعندي وشنغافة وفحيج والسويمي وفتى الغزلان. بعد أحاديث تخللها كثير من المرح اتّفقوا بالإجماع على السهرة في اليوم التالي في بيت السويمي. أعلن شنغافة في نوبة كرم أنه سيحضر معه أفخر أنواع العرق ولحمة حاشي.

تسلّل شنغافة خارجاً من القصر واتّجه على الفور إلى سوق المحيفرة. مرّ أوّلاً على المقصب. كان قد أوصى زيد منذ صباح اليوم أن يرفع له ثلاث وزنات لحمة حاشي. بدا المقصب خالياً من الزبائن. شاهد عدداً قليلاً من القصّابين ينظّفون محالّهم ويجرون التجهيزات اللازمة ليوم غد. شقّ طريقه بين بقايا أوساخ الذبائح رافعاً ثوبه عن بقع المياه المتناثرة التي يدفعها عمّال البلدية بمكانسهم لغسل الأرضية. سلّم على أكثر من قصّاب. ومضى إلى دكان زيد. مدّ له زيد اللحمة وهو يقول:

- يا شنغافة اللي يبي لحمة الحاشي الطيّبة يجي الفجر ما يجي عقب العصر.

فقال شنغافة:

- يعني هذي لحمة مخيسة.

ضحك زيد ثم قال:

- وين السهرة اليوم.

فقال شنغافة وهو يغادر:

- لا ابد والله أبي أحطها في البيت في الثلاجة.

فقال زيد:

- تبي تقول لي ثلاث وزنات بتاكلها بالحالك. خايف تعزمنا جعلك البايلة.

ضحكا ثم أخذ شنغافة اللحمة وخرج من المقصب. مضى في منتصف الساحة الكبيرة التي تتوسّط سوق المحيفرة. في هذا الوقت، يكون بائعو الخضر قد أغلقوا محالّهم وصنادقهم. واختفت صرخات الصبية بائعي الماء ومعها نداءات اليمنية أصحاب عربات الملابس الداخلية وخفّت حركة السيّارات، واختفت أيضاً النساء البائعات. حاول شنغافة تحديد الموقع الذي كانت تجلس فيه معدية. ندت منه تنهيدة صغيرة. شاهد الأشرعة المتهرّئة التي تغطي بسطاتهن. لا يبقى في هذا الوقت سوى بائعي الأرزاق ومحال العطارة. تدخل سوق المحيفرة في هدوئها المسائي استعداداً للإغلاق الشامل الذي سيعلنه أذان المغرب. يشعره هذا الهدوء الذي يلفّ الأماكن المكتظّة بقرب النهاية. انطفاءات الشموس لا تريح القلب وانسحاب الناس من الحياة اليومية يقلقه كأنّما هو الانسحاب الأخير. خرج من ساحة سوق المحيفرة الكبرى واتّجه إلى سكّة دخنة وانعطف يميناً ودخل أحد الممرات. قبل أن يصل إلى سوق الحمام شمّ روائحها الكريهة. لفّ غترته

على وجهه. كانت الرائحة تغطّي مئات الأمتار من جميع الجهات وتدفعها أحياناً الرياح فتنقلها إلى أماكن أبعد. تصل إلى التجّار وأصحاب المحالّ الكبيرة. تصاحب تلك الرائحة أيضاً سمعة سيئة عن علاقة بائعي الحمام بالصبية الصغار والشاذين جنسياً. غُيّر مكان سوق الحمام أكثر من مرّة بناء على طلب أصحاب المحالّ. كل يدفعه بعيداً منه. في كلّ مرّة ينتقل السوق إلى مكان أبعد وأسوأ. في اللحظة التي دخل فيها شنغافة سوق الحمام جاء وجهه في وجه سحيمان الذي فزّ وهو يصيح:

- شنغافة ما شاء الله فكوك. الحمد الله على السلامة.

لم يراع سحيمان أبسط قواعد الذوق لأنه لا يعرف هذه القواعد أصلاً. رجل تجاوز الستين قضى معظم هذه السنوات بين الحمام وصنادقها. أغضبت الكلمة شنغافة. من الواضح أن قصة شنغافة وعيال ابن نقية قد أصبحت من أحاديث سوق الحمام. صراخ سحيمان سيلفت أنظار الجميع إليه. سيدفعهم الفضول إلى الاقتراب منه وسيضيف حكايات جديدة. يمتلئ سوق الحمام بكل البائسين من أهل الرويض. تسليتهم اليومية تبادل النميمة وتعميمها. من سوق الحمام تصدر الأخبار السيئة الملفّقة والصحيحة. تتخلّق الأخبار في أعالي السطوح عندما يجتمعون لتطيير الحمائم وتحويمها. يعرفون بعضهم من التحديق المستمر في السماء. حمائمهم تقرر علاقاتهم. هذا ولد الأدرع الذي يملكه فلان، وهذا الأصور الذي يملكه فلان الآخر. شعارات ملاك الحمام تملأ السماء. أحياناً تتلاحم أسراب الحمام المقلعة من

البيوت المتجاورة وأحياناً تضيع الحمامة في متاهات سطوع الشمس الصفراء الموشكة على المغيب وتضلّ طريقها. فتنتثر حكايات السماء والمساء. في سوق الحمام يبدأ الحكي. هذه الأحداث هي التي تجعل سوق الحمام يستمرّ مفتوحاً حتّى أذان العشاء. يستقبل تجّار الحمام وصيّادي الحمائم الضائعة وأصحابها الباحثين عنها. لا يستطيعون الانتظار حتّى صباح الغد. سيسارع إلى السوق كلّ من فقد واحدة من حمائمه. جلس شنغافة تحت صندقة سحيمان وبعد التحيّات العامة أبلغ شنغافة سحيمان بأمر القطيفي الضائع ثم رفع صوته وهدد كل من يجلبه للسوق أو يشتريه بأنه سوف يقصّ رقبته. سمع معظم شريطية الحمام التهديد وتدارسوا شكله وعائلته. بعضهم عرفه وبعضهم تعرف عليه الآن وتعهّدوا جميعاً التعامل مع الموضوع تعاملاً مسؤولاً. اشترى شنغافة حمامتين رخيصتين دون أن يخبر أحداً عن السبب ثم رجع إلى ساحة سوق المحيفرة الكبرى حاملاً في يده اليمنى لحمة الحاشي وفي اليسرى الحمامتين في شبك صغير. مضى من خلال سوق السدرة المسقوف، وقد خلا من تجّاره ثم قطع شارع المشمسي القديم واتّجه إلى مسجد الجامع الكبير. سار على الرصيف الصغير الذي يتراصّ عليه مصلحو الساعات. سلّم على أكثر من واحد. ثمّ عبر شارع المشمسي الجديد ومضى في طريقه إلى شارع السويلك. تذكّر أن يخزن اللحمة في ثلاجة مطعم الصومالية إلى ما بعد صلاة العشاء. عبيدو صاحب المطعم صديق ولن يمانع.

كلّ شيء أُعدّ حسب الاتّفاق. لم يبقَ سوى أن يتناول مطارة العرق. ترك أمرها إلى الليل. سيأخذها من مدفنها في مقبرة العجلية وهو في طريقه مباشرة إلى بيت السويمي. ستكون في حوزته أقلّ مسافة ممكنة. لا تذهب دروس الحياة هباء. سيذهب الآن إلى النادي ويريح ملائكته. بعد صلاة المغرب سينتظم اللاعبون في بيت الأمير وستلحق بهم الجماهير الفضولية. لن يجد من يزعجه. سينام حتّى الساعة التاسعة مساء. عندئذ سيرتدي ملابسه النظيفة ويتّجه دون إبطاء إلى بيت السويمي. جميع المؤشرات تؤكد أن سهرة الليلة ستكون من أجمل السهرات في حياة شنغافة.

* * *

لا يقع بيت السويمي في حلّة ابن بخيت بشكل مباشر إلاّ أن عنوانه الأساسي حلّة ابن بخيت. إذا خرج منه المرء فسيتّجه فوراً إلى طلعة المشمسي لا إلى شارع العطايف كما هي حال سكان حلّة ابن بخيت. يُعدّ بيت السويمي من البيوت الحديثة. بُني على الطراز الطيني الجديد. تنقسم بيوت الرويض إلى ثلاثة أو أربعة أقسام. الطراز القديم تمثّله بيوت مبنية من اللبن ومسقوفة بالأثل وأبوابها إمّا مصنوعة من جذوع النخل أو من خشب الصندل المستورد من الهند. تعرف هذه البيوت بعشوائيتها لأنها ترتص على سكيك ضيّقة أو سكيك سدّ. الطراز الثاني وهو الأحدث والأشرح ويمكن أن تعرفه من واجهاته. بابه دائماً مصنوع من الحديد ينتصب على جانبيه عمودان تمتدّ عليهما مظلة إسمنتية.

يحيط بالواجهة حزام من الجصّ الأبيض تتخلّلها نوافذ ارتفاعها متر وعرضها نصف متر مصنوعة من خشب السويدي. وأسفل البيت عادة مدعوم بأحجار تشكّل قوّة صادة لتدفّق السيول في أوقات المطر. أما الطراز الثالث وهو الأقلّ انتشاراً والأكثر تكلفة هو تلك البيوت المبنية بالإسمنت المسلّح. تتبيّنها من البلكونة البارزة التي لن تشاهد أحداً يقف فيها مهما طال انتظارك. في البداية أخذت هذه البيوت تزاحم البيوت القديمة في الأحياء القديمة ولكنها توقّفت عن النمو وانتقلت إلى الأحياء الجديدة كشمال المرابيع والمخزان والوشام وعويلشة. يكاد الطرازان الطينيان أن يتشابها في التفاصيل الداخلية. تفتح الباب على ممرّ يعرف عند أهل الرويض بالمجبب. يأخذك هذا المجبب إمّا إلى الروشن في الدور العلوي وهو المجلس الرئيسي أو إذا سرت قُدماً في الدور الأرضي فسوف تدخل ساحة واسعة مكشوفة على السماء تحيطها غرفتان أو ثلاث ومطبخ ومدخل الحوش. يغطي مداخل أبواب الغرف سقف. يعرف هذا المكان المسقوف بالمصباح. في أغلب الأحيان يستضيف السويمي الشلّة في الروشن. ولكن إذا غابت زوجته وعياله فتكون السهرة في الدوانية أو في إحدى الحجرات حيث تُتاح لهم العزلة. تكون فرصة لشنغافة أن يبرز قدراته على طبخ الكبسة. أما في ليالي الصيف فلا مفرّ من السهر في السطوح. من حظّ السويمي أنه يملك البيت. لا يستطيع أحد أن يزحزحه منه ويدعم ذلك أن جاريه من الجهتين قريبان له ولزوجته ويبعد عنه المسجد أكثر من أربعين متراً. صعبت هذه الأمور على النوّاب

كثيراً من إجراءات المراقبة والتحرّي، وسهل على السويمي إقامة السهرات. لا يستطيع النوّاب التنبؤ بمواعيد السهرات أو متابعة بداياتها. يتسلّل الضيوف واحداً بعد آخر بطريقة منتظمة.

مؤخّرة بيت ابن نقية تطلّ مباشرة على مقبرة العجلية التي تلتحم معها بشكل قوس خفيف. كأنّما المقبرة تحضن البيت من الخلف بصمتها المطبق. ومع ذلك لا يراعي السويمي هذا الصمت. لا يتردّد في إقامة أعتى السهرات وأكثرها صخباً. أما أقارب السويمي المجاورون له فيقلقهم هذا الصمت. يشعرون بحيويّته وحضوره فيردّدون لتخويف السويمي أنّهم يسمعون صراخ الموتى وضربات السياط على أجساد العصاة والكفّار. لكن السويمي لا يعيرهم التفاتاً. غير مهتمّ بردّ فعل الموتى على هذا الصخب ولا ما يحدث لهم تحت الأرض. وضع بيته وأهله في خدمة متعه المتواصلة مع أهل الدنيا. يتدخّل أحياناً المشغولون بالموت ليبدوا تذمّرهم على هذه الوقاحة. إذا جاء الحديث عن سهرات السويمي يتحمّس المؤذن حميد قائلاً: «هذا استهزاء والعياذ بالله». ويؤكد دائماً أن الموتى ينزعجون من الأغاني. لم يأت تحريم المزامير والمعازف من باب العبث. الموتى يريدون سماع توجيهات الملائكة وأسئلتهم لا دندنات عود فتى الغزلان ومرواس رفيقه الداشر. تشكل المقبرة فاصلاً قدرياً بين بيت السويمي وحلّة ابن بخيت. هذا الفراغ بين الحياة والموت فرصة لكلّ من يريد أن يحقّق الأرباح أو السلطة. السرّ يخفى على الناس العاديين ولكنه لا يخفى على المطاوعة والخارجين على القانون

على حد سواء. كل منهما يوظّف المقبرة لتحقيق مآربه. استفاد منها شنغافة في الظروف الصعبة. يدفن فيها غالونات العرق. مستودع سرمدي يحرسه الموتى مجّاناً، دون أن ينبسوا بكلمة واحدة عمّا يحرسون. يستغلّ شنغافة خوف الناس من المرور بجوار المقبرة من بعد صفرة المغرب حتّى أذان الفجر. تحذير المطاوعة كان واضحاً وصريحاً. فالموتى ليسوا بغافلين أو نائمين. يسمعون قرع النعال الخافتة. فالتزم أهل التوحيد من عوام الناس هذا التحذير ولكن السويمي وفطيس وشنغافة والمطاوعة استفادوا من هذا التحذير. كلٌّ استخدمها لأغراضه الدنيوية.

تجتمع شلّة السويمي بعد صلاة العشاء وأحياناً تتأخّر السهرة إلى الساعة التاسعة. لن تختلف سهرة الليلة عن السهرات الكثيرة السابقة. بعد ثلاث ساعات تتحوّل الهمسات إلى حديث وجدل ولكنها سرعان ما تتحول إلى صراخ وضحكات ولعنات. يصبح السكر سيّد الموقف. عندئذ تبلغ السهرة ذروتها، فيشعر سعندي بالخوف خاصة في الصيف عندما تكون السهرة في السطح الأعلى المطل مباشرة على المقبرة كما سيحدث هذه الليلة. بعد الكأس الرابعة أو الخامسة يكون سعندي قد دخل في المرحلة الأخيرة من قدرته على تحمّل الخمر، فيقوم ويطلّ على المقبرة دون سبب. يشاهد الصمت بقلبه ووجدانه فتخنقه العبرة ثم يجهش بالبكاء فيهبّ شنغافة مهدّئاً من روعه ويحاول أن يسحبه إلى الحياة. يكون السويمي في هذه اللحظة في قمّة نشوته. يرقص على النغمات التي يحبّها. فتزداد حالة الكرم التي يعيشها فيتناول كأساً ويملأها خمراً

ويقدّمها امتناناً وحبّاً وعرفاناً للفنان الكبير فتى الغزلان ثم يأخذ سيجارة ويشعلها ويضعها في فمه. لا يريده أن يسحب يده عن أوتار العود. على الفنّ أن يتواصل دون انقطاع. فتبدأ أغاني السويمي المفضلة بالتتابع واحدة بعد أخرى. حبّك سباني وأنا جسم نحل ويا أهل الهوى ما تروحموني وتتعوذوا من كلّ شيطان. يحثّ الفنان على مزيد من الفن. كلّما ازداد سكراً ازداد عدد الأغاني التي يحبّها حتّى تصبح جميع الأغاني في العالم جميلة، فيقفز من الأرض ويتّجه إلى المروس وينحني عليه وهو يردّد:

- أيه يبه عاشوا أهل حلّة ابن بخيت عاشوا أهل الرويض عاش واقف عاش مروس.

يضطرّ فتى الغزلان في كل مرّة إلى أن يقطع تواصل الأغنية ليردّد تبقى تبقى والسامعين. ولا ينسى السويمي أن يقدم التحيّة لأبو عبد العزيز المروس فيردّ أبو عبد العزيز ومن قال والسامعين، فتزداد ضربات يديه على المرواس فتأخذه نشوة الطرب والمديح فيزحف على مؤخّرته حتّى يصل إلى جوار فتى الغزلان ثم يبدأ بالرقص برقبته ويديه تجلدان المرواس بحنان عنيف فيدخل المغنّي في غيبوبة من الفن كأنّه في اللحظات الأخيرة من الجماع، ويقبض بغير وعي على الوتر السفلي بخنصره ويضغطه على حلق العود وبالريشة يضرب الوتر نفسه ضربات متواصلة فيختنق صوت الوتر. يصبح حاداً مسجوناً في نغمة واحدة. كل من يرقص في هذه اللحظة يتجمّد عند حركة واحدة ثم يستمر كأنّه سوف يستمر إلى الأبد ثم فجأة تتغيّر النغمة بتغيّر الوتر. الانتقال المفاجئ من

السيكا إلى القرار. فتصدح الأرواح الحية. فيحسّ سعندي أن شيئاً ما لا بدّ أصاب الموتى من جرعات الجمال الزائدة في هذا السطح الذي ألحم السماء بالقبور فتزداد حالته سوءاً، فيلاحظ فحيج أن شنغافة عجز عن سحب سعندي من سور السطح فيهبّ هو الآخر ويساعد في إعادة صديق طفولته القديم إلى الهدوء والامتثال للفن. يشعر السويمي بخبرته أن الاضطراب قادم لا محالة، فيضطرّ إلى أن يبقى مع الفنان وزميله. يبذل جهداً أكبر لتركيز الفنان على عوده وأبو عبد العزيز على مرواسه، ثم يضع كفيه متقابلتين ويركب أصابعه بعضها على بعض لتسمع فرقعات كأنّها ضربات إيقاع حادّ ثم يرفع صوته ويغنّي مع المطرب ويهزّ كتفيه وهو يقول أيوه يبه يا بعد عمري كهرباء وتهتزّ كتفاه هزّات سريعة متواصلة كأن تيّاراً كهربائياً مرر فيهما. جهود مضنية تدلّ على كياسة ورغبة عارمة ليواصل الفن تدفّقه. هذه الإثارة العامّة تزيد من دموع سعندي وتفقده حسّ التواصل حتّى تصل إلى حدّ شتم الدنيا ومن عليها بعد أن ييأس من استثارة الموتى. أخيراً يقفز السويمي من مجلسه ويتّجه إلى سعندي وهو يلعن ويسب سعندي واللي يعزمه ابن الكلب. تقع السهرة في حفرتها الأخيرة ويتوقف فتى الغزلان وهو يلعن أبو شنغافة. يحاول شنغافة إقناعه بأن من أحدث الضجّة هو سعندي وليس هو، وأن كلّ ما يفعله هو إعادة سعندي إلى الهدوء واحترام الطرب. ولكن فتى الغزلان يكون في هذا الوقت قد فقد حتّى القدرة على النطق والتعبير السليم عما تبقى من أفكاره وما ترك له السكر من أفكار لا تكفي للتفاهم مع

أحد. فيسبّ أبو جد شغافة فيضطرّ شنغافة إلى أن يضع حدّاً لشتائم الفنان الكبير ولكن دون جدوى، فيلتفت ويلتقط العود ويخبط به رأس الفنان فيتدخّل زميله المروس أبو عبد العزيز بصفته الأعقل. يحاول أن ينتزع العود من يد شنغافة فيظنّ شنغافة أن الأخير جاء لمساندة زميله فيخبطه على رأسه هو الآخر فيتناثر العود. لا يبقى من أسلحة الحفلة إلاّ المرواس. وهو عبارة عن أنبوب مخصّر من الوسط مصنوع من الصلصال الصلب مغطّى من إحدى جهتيه بجلد شفّاف. إحساس أبو عبد العزيز المروس بخطورة مرواسه فنياً وحربياً تخفف من ضغط العرق على وعيه، فيختطفه ويحضنه ويركض به إلى الدرج حتّى لا يستخدمه أي من أطراف النزاع فتكون النتائج وخيمة. فيركض وراءه شنغافة غير مدرك للقرار الحكيم ويحاول أن ينتزعه من يده. في تلك اللحظة يكون السويمي قد حمل مطارة العرق وهوى بها على شنغافة. يضطرّ شنغافة إلى أن يترك المروس يفر بمرواسه ويلتفت إلى السويمي ويتعارك معه ويتدحرجان على الدرج. بذلك تكون السهرة قد دخلت مرحلتها الأخيرة. تنطفئ الضجّة وتختفي آثار الفنّ من الأجواء ولا يبقى إلاّ السكون الذي يوحد الأجواء مع المقبرة. عندئذ يعود الهدوء إلى سعندي فينقاد لفحيج الذي يساعده على نزول الدرج. يتّجهان إلى الروشن فيشاهدان الفنان فتى الغزلان وزميله المروس وشنغافة والسويمي يغطّون في نوم عميق، فيسحب كلّ منهما مسندة ويضع رأسه عليها حتّى تدخل الشمس من نافذة الروشن المطلّة على الشرق دائماً. في الصباح،

بعد أن يكون كل من أعضاء السهرة قد ذهب إلى فراشه الحقيقي، تأتي زوجة السويمي فتجد مواعينها متناثرة واللحمة مقطّعة ومتبّلة في تبسي صغير والرزّ منقوعاً في الماء وبصلاً مفروماً وقطع طماطم في قاع القِدر المنصوبة على البوتغاز. فتعرف بخبرتها أن سهرة البارحة لم تنته على خير.

* * *

بعد تلك السهرة تضاءلت زيارات شنغافة لحلّة ابن بخيت. في عام كامل، لم يزرها سوى مرّتين أو ثلاث. في كلّ مرّة يعرّج على سكّة معدية يتفرّج على حال الدنيا فتذرف عيناه الدموع. حتّى عمال البلدية لا يولونها عناية بعد أن لاحظوا أنها مهجورة بلا رجعة. لم يسكن بيت معدية أحد منذ سنتين. تركته معدية للأشباح ثم لحقت الأشباح على بيت أبو دحيم بعد وفاته ورحيل عائلته. أصبحت البيوت الثلاثة المتجاورة في سكّة السدّ خالية من السكّان. صار الممرّ في البداية ملعب كرة للأطفال وبعد بضعة أشهر بات مكبّ نفايات فهجر البشر البيوت نهائياً. لم يحرص حميد مالك البيوت الثلاثة على تأجيرها. تسلّم فلوس التثمين من البلدية. في أي وقت سوف تبدأ البلدوزرات بهدم كلّ بيت يعترض مرور طريق الملك فهد العملاق. سمع أن البلدية وجّهت بضعة إنذارات لسكان بيوت مجاورة كثيرة. من الواضح أن حلّة ابن بخيت سوف تختفي من الوجود.

كلّما مر شنغافة وأطل على السكّة يقنعه المشهد أنه لن يرى معدية بعد الآن. لقد خرجت من حياته وأصبحت طيفاً يطارده.

الأمر الوحيد الذي لا يعرفه حتّى الآن هو هل أخذت أشياءها من المنزل أم تركتها. ولمّا كانت تركت معه سبعة آلاف ريال فمن المحتمل أن تكون أشياؤها لا تزال داخل البيت. يتذكّر صندوقها الحديدي المرصّع بالقمورة. في داخله أشياء تخصّه شخصياً. قبل رحيلها بأسبوع اشترت له بدلة سورية. كانت قد شاهدتها على ابن شويب. ثوب صوفي وكوت من القماش نفسه يختصّ بلبسها الشيوخ وعلية القوم والطامحون. فقرّرت أن يلبس شنغافة مثلها. ضحك شنغافة عندما عرضت عليه الفكرة. وسأل باستهتار متى ألبسها. فقالت بحزم سوف تصلّي بها العيد المقبل. سوف تخرج من حضني إلى المسجد. لن تأخذها معك إلى النادي أبداً ولن تدخل بها النادي أصلاً. سيكون صباحك يوم العيد في فراشي وحمّامك في حمّامي وسوف أشتري لك بخوراً، وقبل أن تخرج من هذا الباب ستقف ساعة على المدخنة. استلقى على ظهره من الضحك. لم تعبأ باستهتاره واستأنفت قائلة: لن تعود من المسجد إلاّ وفي فمك مسواك. ثم أخرجت مئة وعشرين ريالاً من تحت المخدّة وعدّتها على مرأى منه ثم دسّتها في فتحة صدرها والتقطت عباءتها ووضعتها على رأسها. عرف أنها في طريقها إلى تنفيذ المشروع. قال ليهدّئ من حماستها:

- خليها عليّ. بكره أمر على سوق الهدم وأشترى البدلة التي تعجبك. ما يصير تشترين أنت ما تعرفين مقاسي. بعدين مئة وعشرين ريال كثيرة يا المهبولة.

لم تردّ عليه. نهضت وخرجت من الغرفة وبعد ثوان سمع

باب السوق يُفتح ثم يُغلق. تركته يفكر في المستقبل الذي تريد أن تصنعه منه. إذاً ستكون العيد المقبل زوجته. بعد أربعة أشهر فقط. عجز خياله عن بناء الصورة التي تدور في رأسها. ترك الأمر لها. خيالها أفضل من خياله حتماً. نهض من الفراش يتمشّى في منزلها. شاهد أشياءها كأنّها كائنات حيّة تكاد تقفز أمامه كالحيوانات الأليفة، ملأى بالحيوية. كانت الأرض الإسمنتية نظيفة تلمع كأنّها مدهونة بالزيت برغم بعض التشقّقات التي سببها الزمن والدعك. بيتها نظيف لا تكاد ترى فيه ذبابة واحدة. تتطاير فيه روائح هي خليط من السدر والحناء والمشاط تقاطعها في بعض الأحيان رائحة هال وقهوة. بيت لا ينقصه سوى أن يتحوّل هو إلى زوج ليمضي في طريقه نحو الأطفال. فتح باب الثلاّجة الصغيرة المسندة في بطن البيت. أوّل مرّة يلاحظ أنّها متأكلة من تحت. أميركية الصنع وأسطوانية الشكل. عمرها لا يقلّ عن عشر سنوات. خمّن أن زوجها اشتراها مستعملة. قد يكون الراحل اشتراها من الحراج. وجد فيها بعض الخضار وشمّاماً وبطيخة مقسومة نصفين وعذق تمر. أحضر السكين وقطع من البطيخة وصلة صغيرة وانتزع من العذق ثلاث حبّات وأغلق الثلاجة فهبّ عليه الهواء البارد من داخلها مضمّخاً برائحة الفواكه والخضار فشعر بانتعاش الربيع في هذا الصيف الحارق.

حاول مرات عدّة أن يجمع آخر الصور التي بقيت في رأسه من أثاث معدية. أشياء كثيرة تتباعد. تحاول أن تغيب كما غابت صاحبتها. أربعة أشياء فقط تقاوم النسيان. تدقّ في دماغه كلّما

تذكّر الحبيبة الهاجرة. الكولة الخضراء في المطبخ ومساند الدوانية المصنوعة من الطرف والدوشق الكبير الذي تركه لها زوجها الراحل والصندوق الحديدي المرصّع بالقمورة الذهبية. مربع الأشياء الذي دارت حوله حياتاهما معاً على مدى سنتين متتاليتين. يأتي إليها أحياناً تعباً من بقايا سكرة ليلة البارحة. يسحب أقرب مسندة ويضع رأسه عليها وينام. في بيت معدية لا يبدأ النوم بالأحلام والهواجس. اكتشف بعد فوات الأوان أن بيت معدية كان هو نفسه حلماً. يغطس فيه كلّما ألمّت به آلام اليقظة التي لا تنتهي. يستحمّ في داخله. يشمّ الروائح التي تدور فيه كما يشمّ المؤمن عبير الجنّة. يختار أن ينام القيلولات في الدوانية. في بداية علاقتهما وتطوّراتها الأولى لم يجرؤ على النوم في دوشقها. فراش زوجها السابق. ينتابه الإحساس بالذنب. لا يريدها امرأة آثمة تخون زوجها على فراش الشرعية. بعد أن صدعا بالحبّ بدأ يحسّ بوجود الزوج بينهما. صار يضايقه. يظهر له في كلّ لحظة يكون فيها مستلقياً على الفراش الوثير. يشعر أنه يتفرّج عليهما أثناء المضاجعة. يحسّ به يقف على مدخل الباب خلفهما يشاهد مؤخّرته العارية وساقيها المرفوعتين والمطويتين على ظهره. يهزأ بهما كأنّه يضحك ويهدّد. إذا رفع رأسه عن عنقها رأى ظلّه على الجدار المقابل. ضايقه كثيراً. تمنّى أن يقتله وهو ميت. لم يخبر معدية بهواجسه فصار في معظم الأوقات ينام في الدوانية. لا يريد أن يضع رأسه على مخدّة الرجل الميت. حتماً هذا هو السبب الذي يدفعها إلى التفكير في ترك هذا البيت وشراء بيت في شارع

السويلك. شبح الرجل في كلّ مكان لكنّه لم يلاحظ عليها أيّ إحساس من هذا النوع. كانت تستمتع بالحبّ على الفراش أكثر من الدوانية. يكون نومها أعمق إذا ضمّها على الدوشق. يستيقظ في بعض الأحايين ويتفرّج على بهائها الأنثوي طريح الفراش. لا تظهر عليها آثار الكوابيس الآثمة. تنام فاتحة فمها قليلاً ويداها مضمومتان على صدرها، وفخذاها على بطنها في صورة نوم الأطفال القديسين الأتقياء. نومها الجميل هذا يخفف من قلقه. يعطيه كثيراً من الطمأنينة. كم امرأة تنام على فراش الوثائق الرسمية التي تصدرها الحكومة أو رجال الدين. نساء اشتراهن الرجال الأقوياء أو الأثرياء بدعوى الزواج. صكّ زواجهن هو صكّ ملكية الرجل لهنّ. هذه هي الحقيقة التي يستمتع بها الرجال وتتعذّب بها النساء دون أن يحسّ الطرفان بها. الحبّ وحده هو الشرعية التي تؤمن بها الأنثى الحرّة. لقد تزوجته معدية دون إذن من رجال الدين. لم تأخذ موافقة أحد على جسدها وقلبها. لا تريد أن تضيع ممتلكاتها التي ولدت معها. صدّها رجال الدين عندما طالبت بإرثها فقرّرت ألاّ تمنحهم بعد الآن سلطة على حقوقها الإلهية. جسدها وقلبها هما الشيئان اللذان جاءا معها من العدم. لم يساعدها أحد على اكتسابهما، فلماذا تسمح للآخرين بالتدخّل في ملكيّتها. لا ينسى أبداً تلك المرّة التي نامت على ذراعه فيها. تحوّلت إلى طفلة. حدّ صوتها. فقد ليونة الأنوثة وبحّتها. عاد سنوات كأنّ صاحبته لم تبلغ الحلم بعد. تضاءلت في يده. سقط الإحساس الجنسي بينهما، ففتحت باب الماضي على طفولتها

البعيدة كأنّها تهذي. هبّت نسائم الحزن المرّة، انقضّ والدها على والدتها وضربها حتّى فقدت وعيها. كان أعمامها الثلاثة وزوجاتهم يسمعون الضرب واستغاثة والدتها فيكتفون بالقول من وراء الجدار خاف ربك يا معدي هذي أمانة في يدك ستحاسب عليها يوم القيامة. بهذه الكلمات برّأوا ذممهم. سيحاسبه الربّ يوم القيامة. على والدتي أن تنتظر حتّى يوم القيامة لتأخذ حقّها وعلي أن أنتظر حتّى يوم القيامة لآخذ حقي من الإرث وعليك أن تنتظر حتّى يوم القيامة لتأخذ حقّك من الذين سرقوك وباعوك. فجع شنغافة من كثرة الحقوق المؤجل استحقاقها إلى يوم القيامة. خبطها على ظهرها. وعندما تمادت في الماضي وصارت تتحدّث عن البساتين والجبال والأحزان ضربها بكفه على عجيزتها ليوقظها من طفولتها على أنوثتها. شعر في تلك اللحظة أنّها حبيبته. ليس هنالك شريعة توقف هذا الحبّ الذي يجوب ظلمات شرايينه. لن يؤجل استحقاقات قلبه وحياته إلى يوم القيامة. دفعها فتداعت على ظهرها فانكشف له وجهها الجميل في صورة لم يسبق أن رآه فيها من قبل. ثم ألقى بصدره على صدرها، ورمى بثقل فخذه على حوضها ثم حشر شفتيه بين جيدها الأتلع وأذنها المدفونة في الشعر، فاختلطت في أنفه رائحة الحبّ المتدفّق من بشرتها مع رائحة الطرف المنبعثة من الشقوق الصغيرة التي تملأ المسندة. كانت لحظة فاصلة في حياته. صار الحبّ بالنسبة إليه شرعيّاً لا يحتاج إلى إذن من أحد. وجوده في تلك اللحظة على صدرها أكثر شرعيّة من وجود زوجها الراحل. اختارته بنفسها خياراً محضاً ولم

يدفع فلوساً لشرائها من أحد. نهض من فوقها وأنهضها بيده ثم حملها وركض بها إلى الدوشق وضاجعها. ألقى بزوجها في الموت الحقيقي وخلّص البيت من آثاره. كلّ زاوية في البيت صارت ملكهما وحدهما. لن يأسف بعد اليوم على زوج لم يترك لزوجته البائسة الغريبة سوى قليل من الحيوانات. صار يضاجعها في كلّ زاوية يتوقّع أن ذلك الزوج جلس فيها. يريد أن ينتقم منه بأكبر كمية من الحبّ. عليه أن يغرق البيت بالحبّ. لن تجد روح الزوج التعسة مكاناً تتنفّس فيه. تمادى في الحبّ حتّى قالت له ذات مرّة: «إذا استمرّت رغبتك فيّ هكذا وطواعتك عليها سيأتي اليوم الذي ألتصق فيك إلى الأبد وأصبح لطخة في صدرك كالبهاق». فقال وهو يضحك: «ولكنك مشعة يا حبيبة قلبي ستصبحين في صدري ألماسة كالقمر». استولى عليهما الحبّ وتشعّبت بهما العواطف. لم يبقَ سوى أن يخبرها أنه يسكر ويبيع الخمر أيضاً ويكون هو شنغافة بين يديها كاملاً. يعذّبه هذا السرّ الخبيث المستقوي بأطماع الدنيا. كلّ حلّة ابن بخيت يعرفون هذه الحقيقة إلاّ هي. سأل مرّة أبو عبد المحسن هل تخبر زوجتك بكلّ شيء. ضحك أبو عبد المحسن وقال: «أصير خبل مثلك». الرجال الذين بلا أسرار ليسوا رجالاً. اقتطع هذا الجواب شيئاً من عذاب ضميره. حكمة سيأخذها كما هي حتّى يتزوّجها بالأوراق الرسمية. صار الخمر فاصلاً مظلماً في حياتهما. واصل عزلها عن حياته خارج بيتها. حتّى في الهواجس الجنسية وهو مستلق على الفراش وحيداً. عندما يكون في النادي أو في إحدى سكراته

الصاخبة كان يفكر في النساء الأخريات. لقد أعطاه الله مؤخّرتين لامرأتين يصنع بهما ما يشاء في أحلام يقظته دون أن يمسّ معدية. مؤخّرات النساء لا قيمة لها إذا لم تصقلها تعليقات الرجال. سنة كاملة وهو يتفرّج على نوف من سطح ابن شويب. ثم أخذ يشاهدها بعد ذلك في سكة البازمي ثم أصبح يسمع بها وبتحوّلاتها. تسبّب له توتّراً محموماً كلّما تذكرها. تضخّمت في خياله. باتت هي المنافس الكبير لمؤخّرة صيته. داوم مدة أربع سنوات دون انقطاع على الجلوس لدى باب المسجد مع شباب حلّة ابن بخيت في انتظار أن تمرّ نوف مع أمّها. ولكنها بقيت بعيدة عن حبيبة قلبه معدية.

* * *

تناقصت الأرباح من بيع العرق حتّى تلاشت في النهاية. أعلنت الحكومة تشديد الرقابة على الكولونيا السامّة. ذاع في الأشهر الأخيرة أن عدداً كبيراً من سكان الرويض ماتوا من جرعات خمر سامّة. أجمع الناس على أن المصدر بعض أنواع الكولونيا التي يسمّيها المتعاطون الخرش. مات كثير من المخرشين في فرشهم. اكتشفت الشرطة ثلاث جثث متعفّنة في البر تحت شجرة وحولهم عدد من القوارير. تبيّن من التحليل أنّها سامّة. كانت تلك الحادثة إنذاراً وإثباتاً على كلّ الإشاعات. صادرت فرقة من الشرطة قوارير الخرش من المحال وشدّدت السلطات بعد ذلك قبضتها على المحال والأسواق العامة والحراج. ثمة قوارير تأتي عن طريق الجمارك بشكل رسمي وبعضها الآخر عن طريق التهريب. قبضوا

على أحد اليمنيين وهو يحرج على مجموعة من قوارير الخرش مهربة ويحرّض على السكر. يصيح بأعلى صوته (خرش ولا تطرش،، خرش ولا تطرش). تفاقمت مسألة التسمّم فكان للمطاوعة رأي آخر. ترك القوارير السامة إلى جانب القوارير الآمنة لتخويف المنحرفين وإذا لم يرتدعوا: (خلوهم يموتون جعل ما يبقى منهم احد) كما يردّد الشيخ سالم رئيس مركز نوّاب حلّة ابن بخيت. اعتبروا أن قرار الحكومة مؤامرة دبّرها بعض الموظفين لترويج الخمر وتسهيل دخوله وهما الخطوة الأولى لإجازة بيع الخمر بعد ذلك كما يفعلون في بلاد الكفّار. طالب عقلاء المطاوعة بهدوئهم المعهود منع الكولونيا كلّها وجميع أشكال العطور الأوروبية والاكتفاء بالعطور الهندية المتفقة مع شريعتنا السمحة. لكن الحكومة لم تصغ لهذا الاقتراح. كان شنغافة أحد أكبر المتضررين من القرار. انصرف الناس إلى شرب الخرش بعد أن تأكدوا أن النوع السامّ قد اختفى فانعكس هذا على حركة بيع العرق. رحّب شنغافة بفتوى عقلاء المطاوعة. لأوّل مرّة تتفق مصالح شنغافة مع الشريعة السمحة. لكن الحكومة لم تأخذ برأي أي من أطراف النزاع والمصلحة. واستمرّت في منع الكولونيا السامّة وأبقت على الآمنة. لا تستطيع الحكومة أن تمنع شيئاً يستخدمه كل الناس من أجل ردع قليل من المنحرفين كما صرّح بذلك المسؤولون. تعوّدت الناس استخدامها لتعطير الأيادي بعد الأكل. في كلّ المآدب والمناسبات تجد قوارير الخرش منتصبة على مغاسل المراحيض حتّى في حفلات زواج المطاوعة

ومناسباتهم. فوجد أصحاب الدخل المحدود فرصتهم في السكر الآمن وأعرضوا عن العرق. لم يكن شنغافة الوحيد الذي يبيع الخمر في الرويض. فكلّ يوم ينضمّ إليه عدد من اليمنيين الأمر الذي فاقم المنافسة وأثّر في الأسعار. تكلف قارورة الكولونيا ثلاثة ريالات في حين تكلّف مطارة العرق أكثر من خمسة عشر ريالاً. خفض شنغافة الأسعار مرات عدّة دون فائدة. حتّى أصبحت المخاطرة أكبر من إغراء الأرباح فتوقّف عن القطع. ذهب في إحدى الليالي وصفى مقطع الخمر الموجود في قصر الأميرة. وبرغم أسفه على نهاية الأرباح الكبيرة فقد شعر براحة كبيرة. مضى على هذا المقطع أكثر من سنة حقّق من ورائه أكثر من اثني عشر ألف ريال. أنقذته الأحداث من قلق كان يعانيه. أخيراً فرضت عليه الأقدار أن يتوقّف عن خيانة الأميرة. صار يدخل بيت الأميرة مرفوع الرأس. لم يعد ينتابه الشعور بالذنب. حاول في البداية تعويض جزء من الخسائر التي مُني بها بالعمل موزّع خمر لكبار القطّاعين اليمنيين مستفيداً من قائمة العملاء التي بناها على مدى سنوات، وأخيراً اقتنع أن توزيع الخمر لا يعود عليه إلاّ بسوء السمعة، فانقطع عن بيع الخمر وراح يشتري حاجته الشخصية من الخمر أو حق رأسه كما يقول. الشيء الوحيد الذي حافظ عليه من عادات الماضي إصراره على شرب العرق وعدم الانحدار إلى شرب الخرش. جلس في إحدى الليالي يدقّق النظر في الحسابات. اثنا عشر ألف ريال ربح صافٍ من مبيع العرق وسبعة آلاف وديعة معدية وثلاثة آلاف مودعة لدى الشيخ أبو عبد المحسن

كانت حصيلة الصدقات والشرهات وراتب النادي وقليل من مبيعات العرق السابقة. في حوزته في النادي تسعة عشر ألف ريال. مبلغ ضخم. لا يمكن إبقاء هذا المبلغ معه في النادي. سيقع عليه أحدهم في يوم من الأيام. النادي صغير وغير آمن. أفضل حلّ هو أن يودعه عند الشيخ أبو عبد المحسن مع الثلاثة آلاف السابقة. ولكن كيف يبرر حصوله على هذا المبلغ الكبير. مبلغ كهذا يحتاج إلى قصّة مقنعة. تذكّر القصص التي سمعها عن الكنوز المدفونة في الأرض. استولت عليه الفكرة بعض الوقت. سيدفنها في مكان آمن حتّى يأتي اليوم الذي يستطيع تصريفها فيه، لكنه صرف النظر حين تذكّر أن الرويض تحوّلت إلى ورشة عمل. التراكتورات تعيث في أرض الرويض تقليباً وهدماً. لن يجد مكاناً قريباً يمكن أن يدفن فيه كنزه. خبأها موقّتاً في قبو النادي تحت مجموعة كبيرة من الأثاث القديم المتراكم. اختار لها صندوقاً حديدياً للأواني لا يعرف لماذا وجد في النادي. أعاد ترميمه وثبّته في الجدار ووضع في داخله الفلوس وأغلقه بإحكام ثم راكم عليه قطعاً من الأثاث الثقيلة والمهملة بما فيها دَبّاب عباس الخرب. أفضل مكان حتّى تحلّ أيّة مفاجأة. أصبحت الفلوس أزمة تطارده. تقلقه كثيراً فلوس معدية. هل هذه الفلوس أمانة سوف تأتي يوماً وتستردّها أم أنّها أضحت ملكه بعد أن رحلت صاحبتها من حياته إلى الأبد. ربّما ماتت. يضطرب عندما يدهمه هذا الشعور. هل خطفت وكسر ظهرها ورميت في قليب؟ اختفت كأنّها ما وُجدت البتة. لم تتحدّث عن الرحيل ولا عن الانتحار. لم تتحدّث عن

أي شيء يدلّ على أنّها سوف تتركه. اشترت له البدلة مدفوعةً بطموحات حبّ بلا حدود. كانت البدلة جميلة. احتاج الثوب إلى تطويل فقط. فكّت خبانته ومشت على أطرافه السفلى بالماكينة فأصبح على مقاسه. كانت قد ابتاعت له أيضاً بشتاً مصنوعاً من الوبر السميك الناعم ونعالاً زبيرية. سمحت له أن يجرب البدلة والبشت في الوقت نفسه. شاهدته في الصورة التي سيكون عليها يوم العيد. فرحت. بدا جميلاً بقامته الطويلة وجسده العريض. سمحت له أن يتجوّل بالبدلة والبشت والحذاء قليلاً ثم خلعتها عنه وطوتها على مجموعة من حبّات السفنيك الأبيض ووضعتها في الصندوق المرصّع بالقمورة الذهبية. واتّفقت معه أن يأخذ البشت قبل العيد بيوم ليرفعه عند الرتّا. بعد أسبوع واحد من يوم الآمال ذاك اختفت. لا يمكن أن يكون السبب أنه زارها وهو سكران. كانت تحبّه بجنون. قطعت له وعداً أن تشيخ وتموت في حضنه. كانت تنظر إليه كطفل كبير. يزورها أحياناً بثياب رثّة وغترته ملقاة على كتفه كالعربجية وقدماه مغبرّتان فتأخذه إلى الحمّام تحممه ثم تقلم أظفار رجليه وتدهنها بالفازلين الأخضر. أحياناً تجازف وتعطّره فيضطر إلى أن يبقى عندها ساعات حتّى لا يشمّ أحد فيه رائحة عطر عند خروجه من بيتها. أقامت له استقراراً عائلياً خفياً. تحدّث مع الشيخ أبو عبد المحسن عن الزواج دون أن يخبره بالعروس. فرح أبو عبد المحسن وعبّر صادقاً عن دعمه المطلق. كل شيء كان في طريقه الصحيح. لم يبق سوى أن يعلن حبه للناس عبر وثيقة زواج يأخذها من الحكومة ويصادق عليها

المطاوعة. كلّ حركة وكلّ تصرّف وكلّ كلمة قالتها تدلّ على أنها كانت تحبّه. فجأة انهار كل شيء كأنّه لم يحدث. حلم تمّ الاستيقاظ منه. اللّهم اجعله خيراً. مسحت وجودها من وجوده كما تمسح اليقظة المفاجئة الأحلام. اكتشف أنها هجرته بطريقة تخلو من المفاجآت. لا يشاركهما أحد في حياة الحبّ التي يمرّان بها. كان قد أخفى هذا الحبّ عن كلّ الناس. حتّى هذه اللحظة لا أحد يعرف عن علاقته بمعدية. لكن كيف اختفت وأين ذهبت. لا أهل ولا أقارب ولا تعرف حتّى طريق العودة إلى ديارها البعيدة. عندما جاءت إلى الرويض كان عمرها سبع عشرة سنة. طفلة غريرة باعها والدها بتراب الفلوس كما كانت تقول. لم يتوقّع البتة أن يأتي يوم ولا يجدها في البيت.

مرّ بها في صباح يوم عادي. كان يظنّ أنّها تنتظره لدى الباب غاضبة وستشتمه وتقتصّ منه. جاء إليها في ذلك اليوم مذعناً. يريد أن يكفر عن زيارته لها وهو سكران في آخر الليل. شيء لم يفعله البتة. يكاد يصاب بالجنون حين يتذكّر أنّه أخلّ بوعود قطعها على نفسه. تعهّد أن تكون معدية طهره الذي لا يمسّ. كيف فعل هذا. كان قراره الحاسم أن تبقى معدية بعيدة عن حياته الخاطئة إلى أن يفرجها الله. ولكن لابد من الأخطاء. لولا الأخطاء لما عرف البشر شيئاً اسمه التسامح. ظنّ أن المسألة سوف تنتهي كما انتهت مشكلات كثيرة قبلها. قدر الأنوثة التسامح. ستكون أيضاً فرصة لها لتعبّر عن سلطتها الأنثوية عليه. سيظهر لها الضعف والانهزام حتّى تتمادى في لومه وتستريح. ظنّ أنّها سوف تبتزّه لتضمن

أسبوعاً كاملاً من الدلال في حضنه. قرع الباب فلم يجبه أحد. انتظر قليلاً وقرعه مرّة أخرى. طرأ على باله أن يذهب إلى سوق النساء ويسأل عنها ولكنه عدل عن الفكرة وعاد إلى النادي. ترك التفكير فيها. وجد أنّه من الأفضل أن يتأخّر يومين أو ثلاثة حتّى تهدأ مشاعرها المتأجّجة ضدّه. يترك الأمر فترة من الوقت لتسود الطبيعة الأنثوية المتسامحة في قلبها. على أن تتحوّل الحادثة إلى وقود لمزيد من شعلات الحبّ الملتهبة، مزيد من الحبّ لا قطيعة. عندما عاد بعد بضعة أيّام كان في أبهى ملابسه. قرع الباب مرّات عدّة. تلفت يميناً وشمالاً فلم يجد من يسأله، لم يعد لمعدية جيران ملاصقون يمكن أن يسألهم. أبو دحيم مات فحزمت عائلته عفشها وذهبت إلى مكان غير معلوم. من الصعب سؤال أي من العائلات في السكّة الرئيسية التي يطل عليها البيت. لا يتذكّر أنّها تحدّثت عنهم ولا يتذكّر هو أنّه دخل أو خرج من ذلك الباب. معظم جيرانها من تلك الجهة من أقارب زوجها الراحل. ثلاثة أيام لم يسمع بغيابها سواه. ذهب إلى سوق النساء في سوق المحيفرة يبحث عنها بين البائعات دون جدوى. ذهب إلى مستودع باسويف ولم يلاحظ وجود أيّة امرأة. عاد في المساء فطرق بابها مرّات وعندما لم يجبه أحد بدأ يساوره القلق. فانطلق إلى بيت الشيخ حسن فأبلغته زوجة الشيخ بأن معدية اختفت قبل أكثر من ثلاثة أيام، وأن الشيخ أبلغ رجال الشرطة وبحثوا عنها في كلّ مكان دون جدوى. الشيخ حسن أقرب الناس إليها بعد شنغافة، يعطف عليها ويتصدّق عليها. إذا كانت عائلة الشيخ لا تعرف عنها شيئاً فقد

اختفت من سطح الأرض. جريمته لم تكن كبيرة. فقط زارها وهو سكران. كثير من الرجال في الرويض يسكرون، حتّى أبناء العائلات الكبيرة. يستطيع أن يضع قائمة بأسمائهم وأسماء عائلاتهم. سيفجع المجتمع لو أعلنها. لماذا تريده حبيبته استثناءً. إذا كانت تصرّفت بعقلها فلن تكون الخمر هي السبب في رحيلها. يجب أن يدفعها الحبّ إلى التسامح والغفران لا إلى الهجران. لا بدّ أن هناك سبباً آخر دفعها إلى الرحيل. لا يتذكّر تماماً ما بدر منه تلك الليلة. لكنه على يقين أن ما حدث لم يكن شجاراً بالأيدي. لم يضربها ولم تضربه. كانت الساعة الثانية فجراً. يتذكّر أنّها فتحت الباب فاندفع دون أن يستأذنها إلى بطن البيت واستلقى على الأرض العارية. كان في منتهى السكر لا يرى العالم من حوله. عندما يركّز تفكيره يتذكّر أنّها كانت تشتم وتلعن وتصبّ عليه ماء بارداً. وعندما أفاق من النوم وجد نفسه في قبو النادي. أقرب الظنّ أنّها لم تسمح له بالبقاء عندها تلك الليلة. طردته. يحاول أن يتذكّر ما دار بينهما. جميع الأحداث مُسحت من ذاكرته كما مُسحت هي من حياته. اختفت فجأة. قضت عليه معدية. أخذته إلى قليل من الدنيا ثم أخرجته وأغلقت الباب في وجهه.

* * *

وقف قبالة المرآة يبتسم. عندما ماتت حسينة لم يبك فراقها. بكي خزيه حين فكر في تركها للمصري كي يدبّر أمر دفنها. نظر في عينيه، فشاهد فيهما احمراراً طفيفاً كأنّهما استعصتا على سطوة البكاء. شعر أن في قلبه حزناً لا تعالجه الدموع. أحزانه ليست من

أحزان البشر. يحزن بعيداً عن العالم. يحزن في مكان يخصّه وحده. يشاهد في حزنه كلّ شيء يذكّره بالناس الذين يحبّهم ويعطف عليهم وينتظرهم ولا يعودون أبداً. عليه الآن أن يرتكب أحد مخازيه حتّى تسقط هذه الدموع المتحجّرة من عينيه ويستريح كما فعل مع حسينة. دموعه لا تمطر بالحزن، دموعه يستمطرها الخزي. دموع الرجال الذين ينهضون من السحق. الرجال الذين تكسّرت في داخلهم دواعي البكاء اليومية. كانت معدية أكثر ذكاء من حسينة. أغرقته في حبّ لا يسمح بارتكاب المعاصي. لا يوفّر فرصة للخزي الذي يستمطر الدموع. إذاً ستبقى هذه الدموع متحجّرة في عينيه إلى أن يأتي يوم موته. عندئذ سيهبها لمن يريد أن يبكي عليه. في ذلك اليوم الذي سيأتي قريباً، سيقف شنغافة معصوب العينين استعداداً لدقّ عنقه. ستختنق الدموع في عينيه ويموت بها. لن يرى أهل الرويض الذين سيبكون عليه. لم يتخيّل أن معدية حبيبته ستكون قاتلته. أخيراً وجد ذلك الحبّ المقدّس من يهزمه.

يوم غد سيحلّ العيد الثالث على مرور عيد معدية الذي تقرّر أن يلبس فيه شنغافة البدلة والبشت والنعال الزبيرية، ولكن القدر لم يسمح له بذلك. استلقى في قبو النادي وتخيّل نفسه عائداً من مسجد العيد، وفي فمه مسواك. أخذ يقلّب الأمر فقرّر أن يضحك كما ضحك في ذلك اليوم الذي اقترحت عليه معدية أن يكون شيخاً. قرّر أن يهزأ من نفسه، إنّها ذكرى تستحقّ سكرة في النهار. ذهب إلى دكان اليماني واشترى ربع قالب ثلج وعاد إلى النادي

وأخرج مطارة العرق. سحب مسجّل الأكاي من تحت سطح طاولة التنس المسندة إلى الحائط. دفع بثلاث كؤوس عرق في جوفه في أقل من عشرين دقيقة. بدأت عيناه تدوران مع حركة الجدران التي حرّكها الكحول في رأسه. سمع للجدران هديراً يكاد يُخرج القبو من صمته. استدنى المخدّة وثناها وأسند مرفقه إليها. صار يشعل السيجارة بعقب السيجارة. حاول أن يتذكّر الشريط المركّب على المسجل دون جدوى. أوصل السلك في الكهرباء على الفور. سمع أغنية أم كلثوم. (عزت جمالك فين من غير ذليل يهواك وتجيب خضوعي منين ولوعتي في هواك.) فرفع صوت المسجّل إلى أقصاه. أخذ يدخل مع أم كلثوم في سباق على ترنيم الكلمات. يغني قبلها ويلحقها بصوته ويدمج حزنه بحزنها. من أين يأتي جمال الموسيقى ومن يشحنها بهذه العذابات. يغنّي الكلمات بألحانه الخاصّة ويتأوّه بالآهات التي تطارد الموسيقى وتريق عليها نغمة الفراق. العيد سيحلّ غداً. سيكون وحيداً. العيد الثالث بلا معدية. تُرى إلى أيّ أرض قذفت بها الأقدار وكيف حالك يا قلبها الذي أحبّني وهجرني. وكيف تضخّ الدم في ذلك الجسد الصغير الذي كان سينتهي لطخة من الألماس المشعّ على صدري. قفز يبحث عن أغانٍ أخرى لأم كلثوم. فتح علبة كرتون صغيرة يجمع فيها الأشرطة والأسطوانات. طلال مدّاح وصليح الفرج وأبو سعود الحمادي وسالم الحويل. صار يترنّم متذكراً أغنية فريد الأطرش: (وحداني حعيش كده وحداني وأقول يا غرام أبد تاني). بحث عبثاً عن أسطوانتها. أخذ يشتم ويلعن اللاعبين الذين يسطون على

أسطواناته بدون إذنه. ثم بدأ يترنّم بأغنية أبو سعود الحمادي (يا بشر كل الخطر من صدود ذاك الجميل غاب عني كم شهر...) ثم أعرض عنها وقرّر أن يبحث عن أغنية لم يسعفه السكر على تذكرها. حاول جهده أن يتذكر كلمة واحدة فراح يقلّب بسرعة في كومة الأسطوانات لعلّه يتذكّرها. مرّ على عشرات الأغاني وأسماء المطربين (طلال مداح، صليح الفرج، فوزي محسون، عبد الله محمّد) وأخيراً وقع على أغنية الألفية لسالم الحويل قبضها في يديه وراح يتفرّج على الخيوط الشفّافة المرسومة عليها ولونها البرتقالي المفرح. فأخذ يغنيها (ألفين أولف من كلام نظيفي ودموعي عين على الخدودي تسيحي يا لايمي في حبّ ذاك الوليفي دقاق رمش العين سيد الخواندات...) ثم تركها من يده وسكت وأخذ يصفر. سحب أسطوانة صليح الفرج: ووضعها على البكم: وراح يغنّي معها (مسكين أبو سامي يبغا يموت أسعاف يا أهل الهوى قولوا نعم. عقب الكدالك وتشكيل الفروت معد جيت السوق قمت امشى قدم.) أطفأ السيجارة واستلقى على ظهره ورمى بذراعه على عينيه حتّى يتفادى النور الساقط من النافذة.

أوصله السكر إلى القرار الأخير. سيصلي غداً في مسجد العيد مع الناس. سيحقّق أمنية معدية بدون معدية. سيرتدي أفضل ملابسه وسيذهب للسلام على كل الناس الذين يودّهم. سيبدأ بأبو عبد المحسن. الرجل الذي عطف عليه، يستحقّ أن يكون الأوّل ثم سيذهب إلى الأميرة يسلّم عليها ويقبّل رأسها، وسيسلم على مرزوق الفهد ويقبّل رأس هذا العجوز الطيّب. ويذهب بعد ذلك

إلى بيت عمّته الأميرة ويسلّم عليها هي أيضاً. ثم سيذهب إلى بيت الأمير ويسلّم عليه. وسيعرج على السويمي ليلتقي سعندي وفحيج وبقية الشلة كما يفعل كل عام. نهض مترنّحاً وأخذ يفتش عن ملابس تصلح للعيد. فتّش في دولاب الملابس الرياضية وأطقم النادي التي يستخدمها لتعليق ملابسه النظيفة. لم يجد فيها ما يليق. نسي أن يشتري ملابس جديدة. لديه ثوب واحد يصلح لزيارة العيال ولكنه لا يليق بالأميرات. كانت الساعة السادسة. يمكنه الآن أن يذهب إلى سوق الهدم ويشتري ثوباً. كان قد شرب نصف المطارة. المطارة الواحدة تكفي لسكرة أربعة شباب أشداء. نهض من الفراش وبصعوبة تحرّك حتّى سقط على طاولة التنس وتداعى معها على الدبّاب. احتاج إلى ساعة حتّى يخلّص نفسه من كومة قطع الأثاث القديم التي سقطت عليه. لم ينتبه إلى ثوبه الذي تمزّق. خرج من النادي حاسر الرأس حافياً. سار منحدراً مع شارع السويلك. لم ينتبه للناس الذين يتفرّجون على مشيته المترنّحة. سمع من يقول له: «ارجع يا شنغافة إلى البيت. عيب عليك تمشي حافي في وسط الشارع. تراك سكران الله يهديك». مضى في طريقه غير شاعر بالآخرين. غداً العيد ويجب أن يكون لديه بدلة يلبسها ليصلّي العيد ثم يذهب للسلام على المسلمين. سيكون غداً يومه الأوّل الذي سينتقل فيه إلى العالم الذي حلمت به معدية. عبر شارع المشمسي الجديد. وصل أخيراً إلى سوق الحساوية. كانت السوق خالية من التجّار والباعة. الناس في إجازة. شاهد من بعيد عبد الهواشم يقف بجانب عربته وحماره.

رفع يده وسلّم عليه. وقبل أن يخرج من سوق الحساوية لحق به عبد الهواشم وهو يناديه. توقّف وسلّم عليه. ضحك عبد الهواشم وقال: «سكران في النهار يا شنغافة؟» فقال شنغافة بلسان تعتعه السكر: «سأشتري بدلة العيد». حاول عبد الهواشم إقناعه بأنّ كلّ المحال في سوق الهدم مغلقة. غداً العيد. لا يعمل أحد هذا اليوم. لم يقتنع شنغافة فترك عبد الهواشم ومضى في طريقه. اضطرّ عبد الهواشم إلى أن يسحب حماره ويسير وراءه. أقنعه عبد الهواشم أخيراً أن يركب معه. خرجا من سوق الحساوية ودخلا شارع السدرة وانحرف عبد الهواشم بحماره ناحية شارع العطايف في طريقه إلى شارع المخزان ثم شارع السويلك. قرّر أن يأخذه إلى النادي بطريق ملتوية حتّى لا يحسّ بذلك. ولكن شنغافة أدرك الخديعة بعد أن لمعت في ذهنه الفكرة الجهنمية التي ستودي بحياته. عندما أصبحا في منتصف شارع العطايف طلب شنغافة من عبد الهواشم أن يدخل سكّة ابن فيصل. ألحّ عليه وأخيراً وافق عبد الهواشم ولكنه بذل كلّ الرجاءات والاستعطافات الممكنة لكي يسمح له بأخذه إلى النادي على أن يؤجّل أيّ مشروع في ذهنه إلى أن يفيق. لم يكن شنغافة يتبيّن حدود سكره فأصرّ. في كلّ مرّة يحاول عبد الهواشم أن يستدير بالحمار إستدارة أخرى إلى شارع العطايف، يهدّد شنغافة بالقفز من العربة، فيضطرّ عبد الهواشم إلى أن يذعن لأوامره. طوال الطريق وهو يترجّاه دون جدوى. لم يستطع عبد الهواشم أن يعرف هدف شنغافة ولكنه عرف أن وجهته حلّة ابن بخيت. دخل مع سكّة ابن فيصل وبعد دقائق أصبحا في

سكّة البازمي. كان هناك مجموعة من الأطفال يلبسون ملابس زاهية وعلى رؤوسهم طاقيات زري. تجمّعوا حول شنغافة يطلبون منه العيديّة. ضحك عبد الهواشم من المنظر. كان شنغافة حاسر الرأس حافياً بثوب ممزّق. نَهَر شنغافة الأطفال ودخل السكّة الضيّقة التي يقف عليها باب حوش معدية. اقترب عبد الهواشم من مدخل السكّة فشاهد شنغافة يحاول أن يخلع الباب. نزل من العربة وركض إليه. في الوقت الذي وصل عبد الهواشم كان الباب قد انخلع فاختفى شنغافة داخل البيت فدخل عبد الهواشم وراءه. شاهد الرجلان مجموعة من الهياكل العظمية لحيوانات متنوّعة بينها عشرات الدجاجات الجافة. حاول عبد الهواشم أن يسحب شنغافة إلى خارج البيت. ولكن شنغافة ضربه على وجهه ثم رفسه. كان الأطفال قد تجمّعوا لدى الباب يتفرّجون على ما يجري. بلغ أخيراً شنغافة بطن البيت واتّجه دون إبطاء إلى حجرة النوم. شاهد دوشق الحبّ وقد أكلته العثّة وتبعثر ما في بطنه من قطن، وقد غطّت العناكب بخيوطها السحّارة المرصّعة بالقمورة الذهبية. مسك مقبض الصندوق الجانبي وجرّه من حجرة الحبّ المهجورة إلى بطن البيت ثم أسرع إلى المطبخ وبعثر السكاكين وأخرج سكيناً كبيراً وعاد إلى الصندوق يعالج قفله الصدئ. غرس السكين في قوس القفل وحرّكه بعنف فانخلع على الفور. فتح صندوق الأحلام القديمة. شاهد البشت الوبر والبدلة الزرقاء والنعال الزبيرية وكومة من الملابس النسائية. لمح بينها سروال معدية المقلّم بالأسود. أول سروال انخلع عن عورة امرأة طوعاً لجاذبيته وحبّه.

فرد البشت ولفّ السروال والبدلة والنعال في داخله. تحسّس الملابس النسائية المتكوّمة في الصندوق فشاهد على عجل بعض الشلحات والصديريات والجرابات الشتوية فحرّكت في دماغه المخمور شريط ذكريات عذابه. ضرب الأرض بقدمه والتفت إلى الدوانية وقبل أن يتحرّك نحوها كما حدّثته نفسه، سمع أصوات رجال في الخارج. ترك كلّ شيء واتّجه إلى الحوش. وقبل أن يصل إلى الباب الخارجي سمع أصوات رجال تتنادى وتصدر الأوامر والتعليمات. كان الأطفال قد تفرّقوا في جميع الأنحاء يبلغون عمّا يجري في بيت معدية القديم. وصل أوّلاً ابن وصّار ثم لحقه المؤذّن حميد. بعد قليل كان النوّاب يحيطون بالبيت من كلّ جانب. كان على رأسهم الشيخ سالم. قبضوا عليه بالجرم المشهود. كبّلوه وقذفوا به في الجيب. شاهد عبد الهواشم في مرتبة الجيب الخلفية يبكي ويترجّى وهو يردّد: «قل لهم يا شنغافة إني بريء قل لهم يا شنغافة إني بريء».

التفت إليه الشيخ سالم وعلى محياه ابتسامة ظفر نهائية وقال:

- سكران وجاي تسرق يا شنغافة الله يهديك بس. أنت ما تدري أن باكر عيد.

أمضى أيّام العيد الثلاثة في المنطقة الخامسة. وفي اليوم الرابع سجلوا عليه اعترافه في المحكمة. طلب منه الشيخ أن يشرح الأسباب التي دعته إلى السطو على بيت معدية المهجور ولكنه صمت. أجاب عن كل الأسئلة وبرأ عبد الهواشم وضحك مع تعليقات المطاوعة الذين أخذوا يتندرون عليه أمام القاضي، ولكنه

رفض الإفصاح عن سبب سرقته للبشت والبدلة والسروال والنعال الزبيرية دون أي شيء آخر. لو أمضى عمره كلّه يشرح الأسباب لما فهمه أحد. يحتاج إلى إعادة ترتيب العالم بأسره حتّى يستطيع أن يقنع الشيخ بعدالة جريمته. اعترف بالسكر وبالسرقة وبالاقتحام والسطو والسحر وأضاف إليها القاضي جرائم السكر السابقة التي تمزّقت بسببها مؤخّرته. نقل من المحكمة إلى سجن الصمك وأودع حجرة صغيرة مقيّد اليدين وقد أُوثقت قدماه بسلسلة قصيرة تنتهي بكرة حديدية. تعرّف على زميله في الحجرة. رجل في الأربعين من العمر أمضى في هذه الغرفة اثنتي عشرة سنة في انتظار أن يبلغ القصر من أبناء ضحيّته ويقرّرون مصيره إمّا النجاة وإمّا القصاص. لأوّل مرّة يدخل شنغافة في سجن الصمك الطيني الكبير. يبدو أن الأمر هذه المرّة مختلف. أوقفوه مع قاتل محكوم. لم يخبره أحد بمصيره. نقله المطاوعة من مركزهم الذي سيغلق أيام العيد وسلّموه إلى المنطقة الخامسة. كانوا قد أخذوه من موقع الجريمة إلى مستشفى المشمسي لتحليل الدم وإثبات جريمة السكر ثم اقتادوه إلى مركزهم قبل أن يفيق من السكر. وبروح أخوية حقّقوا معه فوقّع اعترافاته على كلّ الجرائم التي اقترحوها عليه بعد أن وعدوه ببذل أقصى جهد لمساعدته. بعد انتهاء التحقيق والتوقيع على نتائجه، شاهد شنغافة الشيخ سالم في أحسن حالاته. يتذكّر شنغافة أن الشيخ سالم قد ركّز على علاقته بالماحي إذ اعترف شنغافة أنه يتقاضى جزءاً من دخل الماحي من عمل السحر. حاول شنغافة أن يثبت للشيخ سالم أن الماحي كان

يضحك على الناس وأن كل المواد التي يستخدمها في سحره لا علاقة لها بالجنّ أو الشياطين. وأخبره بأنّهما كانا يخترعان المواد السحرية في الحمّام ويخلطان أوراق الإسمنت والشعر والمغراب بطريقة عشوائية مضحكة. كان شنغافة يقول هذا وهو يضحك بطريقة مسرحية، والشيخ سالم كان يضحك ويشجّع شنغافة على المزيد من القول والاعتراف. كان الشيخ يختصر أقوال شنغافة ويمليها على كاتب التحقيق. أهمل الشيخ سالم التفاصيل المرحة وسجّل إقرار شنغافة بأنه يتعاون مع الساحر في صنع السحر وترويجه والتكسّب منه ثم قدّم المحضر لشنغافة وطلب منه أن يوقّعه دون أن يقرأه عليه. بعد توقيع شنغافة وقع عليه أربعة شهود من النوّاب بينهم مطوّع شاب تذكر شنغافة أنه المطوّع نفسه الذي ساعد على جلده في آخر مرّة جلد في ساحة الصويفة. بعد الانتهاء من التحقيق الذي لم يستغرق أكثر من ساعة نهض الشيخ سالم ودون أن يتلفت إلى شنغافة، أمر بنقل العبد إلى المنطقة الخامسة ريثما يحين موعد العرض على الشيخ بعد العيد. خرج دون أن يترك وراءه إنساناً.

بعد أسبوع من الإهمال سمع شنغافة من يناديه. فتح السجّان الباب فرأى فحيج وسعندي والسويمي. حاول النهوض ولكن الكرة الحديدة منعته من الارتفاع أكثر من نصف متر. فسارع فحيج إليه واستحلفه أن يبقى جالساً. فقال شنغافة معتذراً:

- القومة في وجه العدو.

جلس الجميع بعد أن سلموا على زميله. كان شنغافة يريد أن

يعرف ما الذي يجري في الخارج وما الذي يُعدّ له. السجن في الصمك له دلالته الخاصة. لاحظ عليهم الوجوم ولم تبدر منهم أيّ من التعليقات المعتادة. كانوا يتحدّثون معه بصوت خفيض كأنّهم يتحدّثون في مأتم. فأخذ شنغافة يسأل بإلحاح:

- يا جماعة قولوا لي وش اللي صاير يا جماعة ما فيها شيء قولوا كم بيحكمون علي ما يهمّني أي شيء إذا مسكوا واحد يقطع خمر أقصى ما يحكمون عليه ثلاثة سنين. لا عندي مقطع ولا شيء. أنا كنت سكران وبيت معدية مهجور ما فيه شيء ينسرق.

لم يصغ أحد إلى مرافعته. اختفت ادعاءاته القانونية في الصمت فقال:

- يا جماعة لا تسكتون الله يخليكم علموني وش اللي صاير.

لم يسع فحيج حيال هذا الضغط إلاّ أن يقول بصوت خفيض:

- رفعوا أوراقك إلى المقام السامي.

فندت عن السجين تنهيدة دون إرادة منه ثم قال:

- أشهد أن لا إله إلاّ الله وأن محمداً رسول الله.

بصعوبة سمع شنغافة زميله السجين يطلق الشهادة حتّى سمع فجأة عبرة تختنق فالتفت فشاهد سعندي يداري بغترته دموعه فسرت عدوى الدموع في فحيج ثم انتقلت إلى السويمي فقال السجين:

- يا جماعة قولوا لا إله إلاّ الله. اذكروا الشهادة.

بذل شنغافة كل الجهود التي يقوى عليها ذكاؤه لكي لا يفهم.

* * *

أدّى فحيج صلاة المغرب على عجل. سبق الناس إلى الخروج من المسجد ووقف في الركن الشمالي حتّى يكون قادراً على مشاهدة المصلّين أثناء خروجهم. كان يريد أن يتحدّث مع الشيخ حسن. هو الرجل الوحيد في الحارة القادر على مساعدة شنغافة. كان المصلّون يمرّون قربه واحداً بعد آخر ويلقون عليه السلام. كان يجيب باقتضاب حتّى لا يشجع أحداً على الوقوف معه والدخول في أحاديث لم يكن في حاجة إليها. سمع نحنحات ابن وصّار حتّى قبل أن يخرج من المسجد. حاول أن يتفاداها. يعرف أن ابن وصار يبحث عن أيّ إنسان يتحدّث معه. ولكن ابن وصّار خرج من المسجد واتّجه ناحيته على الفور كأنّهما على موعد. وقف وسلّم بسرعة وسأله:

- وش عندك يا ناصر.

أجابه باقتضاب وبصوت خفيض:

- أبد ولله

ولكن ابن وصّار فاجأه بسؤاله:

- متى ظنّك بيعدمون رفيقك.

ثم أكمل قبل أن يسمع الجواب:

- يقولون يوم الجمعة الجاية.

شعر بألم من الكلمة الرهيبة التي ألقى بها ابن وصّار بهدوء

ودون مبالاة. فكر أن يبصق في وجهه ولكنه عدل في آخر لحظة. ابن وصّار من مروّجي الإشاعات والأخبار السيئة. أساء إلى سمعة الكثيرين. يبدو أنه سعيد بالحصول على خبر كهذا، مع أنه كان واقفاً على مجريات الأحداث. شاهد بعينه عملية القبض على شنغافة. يعرف أن سبب القبض هو اقتحام بيت معدية المهجور بالإضافة إلى حالة السكر. تجاهل ما رأى وراح يردّد ما سمع. كانت الحادثة حديث العيد المفضّل. توقّع الجميع أن يقضي شنغافة عاماً أو عامين في السجن. الأمر الذي بقي بدون تفسير هو اقتحامه لبيت معدية. امرأة فقيرة اختفت بشكل غامض. لن يكون في بيتها سوى قطع من الأثاث متهرّئة. حتّى مالك البيت لم يفكر في فتحه. تركه لبلدوزرات البلدية تمحوه بما فيه. تردّد فحيج في سؤال شنغافة عن سبب اقتحامه بيت معدية. ترك الأمر غامضاً. شنغافة كان سكرانَ. تصرّفات السكر تقود المرء إلى الأوهام. ولكن الإشاعات فسرت الأمر بطريقة تتسق مع الحكم الذي صدر بحقّه. اقتحم البيت بغية زرع سحر في داخله. عمل ضد امرأة. وقد كسر صندوق المرأة المهجور وأحضر البدلة وبقية الملابس التي وجدوها معه للتمويه على الناس إذا اضطرّ إلى ذلك. أثناء التحقيق ادّعى أن الملابس تخصّه ولكنه عجز عن تفسير سروال المرأة المخبأ في البشت. تلك الحيلة على أي حال ما انطلت على الشيخ سالم. فالملابس الرجالية لم تكن داخل البيت أصلاً. جلبها شنغافة من السوق، وشهادة عبد الهواشم غير معتبرة. كل هذا في النهاية لا قيمة له مقابل اعتراف شنغافة بكل سوابقه مع السحر. من

حسن حظّ المرأة أن النوّاب قبضوا عليه قبل أن يخبّئ صرار السحر في البيت. لو تمّ له ذلك لدمر حياتها ونجا الخبيث بفعلته. هذا ما روّجته الأقاويل حتى أصبح حقيقة ثابتة في عقول الناس فرفع رأسه وحدّق في وجه ابن وصّار وسأله:

- وش دراك أنهم بيعدمونه؟

فردّ ابن وصّار:

- كلّ الناس تدري أن شنغافة ساحر. آذى المسلمين حسبي الله عليه. خلهم يخلصون الناس من شره.

من يقوى على مجابهة الناس إذا أرادوا أن يقتلوا إنساناً. في تلك اللحظة انضمّ إليهم سحيمان بائع الحمام. كان قد سمع الحديث قبل أن يصل، لا يريد سحيمان أن يبدّد الوقت في الصغائر، فقال دون أن يلقي التحيّة:

- حسبي الله عليه أن كانه لاعب في الناس. كل ما قعد له أسبوع أو أسبوعين يجي ويشتري من سوق الحمام حمامة أو حمامتين يقولون يتقرب بها من الشيطان.

فسمع على الفور من على بعد حوالي عشرة أمتار الشيخ حميد يقول:

- ما يمشي شغل الساحر إلاّ إذا ذبح ذبيحة تقرّباً وزلفى للشيطان لازم يشرك بالله والا ما يساعدونه الشياطين. بعضهم يذبح خروف بعضهم يذبح ديك وبعضهم مثل شنغافة يذبح حمام بأمر الشياطين اللي يساعدونه.

تضايق فحيج من هذا التجمّع. يخشى أن يكون هناك من

يعرف بزيارته لشنغافة، فيتمسّك به الجميع لتغذية إشاعاتهم. لا يريد أن يقول شيئاً لا يعرفه. ولا يريد أن يشنّع على الرجل البائس. إذا تفاقمت الإشاعات فلن يترحّم عليه أحد. سيحرم حتّى من الرحمة. يريد أن يبقى وحيداً. تركهم يلغطون ويشتمون شنغافة وزميله السوداني. وأخيراً أطلّ الشيخ حسن. تنهّد فحيج من كلّ قلبه. تحرّك تاركاً الحشد الصغير وراءه واستقبل الشيخ عند الباب. سلّم عليه وسار إلى جانبه. سمع الشيخ المؤذن وهو يقول بحماسة:

- خلوهم يخلصون المسلمين منه.

فقال الشيخ حسن:

- يا شيخ حميد لا تحمّل ذمّتك اتقِ الله.

فقال المؤذن:

- يا ابن الحلال ما تعرف شنغافة زين.

فقال الشيخ حسن:

- والله أعرفه أكثر منك.

سكت الشيخ حميد بعد أن شقّ الشيخ حسن طريقه بينهم مشيراً إلى أنّه لا يريد أن يسمع المزيد. تبعه فحيج حتّى أصبحا خارج سكّة البازمي. اقترب الشيخ من منزله والتفت إلى فحيج وقال:

- تبيني بخصوص شنغافة.

- نعم طال عمرك. الرجال مسكين بري وما يدري وشو السحر.

فقال الشيخ:

- أنا داري أعرف شنغافة داشر كلاب لكن اللي سمعته شهدوا عليه أربعة عدول وتعرف النوّاب شهادتهم مصدقة.

فقال فحيج:

- وش السوات سمعت أنهم بيعدمونه.

فقال الشيخ:

- أكيد إذا اتهموه بالسحر لازم بيعدمونه. وبعدين سمعت أنّه معترف بنفسه.

فقال فحيج:

- غصب عليه كان سكران وهو يقول لهم أنّها كذب.

فقال الشيخ:

- وراه يوقّع على نفسه.

فقال فحيج:

- ما يعرف يقرأ زين. كانوا حبيبين معه وظن أنّهم بيساعدونه. ما يخفاك أن ما اعترف بالطيب خلوه يعترف بالقوّة.

فقال الشيخ:

- شف يا ناصر أنا بسوي اللي عليّ.

فقال فحيج:

- ما تقصر الله يطول عمرك. مسكين ما له في ها الدنيا غيرك ها الحين.

صمت الشيخ وقال:

- حسبنا الله ونعم الوكيل. حسبي الله عليك يا شيخ سالم وين بتروح من ربّ العالمين.

فقال فحيج:

- يا ليتك تروح لمركز النوّاب الرئيسي وتشوف يمكن يتنازلون.

ضحك الشيخ حسن من سذاجة فحيج وقال:

- يا ولدي معد لهم يد في الأمر لو أنك قلت لي قبل ما يحكم عليه كان يمكن نساعده في مركز النوّاب رئيسهم رفيق لي وأقدر أقنعه. لكن هالحين وش تبيهم يقولون يكذبون أنفسهم. اربعة شهود هذولا والقاضي ما قدامه إلاّ أنه يحكم حسب شهادة الشهود. لكن خلني أشوف لعلّي أن شاء الله أقدر اسوي شيء.

فقال فحيج:

- جزاك الله خير والله يخليك لعيالك ويمدّ في عمرك.

أخذ يردّد العبارات نفسها وهو يبتعد والشيخ حسن يفتح بابه ويدخل. عاد فحيج مرّة أخرى. شاهد الحشد قد توسع وسمع ابن وصّار يردد بصوته الجهوري:

- ملعون الوالدين مندس بينا كل ها السنين وما درينا أنه ساحر.

فيردّ عليه الإمام حميد:

- الساحر يا أبو فهد يغطي على عيونك لو يبي يخليك ما تشوفه وهو مار جنبك. أجل ما سمعت قصّة موسى مع السحرة

والعياذ بالله. الله يجزاهم كلّ خير. يقولون هو اللي عامل العمل لمرة الشيخ سالم وخلاه يطلقها المسكينة. خلاه إلين دخل عليها يصير ما فيه حيل.

فقال سحيمان:

- الساحر إلين قتلوه بطل سحره كلّه. الله يجزاهم خير. الله من واحد تأذى منه ومن شغله حسبي الله عليه وعلى ها السوداني رفيقه.

ثم أردف:

- ما قضبوا السوداني لين هالحين؟

فقال الشيخ حميد:

- تلقاه ها لحين في السودان. يقولون أنحاش من يوم سمع وش صار لشريكه شنغافة. أكيد علموه الشياطين.

فقال الشيخ حميد:

- الساحر بينه وبين الشيطان عهد.

سأل ابن وصّار وهو يترك التجمّع:

- أجل إن شاء الله بيعدومنه يوم الجمعة.

فقال الشيخ حميد:

- الله يسمع منك.

* * *

استفاق على أصوات بعيدة كأنّها تأتيه من عالم نسيه. يتخلّلها تكبير وتهليل. توقّفت السيارة فتوقّفت معها الارتجاجات. عرف

أن السيارة التي تقلّه وصلت إلى الصويفة. المكان الذي سوف ينفذ فيه حكم الإعدام بعد قليل. لا يحتاج أن يصفها له أحد. يعرفها بكلّ التفاصيل. مكان تمدّد فيه على بطنه طوال خمس عشرة سنة. زاره مرّات عدّة مكبّلاً. ومرّات كثيرة أخرى قطعها وهو في طريقه إلى سوق الحمام. إنها في طريقه دائماً. تتقاطع عليها جميع طرق الرويض. زرعت فيها قبل أشهر ساعة كبيرة تعلن الوقت بصوت امرأة لأوّل مرّة في تاريخ الرويض. أصبحت الساعة منارة توجه الضائعين. صغرت الساحة قليلاً ولكنها بقيت توزّع السيّارات بطريقة منظّمة. إذا ذهبت شرقاً فستدخل أفخر شوارع الرويض التجارية. وإذا يمّمت الغرب فستدخل سوق الحساوية وسوق آل وشيقر، ومن الشمال ستشاهد في الوسط المسجد الكبير الذي يحفّ به من الشرق شارع الظهيرة ومن الغرب شارع السويلك. ومن جنوب الساحة تطالع مبنى الإمارة الرخامي الأبيض الكبير.

كان يأتي إلى هذه الساحة في سيّارة ونيت. يرتصّ مع عدد كبير من السجناء في صحن الونيت المكشوف. كانوا يتضاحكون. يتحدّثون في أمور لا علاقة لها بما سيحدث لمؤخّراتهم بعد قليل. تذكر مناحي عندما قطعت يده. سال دم كثير ولكنّه توقّف عندما غمست يده في زيت حار. شعر ببعض الضيق. بصحبته جنديان في صندوق الجيب المغلق. مرّت دقائق ولم يتحرّك أحد حتّى الجنديان اللذان كانا معه. بعد ثوان سمع نقراً خفيفاً على الباب الخلفي فقام أحد الجنديين وأخذ غترته من على كتفه وطلب منه أن يغمض عينيه وأدار الغترة عليهما مرّتين ثم أحكمها من الخلف

بأكثر من عقدة. انطمس الضوء.. أحسّ أن الغترة تضغط على وجهه فصار يحرّك أنفه محاولاً أن يبعدها عنه. لاحظ الجندي ذلك فسأله:

تضايقك.

فقال:

- شوي.

دفع الجندي إصبعه بين الأنف والغترة. حاول أن يوسعها وهو يسأل في كل مرّة كويس. فقال شنغافة أخيراً:

- جزاك الله خير.

ثم سأل:

- ما تحسّون بحرارة؟

تبادل الجنديان النظرات ثم قال أحدهما:

- أيوه معك حق السيّارة مسكرة مع كل الجهات ما يدخل الهواء إلاّ لمّا تتحرّك السيّارة.

فقال:

- انتو سكرتوا الطاقة اللي قدامي.

فقال أحد الجنود:

- لا أبد.

فقال شنغافة:

- شف الطاقة اللي وراي هي مفتوحة؟

فقال الجندي:

- لا تخاف بعد شوية بننزل من السيارة الجو برا كويس.

فقال شنغافة:

- وش نحتري.

فقال الجندي:

- الظاهر أن الشيخ جوى الإمارة ما طلع. ما راح يطول أن شاء الله.

فقال:

- أجل من هو اللي ضرب الباب قبل شوي.

فقال الجندي:

- هذا مندوب الإمارة عشان نجهزك.

لم يعد يجد شيئاً يقوله فأخلد للصمت. صار جسده يرشح عرقاً مع أن أطراف يديه ورجليه باردة. يتمنّى أن يعرضها للهيب الحطب. شعر أن أحد الجنديين يحرّر السلسلة المربوطة في قدميه. تخفّفت ساقه من ضغط الحديد. ولكي يتأكّد أنّه قد تحرّر من الحديد باعد بين ساقيه جيئة وذهاباً. بسط رجليه على مداهما أمامه فاصطدمتا بالمقعد في الجهة المقابلة. أعادهما مرّة أخرى. إنهما حرّتان تتحرّكان كما يريد. يريد فقط أن يسند ظهره مباشرة إلى ظهر المقعد لكن يده المصفّدة من الخلف تحول دون ذلك، فيضطرّ إلى أن يميل حتّى تلامس كتفه المسند. هذا أريح قليلاً. لكن المشكلة في الحرارة التي تنبعث من جسده. يريد أن يحرّر يديه ويهوّي بإحداهما. عرف في لحظة خاطفة أنّه لن يستخدمهما

بعد الآن. بل لن يراهما بعد الآن. لن يرى أيّ شيء بعد الآن. تسارعت ضربات قلبه. ربّما شعر بالخوف. متى شعر بخوف مثل هذا من قبل. كان عمره عشر سنوات. كان يساق كالبهيمة في قلب الربع الخالي تقوده مجموعة من الغرباء. لم يعد يتذكّر ملامح أيّ منهم. لا يعرف إلى أين كانوا يقودونه ولماذا اختطفوه. انتابه خوف شديد من كثافة الرمال ولكنه لم يشتكِ. هؤلاء لا يشبهون أمّه أو أباه. الخوف نفسه الذي يعانيه الآن. ليس هنالك أحد يشتكي إليه. يجب أن يتحوّل هذا الخوف إلى شيء آخر. ينزل من الجسد كالعرق أو يبدو كالبرودة في الأطراف أو حديثاً عابراً أو اصفراراً في الوجه. خوف متوحّش مطحون. سمع أحداً يناديه باسم لن يكون له أو لغيره بعد دقائق من الآن أو هكذا تخيّل.

كان صباحاً ربيعياً جميلاً. ستكون الشمس حانية رقيقة على كلّ المحتشدين لحضور مراسم إعدامه. سيحصل المتفرّجون على مشهد خلاّب خالٍ من الإرهاق والعرق. يمكنهم أن يستكملوا منظره حتّى حين يبدأ عمّال البلدية بغسل الأرض من الدم القليل الذي سيبقى بعد سحب جثّته. سيحتاج جميع الذين حضروا إعدامه إلى أدقّ التفاصيل حتّى تطول القصّة التي يروونها للآخرين. لا يكفيهم أن يقصّوا اللحظة التي فيها لمع السيف الحادّ وانقضّ يشقّ الهواء ويلامس بسرعة خاطفة رقبة شنغافة ثم يغادرها من الجهة الثانية كأنّما هو سكين مرت بقالب من الجبن. بقي الرأس ثواني ثم سقط بهدوء على الكتف اليمنى وبعد ثوانٍ لبث فيها يبحث عن فرصة العودة إلى مكانه كما أراد الله. ولكنه فشل

حينما دفعه الجسد الذي ترنّح مع الجهة الأخرى فافترقا كلّ في طريق. ثم اقترب السيّاف وغرس رأس السيف في ثوبه ورفعه إلى الأعلى فانتزع قطعة من الثوب ومسح بها الدم القليل الذي علق بالسيف، وأعاده إلى غمده وتحرّك صاعداً درج المبنى الرخامي الأبيض الأنيق، تاركاً الجسد الذي كان قبل قليل يُدعى شنغافة مبعثراً على الأرض بعد أن سحب منه الحياة وأطبق عليها في الغمد. لقد أنجز مهمّته وسيعود إلى البيت كما يعود جميع الناس ويتغدّى مع أطفاله. سيروي الشهود قصّة شنغافة بدءاً بساقه اليمنى السمراء الشاحبة التي كانت أوّل قطعة من جسده تنكشف للجماهير عندما هبط من السيارة وانحسر ثوبه إلى أعلى. كان يلبس ثوبه الصوفي الصيني الأخضر الفاتح المخبون من وسطه. تعثّر قليلاً في مشيته. كانت عيناه معصوبتين بغترته البيضاء ويداه مكبّلتين من الخلف. يحتاج إلى مساعدة الجنديين اللذين نزلا معه ليعضداه قليلاً حتّى قدر على النزول دون أن يتعثّر. لم تكن قدماه مقيّدتين. استقر على الأرض منتصباً فأخذ الجنديان يدفعانه حتّى وصلا به إلى منتصف الساحة ثم ضغطا على كتفه كي يجلس. كان كلّ شيء يحيل إلى الصمت. لا أحد يتفوّه بكلمة واحدة. مئات البشر تحلّقوا حول الساحة على بعد عشرات الأمتار. هناك عدد كبير من صغار السنّ يجلسون أرضاً من الواضح أنّهم حصلوا على هذا الامتياز لأنّهم حضروا قبل الصلاة بوقت طويل. يتقدّمهم جنود يقفون صفّاً متماسكي الأيدي وينتشر خلفهم الحشد المتزاحم في دائرة واسعة يعيّن الجنود حدودها القصوى دون أن تعيق الجماهير

المتعطشة لمشاهدة منجزات الشيخ سالم ونوّابه. حفلة قطع رأس الساحر. كانت المسافة بين أقرب متفرّج ومركز نصف الدائرة التي قرفص عليها شنغافة لا تزيد على عشرين متراً. ومن جهة الجنوب يقف المبنى الذي سيطلّ من إحدى نوافذه بعد قليل، الرجل الذي سيقرأ بلهجة أهل الغربيّة على المتفرجين، الأسباب التي جمعت الحشد وركّزت شنغافة في وسطه. لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً. دقائق فصلت بين نزول شنغافة من الجيب وخروج المذيع. فُتحت النافذة فأطلّ منها رجل أبيض بدت عليه الهيبة يلبس بدلة سوريّة شبيهة بالبدلة التي اشترتها معدية ليلبسها شنغافة يوم العيد. ألقى نظرة هنا وهناك ثم أبرز ورقة كانت بيده وقبل أن يقرأ منها حمد الله على نعمة الأمن وشكره على توفيقه للقبض على المجرمين والعابثين والمفسدين في الأرض، ثم رفع رأسه وقرأ بصوت أعلى: أقدم المدعو تيسير عتيق الأميرة...

فجع الحشد الذي ندّت منه صرخة واحدة ثم صمت. إذاً شنغافة لم يكن اسمه الحقيقي شنغافة بل تيسير. أدرك أهل الرويض أن ذاك الرجل البائس الوحيد كان يملك اسماً يخصّه كبقيّة البشر ولكن بعد فوات الأوان.

الفصل الثالث

أحسّ باليقظة. أخذ ينتمي إلى عالم محسوس غير الأحلام والكوابيس التي كان يغوص فيها. شعر بألم خفيف في رقبته وحلقه وفي أعلى الظهر مع مرارة في اللسان. استيقظ على أطراف الواقع. قاوم ثقل جفنيه ليرفع بصره. رأى رجلين يقفان فوق رأسه. حاول أن يربطهما بوضعه فلم يتبيّن بوضوح ملامح أيّ منهما. وفي اللحظة التي أخذ يتعارك فيها مع الوعي سمع صوتاً يقول له سلامات. جاءه الصوت من بعيد وكأنّه منبعث من بركة ماء. بحث عن مصدره. بدا العالم مهتزّاً مملوءاً بالضباب. سمع بعد ذلك صوتاً آخر يسأله عن اسمه. ثم أردف الصوت نفسه:

تتذكر وش صار يا سعد.

التفت إلى مصدر الصوت فشاهد رجلاً يلبس بدلة عسكرية. سمعه يقول مرّة ثانية:

- وين كنت يا سعد يوم الخميس قبل الماضي. تتذكّر وش صار لك مع أذان الفجر. فكّر يا سعد.

تردّد. لا يعرف ما الذي يجري ومن هم هؤلاء الذين يقفون

فوق رأسه. سمع صوتاً يأتي من الجهة الأخرى من السرير يقول له:

- سلامات أخ سعد أنت دلوقتي في مستشفى المشمسي أصله قبل أسبوعين حصلت لك حادثة باين فيه واحد طعنك في رقبتك وظهرك. تتذكّر إيه اللي حصل. خلي الكابتن يعرف. إن شاء الله حتكون كويس.

بدأت الدنيا تدور حوله. ما الذي عليه أن يتذكّره. أحسّ بملوحة في لعابه. سحب يده نحو وجهه لتصل إلى فمه. شعر أن هناك شيئاً يسبقه على مسح شفته. بذل جهداً ليدرك الأشياء. لاحظ من الجهة الأخرى من السرير رجلاً يرتدي ملابس بيضاء وإلى جانبه امرأة. حاول التركيز فاستعصت عليه الرؤية ومالت إلى التشوّش. اجتاحت جسده موجة من الخدر بدأت من الأسفل وتصاعدت حتّى بلغت الكتفين. أحسّ بوهن في يده اليمنى وفي أصابع رجليه. طافت به ذكريات متقطّعة. بدأ يتذكّر أن أحدهم صرخ خلفه ثم انطفأ العالم. كأنّه سمع من يقول له يا ابن الكلب. تذكّر أخيراً أنّه خرج من بيت السويمي قبل أذان الفجر بساعة. اعتاد أن يخرج في هذا الوقت. كان يعرف أن النوّاب يتربّصون ببيت السويمي وسوف يقبضون عليهم. المسألة مسألة وقت. لا يتردّد النوّاب ولا تفتر عزيمتهم، فالمسألة بالنسبة إليهم جهاد أعظم وبطولة شخصية وأحياناً انتقام. يعرف هذا جميع أهالي الرويض. التفت إلى الجهة الأخرى. تحقّق من وجود رجل في بدلة عسكرية. ما الذي يفعله العسكري هنا؟ ألقى نظرة على السقف.

عرف أنه ليس في منزلهم. بيتهم مسقوف بمرابيع مقدودة من خشب تتخلّلها رزم من الخوص وعسبان النخل، والسقف هناك لا يزيد ارتفاعه على مترين ونصف المتر. لا بدّ أنّه في مبنى حديث. لا يسكن في المباني المسلحة المبنية من الإسمنت سوى أبناء الشيوخ والأغنياء تشاركهم في ذلك الدوائر الرسمية، إحداها مراكز الشرطة. السقف الذي يعلوه أبيض تتدلّى منه أباجورة مشعّة برغم ضوء النهار الذي يدخل من النافذة التي أمامه وينعكس في الدهان الأزرق الخفيف الذي يغطّي النصف السفلي من الحائط. بدا نور الأباجورة كنجمة خفيفة تقاوم نور الصباح المنبعث من بعيد. الجدران الإسمنتية هي التي تُطلى بمثل هذا الطلاء اللامع. ربّما كان في المنطقة الخامسة. قُبض عليه. هل سلّمه النوّاب للشرطة وهو في حالة سكر. حتماً ضربوه. حطّموا عظامه. النوّاب قساة لا تعرف قلوبهم الرحمة. طافت به ذكرى الصيف الماضي عندما قبضوا عليه وعلى السويمي. سُجنا في الحمام بضع ساعات ثم سُلّما للشرطة بعد أن ضُربا بالأيادي والنعال حتّى شارفا الموت. حاول أن ينهض من سريره وهو يئنّ. ولكن الطبيب قاله له:

- ما تخافش أنت في المستشفى.

لم يصدّق. لا بدّ أنّهم قبضوا عليه عند خروجه من بيت الشلّة. في كلّ مرّة يخرج من بيت السويمي أو من بيت الشلة كما يسمّيه، يقرّر عدم العودة في اليوم التالي. تذكّر عندما قبضوا عليه. كانت تلك الحادثة مؤلمة في حياته. تعلّم منها دروساً مهمّة. الجحيم أرحم من الوقوع في قبضة النوّاب. من حسن حظّه

استطاع أن يموّه الأمر على والده وأمّه. كان يمكن أن تكون المصيبة مصيبتين. لا يريد أن يعرف أبواه أنّه يسكر. كلّ شيء ممكن إلاّ السكر. أرقى درجات الفحش. لا يمكن أن يخبر والده بالجلد في الساحة. حكم عليه القاضي بثمانين جلدة تنفذ على الفور. أخذوه في ونيت إلى ساحة الصويفية حيث تنفّذ الأحكام. مزّقوا مؤخّرته ثم نقلوه إلى قسم البصمات وسجّلوا عليه سابقة. غادر المكان وظهره يطبخ من حرارة سياط الخيزران الرطب. بصعوبة خرج من المديرية كما كانوا يسمّونها، تخلّص من قطعة المطّاط التي كان يضعها على مؤخّرته، وهي قطعة تنتزع من مطّاط قديم يستخدمها المحكومون بالجلد لتخفيف وقع الخيزران على مؤخّراتهم. أدرك خطأه بعد فوات الأوان. بدأت الجروح تحتكّ بالثوب فتزداد إيلاماً. ذهب حالاً كما نصحه زملاؤه في السجن واشترى قارورة فازلين أخضر وألحقها بقارورة الشامبو التي كان قد وعد أخته بها. شامبو أحمر من صنع اليابان. سمعت به أخته من مضاوي بنت ابن وصّار. كان الشامبو قد وصل حديثاً. تعوّدت أن تغسل شعرها بالمشاط. كان الشامبو قليلاً. يقتصر استخدامه على بنات الشيوخ والأثرياء مع أن سعره معتدل. كانت قد وصفته لها بنت ابن وصار ووصفت رائحته المثيرة فحلمت أن تشتريه يوماً من الأيام. ألحّت على أمّها وأبيها فرفضا دون إبداء الأسباب. رفض طلبات البنت نوع من التربية حتّى تعتاد كلمة لا طوال حياتها. كان سعندي يعرف رغبة أخته مشاركة الفتيات اهتماماتهن. هذه هي الفرصة التي تتيح له أن يحقّق أمنيتها ويضمن في الوقت نفسه

سكوتها وتعاونها. لم يكن في حاجة إلى أحد كما هو الآن. وصل إلى البيت منهكاً يكاد يسقط من التعب وآلام الجروح والتسلّخات التي خلّفها الجلد على مؤخّرته وفخذيه وظهره. يكاد يفقد التركيز. تسلّل حتّى لا تراه أمّه. كانت سعاد تنشر الملابس في السطح وتغنّي. فرحت برؤيته بعد غياب دام حوالى خمسة عشر يوماً. تماسك وناداها وانتزع ابتسامة من فمه حتّى لا تبدو عليه آثار الإعياء والألم. مدّ لها الشامبو أوّلاً. كادت الفتاة تطير من الفرح عندما أخبرها بمحتوى القارورة. انتزعتها من يده وركضت إلى الدرج لتبشّر أمّها، لكنه سارع وأمسك بها وأخبرها بحقيقة ما يعانيه دون أن يخبرها السبب. كانت قد فقدت الأمل في الحصول على الشامبو الذي تسمع به كما فقدت الأمل في كثير من متطلّبات الحياة الإنسانية الطبيعية. أخرج علبة الفازلين وقدّمها لها. استغربتْ علبة الفازلين. كانت تعرف هذه القارورة. يستخدمها الناس في الشتاء لمعالجة التشقّقات الجلدية. شرح لها ما يعانيه وسحبها إلى الغرفة وطلب منها أن تدهن جلده واستحلفها ألاّ تخبر أحداً بما رأت. شعرت الفتاة في داخلها بامتنان كبير على الهدية التي نزلت عليها من السماء، فأقسمت ألا تخبر أحداً. استمرّت تعالج تشقّقات ظهره حتّى اختفت. ظلّ ثلاثة أيام طريح الفراش لا يقوى على النوم أو الجلوس السويّ، فغاب عن الشلّة. كان لديه قليل من العرق أخذ يطقطق عليه بمعاونة سعاد التي كانت تجلب له الماء وقطع الثلج. كانت تلك الحادثة بداية تعاون بينه وبينها وبداية أسرار أخوية. صار في النهاية يخبئ مطّارات الخمر في

غرفتها، ومقابل ذلك يشتري لها الأشياء الصغيرة التي تتمنّاها كأنثى. اعتدل مزاج الفتاة. قلّت مشكلاتها وتذمّراتها من العالم. لاحظت أمّها هذا التغيّر. شعر سعندي لأوّل مرّة بحقيقة أخته. كان يراها شبح إنسان. تمرّ أيّام دون أن يفكر في وجودها. تعيش في المنزل كشيء غير موجود. اجتذبتها قارورة الشامبو إلى حقيقتها الإنسانية فبدت طيّبة ومتفهّمة. تجاهلت حزنها وصارت تتعاون معه في كثير من الأمور. دافعت عنه مرّات عدّة أمام والده. حيال هذا التغيّر بدأ سعندي يفكر في مصيرها. تذكّر أنّه الوحيد السوي بين أبناء هذه العائلة. عليه مسؤولية مستقبلها ومستقبل أخيه سعيد، ولكن هذا المستقبل يبدو غائصاً في العتمة. يوماً ما سوف يتحمّل مسؤولية هذين الحطامين دون عون من أحد، فوالده لن يترك لهم شيئاً يتقاسمونه. سعاد امرأة وليس للمرأة في الرويض إلاّ وظائف محدودة على رأسها الزواج. فكّر أن يدفع بها للعمل مع معدية لكي تعلّمها تربية الحمام والدجاج. فكّر أن يعلّمها البيع في المحيفرة حتّى أنه فكر في العجوز محيورية، لكنه شعر بالتقزّز، لا يمكن أن يسمح لأخته أن تنتهي غسّالة موتى. طافت الوظائف القليلة التي يمكن لامرأة في الرويض مزاولتها. كان أقصى ما يمكن أن يقوله لنفسه أنّه سوف يترك هذا البيت لهما يعيشان فيه ثم توقّف عن التفكير في المستقبل. المستقبل مظلم لا يمكن التمادي في مجاهيله. بينه وبين المستقبل سنوات طويلة سينتظر إذذاك أن يحلّها ربّ العالمين. تذكّر أن البيت مهدّد بالبيع إذا مات والداه فجأة. يجب أن يسدد الديون المتراكمة قبل حلول المستقبل.

صدر لمصلحته الكثير من صكوك الإعسار. عندما يفكّر في مشكلة سعاد عليه أن يفكّر في مشكلة سعيد العميان المتخلّف عقلياً. بلغ سعيد التاسعة والثلاثين وما زال عمره العقلي لا يتعدّى طفلاً في الثالثة عشرة. ليس له غرفة محدّدة في البيت. مرّة ينام في الدوانية ومرة في غرفة سعندي نفسه، ومرة مع أبويه ومرة في غرفة سعاد وأحياناً يجده أهل الخير نائماً في المسجد. يعبث بالأشياء. كسر مرّة ذراع البكم، ومراراً دعس على أسطوانات ثمينة وكثيراً ما يجده يلامس الأغراض الخاصة. سيأتي اليوم الذي تُكتشف فيه قوارير الخمر المخبأة في غرفة سعاد فيُفتضح أمره أمام أبيه. أكبر مصيبة ستنزل به أمام والده. لم يكن والده يشكّ البتة في أنّ ابنه يمكن أن يشرب الخمر. لا يشرب الخمر إلاّ الفُسّاق. اعتاد والده سماع خطب الجمعة وخطب الوعاظ الذين يجوبون المساجد للتنبيه من شرب الخمر ولعب الكرة ولعب الورق والكيرم وسماع الأسطوانات ولبس التركيبة والكبك. قائمة من المحرّمات لا تنتهي. مشايخ الرويض يتنافسون في ابتداع المحرّمات. هذه المحرّمات لم تكن في يوم من الأيام موضع اهتمام والده لكن تحريمها جاء متفّقاً مع أسلوب حياته البسيطة. لا تسمح له ظروف عمله القاسية باللهو والمتعة. يخرج قبل صلاة الفجر إلى سوق الغنم ثم يعود قبل صلاة الظهر فيتغدّى ويقيل ثم يعود مرّة أخرى إلى السوق. يبقى هناك حتّى صلاة المغرب. وعندما يعود مرّة أخرى إلى البيت يكون منهكاً. لا يعرف للحياة طعماً. عندما دخل التلفزيون الرويض سمع أن كبار المشايخ

يحرمونه فحرّمه. ولم يكتف بتحريمه بل شنّ حملة دعائية عليه. صار يسمّيه تلف عيون. استمرّ على معاداته للتلفزيون حتّى شاهده مرّة عند ابن وضّار بالمصادفة. شاهد طيوراً مهاجرة ورجالاً يصلون وعلي الطنطاوي يتحدّث عن أمور الدين وامرأة جميلة تغنّي وشاباً وسيماً يبتسم. فوجئ سعندي ذات مساء برجل يطرق الباب وعلى كتفه كرتون ضخم، ثم سمع صوت والده الذي كان خلف الرجل يقول له:

- خله يطلع به في الروشن. خلك وراه في الدرج. ساعده تراه ثقيل.

لم يكن يعرف عمّا يتكلم والده حتّى فتح الكرتون وأخرج جهاز تلفزيون ذا إحدى وعشرين بوصة. أفخم من كل أجهزة التلفزيون التي شاهدها لدى أصدقائه. منذ ذلك الحين، صار بيتهم صالة عروض تلفزيونية. كل النساء اللواتي حرم عليهن أزواجهن مشاهدة التلفزيون يتجمّعن عند أم سعندي. كانت سعاد أكثر السعداء. شاهدت أم كلثوم وفايزة أحمد وسميرة توفيق أخيراً. لم يستغرب سعندي تسامح والده وتحوّله المفاجئ من مقاتل ضد التلفزيون إلى أكبر المروّجين له، فوالده يحرّم ما حرّمه المشايخ ويحلّل ما يحلّلونه ولكنه في بعض الأحيان يثور عليهم متذرّعاً بعيال الشيوخ. لو أنّه حرام لما أدخله عيال الشيوخ بيوتهم ووضعوه عند محارمهم. بهذا المنطق العقلاني والذرائعي يتفادى كلّ نقد قد يوجّهه إليه الشيخ حميد. يعرف أن حميد إذا سمع كلمة الشيوخ ينتفض من الخوف ويصمت. إلاّ أن هناك أموراً كثيرة

من المحرّمات استطابها واعتمدها ونشط في الدعاية لها وسمح بها في بيته. كان ينقل المحاضرات التي يتلقّاها من الوعّاظ إلى ابنيه سعيد وسعندي دون تمحيص. لم يكن في الواقع متعصّباً ولكنه يتأثّر بسرعة بما يسمعه في أمور الدين. كان الديني بالنسبة إليه مرهوناً بتغيّرات المصالح التجارية التي توجهه في سوق الغنم مثله مثل أي واحد من جيله من أصحاب المصالح. يتعصّب في الأمور التي لا علاقة لها بحياته أو تجارته. أحداث كثيرة تثبت تسامحه. ذات يوم اشترى لسعندي مسجّل قرندق بثمانين ريالاً، أي بما يعادل ربع دخله الشهري. كان سعندي يعرف هذا في والده، ومع ذلك لا يمكن أن يجازف بإطلاعه على الخمر. فتجنّب شرب الخمر في المنزل على قدر الإمكان. كان يعرف أن والده يشكّ في أنه يلعب كيرم. حقّق معه كثيراً دون أن يخرج بما يؤكد شكوكه أو ينفيها. فصار تحت المراقبة دون وجه حق. استمات سعندي ليثبت لوالده أنه لا يلعب كيرم ليكفّ عن متابعته حتّى لا يكتشف أنّه يتعاطى الخمر. اضطر إلى أن يقلّل من شرب الخمر في غرفته إلى أقصى مدى ممكن برغم تماديه في فترة النقاهة بعد أن كسب ودّ شقيقته مما أثار شكوك أمّه التي بدأت ترى فيه سلوكاً غير مألوف. ثقل في لسانه واهتزاز في حركاته وزوغان في عينيه. فأحضرت له الشيخ سويهم ليقرأ عليه مرّتين في اليوم. من حسن حظّه أن سويهم عجوز لا يكاد يعي ما يدور حوله. ترك وظيفته الأساسية حلاّقاً وحجّاماً وتحوّل إلى القراءة على الناس. وظيفة تؤمّن له قليلاً من المال وكثيراً من العمل والاختلاط بالناس. سعد سعندي

بحضور سويهم. لولاه لافتضح أمره عند والديه. كان سويهم يعيش بفضل وجود الجنّ وجهودهم الحثيثة لإيذاء البشر. كلّ تصرّف غير طبيعي ينسبه دون تردّد إلى الجن. حالما وضع يده على جبين سعندي أعلن لأم سعندي أن ابنها مصاب بمس والعياذ بالله ويحتاج إلى جرعات مركّزة من القراءة. سرّ سعندي بهذا التشخيص فصار يشرب على راحته رامياً المسؤولية على عاتق الجن. استغلّ جهل أمّه وحنانها ففسّر لها غيابه خمسة عشر يوماً الماضية أنّه كان في البرّ. لا يمكن أن يقول لها إنه كان في السجن، فأقنعت والده بمرضه وبمبرر غيابه. كان قد ترك أمر الخمر في البيت للظروف الخاصّة جداً، فبيت السويمي مفتوح كل ليلة تقريباً. يستطيع أن يشرب مع الشلّة حتّى الثمالة. كان أكثر ما يقلقه المسافة من بيتهم إلى بيت السويمي. عليه أن يسير أكثر من كيلومترين بين السكيك والشوارع الصغيرة وأن يمر بمحاذاة مقبرة العجلية في الظلام الدامس حيث تنبحه الكلاب الضالة. كان يخشى أن يوقظ نباحها أحداً ويراه فيتعرّف عليه ويخبر والده. وإذا أراد أن يتجنّب المرور من المقبرة فعليه أن يأخذ طريقاً آخر تتخلّله خطورة أكبر. أن يسير بمحاذاة عمارة ابن سرار مما يضطرّه إلى أن يدخل سكّة ابن فجير التي يقع فيها مركز النوّاب. يكون المركز في هذا الوقت مغلقاً. إلاّ أن النوّاب يبقون فيه حتّى منتصف الليل أو أكثر إذا كانت لديهم نيّة لعملية دهم أحد أو كانوا قد قبضوا على أحد ويريدون الفتك به قبل تسليمه للشرطة. من بين مهمّاتهم التحقيق مع كلّ من تطاله أيديهم حتّى ينتزعوا منه معلومات عن

مصدر الخمر والمكان الذي تعاطى فيه وبيان بأسماء أصدقائه فيضطرّهم هذا الأمر إلى السهر حتّى منتصف الليل. فصار حائراً بين نباح الكلاب وسياط النوّاب فترك الخيار بين الطريقين مرهوناً بالظروف والتوقّعات وحالته وهو سكران.

* * *

انخرط في شلّة السويمي قبل أكثر من ثلاث عشرة سنة. لم يكن محبوباً بعد الكأس الثالثة. صاحب مشكلات متنوّعة ويعاني مرضاً غامضاً. استمرّ فترة طويلة يفرض نفسه عليهم وهم يتهرّبون منه بعد أن اكتشفوا أنه غير جدير بشرب الخمر مع الرجال. أصرّ على المجيء يومياً دون توقّف حتّى انهارت مقاومتهم له بالتعوّد فصار من الأعمدة الأساسية فيها. إذا تأخّر يبحثون عنه. من أهم العوامل التي ساعدت على تثبيته في الشلّة خبرته في شؤون قرندول وجزيرة اللؤلؤ.

منحه حبّ بنت مستورة معرفة لا حصر لها. اكتسب خبرة تليق بتجربة ثلاث عشرة سنة يضاجع فيها دون توقّف ودون منّة من نساء الرويض المخبّآت عنه. صار خبيراً بكل شيء في قرندول حي البغاء في جزيرة اللؤلؤ. يعرف البقالات ويعرف النساء ويجيد المساومة ويعرف الجرارين واحداً واحداً. كل من يريد أن يسافر من أهل الرويض يلجأ إليه ليأخذ منه النصيحة وبعض التوجيهات التي لا غنى عنها، ويوصي عليه عند صاحب الفندق وحتّى عند بعض القوّادين الذين عرفوه بالاسم، وعلى رأسهم حسين. يمكن أن يقدّم لزوّار قرندول جدولاً متكاملاً يبدأ من التفكير في الرحلة

إلى يوم الأوبة. صار لديه شيء يقدّمه للآخرين ويتصدّر به المجالس. ميزته أنه ليس كتوماً. يقدّم المعلومة بسخاء. يتناقش مع المسافر ويبحث معه في أدقّ التفاصيل حتّى ذوقه في الطعام وفي النساء ويناقش معه بعناية مستواه المادي، فيفصل له برنامجاً خاصاً به. ولا ينسى أبداً تفاصيل الخمور أجودها وأرخصها ومكان وجودها. إذا كانت الرحلة تكلّف الرجل العادي ثلاثمائة ريال يجعلها تكلّف مائتين وخمسين دون أن يخسر أيّ شيء من المتعة الحقيقية. يمكن توفير هذه الخمسين ريالاً أو الاستفادة منها بإضافتها إلى رصيد المضاجعة. مضاجعتان بتعرفة بنت مستورة، وخمس مضاجعات بتعرفة عويشة. كان يعرف كيف يركّز الميزانية على الأشياء الجوهريّة دون غيرها. أصبح خبيراً لا يُجارى. صار مندوب قرندول في الرويض. ليس غريباً أن يموت ميتة أهل قرندول. لم يمت بسرعة. امتدّ موته بضع سنوات. لقد نفذت اللولبيات الشاحبة إلى أعماق وجدانه وراحت تحطّمه بشكل منهجي. لم يكتشف هذا إلاّ بعد سنوات عاشها لم يرَ خلالها سوى بنت مستورة. صار يرى في كلّ امرأة يلتقيها بنت مستورة.

لم يستثنِ هذه الممرضة التي تقف أمامه. ركّز بصره على وجهها وجسدها. حاول انتزاعها من التشوّش الذي يلفّ العالم. فمرّة تبدو جميلة كأنّها بنت مستورة، ومرّة تبدو واحدة من الشحّاذات اللواتي يطفن الحارات. أصبحت بنت مستورة حياته ومطلب وجوده ولكنها تبعد عنه مئات الكيلومترات. كل لقاء معها يحتاج إلى مئتَي ريال أو أكثر، فتورّط في ديون لا حصر لها. دخل

في متاهات جمع المال. في البداية اعتمد أسلوباً في منتهى الذكاء لكسب الفلوس، ولكن رعونته في الإنفاق وأسفاره لحبيبته بنت مستورة لم تسمح له بادّخار المبالغ المستدانة. من الصعب توظيفه في أيّة دائرة حكومية. لا يمكن أن يتوسّط له أحد. في آخر مرّة التحق بالحكومة فرّاشاً في المدرسة الأهلية في شارع المريقب. استغرب المسؤولون طلبه أن يُعيّن هناك، فالمسافة بين حلّة ابن بخيت والمدرسة الأهلية حوالى خمسة كيلومترات. يتعيّن عليه أن يبدل التاكسي مرّتين حتّى يصل إلى المدرسة. عليه أن ينطلق من شارع المشمسي إلى أن يصل إلى البطحاء ومنها يسير ما يقارب نصف كيلومتر إلى شارع المريقب ثمّ يركب التاكسي الثاني. عمل شاقّ ومكلف بالنسبة إلى موظّف راتبه ثلاثمائة ريال. سوف يذهب نصفه في التاكسي. نصحه المسؤولون أن يعمل في مدرسة سبيكة. لا تبعد سوى مئة متر عن باب بيتهم. يوفّر الوقت والجهد وجميع المدرّسين والطلبة من أولاد حارته، لكنه أصرّ على المدرسة الأهلية وأخيراً نزل المسؤولون على رغبته. داوم بضعة أشهر فقط ثم انقطع عن العمل. لم يعرف أحد السرّ. هذه رابع وظيفة يلتحق بها ثم ينقطع بعد مدّة قصيرة. لا يستقيل. يعمل ثلاثة أو أربعة أشهر ثم يخرج من الباب في آخر دوام ولا يعود بعد ذلك أبداً. يغطي الزمن بين وظيفة وأخرى أمّا في المحيفرة يدفع بعربة عليها ملابس داخلية أو يبيع الخمر حتّى يجد وظيفة جديدة. ظنّ الناس أن السبب يعود إلى هوسه في السفر إلى جزيرة اللؤلؤ. حتّى جاء ذلك اليوم الذي وصل فيه رجلان

بلباس مدني بصحبة جندي يسألون عن بيت سعندي. كان أطفال الحارة يلعبون أمام دكان حزام فطار الخبر في كلّ الجهات. الشرطة تبحث عن سعندي. خرج من البيت وبعد تفاهم قصير وضع الشرطي القيد في يده واقتاده. تبيّن لاحقاً أن سعندي لا يلتحق بالعمل طلباً للراتب. يريد فقط أن يتعرّف إلى أصدقاء جدد. وبعد أن يصنع الثقة الكاملة معهم يبدأ بالاقتراض. يأخذ الموظف على انفراد ويطلب منه قرضاً. بؤسه وخفّة دمه يساعدانه على إقناع الآخرين فيستلف من الجميع أكبر مبلغ ممكن وقبل أن يفتضح أمره يكون قد هرب من العمل. كان دخله من الاقتراض أكبر من دخله من الوظيفة ذاتها. لذا كان يختار المقار البعيدة عن حارته وأصدقائه. حقّق بهذا الأسلوب دخلاً كبيراً. حتّى أوقعه سوء الحظ في المدرسة الأهلية. كان قد اقترض أكثر من ألف وخمسمائة ريال من المدرّسين والإداريين ومن آباء الطلبة. كان يجب أن يهرب ولكن طمعه بآباء الطلبة وأكثرهم من المنطقة الغربية زين له البقاء مدّة أطول. فهؤلاء عددهم بعدد الطلبة ومن الصعب أن يخبر بعضهم بعضاً. في كل مرّة ينفرد بطالب يسأله عن أبيه وعن منزلهم وبعض المعلومات الأخرى حتّى يصل إلى أحوال الأسرة الماليّة. فيتقرّب من الطالب حتّى يصل إلى الأب. نجحت الخطّة. المصادفة وحدها كشفته. جاء رجل اسمه حويزم مرّة لزيارة قريب له يسكن في حلة ابن بخيت. شاهد سعندي يقف أمام باب منزلهم فسلّم عليه. كان قد رآه في المدرسة بضع مرات. لم ينتبه سعندي إلى هذا الشاهد الذي طرأ. عندما هرب

سعندي من المدرسة اكتشف المدرّسون أنّهم كانوا ضحيّة عملية نصب كبيرة، وبعد تحقيق موسع عرف المدير أن سعندي كان يستلف أيضاً من الآباء. بعث المدير، وهو أحد المخدوعين، مع كل طالب برسالة إلى والده يستفسر فيها عن سعندي. وصلت الرسالة إلى حويزم. كان هو أيضاً إحدى الضحايا فجنّ جنونه وأخبر الجميع عن عنوان بيت سعندي. قُبض على سعندي وأودع السجن، وأضيف الدين إلى أعباء ديونه. بقي موقوفاً في المنطقة الخامسة ثلاثة أيام ثم خرج بصكّ إعسار. صار يلجأ إلى توزيع الخمر متى وجد إلى ذلك سبيلاً. كان سيئاً في إدارة المبيعات. يخلط بين ما هو شخصي وعملي فلم يثق به أحد. كان مصنعو الخمر يعاملونه كموزّع صغير أقرب إلى ناقل بضائع وليس شريكاً. لم يسمح له أيّ منهم أن يعرف أين تُخبأ مقاطع الخمر. يعطيه شنغافة مطارة أو مطارتين، ويطلب منه أن يوصلها مقابل أجر صغير. لم يتمكن من الاحتراف. أحياناً يوصلها للزبون وأحياناً يشربها مع بعض أصدقائه ممّا يسبّب له مشكلة في اليوم التالي. لم تكن الخمر في يوم من الأيام مصدر دخل حقيقي. دخله الحقيقي يأتي من عمليات النصب وإذا تعذّر ذلك عاد إلى بيع الملابس الداخلية في العربة المتجوّلة. يطوف بها الأسواق والتجمّعات. وظيفة تحقّق مكاسب كبيرة لكن حبّه للخمر وشربه المتهوّر وسرعة تأثير الخمر فيه وأسفاره إلى جزيرة اللؤلؤ، أفقدته احترام تجّار الجملة ودعمهم برغم نجاحه وتحقيقه الكثير من الأرباح. شكّلت هذه الوظيفة أهم وظيفة يعتمد عليها في حياته.

يلجأ إليها متى أعيته الحيلة. لكن الخمر يتوسّط حياته. يشرب أيّ نوع من الخمر وفي أي وقت. كان أول من يصل إلى بيت السويمي وآخر من يرحل. في معظم الأحيان يشرب مجّاناً. لا يشارك في القطّة. إذا ازدادت عليه الضغوط كان يمرّ بقيصيرة السدرة فيسرق قارورة أو أكثر من الكولونيا من عربة ابن شريهان أو من دكان الوصيمع ويحضرها معه. حتّى منع السويمي دخول الكولونيا بيته بعد وفاة الفنان مسعود ابن جبرة بجرعة سامة. ارتاع السويمي من الأمر وطلب من سعندي التوقّف عن إحضار الخرش. كان يمكن أن تكون الحادثة في بيته أو أن يكون هو ضحيّة ولكن الله ستر. كان مسعود ابن جبرة من الشلّة. ارتباطاته الفنية قلّلت تواصله معهم. سجّل عدداً من الأغاني في الإذاعة على أمل أن يتطوّر إلى التلفزيون. لكن القدر المحتوم وافاه قبل تحقيق أمنيته. تردّد بين الناس أنه مات بسبب الخرش. مع أن هناك من يقول إن المادة المسكرة التي شربها كانت مسروقة من سبيرتو مستشفى المشمسي. إلاّ أن السويمي لم ينصت للتأويلات واستمر في خطر الكولونيا بكلّ أنواعها في منزله. فوّت هذا القرار الحازم على سعندي فرصة المساهمة المجّانية، فلجأ إلى سرقة قليل من العرق المطلوب توزيعه، يملأ به مطارة فيحضره إلى الشلّة. كان هذا قليلاً في نظر الجميع لا يسجّل مأثرة كرم. استمر عضواً في الشلّة برغم اللعنات والسباب التي يتلقّاها يوميّاً.

* * *

أوّل عهده بالشلّة بشكل رسمي عندما عاد من جزيرة اللؤلؤ

في أوّل رحلة له خارج البلاد. السفرة التي شرب فيها أوّل كأس خمر في حياته. ما زال يتذكّر طعم الويسكي الذي تذوّقه في فندق النخيل بجزيرة اللؤلؤ. يختلف كثيراً عن طعم العرق وطعم الخرش و(الكولونيا). حتّى سكرتها تختلف. يتذكّر لونها الذهبي الزاهي عندما أخرجها حسينوه من لفافة أوراق مجلّة مصرية. كان حسينوه قد أعدّ كلّ شيء قبل وصولهم إلى جزيرة اللؤلؤ بناءً على توصية من عبد العزيز بائع الزل. رتّب أدقّ التفاصيل مع الهندي مدير الفندق. كان سعندي صغيراً في السنّ. في السابعة عشرة من عمره. سافر بورقة مرور تكفي لرحلة واحدة، دبّرها له ابن سويقي بعد أن رفض قسم الجوازات استخراج جواز سفر له. فرح سعندي عندما تسلّم الوثيقة. كانت ورقة استقلاله ورجولته. لم يكن أحد من أهله يعرف أيّ شيء عن سفره أو عن وثيقة السفر. كذب على والده بأنه سوف يذهب إلى البرّ مع الشلّة كالعادة. مرر خلسة ثوباً وغترة وملابس داخلية قبل يوم من موعد السفر ووضعها في سيّارة ابن سويقي.

غيّرت تلك الرحلة حياته إلى الأبد. كان عالمه صغيراً ومحدوداً بحلّة ابن بخيت وبعض الخبرات الصغيرة التي لا يعتدّ بها. كلّ شيء خارج هذا العالم يثير دهشته. عندما يجلس في القهوة أو في ركن المسجد يتسامر مع الأصدقاء، يسمع عن أمور لا يمكن تصديقها. عوالم بعيدة مملوءة بالنساء والمباني الفخمة والمطاعم والشوارع النظيفة. تحدّثوا في حضوره عن جزيرة اللؤلؤ. تحدّثوا عن البنات والبحر والخمر. اختلّت مبادئ متعته.

كلّ ما يعرفه من المتعة السفر إلى البر. يتمتّع بجمع الحشائش البرية والركض على الطعوس مع والده. وفي الليل يسمع قصص الذئاب التي تهاجم البشر. كان يستعرض شجاعته فيأخذ فراشه إلى رأس الطعس وينام هناك وحيداً. وفي أحيان كان والده يأخذهم إلى الخرج ويركنهم في زاوية صغيرة من المشتل ويمضون النهار في صيد العصافير أو الاستيلاء على صغارها المخبوءة في أعالي الشجر، وعندما تنخفض درجة حرارة الشمس كان يتمتّع بالتفرّج على الشباب وهم يسبحون في البركة الواسعة. تلفته أفخاذ صغار السنّ الناعمة. كانت تلك هي مسافات عالمه. عالم مغلق بلا نوافذ أو فتحات حقيقية. كان القدر قد أحدث ثقباً واحداً على العالم الذي ينتظره، ولكنه أغلق بسرعة. في السنة الأخيرة من أيام الدراسة فرض عليه والده إمّا أن ينجح أو يستعد للعمل في سوق الغنم. كان يعيّره بزملائه الذين أصبحوا في السنة الثالثة المتوسّطة وهو ما زال في السنة الرابعة من المرحلة الابتدائية. أمضى أكثر من أربع سنوات في تلك السنة ومن الواضح أنه سوف يمضي ما تبقّى له من العمر في هذه المرحلة. كان ذكياً ولكن الدراسة لم تدخل مزاجه. سنة ينجح في الحساب ويخفق في الفقه والتوحيد والتجويد، وفي السنة التي تليها ينجح في الفقه وفي التجويد وفي التوحيد ويسقط في الحساب والمطالعة والجغرافيا. أربع سنوات متتالية على هذا المنوال. على استعداد أن يمضي مثلها على أن يذهب مع والده إلى سوق الغنم. لا يريد أن يصبح محرج غنم كوالده. أدرك هذه المرّة حزم والده فانضمّ إلى شلّة الحارة

للمذاكرة في سطح المسجد بعد أن قرّر النجاح لكي لا يذهب إلى سوق الغنم. معظم الشلّة طلبة في المتوسطة وبعضهم بلغ الكفاءة. أكثرهم زامله في سنة من السنوات. أعجبه صخبهم في المسجد. لم تكن المذاكرة هي كلّ اهتمامهم. يقضون معظم وقتهم في الركض وتسلّق الحيطان والبصبصة على الجيران. في إحدى الليالي أطلّ من الجهة الجنوبية على عمارة تعطي المسجد ظهرها. كانت نافذة شقّة الدور الأول مفتوحة بمواربة. يمكن باختلاس شديد أن ترى السرير الذي يتوسّطها. من موقع واحد فقط يمكنك أن ترى ما في داخل الغرفة. شاهد امرأة شابّة تنبطح على السرير. جمّده المشهد. كانت المرأة شبه عارية. مؤخّرتها مرتخية تماماً أمام وجهه. شاهد السروال الصغير يشقّ اليتيها الغزيرتين ثم يختفي بين فخذيها البيضاوين المكتنزتين. نادى الشلّة. كانت واحدة من أكبر غلطاته. استعجل في إشراك الآخرين في المشهد. كان يمكن أن يكون المشهد ملكه وحده. الزاوية التي يمكن أن ترى منها المرأة لا تحتمل سوى مُشاهد واحد. فراحوا يتدافعون حتّى بلغ الأمر أن تضاربوا بالأيدي. أحسّت المرأة فالتفتت ثم قفزت من السرير وهربت من الغرفة. جاء زوجها وألقى عليهم نظرة يتطاير منها الشرر وصفق بمصراع النافذة إلى الأبد. فانسدّ الثقب الذي فتحه له القدر على العالم الحقيقي. بقي فترة طويلة يلوم نفسه. ما كان يجب أن يخبر أحداً. كان درساً أهم من كلّ دروس المدرسة. رسبت صورة المرأة العارية المستلقية على السرير في قاع خياله كما رسب هو في السنة الابتدائية الرابعة للمرّة الأخيرة. أخرجه

والده من المدرسة على الفور وألحقه بإحدى حلقات تحفيظ القرآن في مسجد دويخنة مع مجموعة من قليلي الحظّ مثل أخيه سعيد العميان. أكثرهم فاقدو البصر أو لديهم عاهات مستديمة تخلّ بتوازن أجسادهم. ثلاث ساعات يومياً يردّد معهم الآيات القرآنية دون تدبّر. شعر بالظلم أن يكون هو وأخوه سعيد في فصل واحد. في كل مرّة يدخل المسجد يلقي باللوم على والده الذي لا يميّز بين المتخلّف عقلياً وكفيف البصر وبينه. لكنّه يتذكّر قبل أن يعلن تمرّده أن هذه المرحلة هي الفاصل بينه وبين سوق الغنم. حتّى جاء ذلك اليوم الذي عجز فيه عن تجويد بعض الحروف فجلده الشيخ كما يجلد المتخلّفين عقلياً. ففقد صوابه. انقضّ على المعلّم وسحب منه الخيزرانة وجلده بها. من حسن الحظّ أن الأحداث لم تتطوّر. ذهب والده إلى أحد مطاوعة دويخنة وتوسّط عنده حتّى لا تتطوّر الأحداث. اتّفقوا على فصله من الدرس وعدم العودة إليه مرّة أخرى. تخلّص من جميع أشكال التعليم ليتفرّغ للمواجهة الكبرى. مكافحة العمل في سوق الغنم.

يبعد سوق الغنم عن منزلهم أكثر من ثلاثة كيلومترات. عليه أن يستيقظ قبل صلاة الفجر. يؤدّي الفريضة في السوق ثم يغوص في بحر من الأغنام والتيوس ويتحمّل رائحتها الكريهة يومياً كما يفعل والده. كان يكره الاقتراب من والده بسبب رائحة الغنم التي تفوح منه. كان والده يعرف هذه الحقيقة فيقول له متى أحسّ بتذمّره أن رائحة الغنم هذه هي التي تُطعمك وتُشربك. إنّها أطيب من رائحة المسك يا الثور. ثم يزينها بوصف العمل بالشرف

والكرامة ويختم قوله «هذي أبرك من الطرارة والنصب على الناس». ولكن هذه الأقوال والنصائح والمُثل لم تكن تؤثر في سعندي. لا يمكن أن يخزن رائحة الغنم في ثيابه ويدور بها أينما حلّ وأينما رحل. كان يخجل حتّى من دعوة الناس إلى بيتهم بسبب رائحة الأغنام التي يجلبها والده استعداداً لأخذها للسوق في الصباح التالي. حاولت والدته إقامة صلح بينهما ولكنّها عجزت. كانت ترى الأب محقّاً ولكن حبّها لسعندي يجعل الأمر في منتهى الصعوبة. تذكّرت جارتها نورة فهرعت إليها لعلّها تتوسّط عند زوجها الشيخ ابن سويمر لتوظيفه في الحكومة. بعد أيّام عدّة التحق سعندي بأوّل وظيفة في حياته، فرّاشاً في وزارة العمل والعمال. انتظم في البداية. يستيقظ الساعة السابعة صباحاً ويخرج منتظراً باص الموظفين ويعود بعد صلاة الظهر سعيداً. لم يخبر أحداً أنه فرّاش. عندما يُسأل كان يجيب بأنه موظّف في وزارة العمل والعمّال في مكتب الوكيل. أحسّت أمّه بالتغيّرات التي طرأت على شخصيّته فراحت تبالغ في دوره في الوزارة والدولة. بدأ بالفعل يلبس على طريقة الموظّفين. يضع أكثر من قلم في جيب سترته. ويلفّ الجزء الأيمن من غترته من وراء رقبته ويمرّرها على الكتف اليسرى لتنسدل على كتفه. لم يعد يلبس الغترة بطريقة بنت البكار التي اعتادها. وسرعان ما لبس العقال. أصبح من شباب الحارة المحترمين. كان عمره ستّ عشرة سنة فقط. لم تسعفه هذه السنوات القليلة التي عاشها في الدنيا على تقدير الأمور والتفريق بين المكاتب الحكومية المحترمة والقهاوي

التي يتسكّع فيها فتحوّلت غرفة إعداد القهوة في الوزارة إلى مجلس يجتمع فيه هو وأصدقاؤه الصغار ففاحت منها رائحة السجائر وكثرة الأصوات، وأخذ يتأخّر في إعداد القهوة والشاهي وزاد على ذلك كثرة الغياب. استمرّ ثلاثة أشهر يتصارع مع مصيره الوظيفي وأخيراً تمّ طيّ قيده. كانت تلك التجربة المحترمة سبب تراخي والده عن فرض سوق الغنم عليه. تنامت آماله في ابنه. أصبح موظفاً محترماً. أعجبه شكل سعندي في ملابس الموظفين. صار يفاخر عند الأصدقاء والأقارب. لا أبشركم توجه. صار موظّفاً عند الحكومة. يعاضد الدولة. لا يقدرون على الاستغناء عنه. أمضى شهرين لا يعرف أن سعندي قد ترك العمل في الحكومة. لاحظ أنه ينام حتّى وقت متأخّر ثم لاحظ أنّه لم يعد يهتمّ بملابسه واختفت الأقلام التي كانت تزيّن جيب صدره. لم يسأله البتة. لا يريد أن ينتصر للهواجس الهدّامة. حتّى جاء ذلك اليوم الذي طلب فيه سعندي فلوساً. فقال الأب:

- دخلك أكثر من دخلي وأنا أبوك أنت تعطيني مهوب أنا الي يعطيك. فقال سعندي بهدوء:

- قدمت استقالتي.

لم يفهم الأب ما الذي يعنيه باستقالتي. ففي سوق الغنم لا يوجد شيء اسمه استقالة.

فقال الأب مستوضحاً:

- يعني فصلت من العمل.

كاد الأب يجن من وقع الخبر. فسأله:

- فصلت ولا هم فصلوك؟

فقال سعندي:

- لا أنا فصلت أن شاء الله بدبر لي وظيفة ثانية.

قفز الأب من مجلسه وصرخ:

- ليش يا التيس؟

شعر سعندي بالمهانة. منذ أن التحق بالوظيفة لم يناده والده التيس أو الثور. لم يعد يناديه حتّى سعندي. كان يعتقد أن علاقته بأبيه تغيّرت بحكم أنّه صار موظّفاً ومن رجالات الدولة. فردّ على والده:

- الله يهديك معدنيب بزر تكلمني بهال الألفاظ.

نهض الأب غاضباً وقال:

- صرت أحترمك أحسبك رجال يا الهيس الأربد.

التفت الأب إلى الأم وقال صارخاً:

- بكره الصبح خليه يقوم تراه بيروح معي سوق الغنم. هذا أقصاه عنز يجرها وراه. هذا كفو يصير رجال دولة.

* * *

قاست والدته الأمور بالحكمة والعقل. اكتشفت أن والده على حقّ. على سعندي أن يذهب إلى سوق الغنم. ولكنها منّت النفس بأن العمل في سوق الغنم سوف يكون موقّتاً حتّى يتدبّر وظيفة حكومية أخرى. قرّرت أن تقول ذلك لسعندي عندما يعود من سهرته. ولكن سعندي لم يعد تلك الليلة. أذن الفجر وسعندي لم

يعد. ركضت إلى والده وأخبرته بغياب سعندي. خشيت أن يكون لغيابه علاقة بالتطورات الجديدة مع والده. أظهر الوالد حزماً وقال:

- ينحاش ولا ما ينحاش سوق الغنم يحتريه.

ثم أردف:

- إذا جاء قولي له يروح لمعدية ويجيب منها العنز.

ثم ارتدى ملابسه وخرج لا يلوي على شيء. شعرت أم سعندي أن موعد المعركة بين الابن وأبيه قد أزف. ستواجه أكبر تهديد في حياتها. سعندي أصغر أبنائها والسوي بينهم.

عندما ولدته ظنّت أن معاناتها مع المرض قد انتهت. لن يكون سعندي مجدور الوجه أو أعمى. سوف يعيش معها حتّى يوم مماتها كما يعيش أبناء الآخرين. فهي ككلّ الأمّهات تحتاج إلى طفل يملأ عليها حياتها بالسعادة لا أطفال مرضى يموتون سريعاً أو يعيشون مشوّهين قبيحين. وعدها الدكتور في مستشفى المشمسي بأن الطفل سيكون سويّاً إذا هي سمحت باللقاح. أخذ اللقاح فنجا من العدوى. عاشت تراقب تطوّرات حياته على حافة الخوف والتوجّس حتّى مرّت السنوات الخمس الأولى التي أصيب فيها أبناؤها الأربعة. بدأت تشعر أن سعندي ينمو بعيداً من الآلام والتشوّهات. سيعيش حياة طبيعية. كانت قد فقدت طفليها الأوّلين بسبب الجدري. مات الأوّل بعد ولادته بثلاث سنوات ومات الآخر بعد عدّة أيّام بعدوى من أخيه الراحل واحتفظت باثنين آخرين، أوّلهما نجا من الموت لكنه فقد عينيه وتشوّه وجهه

وتدهورت قدرته على التفكير السويّ. والثاني أنثى جميلة نجت من الموت ولكن جمالها لم ينجُ. تشوّه وجهها وفقدت واحدة من عينيها والعين الأخرى شابها ابيضاض يثير الاشمئزاز عند التحديق في وجهها. تشعر أم سعندي أن الله جعلها علامة فارقة. قد يكون أبناؤها هم آخر من أصيب بالجدري في الرويض. لقد شنّت الحكومة حملة لمكافحة الجدري ويقال إنها قضت عليه. عندما جاء سعندي إلى الدنيا كان بيتها قد تمّت تسويته. مات من مات وبقي من بقي. أخذته بعد ثلاثة أيام إلى الشيخ حميد يسمّيه ويقرأ عليه ويرقيه لعلّه ينجو ممّا أصاب إخوته وأخته. زادت كمية الدعاء والدموع ليحفظه الله سويّاً أو أن يأخذه كما أخذ إخوته الكبار. لم يكن مطلبها سوى أن يبقى على قيد الحياة وأن يتمتّع بالخلق الحسن. إنها مطالب تافهة على خالق هذه الأكوان.

لم تكن المرّة الأولى التي يغيب فيها سعندي عن البيت. تعرف أنّه ينام عند أصدقائه إذا طال عليه الليل. وفي فصل الربيع يذهب إلى البر ويمكث هناك بضعة أيّام. كانت تسامحه على كلّ نزواته وتخفيها عن والده. إنّه ابنها الوحيد الذي نجا من المصائب. لا يمكن أن تسمح لأحد حتّى لأبيه أن يسيء إليه أو يعكّر صفو حياته. كان مدلّلها وأملها، لا يغيب ذلك عن والده برغم أنه كان يخفي حبّه وتدلهه به. كان يعامله بقسوة الأب حتّى يجعل منه رجلاً حقيقياً. عقد عليه الآمال في صون اسمه من الزوال. كانت تعرف هذا ولكنها لا تستطيع أن تتحمّل قسوة الأب في بعض الأحيان. سعندي حبّها وأملها ومستقبل عائلتها. عندما

قال لها الدكتور بعد سنوات أن مرض ابنها لا علاقة له بالجدري كادت تموت من الفرح. صرخت وفقدت جزءاً من وقارها حالما عرفت أنّه ليس ذلك المرض اللعين الذي طاردها سنوات بلا هوادة أو رحمة.

عبّرت عن شكرها للدكتور وشرحت له معاناتها مع الجدري ثم راحت تدعو له بالعافية والصلاح والسداد وأطنبت في مدحه. فاضطرّ الدكتور إلى أن يخفي عنها خطورة مرض ابنها الجديد. لم يرَ الدكتور أي فائدة من إخبارها بأن هذا المرض لا يقل خطراً عن الجدري. تركها تتخبّط في فرحها، وقد أسهم الجانب الأخلاقي للمرض في تحفّظ الدكتور. كان يعرف أن أيّ امرأة في الرويض لا يمكن أن تقبل أن يصاب ابنها بمرض من أمراض الفاحشة. مرض على جانب من الخسّة وليس كالجدري الذي يفتك بالناس الطيبين. يجدر بها ألا تعرف أن ابنها مصاب بالسفلس. طرح عليها بضعة أسئلة حتّى اطمأنّ أنّه غير متزوّج وطلب منها ألاّ يتزوّج حتّى يبرأ من المرض. خرجت من عنده وهي تدعو له وتدعو لابنها وتشكر الله العزيز الذي لم يخطفه ولم يبتله كما ابتلى أبناءها الآخرين وبنتها المسكينة التي أصبحت أقبح فتاة في حلّة ابن بخيت.

* * *

عندما جاءها من يقول لها إن سعندي يرقد في المستشفى كانت تجلس مع ابنها الأعمى على الأوجار تتحدث معه عن مستقبله الغامض. تنصحه بأن يجتهد. لقد ولّى عهد الطفولة منذ

زمن بعيد. مع أنها تتفهّم وضعه العقلي الذي لم يتجاوز عقل طفل في الحادية عشرة، ولكن العالم لا يمكن أن يبقى بلا عدوان. تحزن عندما يردّ عليها بضحكاته الصبيانية. أحياناً تصرخ في وجهه لعلّها توقظ عقله الطفولي على عالم لا مكان فيه للبراءة. سيأتي اليوم الذي يحتاج فيه إلى نفسه. لا يمكن أن يبقى في هذا البيت معتمداً على أمّه وأبيه وأخته. عليه أن يتعلّم صنعة يعيش منها وربما تؤهله للزواج. فالعمى وحده ليس مشكلة. كثير من العميان أصبحوا علماء دين في الرويض. كانت تنصحه دائماً بأن يحفظ أكبر قدر من القرآن حتّى يستطيع أن يقرأ على الناس ويؤمن عيشه. القرآن هو وظيفة العميان الوحيدة في الرويض. يغيظها أنّه غير متحمّس. لا يمكن أن يحفظ من القرآن الكريم ما يكفي لترشيحه لهذه الوظيفة. أحياناً ينقلب من الضحك إلى البكاء إذا هي شددت عليه. تشعر بالأسى. تأخذ رأسه في حضنها وهي تقول إنها لن تبقى له إلى الأبد. لا يدرك مدلول هذا الكلام. لا يعرف حتّى معنى الموت والفراق. عالمه يبقى سجين هذا البيت وسكّة البازمي يتسلّى بمراقبة الأولاد يلعبون «طاش ما طاش» أمام دكان حزام اليماني. كل يوم يحصل على أكثر من قارورة كوكاكولا أو كازوزة هدية من المتراهنين. في كل مرّة يتراهنون يبدأون به، ارتبطت سعادته بهذه المراهنات التي يختلط فيها الصبيان والكبار في لعبة واحدة يستطيع هو أن يشارك فيها بالخدمة أو بالتشجيع. يسمع أحياناً من يناديه باسمه ويطلب منه أن يحضر مفكّ ببسي أو أن يذهب إلى داخل الدكان ويحضر قارورة جديدة. يعمل كل شيء

يطلب منه بإخفاق قليل قد يسبب الضحك. كان يخشى فقط أن يأتي سعندي في أيّة لحظة ويطرده. كان سعندي يخجل من وجوده. لا يريد أن يكون أخوه مجالاً للهزء والتندّر أو أن يكون خادماً أو شحّاذاً عند الآخرين. ينهض ويعود إلى البيت دون أن يحتج أو يبكي. لا يعرف قيمة الدموع. تختلط الأحزان بالفرح بالحياد. عندما يسمع حزام يعاتب سعندي على طرده كان يتلكأ لعل حزام ينتصر في ترجّيه ويعود مرّة أخرى إلى اللعب مع صبيان الحارة. لكن عواطف حزام تنتهي حالما يناديه أحد. يذهب أخيراً إلى أمّه ويقصّ عليها إنجازاته. ينسى أن يخبرها أن سعندي طرده. كانت تعرف أن سعندي يخجل من وجوده. حاولت أن تفهم سعندي أن هذا هو أخوك. عليك أن تأخذ بيده بين الناس. لا يستحقّ أكثر مما ابتلاه الله به. لا بدّ أن ينعتق من هذا العالم الضيّق ويتّسع أفقه قليلاً. كان يسمع جدالها مع سعندي. مرّة تدخّلت سعاد وانتصرت لأخيها سعيد على سعندي. لا تريده أن ينتهي شحّاذاً يأكل من صدقات الناس. إلى متى تبقى تطعمه وتسقيه وتحميه. تسعد عندما يعطيه والده عنزة أو تيساً لتوصيلها إلى الجيران. يفرح بسحب التيس الحرون. تساعده قوته الجسدية على سحب التيس من بيتهم إلى مجلب الغنم. أخطأ مرّة واحدة. سمع أصوات تجمع فتوقّف ينصت للجدال. ارتخت قبضته عن التيس فأفلت من يده واندفع نحو سكّة عريم، وأثناء المطاردة دخل التيس المسجد. وقد أخبره أحدهم بذلك. كان المصلّون منهمكين بصلاتهم. لم يتردد أو يتأن، دخل وراء تيسه وراح يطارده بين

المصلّين ويصطدم بهم. يدفع هذا ويسحب ذاك. قطع المصلّون الصلاة وانقضوا عليه. ضربوه حتّى اكتشف أحدهم أن الرجل غير طبيعي. كان يصيح كالطفل. ولا يعرف كيف يستنجد أو يعبّر عن آلامه. وتبيّن أنّه ضرير أيضاً. كان يردد هذا تيس أبوي. لا علاقة بين ما ينزل عليه من ضرب وبين صرخاته. حتّى قال أحد المصلّي: «يا جماعة الظاهر أن الرجال مهوب صاحي». بعد هذه الحادثة وحوادث كثيرة مشابهة توقّف والده عن إسناد مثل هذه المهمّات إليه. برهن أنّه لا يستطيع أن ينجز عملاً بمفرده فصار والده يستعين به على حمل الأغنام وتوصيلها إلى السوق على أن يكون برفقته. فخرج من ذهن الأمّ مفهوم الأجر. كانت تعرف أن سعندي يحبّه ويتمنّى له الخير. أحياناً يعطيه ربع ريال يشتري به كازوزة. فيخرج إلى الشارع فرحاً أحياناً ثمّ يعود بكازوزة وأحياناً يعود بدون أي شيء. لا أحد يعرف أين تذهب الفلوس. صار مشكلة عصيّة على عقل سعندي. شقيقه الوحيد وعضيده. أين يضعه في هذا العالم؟ لا يمكن أن يكون قريباً منه. عندما يراه يبكي أو يضحك دون سبب يصرخ في وجهه. حاول إيقاظ عقله، تحريكه لعلّه ينتبه إلى العالم لكن دون جدوى. كانت الأم تشعر أنّها في ورطة. كلّ شيء يمكن إصلاحه إلاّ عقل الإنسان. ركزت اهتمامها على سعندي. فهو الأمل الأخير لها ولكل أفراد العائلة بمن فيهم سعيد.

* * *

دخلت أم خويلد عليها وهي تحتضن ابنها سعيد. كادت

تصاب بالجنون عندما عرفت أن ابنها السويّ يرقد في المستشفى في غيبوبة تامّة. دفعت سعيد ونهضت كالمقروصة وصرخت كأنّما كتب عليها القدر أن تكون في هذه اللحظة يائسة من هذا التعس الذي يرقد في حضنها. ألقت نظرة عجلى على وجهه. إذا ما حدث شيء فسيكون هذا المتخلّف القبيح هو وحيدها. أخذت عباءتها على عجل ودون أن تفكر في الأمر طلبت من سعيد أن يذهب فوراً إلى سوق الغنم ويطلب من والده ملاقاتها في مستشفى المشمسي. كان الخبر قد انتشر متناسلاً من شخص إلى آخر حتّى وصل إلى جارتها وصديقتها أم خويلد التي جاءها الخبر من بنت مشاعل بنت فهد زوجة السويمي، ومفاده أن ابنها يرقد في المستشفى. ذهلت كأنّ القدر بدأ يتدخّل ليعطيها مصيبة تأخّرت كثيراً. من حسن حظّها أن هذه السلسلة من الرواة لا يوجد بينها من كان يعرف سبب وجوده في المستشفى. خرجت بصحبة أم خويلد قبيل صلاة المغرب. سارت في الشارع كالمجنونة. وصلت إلى المستشفى الساعة السادسة ليلاً. في وقت تمنع فيه الزيارة إلاّ لنزلاء الدور الخامس من الشيوخ وخدمهم وكبار الشخصيّات. كانت أم خويلد شديدة السمرة، فظنّ الحرس أنّها من عبدات الشيوخ فسمحوا لها بالدخول. كان المستشفى يغطّ في نوم عميق ورائحة السفنيك المطهّر تفوح في الأجواء. صادفت عند باب المصعد امرأة هندية تدعك بلاط الممر وتمسح الجدران البيضاء اللامعة، فأرعبها الصمت والنظافة والبياض، وقد بدت المرأة الهندية كشيطان أو ملاك الموت الذي يريد أن ينقضّ على روح

ابنها. لم تجرؤ على سؤالها ولم تقترب منها. ولكن أم خويلد بادرت الهندية بالسؤال عن الغرفة التي يرقد فيها سعندي. كان التفاهم مستحيلاً. ابتسمت الهندية وأخذت تشير نحو الممرّ المجاور حيث تجلس الممرضات. لم تفهم أم خويلد ما تقوله الهندية ولم ترغب أمّ سعندي في أن تفهم، فاضطرّت الهندية إلى أن تترك سطلها وممسحتها وطلبت من المرأتين أن تتبعاها. رفضت أم سعندي وصرخت في وجهها ابعدي عنّي يا الجنية. حاولت أم خويلد إقناعها بأن هذه عاملة نظافة ولكنّها لم تفلح. اضطربت الهندية. لا بدّ أن هناك شيئاً ما غير طبيعي. فركضت مولية الأدبار وبعد دقائق عادت يرافقها عدد من الرجال. سألها أحدهم عمّا تفعله فردّت أنها تريد زيارة ابنها المريض الراقد في هذا المستشفى. بعد حوار قصير تبيّن للرجال أن ابنها لا يرقد في الدور الخامس. فقال لها أحدهم إن الأوامر تقتضي أن تأتي في الصباح، فالزيارة لبقية الأدوار غير مسموحة في مثل هذا الوقت. عبثاً راحت تترجّى وتدعو لهم، فبعد مداولات كثيرة دفعوها خارج المبنى ثم جاء الشرطي وأخرجها هي وزميلتها من فناء المستشفى. أمضت تلك الليلة عند بوابة المستشفى. كانت ترى السيّارات الفارهة تدخل وتخرج ولكنّها لم تجرؤ على سؤال أحد. رفضت أم خويلد الذهاب وتركها وحدها فنامت المرأتان بقرب البوّابة الكبيرة المواجهة لقهوة طلعة المشمسي. كل خمس دقائق تستيقظ على صراخ القهوجيّة أو صياح صفّارات سيارات الإسعاف وهي تجلب المرضى والمصابين. تنهض وتتحرّك بعيداً عن السور

لتشاهد المبنى الشاهق الضخم ذا الطبقات الخمس، والذي يرقد أعزّ أبنائها في إحدى غرفه يصارع مصيره المجهول، فتترجّى الجندي الذي يقسم لها أنه لا يملك أيّ شيء. عليها أن تذهب إلى بيتها وتعود في الصباح، فهذه هي الأوامر. وبعد أن تغرق في دموعها يرق فيجري بضع مكالمات تلفونية ثم يعود إليها مداوياً محنتها بأن يدعو لها ويطمئنها قائلاً إن هناك أطبّاء جيّدين سوف يعتنون بابنها. فتلجأ إلى السور محتمية به من غضب الطبيعة، الذي لا يرحم وتحاول أن تتسلّى مع أم خويلد بالحديث عن الحياة والموت والدعوات الصادقة والتعوّذ من الشيطان الرجيم، وبين فترة وأخرى تسأل أم خويلد لماذا لم يأت زوجها فقد بلغت الساعة الواحدة ليلاً. هل أخطأت عندما أرسلت ولدها سعيد. كيف سيصل إلى سوق الغنم؟ وكيف سيهتدي إلى والده؟ لعلّها تواجه مصيبة أخرى. فكّرت أن تعود إلى البيت ولكنها لم تحتمل أن تترك سعندي في هذا المبنى الضخم الموحش دون رعايتها. كانت أم خويلد تطمئنها بأن سعيد رجل سيعتني بنفسه. فالعميان يملأون البلد. يتدبّرون أنفسهم. كانت تجاملها وتشجعها. كانت تقول لها: «لا تخافين يمكن أنهم ما يعرفون في أي صحيّة يرقد سعندي. يمكن راحوا للفوطة». كانت تحسّ بنغمة اليأس والخوف والكذب الجميل في صوت أم خويلد. تعرف أنها ليست صادقة في استنتاجاتها. تقول تلك الكلمات لتطمئنها فقط. ليس هنالك مستشفى كبير مثل هذا في الرويض. اسودّت الدنيا في عينيها أكثر مما سوّدها الغطاء الكثيف الذي يغطّي وجهها. تبكي بلا تعابير

وهي تخفي الدموع. مضت ساعات الانتظار كالركض على السراط المعلّق على جهنم. كانت تنام وتستيقظ في كلّ دقيقة تقريباً حتّى أطلّ الصباح أخيراً. بدأت حركة المراجعين فقفزت إلى البوابة ودخلت، ولم تتوقّف إلاّ بعد أن أصبحت عند البوّابة الداخلية، فوجدت رجلاً أوقفها وأخبرها أن موعد الزيارة الساعة الثامنة وليس الآن. عليها أن تنتظر. لم يصدّق أنّها كانت نائمة على البوّابة الكبيرة منذ ليلة البارحة، وليس بمقدورها الانتظار أكثر، وأن ابنها في الداخل. أحسّ الرجل بتصميم المرأة فسمح لها وسمح في الوقت نفسه لكلّ المنتظرين والمنتظرات.

وجدت سعندي يرقد في إحدى الغرف الكبيرة بصحبة ثلاثة أشخاص يغطّون في نوم عميق. حاولت أن تتمالك أعصابها فالموقف لا يحتمل الانهيار. يجب أن تجد سعندي سليماً معافى. ليس له خيار آخر. مخاتلات القدر لا مكان لها الآن. ابنها وحيد وعلى القدر أن يفهم ذلك. الرغبة العارمة يجب أن تصنع الأقدار. ستفرض ما تحلم به على الحقيقة. سعندي يجب أن يعيش بغضّ النظر عن تبدّلات المصائر. سعندي يجب أن يبعد عن هذا الطريق المملوء بالتقلّبات. لكلّ إنسان فرصته. لقد حانت فرصتها في الأمل. لا يمكن أن يفعلها الربّ بهذه السهولة. ملف قدرها ملآن بحزن يكفي عائلات عديدة. هذا هو الرجاء الأخير من ربّ الأكوان. لم يعد ما تتمنّاه مجرّد رجاء. إنّه حقّ. لقد وضعها في هذا الموقف ليعطيها فرصة تستبشر بها. ركضت إلى جميع النائمين. أطلّت على وجوههم حتّى كشفت عن وجه ابنها. لم

تكن المرّة الأولى التي تشاهده فيها نائماً. اعتاد في السنوات الأخيرة أن يأتي متأخّراً في الليل، وينام كما ينام أهل الكهف شاخراً شخيراً لا يطاق. ولكنه في نومته هذه بدا هادئاً. أنفاسه منتظمة فاطمأنت. لم تشاهد أيّة لفافة أو أي شيء يشي بأنّه مصاب. نادته باسمه لتوقظه دون فائدة. استيقظ مريض راقد بجواره وقال لها:

- جابوه أمس يا خالة. أنت أمّه؟

فقالت:

- نعم يا ولدي.

فقال:

- لا تخافين إن شاء الله بيقوم. أصبري بعد شوي بيجي الدكتور ومعه الممرضة. يطمنك عليه أن شاء الله ما فيه إلاّ العافية.

لم تكن تعرف أي سؤال توجّهه إلى هذا الرجل. لاحظت أن جميع المرضى عليهم لفافات وجباير، وقد كان هذا عزاءً كافياً لتهدأ.

تهالكت على كرسي صغير في صدر الغرفة وجلست أمّ خويلد على الأرض. كانت مرهقة ومتوتّرة. من يراها يخمن أن عمرها تجاوز الثمانين مع أنها في أوّل الستين ونشطة تعمل في شتى المجالات الصعبة. لكن جسدها المحدودب ويديها الجافتين ووجهها الحنطي الشاحب وتفاصيل ملامح وجهها الغليظة تشي بأنّها امرأة عجوز أدركتها عوادي الزمن. بعيداً عن شكلها كان كلّ

شيء فيها سليماً قوياً لا يؤلمها سوى ابنها سعيد وابنتها سعاد وهذا الشاب المغمى عليه في انتظار أن يفيق ويخبرها بمصير روحه.

انتظرت أن يستيقظ عدّة ساعات. ولكن سعندي استيقظ بعد حوالى ساعة من مغادرتها المستشفى. غادرت عندما حان وقت انتهاء الزيارة الصباحية. كانت أحسّت أنه يتحرّك ويشخر وفي بعض الأحيان يحاول أن يتزحزح من مكانه. قفزت وقفزت معها أمّ خويلد. وفي تلك الأثناء دخل الطبيب. شاهد المرأتين. صرخ بصوت ملؤه العطف والحزم:

- عاملين أنتو هنا.

فأخبرته أم سعندي بهويتها. فقال:

- ما تخافيش هو أن شاء الله حيكون بخير.

أخبرهما بالعمليات التي أجريت له وطلب منهما أن يذهبا الآن حتّى يستريح. للتوّ خرج من غرفة العمليات. كان كلام الطبيب دافئاً ومتعاطفاً. فارتاح قلبها. عندما تركت المستشفى لم تتذكر أي شيء يمكن أن تطمئن إليه. لقد أعطاها الدكتور وعوداً.

* * *

«عشان يرجع لوعيه بالكامل لازم ينتظر أكثر من يوم كامل. قال الطبيب للضابط. هو الآن كويس وحالته حتكون عال إن شاء الله. بعد كم ساعة حنشوف أثر العملية».

كان سعندي يسمع حوار الدكتور وصوت الضابط والممرضة

فتاه بين الأصوات. أحسّ بالظمأ الشديد. صرخ موية شوية موية. كانت الأشياء تبدو كحلم. يحسّ بأنه يطفو فوق سطح مرصوف بالماء. كمية هائلة تحيط به. في جميع أحلامه عن الماء كان البحر يحيط به كغابة مجهولة. إنه يغوص في البحر ولكن الطبيب أخذ يكرر على مسمعه: «أنت في المستشفى مش في البحر». ألقى سعندي نظرة طويلة على الفتاة الواقفة قبالته. بيضاء متينة ذكّرته برحلة الحبّ القاتلة. شعر بالظمأ، صرخ:

- موية الله يخليكم.

فاقتربت يد الفتاة البيضاء من فمه وراحت تمسحه بخرقة مبلولة.

عاش فترة طويلة يعيش صدمة الماء الذي لا نهاية له. صدمة البحر الذي قاده إلى حبّ دمّر حياته. أوّل أكبر كمية ماء شاهدها في حياته في بركة حيالة البويبية التي يصبّ فيها الماء المستخرج من الأرض قبل توزيعه على الأشربة. ظنّ أن ذلك الإناء الإسمنتي هو أكبر وعاء ماء في العالم. يسبح فيه عشرة أطفال دفعة واحدة. لكن البحر يمكن أن يبتلع أهل الرويض كلّهم. سمع بالوديان والأنهر وسمع أيضاً بالبحر. ولكنه لم يتصوّر أن يكون هناك ماء بهذه الكمية في مكان واحد. صحراء مائية لا نهاية لها. ثلاث ساعات من الإبحار في اللنش لم تفتر دهشته. فقد خياله مقاييس الأشياء. كلّ شيء يتمّ اختراعه توّاً. توقّف اللنش مرّتين في عرض البحر. ينطفئ دون سبب وبعد قليل يعاود النوخذة تشغيله. خاف في البداية ولكنه لاحظ أن الجميع لا

يلتفتون إلى المشكلة. حتّى النساء المتكدّسات في آخر اللنش لم يبدين اكتراثاً يُذكر فاكتسب هدوءهن وصار يتأمّل في العالم الجديد المترامي أمامه. طرح سؤالاً أو سؤالين على الرجل الذي يقف بجانبه ثم صمت. ترك خياله يخوض في المفردات الجديدة وحيداً. شعر بمتعة ورضى. يبحث عبثاً عن شبيه بها في ذاكرته. كان الجو خانقاً والرطوبة تملأ جزئيات الهواء. انتابه في البدء قليل من الدوار ثم شعر بالرغبة في الاستفراغ ولكن كل هذا تلاشى مع تدفق المشاهد الجديدة. كان عمره نحو سبع عشرة سنة طافحاً بالحيوية والرغبة في التفجّر، مرّت على الحادثة أكثر من ثلاث عشرة سنة. كانت سفرته الأولى إلى جزيرة اللؤلؤ. لا ينسى صوت النوخذة وهو يعلن موعد الإقلاع. تدافع الناس، فركض وركب دون أن يسأل عن الشلّة، كان نصيبه فسحة يطلّ منها على البحر في مقدّم اللنش. تحرّك اللنش مسحوباً على جنبه حتّى يخرج من الفرضة والمحرّك يتفجّر بقوّة والناس تتمايل وتتزاحم قبل أن تستقرّ. غاص في الأجساد. يريد أن يؤمّن لنفسه موضعاً مريحاً. وعندما رفع رأسه إلى البحر فقد حسّ الاتّجاهات. كانت مباني الخويبر أمامه قبل التحرّك ولكنها الآن أصبحت خلفه. لقد استدار اللنش دون أن يحسّ بذلك. وبعد دقائق أصبح اللنش في عرض البحر. تغيّرت نغمة المحرّك. صار صوته صاخباً متواصلاً. أخذت مقدّمة اللنش ترتفع وتنزل ثم استقرت حيث راحت تشقّ الماء وتبعثره على الجوانب في مشهد خلاّب يأسر القلوب. فاستمتع أيما استمتاع. تأمّل في الماء

المتلاطم وفي الزبد الأبيض الفوّار والأمواج العالية المتكسّرة وفي لحظات خاطفة كان يشاهد أسماكاً تتقافز. كان يلتفت هنا وهناك يريد أن يرى شيئاً شبيهاً بدهشته. يبدو أن معظم الركاب معتادون ركوب البحر. سار اللنش. لم يهتمّ أحد غيره بهذا العالم المائي الجميل المنتثر أمامه. كان من أوائل من شاهد الأرض اليابسة عندما بدأت طلائعها تظهر من بعيد. كانت فعلاً جزيرة اللؤلؤ. كانت اليابسة تلامس البحر على ضوء الشمس الجميلة فتظهر على سطح البحر حبيبات لؤلؤ منثور. وصل اللنش إلى الفرضة حوالى الرابعة ظهراً، وبعد إجراءات إدارية وتفتيش دخلوا جزيرة اللؤلؤ رسمياً. استقبلهم حسينوه على بوّابة الفرضة وأخذهم مشياً إلى الفندق. كان قد استأجر لهم غرفة واحدة حسب ميزانيتهم. غرفة لا تحتوي إلاّ على سريرين وخزانة وبساط متهرّئ مفروش بين السريرين. فاتّفقوا أن ينام فحيج وبن سويقي الليلة الأولى على السريرين والليلة الثانية لسعندي وعبد الهواشم والأخيرة يتفق عليها لاحقاً. لم تكن قضية على أيّ حال. كانوا على استعداد أن يناموا حتّى على الرصيف. لم ينم أيّ منهم على سرير من قبل باستثناء ابن سويقي الذي سبق أن زار كل المحجّات السياحية لأهل الرويض، ابتداءاً من قرندول مروراً بحي الطرب حتّى الدوب في بلاد الفرس. أما البقية فكلّ شيء جديد عليهم وفي طور البراءة. منذ لحظة الوصول ألقى فحيج وابن سويقي بجسديهما على السريرين وغطا في نوم عميق. جلس هو وعبد الهواشم أرضاً وجلس حسينوه على حافة السرير الذي ينام عليه فحيج. بعد

كلمات مقتضبة أخرج حسينوه قارورة الويسكي من اللفافة. اعتلت الدهشة محيّا سعندي. انتابه التوتّر. كانت القارورة جميلة وزاهية وكأنها مملوءة بالذهب المذاب. تناولها عبد الهواشم وقلبها في يده متظاهراً بالخبرة. ساعده على التظاهر أنه سبق أن سمع بكلمة ويسكي. فطرح السؤال الوحيد الذي يمكن أن يسأله هل هذا ويسكي؟ أما سعندي فقد صمت. يعرف أن هذا خمر لكنه لم يكن يعرف كيف يتمّ التعامل معه أو الإعداد لمجلسه. يسمع به ويعرف أنه يبسط وأحياناً يسبب القتل والدياثة. سمع من والده حكايات كثيرة. إحداها أن شارب الخمر يمكن أن يجامع أمّه وأخته بعد أن يفقد عقله وإحساسه بالشرف. كان يخاف دائماً من شرّيبة الخمر. سبق أن شاهد سكرانَ في الشارع يطارده الصبيان وهم يقذفونه بالحجارة ويصرخون السكران السكران، فانضمّ إليهم في حفلة صاخبة لن ينساها أبداً. كان السكران يشتم ويزبد ويرعد. كان الخمر في خياله يجمع كلّ الجرائم. عندما أخرج حسينوه القارورة اللامعة سرى في جسده شيء من الذعر. خاف على نفسه مع أن شكله ووجهه وقصر قامته ونحافته الشديدة لا يمكن أن تجذب أشد الناس فحشاً وشذوذاً. خشي أن يكون هدف هذا الرجل أن يخدرهم ثم يفعل فيهم. كان هو وفحيج الأصغر سناً. أيّ منهما قد يصبح هدفاً لهذا الرجل الغريب، حتى ابن سويقي حتّى عبد الهواشم. لأوّل مرّة يخاف على نفسه. لا يتذكّر أن أحداً حاول اغتصابه أو أغواه في الرويض. لكن الذي يقوى على فعل الفاحشة في أمّه لن يتردّد في فعلها في غلام أيّاً

يكن شكله. في جزيرة اللؤلؤ كل شيء مباح كما أخبروه. عليه أن يلتزم الوصايا قبل أن يكون جسده عرضة للاعتداء. كان في ذهنه خزنة من التعليمات والنصائح فهمس في أذن عبد الهواشم أن يتخلّص من هذا الرجل الغريب الذي جلس على حافة السرير يتباسط معهم. لا يمكن أن يسكر وهذا الرجل جالس. يكفي أن اسمه حسين. ولكن عبد الهواشم رفض طلبه. كان عبد الهواشم أكبر منه قليلاً وأقوى جسداً. عمله كحمَّار عزّز قوّته وقلّل حذره. كان ينقل البضائع والأثاث والأرزاق على كتفه ويصعد بها إلى أعلى الأدوار. يسكن مع حماره في غرفة واحدة. جاء صغيراً من الحسيوي وكبر في الروضة. سكن في البداية لدى أخواله ثم استقل عنهم. قويّ البنية شديد المراس لا يعرف الخوف. يردّ كثير من أصدقائه هذا إلى علاقته المباشرة بالحمار. مال عليه وقال له:

- هذا الرجل هو الذي سيأخذنا إلى القراندول.

فردّ سعندي:

- عندنا ابن سويقي دليل. قد جاء إلى جزيرة اللؤلؤ عدّة مرات.

ولكن عبد الهواشم قال هامساً وبحدّة:

لا يهمّك ابن سويقي ما يدري وين ربي حاطه فيه. ابن سويقي ما يعرف إلاّ ها البنات حقات الهنود شيون ووسخات وعجز. يقولون فيه بنات مسارقيات حلوين ونظيفات وبيدلنا على بيت بنت مستورة.

ثم اقترب من أذنه وقال له:

- أسكت بس لا تخربه علينا هذا يشتغل جرار.

أصيب سعندي بصدمة كلمة جرار. لأوّل مرّة يعرف الأشياء بلغتها الحقيقية لا مجرّد كلمات مجازية تستخدم للسباب والتشاتم. ها هو الآن أمام قوّاد. أخذ ينظر في وجه حسينوه ليرى بماذا يختلف عن بقيّة البشر. رجل في الأربعين من عمره، حنطي فاتح كأيّ واحد من أهل جزيرة اللؤلؤ، الذين قابلهم قبل قليل في الفرضة. يضع غترته على رأسه بطريقة بنت البكار التي يلبس بها معظم شباب الرويض هذه الأيام، وثوباً سماوياً خفيفاً من الأقمشة المفضلة عند القومجدية. لاحظ تشوّهاً غريباً في أصابع يده اليمنى. إصبع السبابة والتشهّد قصيران جداً لا يمكن الانتفاع بهما في المهمّات العادية. طولهما يعادل طول أصابع طفل حديث الولادة. بينهما فتحة صغيرة لا تتّسع إلاّ لسيجارة، كأنما خلقا لهذا الغرض. فالرجل لا تنطفئ سيجارته أبداً. يغرسها بين هاتين الإصبعين. مال سعندي ناحية عبد الهواشم وسأله:

من هي بنت مستورة فأجابه عبد الهواشم:

وحدة تطقع الجحوش بيضاء وعيونها وساع وعليها خدود يقولون إنها أحلى من سميرة توفيق قال لي عنها عبدالعزيز وأكيد هذا يعرفها لأنه هو اللي يجر لعبد العزيز إذا جاء لجزيرة اللؤلؤ.

كل شيء كان واعداً إلاّ حكاية الخمر هذه، فأصرّ على عبد الهواشم أن يبعد الرجل قبل أن يشرب. وبعد مداولات هامسة اتّفقا أخيراً على تأجيل الشرب وإيقاظ فحيج وابن سويقي. طلبا

من حسين أن يأخذهم إلى القرندول ولكن الرجل اعتذر بعد أن لمح التهامس الكثير. شعر أنه غير مرغوب فيه، فقال:

- القراندول ما يحتاج. قريب من هنا بعد السوق. شفتوا الصناع تعدوهم على يدكم اليمين تمشون حوالي مئة متر بتلقون بير في وسط الشارع. وهاهو القراندول في وجهكم في وسط البلد.

نهض وهو يقول:

- أنا باروح عندي شوي شغل إذا بغيتوني تلقوني في القرندول بتحصلوني أجلس مو بعيد عن الدكان اللي على يدك اليسار بعد ما تدخل من السوق. قولوا وين حسينوه بيدلكم أي واحد. وقبل أن يخرج من الغرفة قال:

- انتبهوا من عيال الحرام.

لم يفهم سعندي من المقصود بعيال الحرام فألقى حسينوه بطرف عينه نظرة على جسد فحيج (قبل أن يصبح فحيج) المنبطح على السرير، ففهم سعندي المقصود. كان فحيج صديقه. لا يمكن أن يرضى عليه إذا حاول هذا الغريب الاقتراب منه. فقال عبد الهواشم حاسماً الأمر وهو يلحق به:

- ما يهمّك حنا نعرف طريقنا في أمان الله.

خرج حسينوه وخرج وراءه عبد الهواشم وبعد قليل عاد عبد الهواشم وهو يصرخ:

- بغيت تزعل علينا الرجال.

ثم التفت إلى النائمين وصرخ:

- يا لله يا جماعة خلونا نروح للقرندول.

ثم أخذ يخبط فحيج وابن سويقي إلى أن أيقظهما وهو يصيح:

يالله قوموا خلونا نروح للقرندول قبل المغرب. الرجال يقول معد يبقى في القرندول عقب العشاء إلاّ الشينات والعجز خلونا نتلاحق يومنا. حنا ما جينا عشان ننوم ورانا كرف.

* * *

اختلطت ذكرى جزيرة اللؤلؤ مع المشاهد التي تظهر قبالة ناظريه. حدّق في المرأة التي تقف على حافة السرير. شابّة في العشرين من عمرها تقريباً، وجهها البيضاوي يعيده إلى بنت مستورة. نظر إلى يدها التي تمسك خرقة تضعها بين فترة وأخرى على فمه. كلّما اقتربت من وجهه تأمّل فيها. بيضاء سمينة بملامح غليظة شبه زنجية، حتماً أنها واحدة من الممرضات المصريات اللواتي يشاهدهن في المستشفيات والمستوصفات. لا تشبه بنت مستورة. بنت مستورة جميلة شهية الملامح تشبه سميرة توفيق. كرّر النظر. تأكّد أنّه في مستشفى. لا يمكن أن يوجد امرأة أو سرير في منطقة الشرطة. لم يرَ امرأة تكشف عن وجهها إلاّ في مستشفى أو في بيت من بيوت قرندول. بدأ وعيه يتجمّع لكن الذكريات ما زالت تختلط بالحاضر. استعذب كفيها فاجتاحه خيال بنت مستورة. سنوات وهو يسافر في السنة الواحدة عشرات المرّات. كان يضاجعها في السفرة الواحدة أكثر من ثلاث مرّات. لن ينسى ذلك اليوم الذي التقاها فيه للمرّة الأولى.

استيقظ فحيج وابن سويقي على صراخ عبد الهواشم. كانا في الواقع منتظرين الإشارة بالانطلاق نحو قرندول. خرجوا من الفندق بعد أن خبّأوا قارورة الويسكي في خزان سيفون الحمّام ووضعوا فلوسهم في فتحة الخبانة في أسفل ثيابهم. خرجوا من الدور الثاني إلى الباب الخارجي فوراً. شقّوا طريقهم وسط السوق. عندما وصلوا عند الصنّاع انعطفوا يميناً حسب وصف حسينوه. وبعد مسيرة دقائق كانوا في وسط قرندول. لم يتبيّن سعندي أيّ شيء يميّز الحيّ سوى المياه الآسنة التي تكوّن مستنقعات صغيرة مبعثرة في الطريق. كانت البيوت تتراص بطريقة عشوائية. تختلط وتتداخل وتفترق. بينها بيت واحد بني بالطريقة الحديثة تقع تحته البقالة الوحيدة في قرندول. بعد ذلك تأتي ساحة تنطلق منها السكك المتداخلة. كانت طموحاتهم أكبر من هذا الاستقبال المحبط من حيّ كثيراً ما اشتاقوا إليه. يريد أن يعرف متى يصل إلى النساء. أسف على تصرّفه مع حسين. كان حسين سيختصر عليهم كل هذا العناء ويأخذهم إلى الهدف مباشرة. فجأة شاهدوا امرأة تطلّ من باب موارب. تنبّه لها عبد الهواشم. نخس سعندي وقال له همساً:

الظاهر هذي وحدة منهم.

قال ابن سويقي:

- وش رايكم في هذي تصلح.

سرّ عبد الهواشم. توقّعه كان في محلّه. اقتربوا من المرأة يتقدّمهم ابن سويقي برغم الاضطراب البادي عليه. حان الوقت

لتوظيف خبرته. سبق أن جاء إلى قرندول ثلاث مرّات غير هذه المرّة. يجب أن يكون من الخبراء بقرندول. نظروا جميعاً إلى المرأة. تبدو شابّة في الثلاثين من عمرها. تلبس تنورة مشجّرة تمتد إلى نهاية الساقين. سمراء تشوبها حمرة كالتمر المطروق. تغطي فمها فقط وتظهر عينيها المكحلتين فيبدو وهن الأنوثة المثير للشهوة. تقف وهي تقبض على حافة الباب، تطلّ مرّة وتختفي مرّة. سألها ابن سويقي:

- بكم؟

قالت باستهتار دون أن تنظر في أيّ منهم:

- دينارين.

فقال ابن سويقي:

- دينار وش رايك.

فقالت:

- شرط تدشون كلكم.

وافق ابن سويقي دون أن يسأل الآخرين فقالت:

- تدفعون عند الباب قبل ما تدشون.

سمعوا الشروط ووافقوا عليها وأعطوها الأجرة كاملة:

من له اعتراض كان يجب أن يقوله.

هكذا قال ابن سويقي دفاعاً عن نفسه. قال هذا بعد أن خرجوا وكلّ منهم يضع اللوم على الآخر. كانت المرأة بلا أسنان تقريباً. رفضت أن تبعد اللثام عن فمها. تركت نظرات عينيها

الأنثوية تخدعهم. طالبت أن يتم وطؤها وهي تضع اللثام فوافقوا من شدّة الشوق. دخلت الغرفة ودخل وراءها ابن سويقي. اتّجهت ناحية فرشة ملقاة وسط الغرفة وقبل أن تستلقي رفعت تنورتها عن جسدها، فتبيّن أنها لم تكن ترتدي ملابس داخلية. انتبه ابن سويقي إلى نقاط حمراء في أنحاء متفرّقة من جسدها. إنّها مريضة. هناك تقرّحات تميل إلى الاصفرار على فخذَيها. تأمّل ابن سويقي في أنحاء جسدها بعد أن استلقت وأصبحت مستعدّة لاستقبال الفحل. كانت خبرته المزعومة هي التي فرضت عليه أن يكون الأوّل. تفحّص فخذيها. شعر بالقرف والدوار. من الواضح أنّها كانت تعرف ردّ الفعل، فقالت:

- إذا مو عاجبك بكيفيك.

لم يقوَ حتّى على إعادة النظر إلى فخذَيها. اندفع خارج الغرفة. كان سعندي له في المرصاد:

- ها بشر وراك طلعت بدري عساك زبطت الأمور.

فقال:

- يالله خلونا ننحاش الله يلعن أمّها وأبوها بنت الكلب.

- وشف فيها.

- كلّها دمامل ملعونة الوالدين.

فقال فحيج:

- طيّب وفلوسنا.

فقال ابن سويقي:

- ملعونة الوالدين عشان كذا خذت الفلوس عند الباب.

التفت عبد الهواشم إلى سعندي وقال:

- شفت أنت اللي ضيّعت فلوسنا.

فقال سعندي:

- وش دخلني أنا

فقال عبد الهواشم:

- أنت خوفت الجرار حسينوه كان ها لحين ما ضاعت علينا أربعة دنانير.

لم يدم الصراع وتبادل اللوم طويلاً. فالمهمّة التي جاءوا من أجلها أسمى وأجلّ من تعطيلها بسبب سوء تقدير طارئ. كانوا قد توغلوا في قرندول أكثر. فقدوا الثقة بخبرة ابن سويقي. أظهر عبد الهواشم تحدّياً صريحاً لتجربة ابن سويقي عندما قال لسعندي:

- شفت وش نفعنا ابن سويقي به.

غضب ابن سويقي من التسفيه بخبرته فقال:

- وش تبوني أسوي أقول لها تفصخي عند الباب خلينا نشوف شطايتس.

فقال فحيج:

- مفروض أنّك تعرف.

فقال ابن سويقي:

- ليش سكتا يوم شفتاها متلطّمة.

فقال عبد الهواشم:

- كنت أحسب أنّها مستحية. أنا أدري أنّها كانت توزي القراح.

فقال فحيج:

- ألعن أمّها حاله كان بنات قرندول كلّهم كذا.

فصرخ ابن سويقي:

- لا يشيخ خف ربّك لا تظلم بختك.

جاءت الفرصة لابن سويقي لإنقاذ سمعة خبرته. فأكّد:

- من قال لك ها الكلام فيه بنات هالحين تشوفهم. هالحين آخذك لهم.

فقال عبد الهواشم بروح عملية:

- خلنا بس ندور رفيقك القواد قبل ما يروح يومنا وتروح فلوسنا. معد فيه وقت.

كان المساء فعلاً قد حلّ. معظم البيوت مقفلة. يشاهدون عدداً من الرجال يمشون أو يخرجون من بعض البيوت. يلتفت الرجل هنا وهناك كأنّه يبحث عن طريق لا يقابله فيه أحد. من الواضح أنّهم آخر الزبائن. الحي يعلن نهاية يومه. لا بدّ أن يتلاحقوا يومهم كما قال عبد الهواشم. كلّها ثلاثة أيام يا جماعة لا يضيع علينا الوقت. في فجر يوم الخميس سيتحرك اللنش منهياً رحلتهم إلى جزيرة اللؤلؤ. ثلاثة أيام لا تكفي. على كلّ واحد منهم أن يضاجع أربع نساء على الأقلّ في اليوم الواحد كما أشارت التقديرات الأوّلية. دون حساب إخفاق هذا اليوم. خسارة دينار

صعب تعويضها. لم يكن لدى ابن سويقي ما يقوله فلاذ بالصمت. ترك زمام الأمر في يد المتهوّر عبد الهواشم تحت ذريعة البحث عن حسينوه. أوقف عبد الهواشم أحد المارّة وسأله عن حسينوه فلم يجب. لم يلتفت إليه. تركه ومضى في طريقه. استغرب الشباب تصرّف الرجل. سألوا أكثر من واحد. لا أحد يريد أن يتحدّث معهم. بعد سنين عندما سقط سعندي في إعياء المرض تفهّم موقفهم. ضيف قرندول لا يريد أن تظهر صورته في عيون الآخرين. اضطرّوا إلى أن يسألوا صاحب البقالة. رجل أسمر يجلس على كرسي خيزران يدخن ويتأمّل في المستنقعات المتناثرة أمامه. فقال لهم:

- شنوا حسينوه. تقصدون حسينوه أبو إصبع.

فقال عبد الهواشم:

- وش يدريني أنه اسمه حسينوه أبو إصبع.

ولكن سعندي تذكّر أصابع الرجل فقال:

- أيه نعم حسينوه أبو إصبع.

استغرب الجميع لكنّهم أنصتوا عندما بدأ الرجل يصف الرجل ثم بدأ يصف الطريق والسكك المفضية إلى بيت حسينوه.

وجدوا حسينوه يجلس على كرسي خشبي يستوعب أكثر من اثنين. يلبس وزرة هندية ملوّنة وفانيلا وعلى رأسه طاقية شبكية. يضع رجله اليسرى على الأرض والأخرى على حافة الكرسي ويتكئ عليها بيده التي تمسك بالمهفة. كان كلّ شيء هادئاً. يبدو أنّهم تأخّروا كثيراً. بادرهم حسينوه قائلاً:

- إن شاء الله انبسطتوا.

لم يكن أيّ منهم على استعداد أن يقصّ عليه قصّة الإخفاق الأولى حتّى لا يظهروا أمامه بمظهر الأغرار فيستغلّهم. كانوا قد اتّفقوا على ذلك. فقال ابن سويقي ليظهر الثقة:

- رحنا تمشينا شوية في جزيرة اللؤلؤ قبل ما نجي. رحنا شفنا السوق.

- زين سويتوا قرندول ما ينفع في ها الوقت. كل الزينات يكونون تعبانات ما يشتغلون بعد المغرب. ما يبقى إلاّ الشينات والمريضات اللي ما تحصل زبائن في النهار. زين اللي صرتوا أذكياء ما لعب عليكم أحد. ما شاء الله عليكم. الواحد أول ما يجي قرندول لازم ينلعب عليه.

التفت بعضهم إلى بعض. إذاً دخلوا من الباب الطبيعي للقرندول. تجربة لا بدّ منها. أعاد لهم كلام حسينوه الثقة بالنفس. فقال ابن سويقي الذي شعر بالخيبة كأنّ الكلام موجّه له:

- حنا الحقيقة نبي بنت مستورة وين بيتها.

- في السكة الثانية ثالث بيت على يدك اليمين.

ثم أردف حسينوه:

- بس ها الحين أكيد نايمة ما فيها حيل يبي لكم تجونها الصبح بدري قبل ما يسبقكم عليها أحد. خلوكم أوّل ناس تدشون عليها. أن تأخرتوا والله ما يجي دوركم ولا عقب الظهر.

بدا أن الرجل يتحدّث معهم بحميمية حتّى أن سعندي جلس

إلى جانبه دون استئذان. فقال ابن سويقي ليعوّض إخفاقه السابق ويعود إلى سدّة القيادة:

- أخوي حسينوه ما فيه وحدة طارفة ترا الجماعة قرمانين ما يقدرون يصبرون إلين الصبح بس تكون نظيفة.

- خلوني أشوف سلومة إن كانت ما راحت هذي بنت حلال نظيفة وما تخالف. نصوف عمرها ما ياصل الأربعين تمشيكم إلى باكر الصبح. دينار من كلّ واحد منكم يكفيها.

حكاية الدينار تسبّب لهم قشعريرة. نهض حسينوه واختفى في السكّة المقابلة، فقال سعندي:

- أخاف أنه مثل دينارك يا ابن سويقي.

فقال ابن سويقي:

- ورا ما تاكل تبن وشو ديناره أنا قلت لكم عطوها. المرة أعجبتكم وسلمتوا فلوسكم. هي ما لعبت علينا وافقت المسكينة دخلت وتفصخت مهوب ذنبها أنها مريضة.

فقال عبد الهواشم يريد أن يلطّف الجو ويعيد الآمال والتطلّعات إلى وهجها:

- لولا الدمامل وإلا والله عليها مقفى تقول شنطة زطو. يوم قفت أنهبلت تتهزهز ملعونة الوالدين. أنت أللي خوفتنا الله يلعن طيفتك.

- فقال فحيج بعد أن أنعشت إيجابية عبد الهواشم آماله:

- يمكن الدمامل في فخوذها بس.

فقال ابن سويقي:

- يا ابن الحلال شفت الدمامل واصله الين نص ظهرها تكفون لا تذكروني بها. ما أدري وشلون تقدر تقعد ها المرة الدمامل اللي في مقفاها متفضخة تحوم كبود البعارين.

بعد دقائق عاد حسينوه متهلّل الأسارير وأعلن:

- حظّكم.

كانت امرأة في الخمسين من عمرها متوسّطة الحجم سمراء طويلة القامة. ساقاها مبرومتان تشيان بأنّها كانت امرأة ذات شأن. رحبّت بهم وأغلقت الباب وهي تقول:

- ما نريد زبائن بعد خلاص الوحدة ما تقدر ترفع ظهرها من كثر الهز والدز. الله يلعن أبوها شغله. قال لكم أبو إصبع الدشة بدينار.

لم يكن أمامهم للتشاور إلاّ بالنظرات. وأخيراً قال عبد الهواشم:

- خلوني أدخل أول.

تركوه لمصيره. الشاب متهوّر يصلح لمثل هذه المهمّات المصيرية. وبعد دقائق خرج منشرح الصدر تعلو وجهه ابتسامة رضى. أسعدتهم الابتسامة. كانت بمثابة إعلان بدء الرحلة والدخول في عالم الرجال. جاء دور سعندي الأخير. وجد المرأة مستلقية على ظهرها فوقف فوق رأسها حائراً. أوّل مرّة في حياته يجد امرأة مستعدّة تستقبله. تشجّع من تجربة أصدقائه قبل قليل. من حسن حظّه أنّها كانت مستلقية. فخذاها ملمومتان تخفيان فتحة أنوثتها. شجّعه خجلها. يبدو أن فيها بقايا حياء قديم. شاهد جزءاً

كبيراً من مؤخّرتها فأثاره المشهد. تحرّكت ذكورته. كان وجهها أليفاً لا يثير الاشمئزاز. كانت المرأة التي يريدها سعندي ليبدأ حياته الجديدة. أخذت بيده نحو الحبّ. لم تأخذ منه العملية أكثر من ثلاث دقائق. خرج من الغرفة يريد أن يعلن نجاحه مع المرأة. لم يجد أحداً. شعر بقليل من الفزع فخرج مسرعاً وسار نحو مجلس حسينوه. كانوا في انتظاره. في طريقهم إلى الخروج من قرندول مرّوا من باب أم الدمامل وجدوه مغلقاً. لم يقوَ عبد الهواشم على السكوت فالتفت إلى ابن سويقي وقال:

- رفيقتك الظاهر أنها مريحة.

فقال ابن سويقي بغضب:

- وش رفيقتي الله يلعن أمك وأبوك أنت وأياها.

تضاحكوا. تحوّل الأمر إلى ذكرى. كانت تجربتهم مع المرأة الخمسينية ناجحة. كلّ واحد أثبت رجولته وارتفعت معنوياته. كانت التجربة الأولى لسعندي وفحيج.

في صباح اليوم التالي كانوا من أوائل الذين وصلوا إلى قرندول. كان الحي خالياً إلاّ من بعض المارّة وروائح المجاري الهادئة. حتّى بقالة الرجل الأسمر لم تفتح بعد. دون تضييع الوقت ذهبوا فوراً إلى حسينوه. كان مقعده خالياً والبيت الذي يعمل فيه مغلقاً. شعروا بخيبة أمل. ليس ثمّة خيار سوى الانتظار. تجربتا الأمس كافيتان. عقدوا العزم على أن ينتظروا حسينوه ليأخذهم دون إبطاء إلى بيت بنت مستورة.

* * *

عندما دخل سعندي على بنت مستورة في مخدعها لأوّل مرّة شعر بتوهّج في قلبه. انتفض جسده الشاب. كان شعرها الأسود مسفوحاً على المخدّة. كانت فعلاً تشبه سميرة توفيق. عيناها سودوان واسعتان تسيطران على وجهها الأبيض الطافح بالحيوية والحياة، وكان جسدها مستلقياً بكلّ أنوثته على الفرشة المتهرّئة. ملاك ممدّد في بيت الرذيلة. تداخلت الشهوة والعطف في رحلة طويلة بدأت من الجسد وحطّت في القلب وانتهت شاحبة تجوب الدم. ألقت عليه نظرة فارغة مصحوبة بابتسامة ضعيفة. ربّما كان أصغر زبائنها. فتحت له ساقيها فدخل متسلّحاً بتجربته مع الخمسينية. كانت تجربة الأمس ثمينة جدّاً. لم يبدّد الوقت في البحث عن الهدف. اندفع فوقها ووضع فمه عند رقبتها. دخل أنفه في طيّات شعرها المنثور. كانت عيناه تنغرسان في أذنها اليمنى. بدأ يسمع تغيّر مسار أنفاسها مع الهزّ. بدا كالهمهمة. فازداد توهّجه وعنفه الرجولي الغرّ. صار يبكي من اللذّة. لأوّل مرّة في حياته يصرخ يا حبيبتي يا بعد عمري. لم يكن يعرف أين يجب أن تستقرّ يده الضائعة بين كتفها وعجيزتها. كانت يده الأخرى مستقرة تحت كتفها اليمنى يرفع بها صدرها ليسحق صدره عليه. كان يجب أن يضع فمه على فمها. حرّكته غريزة الحبّ فانقضّ بشفتيه على شفتيها ولكنها في اللحظة الأخيرة وضعت المهفة بين وجهيهما. فبقيت له الأذن اليمنى وجزء كبير من عنقها. موقع القبل المباح. بكى. يريد أن يرى العينين السوداوين. لقد اقتربت لحظة الحبّ الكبرى. يريد أن يريق ماءه في قلب بنت مستورة لا في فرجها.

يريد أن يعلن لها حبّه الذي سيموت من أجله. بعد لحظات شعر أنّه انفجر في داخلها. صرخ صرخة ملأت سماء جزيرة اللؤلؤ. أخيراً سقط رأسه على صدرها. سمع وجيب قلبها. كان طرف أذنه يضغط على حلمة ثديها. لقد انتهى الجنس وتصاعد الحنان. ولكنه سمعها تقول. يا لله خلصت قم. قالت ذلك بحزم من يعرف ماذا يقول. لم تمنحه لحظة حبّ إضافية يعبّر فيها عن شيء بأكثر من ثلاثة دنانير. رفع رأسه ووضع وجهه قبالة وجهها. شعر بأنّها أقرب إنسان إليه في هذه الدنيا. نظرت إليه بحياد. لقد أخذ ما يريد ولا تملك شيئاً تعطيه غير هذا الذي أخذه. عندما أحسّت أنه يريد مرّة أخرى قالت إذا أردت مرّة أخرى قف مرّة ثانية في الصف. حرام تاخذ دور غيرك. عدالة جسد البغي. ما كان يريد أن يضاجعها مرّة أخرى. يريد فقط أن يبقى في حضنها متأمّلاً في وجهها الجميل. يستعيد لحظات الوجد الإلهية التي عاشها قبل قليل. لكي تتخلّص منه حرّكت جسدها من تحته. فاستعاد زمام رجولته. أحسّت بخبرتها أنّه يريد أن يستأنف العمل مرّة أخرى. فرفسته فانقلب عنها فسحبت جسدها من تحت ما تبقى من جسده على جسدها، فبقي راكعاً بعد أن حرّرت المرأة نفسها من تحته. نهض أخيراً مستسلماً وقبل أن يبلغ الباب التفت إليها. كانت قد بدأت تمسح جوف أنوثتها بالفوطة التي كانت تحت عجيزتها. خرج من الغرفة. وقف مرّة أخرى في صف الزبائن الذين زاد عددهم عمّا كان عليه قبل قليل. يحتاج إلى أكثر من ساعة حتّى يأتي دوره مرّة أخرى. فقال له فحيج الذي جاء دوره:

- أجل استانست يا الملعون.

فقال سعندي:

- بغيت انهبل.

فقال عبد الهواشم:

- انهبلت وخلصت ما دامك بتدفع ثلاثة دنانير مرّة ثانية في يوم واحد.

كان الزبائن ينصتون إلى صخب الصغار، الذي يمرّ بينهم ممزّقاً صمتهم وخجلهم. لاحظ سعندي أن الذي يجلس بجانبه ابتسم ابتسامة كبيرة كبداية لضحكة يشارك بها في التعليقات ولكنه عدل عنها بسرعة واكتفى بالابتسامة، فبادره سعندي:

- هذا أوّل مرّة تجي لبنت مستورة.

فقال الرجل دون أن يلتفت إلى محدّثه:

- لا كلّ ما جيت لقرندول أمر على بنت مستورة.

فقال سعندي:

- يا أخي تهبل عليها جسم ووجه وجاه.

لم يعلّق الرجل على رأي سعندي. صمت وأدار وجهه ناحية فحيج الذي خرج من مخدع بنت مستورة وهو يصرخ من السعادة:

- ما الومك يا سعندي.

حان الآن دور عبد الهواشم. تحرّك الجالسون كي يعطوا أحد الواقفين مقعداً. لم يعد سعندي آخر الجالسين. كلّ ينتظر دوره

بصمت وبوجه يعتصره الخجل مع أنهم يشتركون في حبّ واحد. على سعندي أن ينتظر سبعة أشخاص قبل أن يأتي دوره مرّة أخرى. انتظر في الممرّ على سحاحير خشبية مع رجال لا ينظر بعضهم إلى بعض ولا يتحدّثون. كلّ واحد يحاول أن يخفي وجوده عن جاره. يتظاهرون بأنّهم غير موجودين هنا. أحدهم يخفي وجهه بغترته. كأنه يسدّ أنفه من رائحة كريهة والآخر كان يضع رأسه بين يديه ليقلّل من فرصة ظهور وجهه أمام الناس. والثالث غرس رأسه حتّى عينيه في عمامة صوفية كبيرة تلائم ثوبه البنّي الزاهي. يلفّ وسطه بغترة صوف ثقيلة. لحيته البيضاء تغطّي معظم فوديه. يبدو كرجل دين يجلس بكبرياء كأنّه في مهمّة تبشيرية. دوره قبل دور سعندي مباشرة. هناك عدد آخر يجلسون بعيداً عنه وآخرون يتسكّعون خارج بيت بنت مستورة في انتظار أن تفرغ مقاعد على السحاحير. كان سعندي هو الوحيد الذي يشعر بعدم الاكتراث. كان أصغر الموجودين سنّاً. يفتقر إلى الخبرة والكياسة اللتين تجعلانه أهلاً للجلوس في مثل هذه المجالس. ترك وجهه مكشوفاً. يحرجهم بتحديقه في وجوههم. يسعدهم أن يرفع عينيه عنهم ويحدّق في باب الغرفة الذي تضطجع فيها بنت مستورة. لفت نظره رجل فرغ للتوّ من دوره. خرج وهو يمسك ثوبه من وسطه ويحرّكه يميناً وشمالاً في محاولة لإصلاح سرواله الذي لبسه على عجل. بدا الرجل يشبه أحد أقاربه. كان يقف بجانب والده عندما كشف مغسّل الموتى عن وجه الميت حتّى يراه أقاربه للمرّة الأخيرة. كان وجهه أصفر وفمه يفتر عن ابتسامة ثابتة.

توقّع سعندي أن يخرج الرجل من مخدع بنت مستورة سعيداً كما خرج هو قبل قليل. ولكن هذا الرجل غير ذلك. يبدو كأنّه على وشك البكاء أو أن سحابة من الكآبة تخنقه. على وجهه شيء لا يمكن تفسيره، أبعد من الخجل والعار، أقرب إلى الموت. مرّ بينهم بخفّة، يحرّكه هاجس خفيّ كأنّه يعبر طريقاً محفوفاً بأخطار غير منظورة. لم يلق التحيّة. سحب الباب ودفع نفسه خارج البيت، كأنه يغادر هذا المكان إلى الأبد. لا يريد أن يترك له أثراً. بعد ساعة ونصف الساعة جاء دور سعندي للمرة الثانية. دخل عليها ولكنه وجدها أكثر هدوءاً من ذي قبل. لم تنظر إليه. ذكّرها بأنّه كان هناك قبل ساعة. لم تعلّق على كلامه ولم تنظر إليه كثيراً. أخذت المهفة وراحت تخبط بها الهواء مرّة على وجهها ومرّة على جسدها العاري الملقى على الفرشة.

خرج مساء ذلك اليوم من بيت مستورة بعد أن دخل عليها ثلاث مرّات على مدى أربع ساعات انتظار. ذهب إلى غرفة الفندق وألقى بنفسه على السرير. كان جسده يرشح بالعرق والرطوبة وتفوح منه رائحة لم يسبق أن شمّها. بقيت تلك الرائحة على جسده حتّى جاء ذلك اليوم الذي أغمي عليه وراح في غيبوبة السفلس الأخيرة. لم يكن المستقبل وارداً في خياله ذلك اليوم. أغمض عينيه وراح يتخيّل جسد بنت مستورة. هناك زوايا كثيرة لم يشاهدها. لفت نظره ثدياها المنضغطان على الصدر وفخذاها البيضاوان المنتصبتان. غداً سيحرص أن يشاهدها كلها. سيلم بكلّ التفاصيل، قدميها وساقيها وركبتيها ومرفقيها. سيرى يوم غد خيال

قلبه بصورة أتمّ. نام بهدوء وأعلن أن اليوم كان أجمل يوم في حياته.

* * *

ما إن يصل إلى جزيرة اللؤلؤ حتّى يتّجه على الفور إلى قرندول وإلى بنت مستورة. أحبّ بنت مستورة لكنّه لا يعرف كيف عولج الأمر في قلبه. حبّ مستحيل بجميع المقاييس. لا يمكن أن تمرّ في باله كلمة زواج ولا يمكن أن تكون حتّى صديقة ولا حتّى عشيقة. إنها امرأة ضاربة في المجهول. بلا هويّة عاطفية تنتسب إليها. لكنه مشدود إليها بلا هوادة. يضطرّ إلى أن يتدبّر الفلوس كي يسافر إليها. أوقع نفسه وأوقع عائلته وأوقع أقاربه في كوارث مالية كبيرة لكي يؤمن تكاليف السفر إلى بنت مستورة. يأتي إلى القرندول ويقف في الصف للدخول عليها. يسبقه عدد من الرجال، عشرة في بعض الأحيان. لا يتحسّر ولا يشعر بأدنى غيرة منهم. يجلس معهم على السحاحير المرصوفة في المدخل. كل ينتظر دوره لقضاء وطره منها. لا يمكث الرجل بين فخذيها أكثر من عشر دقائق. كلّ زبون عليه أن يدخل مستعدّ الرجولة. ومن فشل عليه أن يخرج فوراً ويعود مرّة أخرى بأجر جديد، وأن ينتظم في الصف ثانيةً. لا وقت للإثارة. برغم الحرّ الخانق والقذارة التي تملأ المكان، وبرغم وجود هؤلاء الرجال الغرباء الزناة بجانبه لم يكن سعندي يتذمّر. اعتاد هذه الأجواء. ملكت عليه بنت مستورة خياله. مضى عليه أكثر من ثلاث سنوات وهو يزورها ويتمتّع بجسدها دون أن يراها مرّة تسير أو تتحرّك أو حتّى وهي مرتدية

ثياباً. تمنّى أن يأتي مرّة ويشاهدها وهي كاسية عورتها. عكست علاقته بها الأماني المعتادة. الرجال يعرّون النساء في خيالهم وهو يحاول أن يتخيّلها في ملابس. في جميع المرّات التي دخل عليها كان يجدها مستلقية على ظهرها. أوّل شيء يستقبله منها فتحة أنوثتها. تمنّى أن يبدأ يومه معها بالتسلسل المنطقي للحبّ. أن يرى وجهها أوّلاً.

لم يتخيّل في يوم من الأيام أنّه سيحبّ امرأة تبعد عنه كلّ هذه المسافات العاطفية. صار يعشق سميرة توفيق لأنّها تشبهها. يجمع أغانيها وينتظر أن تظهر في التلفزيون تثيره بغمازتها وبجسدها الكبير اللدن الذي يتثنّى أمام الميكروفون. في غياب الآخرين يقترب ويقبّل فم سميرة توفيق على الشاشة تعويضاً عن القبلة التي حرمته إياها بنت مستورة.

* * *

في كلّ مرّة يعود من جزيرة اللؤلؤ يتذكّر ذلك اليوم البعيد الذي تقرّر فيه أسلوب حياته وطريقة موته. المصادفة هي التي وضعته على هذا الطريق. المصادفة وحدها هي التي أخذته إلى بنت مستورة. قال لطبيبه في لندن مستنفداً آخر الكلمات التي لفظها قبل النهاية. كان كلاماً أقرب إلى الهذيان. لو أن بنت مستورة أحبّته لما أسف على ما تبقى له من حياة. ثم قال إنه مستعدّ للعودة إلى حبّها من جديد لو عادت الحياة مرّة أخرى. بنت مستورة شيء يجري في دمه. كان في السابعة عشرة من عمره عندما تعرّف عليها. لم يضاجع امرأة ولم يعرف حتّى طعم الحبّ البريء. كان

يراقب أخته سعاد التي تكبره بأكثر من خمس سنوات. إنّها صورة للتعاسة الأنثوية التي يعيشها برجولته. كانت مثالاً نموذجياً للانطفاء. لم يتصوّر البتة أن أخته هذه يمكن أن تُحَبّ أو تُحِبّ. لكنّه لم ينتظر طويلاً ليعرف مصيرها. شكّلت سعاد مع أخيها سعيد عالماً استثنائياً. كان يسمع خاله يقول في كل مرّة يسلم عليه سعيد أو سعاد؟ ويضيف: «يخلق الله ما يشاء وهو على كل شيء قدير». فتردّ أمّه: «هذه إرادة الله». ثم ينغمسان في أمور الدنيا المفتوحة على المستقبل ويتركان هذين التعسين لمصيريهما المجهول. كان سعندي يعتقد أنّه من أبناء المستقبل بل هو المستقبل الوحيد في هذا البيت. في لحظات الصفاء القليلة يفكر في مصير أخويه ويقرّ بعد تأمّل بأنه في النهاية سيكون مسؤولاً عنهما. هاجس ظلّ يعذبه. ما الذي يمكن أن يفعله بمعوقَين أحدهما امرأة. حتّى نقل إلى البيت حالة ميئوساً منها بعد أن ضربه السفلس في مقتل. مكث في المنزل عشرة أيام في انتظار انتهاء الأوراق الضرورية. كان للقدر الكلمة الأخيرة. صارت سعاد تعتني به بعد أن ظن أنّه سوف يعتني بها. كيف سخر منه القدر؟ جيء به إلى سعاد جثة هامدة. كان المرض قد نخر العظام وبلغ الدماغ. تحمّلت سعاد مسؤولياتها. صارت تنام معه في الغرفة نفسها. تسمع هذيانه وتردّ عليه. تحاول تصحيحه ليكون كلاماً مستقيماً. تمنحه فرصة أخيرة مع العقل. كان يغيب عن الوعي ويعود. في بعض الأحيان، يتحدّث معها بصفاء فيذكّرها بقارورة الشامبو الياباني الأحمر الذي أهداها إليها عندما خرج من السجن. ثم

يقول لها إن شاء الله إذا طبت بجيب لك عطر مدام روشيه. يحدّثها عن أشياء كثيرة. يتحدّثان عن السينما. كانت تعشق السينما. شاهدتها مرّة واحدة في حياتها. أخذتها أمّها وخالتها إلى بيت الأميرة. أخذتاها بالقوّة. رحّبت بها الأميرة وتعاطفت معها وطلبت منها أن تحضر في أيّ وقت تشاء، وقبل أن تنهي الحديث قالت الأميرة:

- اسمك حلو يا سعاد. هذا مهوب من أسامي أهل الرويض.

* * *

كانت الأمّ تنصت إلى المحادثة بين ابنتها وبين الأميرة. فكّرت أن تقبّل رأس الأميرة على هذا العطف الكبير. كادت تقول لها أنت سبب تسميتها بهذا الاسم. طافت بها ذكريات أوّل فيلم شاهدته. كانت في هذا القصر. لا يمكن أن تتذكّر الأميرة ما حدث قبل سنوات بعيدة.

تذكّرت الأمّ تلك الليلة التي شاهدت فيها الفيلم في هذا القصر. جاءت في إحدى الليالي إلى هنا، تريد زيارة أمّ محمّد الدلاّلة التي تسكن فيه. دخلت من البوّابة. لم تجد أحداً في طريقها فدلفت إلى ساحة القصر خطوة خطوة حتّى وصلت إلى بوّابة المبنى الداخلي. صادفت طفلة صغيرة فسألتها عن أمّ محمّد فدلّتها الطفلة بإشارة من يدها. فسارت وعندما اقتربت لاحظت أن الغرفة التي أشارت إليها الطفلة مظلمة تتخاطف فيها أضواء سريعة متقلّبة وتصخب فيها أصوات مصريين ومصريّات. بعد تردّد

دخلت. شاهدت نساء كثيرات يجلسن في الظلام محدّقات في حائط مملوء بشباب وشابات يتمرّغون على شاطئ البحر. لم تصدق أن هناك بشراً على هذا القدر من الجمال والمرح. فكرت أن تتراجع وتهرب إلى الخارج لولا أنها سمعت صوت امرأة تناديها أن تدخل. أضاءت امرأة أخرى مصباح سطع ضوؤه على وجهها. فجأة سمعت صوت صديقتها الدلاّلة يناديها. هو هيا وش جابك. ثم سمعتها توجّه كلامها لامرأة تجلس على كرسي: عمتي هذي بنت خالتي هيا. فقالت الأميرة بغضب يتّسم بالودّ: «أجلسي خلينا نشوف تكملة الفيلم». جلست وهي لا تعرف ما الذي ينتظرها في الحائط. أكملت الفيلم.

أعجبتها وسامة الرجال. كانوا يتزاحمون على فتاة صغيرة وجميلة اسمها سعاد. عادت تلك الليلة سعيدة من قصر الأميرة. لقد شاهدت عالماً لم تشاهده من قبل. نساء ورجال في عمر الورد يرقدون على رمال البحر في ملابس بصعوبة تستر عريهم. يتبادلون القبل ويتضاحكون ويغنّون. عندما عادت تلك الليلة راحت تحلم بواحد من هؤلاء الرجال الجميلين. لم تطق أن تنظر في وجه أبو سعيد. أدارت له ظهرها واستأنفت الحلم. ولكن أبو سعيد فرض نفسه عليها فأغمضت عينيها وراحت تحلم بواحد من الفتيان. لعلّ وطأة الليلة تأتيها بولد مثل هؤلاء الأولاد وإذا جاءتها بنت فستسمّيها سعاد. استمتعت تلك الليلة بأحلى لياليها. بعد بضعة أشهر نزل من رحمها جسد أنثى بيضاء جميلة شعرها أسود فاحم ووزنها يزيد على أوزان الأطفال الآخرين أثناء الولادة. عندما

رفعتها القابلة في وجهها صرخت بسعادة غامرة: سعاد. رفعت جسدها وتلقّفتها وراحت تقبّلها وتؤكّد أنّها سعاد. بكت ذلك اليوم عندما رفض زوجها اسم سعاد. اسم غريب لا يمكن أن يقبله أحد. كان يريد أن يطلق عليها اسم أمّه مزنة. أظهرت هيا قوّة وشراسة ودافعت عن الاسم. أخيراً رضخ ولكنه راح يسمّي البنت من باب العناد سعيدة. أخوها سعيد، وهي يجب أن تكون سعيدة.

ولكن الأقدار دفعت بعيداً. نمت البنت وبدأت تكبر وتزدهر حتّى إن والدها عندما يراها تلعب بمرح وتخفق بجمال طفولي غير مسبوق في الرويض، صار يناديها سعاد. صار سعاد اسمها الحقيقي. ولكن بعد سنتين من وقوفها على رجليها أحست هيا في ليلة من الليالي، أن حرارة سعاد ليست على ما يرام، قلبتها على بطنها فشاهدت نفرات. أعراض الجدري. أعراض لا يمكن أن تجهلها. أصابها المرض أخيراً وخرّم وجهها وعينيها وتركها قبيحة. صارت سعاد مصدر عذابها وقسوتها حتّى ظنّ كثير من الناس أنّها تكرهها. كانت تراقبها بمرارة. عندما تراها تسير وهي تتخبّط في طريقها كالمعتوهة. مرّة تصطدم بالزير وأخرى بالأوجار وثالثة بالعمود القائم وسط البيت. كانت تناديها الفاهية. كانت تقول حتّى وإن كانت لا ترى بشكل جيّد فعليها أن تحفظ معالم البيت وتعرف أين تقع الأشياء. الزير موجود في البيت منذ حوالى خمس سنوات والأوجار لا يعلم إلاّ الله متى تمّ بناؤه في الدوانية. لماذا لا ترى الأشياء كما يراها الناس. «ما تعرف تحمد النعمة

أخوها عميان ولا يسوى سواتها». قالت لها مرّة إحدى الجارات إن ابنتك تسرح في خيالها. لعلّها تحلم. أجابتها بغضب. بماذا تحلم بنت خرشا وعورا. تحمد ربّها أنّه أبقاها حيّة ترزق. كانت الفتاة تسمع هذا الكلام من أمّها لكنها لا تردّ. تذهب إلى فراشها وتبكي وتذرف الدموع. وبعد أن تخفّ حدّة الكلام تعود إلى حيث يجتمع النساء. لم تطمح هيا أن تزوج ابنتها سعاد يوماً ولا تعرف كيف تفكّر لها في مستقبل. لا مكان لها في المقبل من الأيام. فأصبحت تخدم في البيت وتساعد إخوتها. حياتها متروكة للمصادفة. مصيرها مربوط بمصير سعيد العميان. كلّ واحد منهما يحتاج إلى الآخر. كلما كبر سعيد ازداد تخلفه وازداد اعتماده على الآخرين. يتحوّل بالتدريج إلى ابن لسعاد تعطف عليه وتعتني به كما تعتني بابنها. إنه المستقبل الذي لا يستحقّ أن تحلم به. الرجل في حياتها فكرة غامضة لا تتبيّن منها سوى هواجس سرّية تأتيها عندما تأوي إلى فراشها. كانت تسمع صوت المؤذن ابن حميد وهو يصرخ بصوته الخشن، فتنتزع شيئاً من صوت رجولته وتستعمله في أحلامها.

* * *

عندما ركّب سعندي هاتفاً آلياً تخوّفت منه في البداية. ولكن بعد فترة عرفت مزاياه وفوائده. أخيراً سمعت أن البنات يستخدمنه في الوصال والتحرّش بالشباب دون أن يتعرّف عليهن أحد. عوّضها هذا عن كلّ الحبّ الذي تحتاج إليه. كانت تدير أيّ رقم من الأرقام وتقع على صوت شاب تشاكسه وتغازله متأوّهةً بصدق.

أقامت علاقات كثيرة عبر التلفون. كانت ترفض رفضاً قاطعاً أي لقاء. تتذرّع بكلّ شيء إلى أن جاء ذلك اليوم الذي لا ينسى. دخلت في حالة حبّ مع شاب. كان صوته جميلاً وجذّاباً. شعرت أنه رجل أحلامها الضائعة. كان شاباً لجوجاً ومخاتلاً فأخذ يلحّ عليها يومياً لكي يراها. سمعته يقول في إحدى المرات: «أريد أن أراك يا حبيبتي حتّى لو كنت عورا». ظنّت أنّه يعرفها. لم يقلْ هذه الكلمة إلاّ لأنّه يعرفها. هكذا زيّنت لها أوهامها. فكرت كثيراً وقلّبت الأمر واستنتجت أن المرأة لا يمكن أن تبقى بلا رجل في حياتها كلّها. لا بدّ أن يلمسها رجل مهما كلّف الأمر.

اتّفقت معه على أن يأتي بعد صلاة الفجر. يكون أبوها قد غادر إلى سوق الغنم وسعندي غارقاً في نوم السكارى. طلبت منه أن يأتي مع جحافل كنّاسي البلدية الذين ينتشرون في هذا الوقت. كانت قد تركت باب البيت مواربا. عليه أن يدفعه ويدخل ويصعد على الفور مع الدرج إلى الروشن. ستتابع سيره لأنّها ستكون في الطرمة تراقبه. ما إن اختفى آخر المصلّين من الشارع وبدأ عمال البلدية يظهرون وهم يجرّون حميرهم، حتّى شاهدت شاباً قصير القامة يسير بحذر، فعرفت أن هذا هو حبيبها عبدالله. ارتبكت ولكن لواعج القلب والجسد كانت أقوى وأكثر سطوة. تخيّلت حتّى قبل أن تقع عينها العوراء الوحيدة على عينيه أنّها في هذه اللحظة في حضنه. طارت من الفرح والارتباك. نسيت من تكون. عادت إلى مشاعرها الأنثوية المستقيمة قبل أن يشوّهها خيال وجهها المؤذي. شاهدت جسدها يرتجف بين يديه. لم تعد تملك الفرصة

لإعادة النظر والبقاء مع عبد الله حبيب قلبها على التلفون فقط.

سمعت وقع قدميه. سحبت نفسها من فتحة الطرمة وغطّت وجهها بإحكام ودخلت الروشن. شاهدت أغطية المراكي التي تخيّلت أنّه سوف يطرحها عليها. تخيّلت أنه سوف يأمرها أن تفرد هذه الوسائد بعضها إلى جانب بعض ويطلب منها أن تستلقي عليها. إنّها عالية ولدنة كدوشق العرسان تماماً. خضّت الأوهام مشاعرها وكيميائية جسدها. كاد يغمى عليها عندما رأته وجهاً لوجه معها في خلوة بعيدة عن عيون الناس. يتضوّع منه عطر فريد. إنّه واحد من هؤلاء الشباب الذين سمعت عنهم يجوبون شارع الثويمري بسيّاراتهم الفارهة ويطاردون الفتيات في الأسواق المتداخلة مع شارع الملك. راحت تنظر إليه. يفوق ملائكة أحلامها. كانت تجلس لدى إحدى المراكي متكوّمة كما تفعل العروس في ليلة عرسها. جلس على ركبتيه وناداها سعاد حبيبتي. لم ترد. ليس ثمّة كلمات تستطيع أن تقولها لهذا الحب الذي تدفّق عليها. الأمر متروك له ليفعل ما يشاء. عليه هو أن يقول ما يريدها أن تقوله، لكنه جلس على ركبتيه وانحنى ناحيتها حتّى أصبح قبالتها تماماً ثم أدخل يده في صدرها وتحسّس أول معلم من معالم أنوثتها. ثم نقل اليد نفسها وحضن بها ذقنها بين إصبعين من أصابعه وترك البقية تدخل بين وجهها وبين شيلتها فشمّت رائحة يده التي اقتربت من شفتها العليا. ارتخت شفتاها حتّى صارتا لدنتين نديتين كمؤخّرة طفل. فكرت أن تمصّ أصبعه. وفي غمرة الهواجس رحلت الإصبع إلى أنفها. صار يزاحم رأس أنفها. ثم يعود ويسقط

على خدها. نسيت أن وجهها مخرّم بالجدري. حتّى الآن لم يحسّ عبد الله بذلك. فقدت إحساس الرعب من قبح وجهها. غاصت في الأنوثة. إنّها امرأة الآن. تستحقّ أن تحظى بفتى يداعبها ويرخي أعطافها ويجعل سوائل الشهوة الساخنة تذيب جسدها. بعد قليل سوف تنفجر شرايينها. سيسعدها ذلك لأن الدماء سوف تخلي مكانها لتدفّقات الحبّ الذي سيصل إلى القلب الخلي. ألقى بقبضته الثانية على فخذها فانهار في داخلها كل شيء. لم يعد هناك سعة في هذا العالم تستطيع أن تحتمل سعادتها. ستصبح هذه الفخذ الناعمة ملكاً من أملاك ذكورته. لا يوجد فيه حبّة خرشة واحدة. أملس كالمرمر. لقد أعده الله للحب وأخفاه عن الشيطان الذي ملأ وجهها بالقبح وخرم عينيها. لقد حلّت ساعة هزيمة الشيطان. قرّر فخذها الجميل التمرّد عليه ستهب مؤخّرتها وتمدّ له يد العون. سيسقط الشيطان وسيختفي من وجهها على الأقلّ في اللحظة التي يقرّر فيها عبد الله أن يقبّلها على شفتيها. أحسّت أن يده الأخرى واصلت المسيرة حتّى بلغت تخوم مؤخّرتها. لحظات وسوف تهبط الملائكة وتزفّها عروساً للمقابر لأنّها حتماً ستموت من اللذّة. قاسية هي أيادي الرجال وتعرف طريقها من بين كتلتَي المؤخّرة لتشقّ من الخلف كثبان الشعر الأنثوي الذي يحرس منبع الحياة. كانت قد استحمت أكثر من مرّة حتّى أفرغت السمور من الماء الساخن ودهنت جسدها بثلاثة أنواع من العطور وأمضت نصف الليل وهي تضرب شفتيها بالديرمة حتّى أضحت بلون الليلك الغامض. كانت أمّها قد اشترت

لها درّاعة مزخرفة بثلاثين ريالاً لحضور زواج إحدى قريباتها. ولكنها لم تحضر العرس. سحبت موافقتها في آخر لحظة كعادتها. فبقي الفستان معلّقاً كما كان عندما جرّبته أوّل مرّة. تركته بعد ذلك اليوم الذي مرّ عليه أكثر من سنة. لا تتخيّل كيف ستلبسه وفي أيّ مناسبة. لا يمكن أن تأخذ وجهها الأعور المجدور إلى مناسبات يكثر فيها البنات مهما كان نوع الفستان الذي تلبسه. كان الفستان واسعاً مهيّئاً للحركة والدوران فأتاح الفرصة للشاب لكي يدخل يده بين فخذيها. من الواضح أن الشاب أصبح في قمّة توتّره ولكنه لم يقدم على الخطوة القاتلة. لم يسحب الغطاء عن وجهها بعد. من الواضح أنه قليل الخبرة. كان متردّداً وخائفاً. هكذا تذكّرت بعد أن هرب عندما سمع صوت أمّها تناديها. سحب يده من داخل ملابسها وأرتج عليه. هرب في البداية ناحية باب المصباح وقبل أن يصل الباب، تذكر أن طريق الهروب من الجهة الأخرى. هبط من الدرج واختفى. لو تقدمت أمّها ثلاث ثوان فقط لوقعت المصيبة. ولكن أمّها على أي حال شكّت في الأمر. سألتها عن سبب وجودها في الروشن في هذا الوقت وهي متأنّقة. فكّرت سعاد في الإجابة دون جدوى. لم تنتظر الأمّ الإجابة. رفعت يدها وصفعتها على وجهها. لم تكن الضربة لا قاسية ولا خفيفة. ضربة تحتمل أكثر من معنى ودلالة. انتزعت سعاد نفسها من قبضة أمّها وهربت. سمعت صوت أمّها يقذفها بأقذع السباب. كان واضحاً أن الأمّ أحسّت بالحقيقة. فالصورة التي كانت عليها سعاد لا تحتمل أيّ تأويل. هربت سعاد وأغلقت على نفسها في

الغرفة في انتظار أن تموت. توقّعت أن تلحق بها أمّها وتضربها حتّى تلاقي وجه ربّها. تمنّت ذلك. لقد حقّقت حلمها الأكبر الذي لن يتكرّر. عندما تأخّرت أمّها تأكّد أن أمّها تركت أمر تأديبها حتّى يأتي سعندي أو والدها. مضت أكثر من ست ساعات وهي منكبة على بطنها تنتظر مصيرها. فجأة سمعت أمّها تنادي في بطن البيت:

- سعاد ورا ما تنزلين تتغدين يا بنيتي.

كان صوت أمّها دافئاً حنوناً لا يخفي ضغينة. بدّلت ملابسها ومسحت الديرم من فمها ونزلت. إذاً أمّها لم تخبر أحداً بل نسيت الموضوع. عاشت مع أمّها أكثر من عشرين سنة بعد تلك الحادثة. انتزعت من مشتركهما المعرفي كأنّها حلم تلاشى. لم ترفع سمّاعة التلفون بعد تلك الحادثة. سمعته يرنّ كثيراً. ربّما كان حبيبها عبد الله. ضاقت فسحة الحبّ. تفضّلت عليها أمّها بإعفائها من جريمة شرف بسبب وضعها. شعرت أن أمّها ظلمتها. عاملتها كفتاة تستحقّ أقصى درجات الشفقة. حصلت على شفقة لم يحصل عليها أحد من قبل. تمّ تحديد موضعها في هذا العالم. قاع البؤس. لو كانت امرأة سويّة لأنزلت أمّها بها أقصى درجات العقاب. من الصعب أن تفكّر في الحادثة بطريقة سويّة. كانت تعرف أن مصيرها مربوط بمصير سعيد أكثر منه بمصير سعندي وبمصير غيره وهذا ما حدث بالفعل بعد سنين طويلة. لم يبق من أُسرة سعندي سوى سعيد وسعاد.

* * *

كانت تعرف أن اسمها يناقض حياتها. هذا ما لفت نظر الأميرة. مكثت عشرين سنة قبل أن تعود إلى بيت الأميرة وتشاهد الفيلم الثاني في حياتها. تذكّرت سعاد هذا العرض بعد عشر سنوات من موت والدتها. كانت قد بلغت الخمسين وأصبحت وحيدة بعد وفاة سعندي وفقدان سعيد الذي خرج من البيت في أحد الأيام لأداء الصلاة ولم يعد. لم يجد من يسأل عنه. كان والده قد مات ولم يبق في البيت سوى سعاد وأمّها الهرمة. قدّمت نفسها للأميرة ولكن الأميرة لم تتذكّرها. عرفت الأميرة طلبها فقالت لها دون انتظار تعالي اسكني في واحدة من هذه الغرف الله يحيكي. ثم التفتت إلى امرأة تقف بجانبها وقالت لها:

- خذي سعاد للمطبخ خلي صالحة تعرفها عشان تعطيها أعاشتها وخلي عبيد الله يصرف لها خمسين ريال في الشهر عشان تشتري اللي تبي.

* * *

لا يبصر الإنسان ما كتب له ولا يعرف مصيره الذي يقرره القدر. مهما خطط الإنسان تظلّ المصادفة أصله ومنشأه. أهم حدثين في عمر الكائن هما يوم ميلاده ويوم موته. لا يعلم الإنسان عنهما أي شيء ولا رأي له فيهما. كلّ شيء يحدث بين هذين الحدثين الكبيرين ثمرة هاتين المصادفتين. يسير الإنسان في اتّجاه اليوم الذي يكرهه تاركاً وراءه اليوم الذي يتمنّى أن يكون فيه. كان يمكن أن يكون مصير سعندي مصيراً آخر لو أنه لم يخرج في ذلك العصر ولكنه خرج ليسرّع لقاءه باليوم الذي ينتظره الناس بكلّ

كراهية. كان قد جمع عدداً كبيراً من الأغاني ولكن تبقى مجموعته ناقصة إذا لم تضمّ أغنية «أبكي على ما جرى لي يا هلي». كان يعشق هذه الأغنية ويترنّم بها بمناسبة وبدون مناسبة. كانت أغنية الموسم. كان الناس يسألون سوّاق التاكسي قبل أن يركبوا معه عن أغنية «أبكي...». انتشرت بين الناس حتّى بلغ سعر أسطوانتها أكثر من ستين ريالاً. يمكن أن يجدها مستعملة في الحراج بسعر زهيد جدّاً، بعشرة ريالات إذا صدقت الأقاويل.

قادته تلك الأغنية إلى هلاكه. شابّ خفيف الدم يحبّ الشلاّت والنكات والتعليق على الناس ولا يتردّد في تدبير أعمال النصب والاحتيال ويذوب في سماع الأغاني. حوّل روشن بيتهم إلى استديو. مسجّل وبكم وأسطوانات وأشرطة وراديو. كان يختلف عن أصدقائه. يحبّ لقاء المطربين أكثر من لاعبي الكرة. يتوق دائماً إلى السلام عليهم. خرج في إحدى العصريات من منزلهم لزيارة سوق الأسطوانات لعلّه يلتقي واحداً من فنّانيه المفضّلين ويشتري أسطوانة «أبكي». لا ينسى أنه صادف في إحدى المرّات الفنان سالم العبد الله وبعدها بأيام شاهد الفنان فهد إبراهيم. اعتاد أن يخرج من البيت مع أذان العصر. يتجوّل في الأسواق حتّى إذا وصل إلى سوق الأسطوانات تكون السوق في تمام حيويّتها. يمرّ بسوق العلف وأحياناً بسوق الوشيقر وأحياناً يذهب إلى المحيفرة. المهمّ ألاّ يعرّج على سوق الغنم حتّى لا يراه أبوه. فأبوه رجل عملي لا يمكن أن يفوّت وجوده في السوق دون أن يسند إليه عملاً. دخل سوق الزل في طريقه إلى سوق الأسطوانات. قبل أن

يخرج من الجهة الثانية شاهد عبد الهواشم وفحيج وابن سويقي وعبد العزيز يجلسون على عتبة دكان عبد العزيز فانضمّ إليهم. سمعهم يرتّبون أمور سفرة إلى جزيرة اللؤلؤ. فأعلن رغبته السفر معهم دون تدبّر. رفضوا في البداية ولكنّه ألحّ وارتجى فوافقوا شريطة أن يؤمّن ثلاثمائة ريال يرهنها معهم. كان المبلغ تحدّياً كبيراً لسعندي. هذه الطريقة الوحيدة التي يمكن أن يتخلّصوا بها من إلحاحه. منذ أن ترك الوظيفة لم يدخل جيبه مبلغ كهذا.

ثلاثمائة ريال أكثر من راتبه عندما كان فرّاشاً وتعادل دخل والده مدّة شهر. تذكّر مسجّل القرندق والبكم، أثمن شيء يملكه في حياته. اشتراهما له والده في لحظة طيش أبوية. سيأخذهما غداً ما بعد العصر إلى حراج الأسطوانات. تقدّر قيمتهما الآن بما لا يقلّ عن ستين ريالاً. يبقى بعد ذلك مئتان وأربعون ريالاً. سيدبّرها ربّ العالمين. هكذا قال لنفسه. ذهب في اليوم نفسه إلى شنغافة. طرق عليه بوّابة القبو. كان يعرف أن شنغافة يقطع عَرَقاً ويسوّقه وهذا لا يخفى على أحد في حلّة ابن بخيت. سمع كثيراً عن الأرباح التي تدرّها مبيعات الخمر وتسويقه. لم يشرب خمراً في حياته ولا يعرف حتّى شكله. ألحّت عليه فكرة السفر. سيقدّم نفسه بوصفه موزّعاً. سيغري شنغافة بقدرته على توزيع الخمر. سيصرف له مطارتين أو ثلاثاً يومياً. كان قد أعدّ الخطّة. عندئذ سيقنع شنغافة أن يسلفه مبلغاً من المال على تصريف العرق مستقبلاً. ستنحلّ المشكلة بمشيئة الله. حاول التفاهم معه لكن

شنغافة رفض وأنكر علاقته بالخمر من حيث المبدأ. عندما عرف أن شنغافة لا يحتاج إلى خدماته ذهب مباشرة إلى حقيقة هدفه، وطلب منه سلفة وأقسم له يميناً غليظة أن أمّه مريضة تحتاج إلى علاج لدى الدكتور شوانج الصيني، لقد بدأت تفقد قدرتها على السمع وقد تفقد سمعها نهائياً إذا لم تجر لها العملية يوم غد على أبعد تقدير. بعد مفاوضات طويلة ملأى بالعواطف الجيّاشة رقّ قلب شنغافة فأقرضه مئة ريال على أن يسدّدها خلال ثلاثة أشهر. مائة ريال لا تكفي ولكنها نعمة إذا أضافها إلى قيمة المسجّل والبكم. ويبدو أن المصادفة الجميلة تجرّ إلى مصادفة أجمل منها.

اكتشف شنغافة في اليوم التالي أن سعندي كذب عليه. عرف ذلك من عبد الهواشم الذي عرض عليه فكرة السفرة نفسها. صرخ شنغافة:

- ملعون الوالدين يريد أن يسافر بفلوسي لجزيرة اللؤلؤ ويدشر بها ويتفاول على أمّه بالشرّ.

أقفل قبو النادي وراح يبحث عنه في أنحاء شويمطة حتّى وجده بعد ساعتين في حراج الغنم مع والده. ترصّد له حتّى ترك السوق وأصبح قريباً من سوق الربابين. لحق به. هجم عليه وقبض على حلقه. كاد يزهق روحه. عندما لاحظ أثر الضغط على عينيه طلب منه إعادة المائة ريال فوراً. فوجئ سعندي بغضب شنغافة. في البداية لم يعرف السبب فقد أقرضه المال عن طيب خاطر. شرح له شنغافة. فأقسم سعندي أن عبد الهواشم يريد أن يوقع بينهما. لم يكن شنغافة مستعدّاً لأن يُخدع مرّتين فشدد قبضته على

حلقه وطالبه بأن يسدد فوراً. تعاركا وتدافعا حتّى دخلا سوق الربابين فانتبه أبو حمد خال سعندي الذي نهض من دكانه صائحاً غاضباً:

- وش بلاك عليه يا شنغافة.

ارتبك سعندي أكثر من شنغافة. فقال على الفور حتّى لا يسمح بتفاقم الوضع وتفتضح نيّة السفر ويعرف والده بالأمر:

- ما فيه شيء يا خال.

لكن الخال أخذته الحمية فسحب يد شنغافة من حلق سعندي. خشي سعندي أن يدخل الاثنان في مضاربة يكون تأثيرها خطيراً على قرار السفر. يريد أن يبقي كل شيء في الخفاء. كان قد كذب على والديه بأنه سوف يطلع للبر قريباً. نزل عليه الحظّ من السماء عندما قرّر شنغافة تأجيل الأمر حتّى لا يضيع حقّه في الجدال العائلي. ليس لديه دليل يثبت القرض. خشي أن ينكر سعندي في لحظة غضب ويدخل في متاهة مراوغات سعندي الشهيرة. فسعندي لا يمكن الثقة به. فاضطرّ إلى أن يسحب نفسه ويترك أرض المعركة وكأنّ الأمر كان دعابة. لا بأس أن يستغلّ سعندي الموقف ويستفيد منه. لن يفلت منه في المرّة المقبلة. فقال له وهو يخلي سبيله:

- اليوم مفهوم تدبرها اليوم سامع؟

قبل أن يرحل سأل الخال:

- وش يقصد باليوم وش بينكم

فرد سعندي ضاحكاً ضحكة مصطنعة:

- أبداً يا خال أنت تعرف.

ثم أخذ يماطل في الكلام حتّى رحل شنغافة، فاستغلّ إلحاح خاله ليعرف السبب، فقال له بعد أن ارتدى لبوس الوداعة:

- أبد طال عمرك شريت منه حمام قبل أسبوعين ما أمداني أحطها في الصندقة ومع الفرح نزلت أفتح الباب ويوم رجعت لقيتها طارت. الله يلعن أمّها نسيت أنتف ريشها.

فسأله الخال: كم تسوى؟

فقال

- مئتين ريال.

فصرخ الخال:

- أعقب مئتين ريال تشتري حمام بمئتين ريال.

- طال عمرك لو ما طارت كان خلال شهرين تجيب أربعمائة ريال من بيضها بس.

فقال الخال مستنكراً:

- أنا ما أخبرك تربي حمام.

- أيه كل حمامي مخليها عند شنغافة في صندقته الله لا يعيده ولا ساعته يا ليتك يا خالي تسلفني مئتين ريال بس شهر أو شهرين.

أرتج على الخال وقال:

- من وين أجيب لك مئتين وأنا خالك يا الله الواحد يحصل رزق يومه.

فقال له بعد أن سفح شيئاً من دموعه:

- والله يا خالي ها العبد إذا ما ردّيت فلوسه يمكن يشتكيني وأخيس في المصك.

فقال الخال:

- ورا ما تقول لابوك تخليه يسدد عنك.

فصرخ سعندي:

- لا تكفا لا تجيب سيرة لأبوي. الوالد حسّاس وأنت تعرفه الله يهديه. احلف أن أردها لك خلال شهر بس شهر.

فأخذ يقسم بأيمان مغلظة فبدأ الخال يصدق ولكن الخال أقسم صادقاً أنه لا يملك هذا المبلغ.

فقال له:

- دبرني يا خالي تكفا خلني أسدّده وأكسب لي قرشين تنفعني وبخليك شريك لك نصف المكسب.

تداخلت العواطف مع الأطماع فأظهر الخال ميلاً إلى التصديق. أحسّ سعندي أن خاله استحسن الفكرة. فقال بسرعة ليقبض على الفرصة التاريخية التي ستضمن له السفر إلى جزيرة اللؤلؤ:

- صدقني يا خال تجارة الحمام فيها ذهب. أحسن لك من رب القدور والدلال. تفتك من ها الدخنة والدحوسة بين التراب والرماد.

لم يكن الخال يملك أيّ مبلغ يمكن أن يساهم به في تجارة الحمام المزعومة. فأجاب:

- وين تبيني أجيب الفلوس منه.

فقال سعندي بحماسة:

- فكر فكر يا خالي ترى تجارة الحمام فيها خير.

تذكّر الخال أن لديه عدداً من السحال مخزنة في دكانه نسيها أصحابها منذ زمن بعيد. فقال:

- أن كان نصرف ها السحال اللي عندي.

شعر سعندي أن جزيرة اللؤلؤ أصبحت أقرب مما تصوّر فسأل:

- كم سحلة؟

- أربع.

- كم تسوي

- ما تقل عن مئة وخمسين إذا دخلنا معها السمور والدلال.

زعق سعندي.

- خلاص طال عمرك صرفها. خلنا نبدأ الشغل.

استأذن الخال بعد أن وعد بالتفكير في الأمر ليعود إلى دكانه. أحسّ سعندي أن الفرصة لن تتكرّر ففلوس الرحلة تكاد تتدبّر. يجب ألاّ يعطي خاله الوقت الكافي للتفكير. قد يعيد النظر أو يناقش الأمر مع جيرانه من الربابين أو يخبر أخته. لحق به في الدكان وقال له بما يشبه الهمس حتّى لا يسمعه الآخرون:

- أسمع يا خال أش رأيك فيه أربعة أجواز حمام ومعها سبع بيضات. هذي سعرها ما يتعدي مئتين ريال.

لم يكن الخال على دراية بالحمام. يسمع به ويعرف أن أسعاره عالية فقال:

- وش تبيني أسوي عطني فرصة لين أبيع السحال وبعدين يحلّها الحلاّل.

فقال سعندي:

- لا ما يصير لازم ندبّر المبلغ اليوم أو بكره.

فقال الخال:

- مستحيل من بيشتري سحال كبار غير التجّار وعيال الشيوخ يبي لي أوصي كم واحد يمكن يلقى لها زبون.

سال لعاب سعندي. لا يمكن تفويت الفرصة فطلب من خاله أن يغلق الدكان ويلحق به. لا يصلح الحكي في الدكان، يمكن أن يسمعنا الجيران ويسرقوا الفكرة. تعال معي دقائق. قفز الخال من الدكان وسار خلف سعندي يحدوه الطمع. ما إن اقتربا في سيرهما من حلّة ابن بخيت حتّى امتلأ رأس الخال بوعود الثراء، وبدأ الخال يفكر في الأمر بجدية. خاف سعندي من أيّ تطوّرات تقوّض آماله. لقد أصبح قريباً من بيتهم فقال بسرعة:

- اسمع يا خال ما أبي أحد يدري عن الموضوع ولا حتّى أمّي. استغرب الخال.

- أمّك هي أختي وش فيها إذا درت.

- بصراحة يا خال أمّي تخاف عليّ من الحمام.

- ليش؟

فقال له:

- تعرف الناس تشكّ أن اللي يبيعون الحمام يحبّون الصبيّان. وما تبيني أماشيهم خايفة عليّ.

فقال له الخال بشيء من الحذر:

- وأنت ما تخاف منهم؟

فقال:

- لا أنا ما علي منهم أنا أشترى الحمام من رِجال كفو معروفين مثل شنغافة وخليل.

فقال الخال:

- أجل لا تخاف أن أمّك تدري.

شعر سعندي أن سذاجة الخال تتطلب مناورات ذات طابع هجومي، فالخال رجل بسيط قد تساعد بساطته على تليين موقفه أو أن تقوّض الفكرة من أساسها، فقال له:

- والله يا خال أبي نخلي الأمر بين الرجال ما أبي الحريم يتدخلون فيه إذا أنت بتقول لأمّي خلاص أنس الموضوع فيه كثير يبون يسلفوني بس أنا قلت أنت خالي وأقرب لي من عيال الناس لكن ما دام أنك ما تبي تستفيد منها الله يوفقك خلك في سحالك وقدروك

شعر الخال أن فرصة العمر سوف تفلت من بين يديه، فقال:

- أنا وأنا خالك ما قصدي بس ما ودك الواحد اللي في سنّك يخبي عن أهله.

فقال سعندي:

- أنت تدري أنا رجال ما أحتاج من يرعاني معدنيب صغير الله يهديك يا خالي.

ثم أردف حتّى لا يخرج الموضوع إلى توافه الأمور:

- عجل بع سحالك وخلني نترزق الله.

فقال الخال:

- قلت لك هذي سحال كبار وما تنباع بسهولة.

فقال سعندي بعد أن لمعت الفكرة في دماغه.

- أقول ورا ما تتسلف المبلغ والين بعنا السحال نسدّده.

- من بيسلفنا وأنا خالك؟

شعر أن خاله اقتنع ولا بدّ من الضرب المباشر في هذا الوقت. فليس من المناسب التأجيل. لم يبق على السفر إلى جزيرة اللؤلؤ سوى ثلاثة أيام عليه أن يتدبّر المبلغ، فالعيال لن يسلّفوه أو يؤجلوا السفر من أجله. الخال أصبح لقمة سائغة. مشكلة الثقة مع هؤلاء لا يمكن بناؤها إلاّ بالفلوس. قد يدّعي ويناور ويكذب كما فعل كثيراً من قبل، لكن الحسابات في السفر واضحة. ملّوا التسامح معه. في معظم رحلات البر يذهب معهم مجّاناً. يأكل ويشرب معهم في قهاوي كيلو ستة مجّاناً. يعدهم بأن يدفع ولكنه في النهاية لا يدفع شيئاً. يشفع له عندهم كرمه إذا توافرت بين يديه الفلوس. السفر إلى جزيرة اللؤلؤ يتطلّب مبلغاً كبيراً. الخال هو أعظم فرصة إذا لم يكن الفرصة الوحيدة. فالمبلغ الذي اقترضه من

شنغافة وثمن المسجّل والبكم لا يكفيان. التفت إلى الخال وقال له:

- أنا أعرفك يا خالي رجال جزوم ما تتردّد خلنا نروح عقب العصر للمؤذن ابن حميد في الجفرة يمكن يسلفك ونسددها على أقساط.

فقال الخال مذهولاً.

- تبيني آخذ وعدة؟

فقال سعندي:

- وش يضر كلّها كم شهر ونسدّدها والباقي نقسمه أنا وانت لك ثلثين ولي ثلث. وإذا بغيت لك ثلاثة أرباع ولي الربع. المهم خلنا نشتغل يا طويل العمر. الحمام كله بركة.

فقال الخال:

- والله يا ولدي ما أدري وش أقول لك. بعدين هذولا ما يسلفون إلاّ برهن.

فقال سعندي:

- نرهن السحال والسمور. أن قدرنا رجعنا سحالنا وأن ما قدرنا ياخذون السحال

فقال الخال فجأة:

- والا فيها أننا ما نقدر؟

شعر سعندي أنه ارتكب خطأ شنيعاً يجب تصحيحه وإلاّ انتهى كلّ شيء فقال:

- أنا ما أقصد أننا ما نقدر نسدّد. أقصد إذا بغينا نرجع سحالنا نرجعها وإذا بغينا نخلي الفلوس معنا ونخليهم يبيعون السحال بأنفسهم الله يهديك يا خالي.

اتّفقا أخيراً على اللقاء عقب صلاة العصر عند المسجد الجامع، وعلى جعل الموضوع طيّ الكتمان وهذا الأخير أهمّ شرط شدّد عليه سعندي. نجاح المشروع يكمن في سرّيته. لم يكن سعندي يعرف قوانين التسليف في الجفيرة.

كان الشرط الأوّل الذي طلبه المؤذن هو أن يحضرا كفيلاً ضامناً بعد أن رفض السحال وطلب أن يكون الرهن صكّ بيت الخال. خرجا من الجفيرة للتشاور. فقال الخال بحكمة لا يحتاج إليها سعندي:

- أصبر وأنا خالك ألين أبيع السحال هذولا حقين الجفيرة طمّاعين. يبي يأخذ العشر أربعطعش ملعون الوالدين هذا وهو إمام ومؤذن مسجد.

لم يكن سعندي مستعدّاً لسماع أيّ تحليل أخلاقي للموضوع. كان دماغه يجهد لاقتراح كفيل، ولكن من يكفل رباب قدور لا يملك قوت يومه. المبلغ يجب أن يدبّر اليوم وفي الأقصى غداً حتّى يقنع عبد الهواشم. عبرا الشارع وقرّر الخال العودة إلى منزله قلقاً على المشروع. أخذ يشتم أهل الجفيرة ويسب الطمّاعين المرابين أينما كانوا. فقال له سعندي:

- تذكّر يا خالي كفيل لازم تحصل كفيل.

فقال الخال:

- يا وليدي ما تستاهل المسألة كلّ الأرباح اللي بتجينا بتروح في جبيب ها الديان.

فقال سعندي:

- من قال لك هذا أنا أضمن لك يصير الطاق مطبوق في شهر وهذا يبيك تسدد بعد ثلاثة أشهر يعني نخلي الفلوس ونشتري بها دفعة جديدة ألين نمل وبعدين نرجع له حقه وعليه ربحه مرتين لو تبي.

لكنّ الخال قال:

- بس من بيكفلني.

فقال سعندي:

- ورا ما تخلي أبوي يكفلك؟

فقال الخال:

- تقوله صادق ظنّك أبوك بيرضى يكفلني.

فقال سعندي:

- ليش لا أنت رجال معروف ولك قيمتك بين الرجال رح له اليوم وحاول معه.

فقال الخال:

- أنت ما تبي أبوك يدري وشلون تقول رح له.

فقال سعندي:

- لا تجيب سيرتي عند ابوي خل الموضوع بينك وبينه. قل له أني محتاج فلوس ببني غرفتين فوق وبخلي اللي تحت مستودع وأبي زيادة فلوس.

تردّد الخال قبل أن يقول:

- عاد بيرضى أبوك؟

فقال له:

- حاول وسط أمي تراه ما يرد لها طلب.

صمت الخال وقال أجل خلني أفكر.

فقال سعندي بعجل:

- لا تفكر هاذي فرصة ما يصير نترك الحمام لغيرنا يكسب من وراها. الرجال يبي يبيعها برخيص لأنه محتاج وإلا والله ما يبيعها بمئتين وخمسين لو نموت. وإذا بغيت رح أسأل شنغافة هو بخيص بالحمام. بس عجل رح للوالد الليلة وخله يكفلك تكفي يا خالي.

* * *

تذكّر كيف طار من الفرح عندما تسلّم ثلاثمائة ريال من الدائن بعقد فضفاض يمكن أن يسحب سعندي بموجبه مبالغ إضافية تصل إلى ثلاثة آلاف ريال. ذهبا إلى المحكمة وهمّشا على صكّ بيت الخال. رهنا البيت بكفالة والده. أكبر مأساة وقع فيها الخال. أصبح بيته ضماناً لعشق سيدمّر حياة الجميع. كانت المفاوضات الثلاثية قد جرت بطريقة غريبة. ذهب الخال بناء على نصيحة وإلحاح من سعندي إلى والد سعندي يطلب منه أن يكفله عند المؤذن ابن حميد. تردّد والد سعندي في البداية. لم يستحسن رغبة الخال في تجديد البيت. كانت الفكرة مقبولة من حيث المبدأ. البيت يقع في أفضل موقع. قريب من مسجد الجامع

وقريب من سوق الربابين وقريب أيضاً من سوق آل وشيقر. يصلح سكناً ويصلح في الوقت نفسه مستودعاً لأي تاجر يملك دكاناً في القيصيرة. كما يمكن أن يستخدمه تاجر صغير سكناً ومستودعاً في الوقت نفسه. كاد المؤذن حميد أن يطير من الفرح عندما طلب منه الخال سلفة برهن البيت. أحسّ المؤذن أن سعندي يلعب مع الخال لعبة ما فقرّر أن يستغلّها فأوعز إلى سعندي أثناء المفاوضات أن يرفع قيمة القرض من ثلاثمائة ريال إلى ثلاثة آلاف على ألا يسحبها في البداية. يسحبها بالتقسيط دون أن يحسّ الخال. تمّت صياغة الاتّفاق بطريقة تسمح لسعندي أن يتقدّم بطلب زيادة السلفة في أي وقت يشاء دون الحاجة إلى موافقة الخال أو والده. استغلّ المؤذن جهل الخال ووالد سعندي بالقراءة والكتابة فوقعهما على أوراق تخدم أهدافه وأهداف سعندي. كان كلّ الشهود من المرابين من زملاء حميد في الجفيرة. كان والد سعندي قد رفض الفكرة من أساسها. لم يحبّذ أخذ قرض برهن البيت لترميمه أو توسيعه. فالخال ليس في حاجة إلى بيت بمواصفات جديدة. ليس لديه بضائع ليتحوّل الدور الأول إلى مستودع. ولكن الخال أصرّ وتمسّك بوعود الثراء التي سمعها من سعندي. أخيراً مرّر جميع الحجج التي اخترعها له سعندي، فاقتنع والد سعندي على مضض. شاركه الخال في الفرح. خرجا من سوق الجفيرة والخال يردّد:

- تكفي شف الحمام الزينة ترى الحمام يمكن يموت بعدين تروح فلوسنا طقعة مفسخ. وأبوك محرصني على السلفة.

سمع الخال سعندي يقول بعد أن ابتعد عنه:

- لا تخاف يا طويل العمر كل شيء مضمون. الليلة أن شاء الله بروح لشنغافة واتفاهم معه وأروح لسوق الحمام أشوف جوز أو جوزين فقال له الخال:

- أجل أروح معك.

صرخ سعندي:

- لا لا طال عمرك خلك في دكانك ما يصلح بعدين إذا شافوك بياعين الحمام رفعوا السعر.

- يا ولدي خلني أتعلم تجارة الحمام ذبحتني القدور طفشت منها.

- لا تخاف يا خالي بعلمك تجارتها يالله ها الحين في أمان الله خلني أروح أشوف شغلي.

عبر الشارع دون أن ينتظر ردّ فعل الخال. حثّ الخطى بغية أن يثبت لعبد الهواشم وابن سويقي جدّيته وقدرته على تدبير الفلوس. لم يشعر في تلك اللحظة بأي أسف على خداعه لخاله وتوريط والده. لن يخسر الخال سوى قليل من السحال والسمور وعدد من الدلال. لن يضطرّه أحد إلى أن يبيع منزله المرهون. هكذا زين له خياله. سيطرت عليه فكرة السفر إلى جزيرة اللؤلؤ. استولت على وجدانه. أصبحت فكرة قهريّة. سمع كثيراً عن البنات في جزيرة اللؤلؤ. يستطيع أن يضاجع عشر بنات في يوم واحد. شيء لا يصل إليه حتّى في الأحلام. بلغ السادسة عشرة

ولم يضاجع امرأة قط. طفش من ملاحقة صغار الصبيان. لم يكن يشعر بأي ميل إليهم. يمارس معهم الشذوذ بطريقة مقرفة. يريد أن يضع جسده في سياقه الصحيح. المرأة في جزيرة اللؤلؤ في انتظاره. بحوزته الآن أكثر من أربعمائة ريال تكفي لسفرتين حسب تقديرات العيال. قالوا له إن المضاجعة الواحدة تكلف عشرة ريالات. دينار بلغة أهل اللؤلؤ. سيكون معه فائض من المال يكفيه أن يضاجع عشر نساء في اليوم الواحد. التكاليف الأساسية محدودة لا تتجاوز عشرة ريالات أجرة القطار من الرويض إلى الدويمان ثم الخويبر ثم خمسة ريالات أجرة اللنش الذي سيقلهم إلى جزيرة اللؤلؤ ثم مصاريف الأكل والسكن والخمر وهذه لا تزيد على مئة وخمسين ريالاً والباقي سوف يخصصه للنساء. سمع بأن بنات قرندول لا يسألن عن الشكل. بفلوسك تقدر تحصل على أجمل امرأة. لم يكن شكله يشجّعه على مغازلة بنت الجيران أو البنات في الأسواق. لا ينسى تينك التجربتين المرّتين مع النساء. حدثت الأولى ذات مساء. كان يقف في السطح الأعلى يتأمل في الغروب ويبحث عن النساء اللواتي يفرشن المراقد. تأمّل في جميع الاتّجاهات. شاهد ثلاث بنات بملابس منزلية يتجوّلن في السطح كأنهنّ يبحثن عن أحد. شعر أن إحداهنّ تنظر إليه. لم تهرب أو تختبئ فظنّ أن في الأمر تشجيعاً فرفع يده محيياً. تريّثت الفتاة قليلاً ثم انحنت وأخذت نعالها ورفعتها في وجهه. شعر بالإهانة. عجز عن تفسير تصرّف الفتاة. لماذا جاء ردّ فعلها بهذا العنف والكراهية. كان صغيراً فانطبعت صورة النعال في وجدانه.

كانت التجربة الثانية مع امرأة مستعدّة لأن تمنح جسدها. كان يمكن أن تكون تجربته الأولى التي يضاجع فيها. لكن القدر حولها إلى ألم في قلبه. اشترى ابن سويقي تاكسياً. ففتح له التاكسي باباً على العالم الخفي للرويض. صار يقصّ عليهم قصص النساء من زبائنه. في إحدى المرات اتّفق مع إحداهنّ. كانت المشكلة في المكان. أين يذهب بها. حاول مع عبد الهواشم ولكن عبد الهواشم رفض فبيته مجرّد غرفة صغيرة تقع في الديرة لا يمكن أن تدخل امرأة دون أن يشاهدها الناس. حاول مع السويمي ولكن السويمي رفض أيضاً فزوجته ملعونة والدين حسّاسة تشمّ رائحة المرأة من على بعد مئات الكيلومترات. جرّب مرّة أن يدخل امرأة فتحوّلت إلى كارثة لا يريد أن يكرّرها. يكفي أنها تسمح له بتجميع سرابيته في الليل يسكرون ويمرحون في بيتها. في إحدى المرّات فتح ابن سويقي الموضوع في القهوة بحضور سعندي فانبرى سعندي وأعلن استعداده لأن يبعد أمّه وأخته وأخاه المعوّق ساعة أو ساعتين ليخلو البيت لهم. فرح الجميع بهذا الاقتراح. في اليوم المتّفق عليه نزلت من سيارة ابن سويقي امرأة في الثلاثين من عمرها. حنطية سمينة جدّاً، تلتفّ في عباءتها. نزلت في مدخل السكّة. كانت ترفع العباءة عن عجيزة كبيرة. كان على سعندي أن ينتظر وراء الباب يفتحه عندما يسمع وقع قدميها دون أن يظهر في الصورة حتّى إذا صودف أن مرّ أحد يظن أن والدة سعندي هي التي تقف وراء الباب. كانت الأمور مرتّبة بعناية. دخلت المرأة وأشار عليها سعندي أن تصعد. صعدت إلى الدور الثاني مع درج

الروشن. ترك سعندي الباب وصعد وراءها. أثناء صعودها شاهد مؤخّرتها تهتزّ وتترجرج. فسوّلت له نفسه الغرّة أن يختبر ليونتها. فأدخل إصبعه بين الإليتين. كان ردّ فعل المرأة عنيفاً. أمسكت بيده وسحبته ثم دفعت به ناحية الجدار وعندما فقد توازنه دفعته فتهاوى من الدرج إلى أسفل. كان ابن سويقي قد أوقف السيارة ودخل المنزل بصحبة عبد الهواشم والسويمي. سمعوا صراخ التعارك فركض ابن سويقي ليرى سعندي متكوّماً في أسفل الدرج. عولج الأمر لكن المرأة أقسمت ألاّ تسمح لهذا البزر أن يركبها. ثم أخذت تعيره مرّة الأسود ومرة الخنفسانة ومرة بالحشرة. وأخيراً تعاقب عليها الجميع دون سعندي وخرجت. كلّهم تمتّعوا بها سواه. لم يشعر أنّه فقد حقّه في مضاجعتها ولكنه شعر أنه قبيح لا تقبله امرأة. برغم هذا بقي وفياً للمرأة. لم يحطّمه الشذوذ والعلاقات المثلية التي يمارسها في أوقات متباعدة. صار يبحث عن المرأة في أحلامه. أخيراً دفن آماله الوردية في حبّ امرأة لا يعرف منها سوى أعضائها التناسلية. لم يخبر أحداً البتة بحبّه لبنت مستورة. فكلّ أصدقائه الذين سافروا إلى جزيرة اللؤلؤ ضاجعوها عدداً لا يحصى من المرّات. عندما يعودون من جزيرة اللؤلؤ ويتفاحشون ويتضاحكون كانوا يمرّون على جسد بنت مستورة. حتّى أن أحدهم يصف فتحة أنوثتها واللحيمات المتدلية منها. يسمع هذا ويتقبّله. لم يعد ينظر إليها بصفتها إنسانة نزيلة قرندول تبيع جسدها بهذا الاندفاع الجنوني. إنّها امرأة تنطوي على أسرار غريبة. أمل حياته أن يفكّ رموزها ويعرف من هي وأين تأخذ هذه

الفلوس الكثيرة التي تجنيها من المضاجعة. قدر مرّة أنّها تكسب حوالي تسعين ديناراً في اليوم الواحد أي أكثر من عشرين ألف ريال في الشهر. أين زوجها وأهلها. بدأ يشكّ في أنّها ليست من جزيرة اللؤلؤ من لهجتها وطريقة كلامها. سمع كثيراً أنّ كلّ بنت تهرب من أهلها تنتهي في قرندول. كان يتمنّى أن تتكلم كثيراً حتّى يحدّد من لهجتها من هي. لا يمكن أن تكون من مواليد جزيرة اللؤلؤ أو من سكّانها. عشر سنوات وهو يجري وراءها. تساءل كثيراً لماذا لم تتوقّف البتة إلى أن أصيبت بالسفلس وماتت.

أول تجربة حوار معها جرت بعد سنتين من تعرّفه عليها. حوار بطيء متأنٍّ لا يفضي إلى شيء. الأفضل أن يضاجعها بصمت. كلمتان فقط ترتّبان مسألة الأجرة والوضع ثم يتأكّد أنّها مسحت مخلّفات الرجل السابق. في إحدى المرّات بدأ معها بداية صادمة. كان سكرانَ. بعد أن قضى وطره منها سألها عن أهلها. فجأة قذفت به من فوق جسدها بقوّة عاتية ونهضت من الفراش. لأوّل مرّة يشاهدها منتصبة عارية غاضبة. أحسّ أنّها مستعدّة لقتله. أخذت تدفعه ناحية الباب حتّى أخرجته من الغرفة نهائياً. رفع الرجال أنظارهم إليه وهو يلبس سرواله على مرأى منهم. وقف بعضهم يريد أن يمدّ يد العون للمرأة. شهامة تريد أن تستيقظ في بيت الرذيلة. لم يعبأ بهم. يعرف أن هؤلاء الرجال مذعورون غارقون في خزيهم. لا يمكن أيّاً منهم أن يدخل في مشكلة في هذا المكان. تذكّر القصص التي يقصّها عليه حسينوه. هؤلاء يمكن استغلالهم بسهولة. يأتون إلى هذا المكان باحثين عن

الستر. إنهم أكثر عاراً من المكان نفسه. بعد هذه الحادثة تعلّم الدرس الأوّل في عالم البغاء ليس له من البنت المُستأجرة سوى الجسد. إنّها حبيبة خياله التي يصنع منها أحلاماً. يحلم أنّها في حضنه وفي بيته وتخدمه وتقبّله وتدلّك رجليه. يحلم ما شاء له الحلم. عليه أن يأتي إلى جزيرة اللؤلؤ في كل مرّة يشعر أن الأحلام بدأت تخبو. لم يفكر البتة في إقامة علاقة حبّ في الرويض. يعرف كثيراً من قريباته. بنات بأعمار متفاوتة. كانت أمّه تخطّط لتزويجه واحدة منهنّ بعد أن بلغ الثامنة عشرة، لكن والده رفض. الزواج يحتاج إلى مصاريف كبيرة. جاء الاقتراح بعدما اتّضحت حكاية القرض وتفاقمت نتائجه. كان والده في منتهى الغضب. حتّى شعر أنه يكرهه. يذكّره دائماً بالقرض والاتّفاق الخبيث بينه وبين المؤذن حميد. كلما تذكّر القرض عرف أنه لن يتزوّج أبداً.

* * *

بعد سنين عرف الغشّ والإجحاف المنطوي في ذلك العقد. تذكّر أن المرابي لم يشترط أن يتمّ البدء بتسديد القرض بعد شهر أو شهرين من الاقتراض كما جرت العادة، ولكن بعد ستّة أشهر. في الوقت نفسه يكون لسعندي الحقّ في سحب ما يعادل ألف ريال في هذه الفترة. استغلّها سعندي دون إحساس بالمسؤولية. وصل المبلغ إلى ألف ومائتين قبل أن يعرف الخال بالمصيبة التي حلّت به. بدأت تفوح رائحة القرض في كلّ مكان.

* * *

ذات مساء، سمع الخال طرقاً على بابه. أطلّ من الطرمة فشاهد المؤذن ابن حميد يقف أمام الباب. أصابته خيفة. كان قد تابع مع سعندي واستفسر عن الحمام فأحسّ أن سعندي يتلاعب به. لم يشاهد حماماً. سأل أم سعندي بطريقة غير مباشرة. عرف أن سعندي لم يشتر حماماً البتة وسأل عن سعندي في سوق الحمام فلم يخبره أحد بشيء يمكن أن يربط سعندي بتجارة الحمام. ولكنه لم يقوَ على مصارحة نفسه بالحقيقة. كان يسمع ردّ سعندي في كل مرّة يسأله ويتفاءل. يريد أن يصدّقه. إذا لم يصدقه فسيضيع بيته المرهون. لا تعرف الرحمة قلوب تجار الجفيرة. لن يتردّدوا في طرده من منزله. حدثت قضايا كثيرة من هذا النوع. يتذكّر حادثة سعود الشاوي الذي فرضوا عليه بيع أغنامه واضطروه إلى العودة إلى الصحراء بعد أن استطاب المدينة وأصبح واحداً من أبنائها. جاء إلى الرويض قبل أكثر من ثماني عشرة سنة. اشتغل شاوياً عند الشيخ أبو داده. كان أبو داده يتعاقد مع أصحاب الأغنام ويسند مهمة الرعي للشاوي ويتقاسمان الدخل. بعد سنوات قليلة اندمج في المجتمع وانفصل عن أبو داده وكوّن ثروة بسيطة من الأغنام. كان في الأربعين من عمره. قرّر أخيراً أن يتزوج. اقترض من الجفيرة مقابل رهن أغنامه. كان ممكناً أن يكتفي بمبلغ الزواج ولكنهم زيّنوا له فكرة شراء بيت، فاقترض مبلغاً أكبر من قدرته على تسديده. فاضطرّ في كل مرّة يحين وقت السداد، إلى أن يبيع من أصول الحلال حتّى اضطرّ في النهاية إلى أن يبيع البيت وباقي الغنم ويرحل من المدينة غير آسف عليها. تآمروا عليه. كلّ سكّان

حلّة ابن بخيت حزنوا على ورطة البدوي. وقع في فخّ المرابين. تذكّر خال سعندي البدوي المسكين. ما الذي عليه أن يفعله إذا فرض عليه القاضي أن يبيع بيته أو يهمّشه باسم حميد المؤذن. فتح الخال الباب عقب طرق قوي. فقال له ابن حميد بجفاء بعد سلام جاف:

- تراك تأخرت عن التسديد. ستة أشهر ما شفناك تجي تسدد ولا تبينا نجيك يا ولد الشيوخ.

تلكأ الخال وقبل أن ينطق بحرف قال له حميد:

- احتريتك تجي تسدد أشوفك نسيت أو ما عندك نية.

وبعد حوار بسيط عرف أن القرض صار ألفاً ومائتين. نزل عليه الخبر كمطرقة على الرأس. كيف قفز من مائتي ريال إلى ألف ومائتَي ريال. شرح له حميد الاتّفاق. وقال له إن موعد القرض كان الشهر الماضي. قالها بمُنّة وحزم. من عادة حميد أن يتناسى موعد التسديد شهراً أو شهرين ثم يأتي إلى المقترض ويتصرّف معه بوقاحة. تكنيك استفاد منه كثيراً. كان يريد من الرجل أن يغضب ويقرّر رفض التسديد. عندئذ يشهد عليه عدداً من الشهود ويتركه فترة أكثر حتّى يصبح التسديد شبه مستحيل. إذذاك يتقدّم إلى المحكمة لتسوية الأمر وفقاً للعقد، والعقد بالنسبة إلى خال سعندي التنازل عن البيت مع تسوية الفرق المتّفق عليه. خرج الخال في ذلك اليوم من بيته كالمجنون يبحث عن سعندي. طاف شوارع الرويض شارعاً شارعاً وأخيراً اضطر إلى أن يذهب إلى بيت أهل سعندي. طرق الباب. فتحت له سعاد ورحّبت به كالعادة. كان

يزور بيت أخته مرّة في الأسبوع على الأقل. تكبره أم سعندي بحوالي خمس سنوات. كانوا خمسة، ثلاثة صبيان وبنتان. وقبل أن تقول له سعاد تفضل صرخ بكل غضب:

- وين زقنقي.

لم تفهم سعاد فصمتت. فأردف بغضب أكبر:

- أقول وين سعندي الخسيس.

استيقظت الأمّ على صوت الخال الصاخب وغضبه المجنون وقالت:

- وش فيك يا أبو حمد على الولد وش اللي صاير.

شرح لها باقتضاب الذي جرى.

- عيالي بيصيرون في الشارع. يرضيك يا أم سعيد.

استمعت إلى القصّة. لم تتخيّل أن سعندي قد يفعل ذلك. يورّط الجميع بمن فيهم أبوه. من أين لسعندي مبلغ ألف ومائتي ريال لينقذ به بيت خاله المرهون. سأل الخال عنه فقالت إنه مسافر. فصرخ الخال:

- مسافر بفلوسي ملعون الوالدين.

فصرخت الأمّ:

- هوه هوه حرام عليك أنا أمّه.

فقال بعد أن أعماه الغضب:

- الله يلعن اللي عرفني به.

فقالت أمّ سعندي:

- وش فيك ورا ما تركد خلنا نتفاهم ما يصير إلاّ خير. خل أبوه يجي بعد شوي ونشوف وش الدبرة.

فقال الخال:

- دورته في الرويض كلها ما حصلت يقولون أنه مسافر جزيرة اللؤلؤ مع سرابيته.

وأردف:

- وش ظنّك يسوي في جزيرة اللؤلؤ يصلي ولا يحجّ ولا راح يتصدّق.

لأوّل مرّة تسمع الأمّ أن ابنها يسافر إلى جزيرة اللؤلؤ. لم تشأ أن تصدّق الخال. في ظروف أخرى كان يمكن أن تردّ عليه بعنف ولكنها أضمرت غضبها عليه وقالت:

- حرام عليك تقول عن الولد أنه مسافر إلى جزيرة اللؤلؤ. هذي ما يسافر لها إلاّ الفاسدين.

فرد الخال:

- وش فيه فساد أكثر من سرقة فلوس الناس والنصب عليهم.

جرى الحوار في المدخل. لم يسع الخال أن يدخل ويفجّر غضبه بصورة عائلية. فتجمّع بعض المارّة. كانت الساعة الحادية عشرة. صودف أن شنغافة يقف عند باب معدية منتظراً أن يقضي حاجة لها، فسمع الحوار الدائر بين خال سعندي وأمّه. تذكّر أن سعندي قد اقترض منه مئة ريال قبل بضعة أشهر لم تسدّد حتّى الآن. فكّر أن ينضمّ إلى الحوار. ولكنه تراجع في اللحظات

الأخيرة. المبلغ الذي نصب به سعندي على خاله خيالي. حتماً ضاع قرضه في خضمّ هذا الدين المروّع. خرج الخال من بيت أخته وقد بلغ به الجنون كلّ مبلغ. انفجرت الحارة وسوق الربابين من هول الخبر. اشتهر عن سعندي في الأشهر الأخيرة كثرة سفراته إلى جزيرة اللؤلؤ. كانت الناس تستغرب كثرة سفراته ومن أين يأتي بالفلوس. سافر في الأشهر الستة الأخيرة أكثر من عشر مرّات. كل سفرة تكلّف ما لا يقلّ عن مائتَي وخمسين ريالاً. ذاع الخبر بين الربابين وتجار سوق السدرة فتحول إلى نكتة. عندما يتحدّثون عن أسفار سعندي بفلوس الخال كان شريهان الدلاّل يقول جعل ثوابها لأبي حمد. برغم كبر المبلغ على رباب قدور وإمكان بيع بيته وتشريد عياله فقد ألقى الجميع اللوم عليه. كيف يضحك عليه ورع في السابعة عشرة من عمره. كلما تذكّروا ذلك خفّ تعاطفهم معه وزادت سخريتهم منه. التزم والد سعندي الصمت عندما عرف بالخبر وتعهّد للخال تسديد المبلغ أيّاً يكن مقداره. تلبّسته الحكمة. يجب إيجاد حلّ سريع للقضيّة قبل أن تتّخذ المحكمة إجراءات بيع بيت الخال. ذهب في اليوم نفسه إلى سوق السدرة واشترى بشتاً وعقالاً وثوباً ونعالاً زبيرية جديدة لامعة. لأوّل مرّة يصرف ستين ريالاً دفعة واحدة على ملابس. قام في صباح اليوم التالي متأخّراً على غير عادته. دخل الحمام واستحمّ وفرك أصابعه وقلّم أظفاره. غسل فروة رأسه القليلة بضع مرّات حتّى تأكّد أنّها تخلو من رائحة الغنم. خرج من البيت كأنه في طريقه إلى بيت الزوجية. أوقف سيّارة تاكسي وطلب أن تنقله إلى النويصيرية

حالاً. تعرّف قبل سنوات على رجلين من كبار أهل النويصيرية. مبيريك وزير الملك ورجله المقرّب وعتيقه السابق وفهيدان أحد أبناء البادية المقرّبين من الملك بصلة نسب. عندما وقف أمام الدروازة لم يستطع الجنود التحقّق من هذا الرجل الطويل المنتصب أمامهم. بدا وكأنه من خويان الشيوخ المقرّبين. سأله الجندي من تكون فأعطاهم اسمه بطريقة غامضة توحي بكلّ شيء، فسأله من تريد؟ فذكر اسمَي مبيريك وفهيدان أيّهما أقرب. كان عزمه وإصراره وقضيته التي جاء من أجلها تحوّلت في عينيه إلى قوّة واحترام وألقت نوعاً من التقدير في روع الجندي. فسمح له أن يدخل بالتاكسي. لأوّل مرّة في حياته يدخل هذا القصر المهيب الذي هو مدينة في داخل مدينة. فوجئ بالشوارع المنتظمة وإشارات المرور الكهربائية والحدائق والفيلاّت الحمراء الصغيرة والكبيرة المنتشرة على طول الطريق إلى القصر المخصّص لمبيريك. سأل أكثر من واحد حتّى وقع أخيراً على القصر. من الخارج يبدو أنّه مكوّن من دور واحد يقف أمام ساحة كبيرة. نزل وسأل بوّاب قصر مبيريك. تحقّق البوّاب من اسمه وهدفه وقال أخيراً:

- الشيخ مهوب موجود ما يجي من قصر الحريم إلاّ عقب الغداء. أدخل في الصالة على يدك اليمين واسترح فيها لين يجيكم من ينبكم بجلوس الشيخ.

مكث ثلاث ساعات. تغدّى مع مجموعة المنتظرين ثم توسّد مسنده ونام قليلاً ثم استيقظ على أذان صلاة العصر. بعدها أمضى

حوالى ست ساعات لم يتسنَّ له لقاء مبيريك إلاّ بعد صلاة العشاء. جلس مبيريك في صدر المجلس يحيط به بعض شيوخ القبائل ووجهاء العشائر. تقدّم قبله عدد من الناس وبعد حوالي نصف ساعة جاء دوره. جلس على ركبته وسلّم على الشيخ وشرح له ما حصل بالتفصيل. ضحك الشيخ وقال له. يستأهل ولدك. لو أني محله خليته يبيع بيتك أنت بعد. من حسن حظّه أن الشيخ ضحك. تحوّلت قصّته إلى نكتة. فقال له اذهب إلى الشيخ ابن صمعان في المحكمة الكبرى. قل له يقول لك مبيريك خله يزهم علي ويذكّرني بقضيتك. وأتفاهم أنا وإياه.

شعر أبو سعندي بالأمل الكبير. كان يعرف أن ابن صمعان هو رئيس المحكمة. خلال يومين فقط راجع قاضيان القرض المجحف واكتشفا أن هناك غشاً وتدليساً. تمّ إثبات أن الموقعين الأساسيين والد سعندي وخاله غير قادرين على الكتابة والقراءة، ومن خلال نصوص العقد تبيّن أنّهما وقعا ضحيّة نصب مدبّرة من مقرضي الجفيرة. نُقض العقد وأُعيدت كتابته بحيث يكتفي من القرض بما أخذه سعندي على أن يسدّد على مدى سنتين من تاريخ تهميش الصكّ. لكن هذا لم ينه معاناة خال سعندي إذ حُمّل تسديد القرض كاملاً بعد تبرئة والد سعندي واعتبار سعندي غير مدرك.

* * *

أهمل سعندي ما جرى لخاله ووالده ومضى في طريق قرندول لا يلوي على شيء. أفقدته بنت مستورة ضمير العلاقات. صارت

علاقاته مرهونة بحبّه لهذه المرأة. يبيع ويشتري ويقترض ويخادع ويتنازل ليحصل على فلوس السفر إلى جزيرة اللؤلؤ. لم يسلم حتّى أعز أصدقائه.

فحيج في مثل عمره واستمرّ صديقه حتّى تغيّرت صيغة العلاقة بعد أن اكتشف أمره في إحدى السفرات إلى جزيرة اللؤلؤ قبل أكثر من اثنتي عشرة سنة. كانا قد سافرا معاً إلى جزيرة اللؤلؤ أكثر من مرّة كصديقين حميمين. عندما عزّت الفلوس وفقد القدرة على الضحك على الآخرين بدأ فحيج يدبّر مبالغ كبيرة تعينهما على السفر. لاحظ أن صديقه القديم صار مبذّراً. ظنّ أنه كان يسرق. تذكّر أنّه كان صديقاً لممدوح قبل سنوات. لاحظ في إحدى المرات أن في جيبه أكثر من خمسمائة ريال. لم يسأل ولم يحقّق معه. كان يعرف أن فحيج فقير لا يملك دخلاً يكفي لتأمين طعامه فضلاً عن تأمين دواعي الإنفاق السفيه. إصلاح السياكل بصعوبة يؤمن له ولأمّه ما يكفي يومهما. لاحظ في المدّة الأخيرة أيضاً أن فحيج يفضّل السفر معه لا مع غيره. يقنعه بالسفر معه ويغريه بالفلوس. لم يفهم لماذا ولم يبحث الأمر. السفر مع الشلة أكثر أنساً. كان فحيج يقدّم حججاً واهية، في كلّ سفرة هناك حجّة جديدة. لماذا يريد فحيج أن يتجنّب الشلّة؟ جاءت السفرة التي كشفت السرّ وتحطّمت على أثرها ذكريات الطفولة وانتهت الصداقة إلى الأبد.

سافرا في إحدى المرات سرّاً إلى جزيرة اللؤلؤ بناء على إلحاح فحيج. خرجا من حلّة ابن بخيت خلسة. استقلا قطار

الصباح. وبعد ساعتين من السفر تجوّلا في عربات القطار كالعادة. كانا في منتهى السعادة. شابان صغيران في طريقهما إلى الحبّ. دخلا عربة الطعام. فجأة شاهدا فطيس وسويلم يجلسان. لاحظ الارتباك على فحيج. حاول أن يتراجع ولكن إشارة من فطيس بيّنت أنه شاهدهما فتقدما إليهما وجلسا معاً. التفت فطيس وقال بلغة غريبة:

- وين رايح يا فحيج.

استغرب سعندي هذه التسمية. لأوّل مرّة يسمع أن ناصر ينادى بفحيج. شاهد الارتباك على وجهه. سمعه يردّ بلغة ضعيفة هشّة:

- وش ها الاسم الله يهديك.

ثم ألحقها بضحكة خفيفة. لم يهتمّ فطيس بالإشارة أو بالضحكة فقال بطريقة مستهترة:

- وش بتسوي في جزيرة اللؤلؤ يا فحيج.

لاحظ سعندي أن فطيس يشدّد على كلمة فحيج. ثم قال سويلم محاولاً أن يلطّف الموقف:

- وين جالسين فيه يا سعندي. فأجابه:

- في العربة ثلاثة.

فقال:

- إذا كان فيه مقاعد خلونا نقعد مع بعض.

خرجا من المطعم على وعد أن يلحق بهما فطيس وسويلم.

جال في باله أن هناك شيئاً غير طبيعي في علاقة فطيس بفحيج. فسأل:

- ليش يسمّيك فحيج.

فقال فحيج:

- ما أدري عنه ملعون الوالدين.

لم يكرّر السؤال. جلسا. لاحظ أن فحيج مدّ عينيه يطالع الصحراء التي تمرّ عبر النافذة دون انقطاع. بدا وجهه يميل إلى الزرقة. يتأمّل في الصحراء الممتدّة كأنّها رسم ثابت في الزجاج المحكم. تقاطع المشهد بين فينة وأخرى قطعان متناثرة من الإبل. وعند كل انعطافة للقطار يزخ الرمل ويصطدم بالزجاج. يحسّ بلهيبه من السراب الملتهب كأنّه مطر ساقط من الجحيم. كيف يعيش البدو في هذا اللهيب؟ لم يفهم البتة. كان فحيج يكاد يضع خدّه على الزجاج في رحلة تأمّل صامتة. من الواضح أنه لا يتفرّج على الصحراء ولا يفكر في البدو. هناك شيء في داخله يشغله. ما الذي أثاره في كلمات فطيس ولماذا ناداه بفحيج. هذه الكلمة لا يمكن أن تكون بريئة. تأمّل في وجهه الصامت الشارد. جميل وأبيض ومليء لولا أنفه الكبير لكان أجدى بأن يكون منتصباً على كتفَي امرأة. في بعض الأحيان يشتهيه ولكن لم يفكر قط أن يمتطيه. كان في مثل سنّه وبينهما صداقة متينة بدأت في عهد الطفولة الأولى. كان يتجنّب التفكير فيه جنسياً. يعاند خياله حتّى يتجنّب أن يتخيّله كامرأة. مرّة واحدة مارس عليه العادة السرّية وشعر بالخجل وكفّ. عندما وقف القطار في محطّة الحسيوي،

قفز فحيج وطلب من سعندي النزول. استغرب ولكنه امتثل عندما لاحظ إلحاحه. نزلا من العربة. بقي ساعتان على الدويمان. ولكن فحيج قال له إنّه يحاول أن يتخلص من فطيس. ثم أردف فحيج:

- فطيس نصّاب وسوف يستغلّنا. يمكن يخبئ فلوسه كي نصرف عليه وأنا ما معي إلاّ ما يكفيني أنا وأنت.

عذر معقول ولكنه غير كاف. فكّر أن يسأله لماذا ناداك بكلمة فحيج ولكنّه تجنّب الأمر. فالكلمة لها دلالة سيئة لا تغيب عن الحسّ السليم. ليس في حاجة إلى أن يثير صديقه ووليّ نعمته في هذه السفرة. لا يعنيه من هذا كله سوى أن يصل إلى بنت مستورة. لم يهدأ. استمر اضطراب فحيج حتّى تحرك القطار تاركاً إياهما وراءه. ما الذي سنفعله في الحسيوي؟ أجاب فحيج: سوف ننتظر حتّى يأتي القطار الثاني من الروضة أو ننام في الحسيوي ونستقلّ قطار يوم غد. المهمّ أن نتخلّص من فطيس وبلواه. لم يكن هناك خيار. لقد رحل القطار. الأمر ليس بهذه السهولة. إذا استقلا قطار المساء فسيضطرّان إلى النوم في أحد المقاهي في الدويمان. فاللنشات لا تتحرّك إلاّ في فترة الصباح. وإذا تجنّبا فطيس في اللنش فكيف يتسنّى لهما تجنّبه في جزيرة اللؤلؤ. ليس في جزيرة اللؤلؤ سوى قرندول واحد. حتماً سنلتقي هناك. ولكن فحيج يريد أن يضع حدّاً للأمر الآن، وما سيحدث في المستقبل متروك للمستقبل. إنّها كارثة يمكن تجنّبها الآن ونترك المستقبل يأتي بحلوله.

دمّرت تلك الرحلة العلاقة البريئة التي كانت تربطه بفحيج. أزالت غشاء الطفولة بضربة واحدة تؤكد أن الماضي أوهى من عشّ العنكبوت.

بدأت صداقتهما منذ لحظة الوعي الأولى. لا يبعد بيتهم عن بيت فحيج سوى ثلاثين متراً. ذهبا إلى المدرسة معاً. يتذكّر عندما أخذهما والده ليسجّلهما في المدرسة وكانت أم فحيج قد طلبت من أمّه تسجيل الطفلين معاً. أخذهما والده إلى المدرسة. كان يتصرّف كأنّهما أخوان حتّى إن مدير المدرسة ظنّ في البدء أنّهما أخوان جاءا من أمّين مختلفتين. أودعا في البداية سنة أولى ب معاً. فكان يذهبان معاً ويعودان معاً. كانت والدة فحيج تعدّ لهما سندويتشات خبز صامولي مدهون بالمربّى يتسليان بها في الفسحة. وفي بعض الأحيان كانت تعطيهما مصروفاً مشتركاً دون تمييز. وبعد بضعة أسابيع اضطرّت الإدارة إلى أن تفرّق أحدهما عن الآخر. كانا يشاغبان ويتضاحكان. جرى تفريقهما بناء على طلب الأستاذ منير الفلسطيني. كانت الذكرى الأولى التي لا تنسى. لكنّهما عادا في السنة التالية وجلسا معاً حتّى بلغا السنة الثالثة ليفترقا مرّة أخرى. يسرّهما إذا جلسا معاً أن يستعيدا هذه الذكرى وذكريات كثيرة جرت لهما أيّام الطفولة. في إحدى المرّات أودعت منيرة ابنها فحيج عند آل سعندي على أمل أن تعود قبل صلاة المغرب ولكنّها لم تعد إلاّ بعد منتصف الليل. كانت ليلة من ليالي الشتاء المتقلّبة. فوجئ الناس بنزول مطر غزير غرقت منه السكيك المحيط بحلّة ابن بخيت وفاضت ركية السيل. فاضطرّ

فحيج إلى أن ينام معه في الفراش نفسه. كان سعيداً بأن يكون لديه أخ طبيعي غير أخيه سعيد المتخلّف. تذكّر أنّهما أنهيا في تلك الليلة مشروع إصلاح كفرات سيّارة خشبية من قمورة البيبسي. أمضيا ساعات طويلة في إدخال القمورة المثقوبة في خيوط المطّاط حتّى أتمّا ثماني كفرات. ثم أدخلا في جوفها بكرات الخياطة الصغيرة وركباها على سحاحير الطماطم التي سرقاها من المحيفرة. سعدا بأن صار لكلّ منهما سيارة خاصة سيجرّها غداً صباحاً مزهواً بين صبيان الحارة. ذات مرّة عندما اقتربا من الثالثة عشرة ذهبا إلى مسبح الشرق في المستلز. دفعا ريالين. كان المسبح يضجّ بالرجال والأطفال. لاحظ أن فخذَي فحيج تثيران اهتمام البالغين. شاهد أكثر من شابّ يحاول أن يقترب منه أو يلامسه تحت الماء. ولكن فحيج كان يهرب ويغضب. لم تكن الأمور جديدة على سعندي. كان يعرف أن فحيج شاب جميل يسمّونه مطق، ولكنّه يعرف أنّه لا يمكن أن يسلّم جسده إلى أحد.

كان رنين كلمة فحيج في أذنه مدوياً. ستكون لعنة الفراق الأبدية. لم يشعر بالراحة منذ أن سمعها من فطيس. ما علاقة ناصر بفطيس. أثاره أن فحيج اقترح أن يقطعا الرحلة ويعودا إلى الرويض ولكن سعندي رفض بحزم. لا يمكن أن يكون بينه وبين بنت مستورة حذفة عصا ويعود أدراجه. استقلا قطار اليوم الثاني وانطلقا من محطّة الحسيوي إلى الدويمان. اتّجها على الفور إلى قهوة الانشراح التي تقع قرب الفرضة. سارت الأمور على ما يرام لولا بعض الوجوم البادي على وجه فحيج. كانت كلمة فحيج

تحوم حولهما كغراب يدرس أحوال جثّة يريد أن ينقضّ عليها. كلمة لا يمكن أن تكون محايدة. لا يمكن أن يقبلها الإنسان. سعندي يعرف فطيس جيّداً. خالٍ من الشرف والفضائل ولا يعرف معنى الكياسة. يمكن أن يتلفّظ مع الآخرين بأقذع الكلام، ومستعدّ لأن يدخل في مضاربة مجّانية. سكّينه في جيبه على الدوام. يستخدمه بدون تردّد. من يريد أن يدخل معه في مضاربة عليه أن يكون مستعدّاً لكلّ الاحتمالات. لا يخاف إلاّ من عبد الهواشم. في كلّ مرّة يأتي إلى دكان حزام اليماني ويشاهد عبد الهواشم، يحاول أن يحيّده بالكلام المعسول. عبد الهواشم رجل على نيّاته. لا يعرف أهمية قوّته وإمكاناته الجسدية. سكنت خالته على أطراف حلّة ابن بخيت. تعرّف على الشلّة منذ الصغر. محبوب من الجميع. في بعض الأحيان يكون محلّ تندّر من الشلّة. لا يغضب من السخرية وأحياناً لا يفهم السخرية أصلاً. لكن إذا غضب يتحوّل إلى قوّة مدمّرة. في إحدى المرّات النادرة كاد يقتل فطيس. شعر بعدها فطيس بفرق القوّة الخالي من الدعاية والبروباغندا. أحداث كثيرة تبرهن أن فطيس رجل متهوّر وجبان. روحه خليط من قيم الانحطاط المختلفة. لا يمكن أن ينادي ناصر بفحيج إذا لم يكن بينهما شيء مريب. انتظرا في محطّة القطار أكثر من أربع ساعات حتّى جاء قطار المساء. وصلا إلى الدويمان بعد العشاء. لأوّل مرّة يصلان في هذا الوقت. رفض فحيج أن يناما في مقهى فرضة الخويبر. كلّ أهل الرويض المتجهين إلى جزيرة اللؤلؤ ينامون فيها. خشي فحيج أن يلتقيا فطيس مرّة أخرى. ناما لأوّل

مرّة في الدويمان. وقد تعمّدا أن يتأخّرا حتّى الساعة الحادية عشرة. عندما وصلا إلى الفرضة كان آخر اللنشات المتّجهة إلى جزيرة اللؤلؤ على وشك الرحيل. وجدوه مكتظّاً. بصعوبة تزحزح من الفرضة. تزحمه كثرة النساء المتكدّسات في مؤخّرة اللنش. لمحا بين أولئك النساء بعض الزانيات في قرندول. لأوّل مرّة يعرفان هذه الحقيقة. عرفا أن ثمّة نساء يسافرن من الخويبر إلى جزيرة اللؤلؤ. يجمعن أكبر قدر من المال ثم يعدن بعد يومين أو ثلاثة. يطلق عليهن مسارقيات. كانت تلك من الحقائق التي عرفها سعندي. ولكن أبشع حقيقة هي التي كانت تنتظره في فندق النخيل حيث سيُحلّ لغز كلمة فحيج. سيشاهد صديق طفولته تحت سويلم كأنثى. لم تنفع محاولات تهرب فحيج من فطيس كثيراً. لا يوجد بالقرب من قرندول سوى فندقي النخيل والخليج. طلب فحيج أن يسكنا في فندق الخليج. من سوء الحظّ ليس هنالك غرف شاغرة. فعادا إلى فندق النخيل واستأجرا غرفة على عجل. رميا الشنطة المشتركة وخرجا مسرعَين متّجهَين إلى قرندول قبلِ حلول الليل. كان كلّ شيء ينذر بالفراق. في اللحظة التي دخلا فيها الحي واجها فطيس وسويلم خارجين من الحي. كان سعندي في منتهى اليقظة والانتباه. يريد أن يعرف من أين جاءت كلمة فحيج. ألقى نظرة سريعة على وجه صديقه. لاحظ أن بشرته مالت إلى الاصفرار. بعد التحايا والمعاتبات حاول فطيس وسويلم إقناعهما بالعودة ولكن سعندي رفض. يريد أن يلقي نظرة سريعة على بنت مستورة. انتهز فحيج هذه الفرصة وقال:

- أجل أنا أرجع معهم وأنت إذا خلصت من بنت مستورة تجينا في الفندق.

فرصة لا تعوّض للتفاهم مع فطيس. هذا هو الحلّ الوحيد المتاح لفحيج كي يتفادى الكارثة. دخل سعندي الحيّ وذهب فحيج مع فطيس وسويلم. شاهد سعندي أكثر من ستّة رجال في انتظار دورهم للدخول على بنت مستورة. عليه أن ينتظر أكثر من ساعة غير مضمونة النتائج. سيكون آخر زبون يضاجعها. إذا دخل عليها فلن يجد تحته بشراً. فقرّر تأجيل وطئها إلى يوم غد، وقد منّى النفس بأن يستيقظ مبكراً حتّى يسعد بلقائها وهي في عزّ حيويّتها خصوصاً أنّه كان مشغولاً بمعرفة حكاية فحيج.

كان الليل قد حلّ على فندق النخيل. شاهد الهندي المسؤول يقف في أعلى الدرج بوزرته التي لم تتغيّر منذ بضعة أشهر. ابتسم الهندي في وجهه فألقى عليه تحية مقتضبة وانعطف في الممرّ متّجهاً للغرفة. الغرفة الرقم ١٢. استأجراها على عجل. كانت آخر غرفة شاغرة. ليس فيها سوى سرير واحد. معظم غرف فندق النخيل مخلّعة لا يمكن أن تغلق إلاّ بقفل من الخارج. لها تعشيق يدخل في قوس ثم يدخل بينهما القفل وتُقفل. فتح الباب واندفع في الغرفة. تجمّد على فوهة الباب. توقّف السرير عن الصرير لحظات ولكنه عاد إلى الهزّ العنيف. شاهد شابّين. أحدهما يمتطي الآخر وجهاهما نحو الجهة الأخرى. ما كان في حاجة إلى تدقيق كبير ليعرف أنّ سويلم على ظهر فحيج. حاول فحيج أن يبعد سويلم عن ظهره ولكن سويلم كان في الذروة. أصرّ بكلّ عنف

حتّى قضى وطره ثم نهض وغطّى عورته. بقي فحيج منبطحاً على السرير عارياً من منتصف الظهر إلى القدمين. كلّ شيء بقي جامداً باستثناء سويلم الذي لبس سرواله وتحرّك خارجاً من الغرفة وهو يضحك. وبعد قليل من الصمت المدوي أنهض فحيج رأسه عن المخدّة والتفت إلى سعندي وقال:

تبغى تخلص.

* * *

توالت بعد ذلك زيارات سعندي إلى جزيرة اللؤلؤ. في كلّ مرّة يتدبّر المبلغ. صار يزاول كلّ المهن. صارت الزيارات تتشابه وتختلط أحداثها. كأن ما بين الزيارة والتي تليها مجرّد نوم طويل لا مبرّر لوجوده. أكثر ما كان يقلقه من أمر حبيبته هو صمتها. في إحدى السفرات قضى منها وطره ثم ذهب إلى حسينوه وجلس بجانبه وبعد تحيّة مقتضبة طلب منه تفسيراً لهذا الصمت. لكن حسين لم يجبه. سكت. لم يلحّ برغم أن حسين بات دليله إلى مجاهل قرندول وتفاصيل البنية المعتمة لهذا الحي التعس. ترك حسين يغوص في نفسه وراح يتأمّل في ملامح وجهه العميقة والبعيدة. لم يكن يملك في اليوم الأول من لقائه به سوى أن يحتقره ويخاف منه. كان يسمع أن كلّ رجل يشتغل في القوادة لا شكّ أنه نذل وخسيس. يفتقر إلى أبسط الصفات النبيلة. عليه أن يكرهه ويحتقره ويبقيه في حدود وظيفته. ولكن بمرور الوقت والحاجة تطوّرت مشاعره تجاه حسين من الاحتقار والكراهية إلى ألفة وكثير من المودّة والتعاطف. تبيّن له أن حسين إنسان كأي

إنسان، مسكين وجبان، ويمكن بكلّ بساطة عسفه وإذلاله، لكنّه حدّد صداقته به في المواضيع التي تتعلّق بالقرندول فقط. يستحقّ الاحتقار ولكن لأسباب غير الأسباب التي تتحدّث عنها الناس. ذهب معه إلى السينما مرّة واحدة. لم يكرّرها بعد ذلك. خاف أن يراه أحد معه. أبقى علاقته به في حدود قرندول وأهل قرندول. اكتشف أن حسينوه رجل عميق، يخفي كثيراً من الأسرار. أسرار الرجال عندما يتعرّون من ملابسهم الداخلية. لا يبوح بها إلاّ في لحظات الصفاء. تأتي ملاحظاته وأخباره تعليقات مقتضبة وخاصة عن الرجال الذين يأتون هنا لينحدروا إلى قاع رغباتهم. كشف له حسين كرهه لهم دون تحفّظ. قال له مرّة إن قرندول عالم قائم على الاحتقار المتبادل. الفرق بين بغايا قرندول وهؤلاء الزبائن أن البغايا مرغمات على الرذيلة فيما هؤلاء يحجّون ليؤدّوا فريضة الرذيلة. جلس معه فترات طويلة. لم يسمع منه نصيحة واحدة. كان يعرف أن من يصل إلى هنا لا يحتاج إلى النصائح. كان يقول له ليس الخزي على المرأة التي تضاجع عشرات الرجال في اليوم الواحد. ولكن الخزي على الرجال الذين يتعاقبون على امرأة بائسة واحدة. الذين يدخلون ويخرجون من القرندول مطأطئي الرأس. مصائرهم في يد حفنة من القوّادين الذين يجلسون على دكّات أمام الأبواب الخربة يراقبونهم ويوجّهونهم وهم يدخلون ويخرجون من البيوت المتداعية المملوءة بكل أسباب العار الإنساني. يعرضون عليهم البضائع. وإذا تجاوز الزبون البيت الذي يعمل به القوّاد يقول له كلمة واحدة يردّدها الجميع. تعال يبه هني طلبك ثم

يلتفت إلى الزبون التالي ويترك هذا الزبون يولي. كلّما كبر الزبون في السنّ زاد خوفه وذله. أحبّ سعندي الجلوس مع حسينوه. يراقب الأحداث الميتة والمنتهكة والناس المتحرّكة على سطح الرذيلة. روتين ثابت رعاه سعندي بإصرار كبير. يأتي في الصباح الباكر، وبعد أن يضاجع بنت مستورة كالعادة، يجلس مع حسينوه يتابع الأحداث التي تجري في قرندول. يتفرّج على عالم مقتطع من العالم أو مخفي أسفله.

ذات مرّة شاهد عدداً من الرجال يقفون تحت نافذة تطلّ منها امرأة. نهض واقترب ليرى عن كثب، فشاهد امرأة عجوزاً سوداء سمينة صلعاء مع قليل من الشعر المجعّد المتلبّد في آخر الجمجمة تتفاوض وإيّاهم على السعر. صفّ معهم من باب الفضول. يريد أن يرى كيف تنتهي المفاوضات. كانوا كلّهم من كبار السنّ. لمحته المرأة. تأمّلت فيه ثم قالت له كم تدفع أنت؟ فقال نصف دينار. سمع بعضهم يعرض عليها أكثر من دينار. كان يظنّ أنّها سوف ترفض لكنّها وافقت فوراً على عرضه، وطلبت منه أن يدفع الباب ويدخل. أخذته المفاجأة كلّ مأخذ. كانت قبيحة بجميع المقاييس. لكنّه تورّط. تمنّى لو أنّها تساوم نيابة عن فتاة أخرى في الداخل. لا يمكن أن تكون هذه إلاّ قوّادة. فهؤلاء الرجال ليسوا عمياناً. دفع الباب ودخل وهو يمنّي النفس. سمعها تناديه بأن يغلق الباب ويصعد. دخل عليها في غرفة صغيرة خالية من الأثاث، لا تختلف كثيراً عن الحجرة التي تضطجع فيها بنت مستورة. شاهدها كما يشاهد جميع بنات القرندول مستلقية على

ظهرها على فرشة مرمية على حصير. مباعدة بين فخذيها كاشفة رمز أنوثتها وفي يدها مهفة من خوص. لاحظت عليه التردّد. ظنّت أن السبب صغر سنّه. قالت له: «تعال لا تخاف سأعلمك شنو تسوي مع النسوان». عندما ألقى نظرة على ما بين فخذيها شعر بالمرارة والقرف. كان الشحم الأسود الرخو يتبعثر على الفرشة ويتدفّق من تحتها كسائل غليظ. كانت عجيزتها تنفرش على الفرشة كلّها وشحمها يتحرّك إلى الأعلى كالأمواج ليغطّي شعر عانتها المتصلّع الأشهب. ضخامة جسدها لا تناسب صدرها الضامر المتهدّل على الجنبين حيث ينتهي ببقعة أشد قتامة تخرج منها حلمة ذاوية لم تمرّ على شفتَي طفل، تكاد تتكسّر لولا رطوبة الجو الخانقة والعرق المنبعث من الجسد. تنزف منه قطرات من الماء تشي بالعفونة. كانت عيناها متسلطتين عليه. طلبت منه نصف الدينار على الفور. شعر أن لا بدّ أن يفعل شيئاً بالفلوس التي ستأخذها. مدّ إليها الفلوس ورفع الجزء السفلي من ثوبه وأرخى سرواله والتصق بين فخذيها. وضع رجولته في أنوثتها ولكنه بقي منتصباً على ركبتيه حتّى لا يدخل في محيط أنفاسها. أغمض عينيه وهزّها هزّات عدّة. انتهى كل شيء بطريقة سريعة. سحب جسده واستدار وقبل أن يخرج من الغرفة سمعها تقول:

- خذ فلوسك ولا عد أشوف وجهك. قرندول مو مكان صبيان. رح شف لك فحل يمكن يبسطك.

لم يلتفت إليها. خرج وعاد وجلس مع حسين. سأله حسين:

- كنت عند مبروكة؟ ماشاء الله ما فيه واحد يمرّ على قرندول ما يمرّ على مبروكة.

إنها أميرة قرندول المتوّجة. جاءت قبل ثلاثين سنة هاربة من أسيادها. جلبوها من عمان وباعوها هنا في جزيرة اللؤلؤ. رفضت أن تكون عبدة فهربت. فنصحها بعض الناس باللجوء إلى السفارة البريطانية يمكن يرجعونها لأهلها. يقولون خذها مسن إنجليزي خبّأها في منزله تخدمه في النهار ويضاجعها في الليل. فهربت مرّة ثانية فأوقعها سوء حظها في يد قوّاد جاء بها للقرندول. صار يؤجرها وإذا احتجّت يهددها بأن يعيدها للعبودية مرّة ثانية. فضّلت قرندول على العبودية فأسلمت قيادها. مات القوّاد قبل عشرين سنة فاكتشفنا أنه سجّل البيت باسمها وأوصى لها بكلّ ما يملك وطلب منها الصفح والغفران. الآن بعد ثلاثين سنة دهمها الاستقرار الذي يدهم المهزومين. تريد فقط أن تشوف أمّها قبل أن تموت. لديها اعتقاد راسخ أن أمّها ما زالت حيّة. منذ أن وصلت قرندول لم يشاهدها أحد خارج منزلها إلاّ في الليل. ما زالت هاربة من العبودية. إذا جبت ذكر أمّها تصير كأنّها طفلة. ضحك حسين وقال: إذا أردت أن تضاجعها مجّاناً قل لها الله يخلي لك أمك. ما زالت تظنّ أن شرفها هو أعزّ ما تملك لكنّها مستعدّة تمنحه من أجل الدعاء لأمّها. ثم نبّهه بقوّة لا تقول لها يا قحبة. لم تعترف حتّى الآن أنها قحبة في قرندول. تعتقد أنها مختبئة فقط. منذ أن ماتت رجاء الشامية صارت مبروكة أقدم قحبة في قرندول. فوجئ سعندي:

- فيه شاميّات في قرندول.

فقال حسين:

- ما كان فيه غير رجاء. كانت بيضاء ويقال إن شعرها كان أشقر أيام شبابها فسمّوها الشاميّة. كان سوقها كبيراً مثل مبروكة في أيّام عزّها. كانت في أيّام عزّها تتقاضى دينارين. من يحصّل الدينارين تلك الأيام. ارتاحت مبروكة عندما ماتت رجاء. كانت منافستها الوحيدة. إذا دققت في ملامح مبروكة فستشاهد جمالاً غابراً. هناك رجال يأتون من خارج جزيرة اللؤلؤ من أجلها. حتّى الآن يأتي بعضهم ليضاجعها حنيناً لأيّام الشباب. ليتك كنت تراها إذا سكرت في الأيّام الخوالي. تتفجّر أنوثتها. ترقص وتتغنج وتتوق إلى أيّ رجل يقدّر عذوبتها. كانت تفجّر الرجولة حتّى عند أضعف الرجال همّة. كلّ رجل وطأت رجله قرندول وطأ مبروكة. اسأل أباك إذا كان سبق أن زار جزيرة اللؤلؤ. تصدّت للعالم الظالم شاهرة فرجها الشهيّ. سلاحها الوحيد الذي أشهرته للانتقام. لا تملك شيئاً يمكن أن تستخدمه في معركتها ضدّ الرجال فهبطت إلى أقصى درجات العهر. قررت أن تكون معركتها في قاع الرذيلة حيث لا يتوقّع أيّ رجل طبيعة المعركة ولا عناصر النصر والهزيمة. عندما تعرف أن هناك رجالاً جدداً عند رجاء كانت تخرج إلى الشارع فترقص وتتغنّج وتغنّي حتّى إذا خرج الرجال من عند رجاء هرعوا إليها ظامئين لامرأة اللهيب السمراء. يضاجعونها كأنّهم لم يضاجعوا امرأة من قبل. فيجنّ جنون رجاء. في إحدى المرّات خرجت رجاء عارية وراحت ترقص وهي تخبط مؤخّرتها العارية

بكفّيها بغية منافسة مبروكة، فانبرى قوّادها وضربها وأعادها إلى البيت. دارت معركة بين رجاء والقوّاد لم نعرف عنها شيئاً. لم يصلنا منها سوى صراخ ولعنات وسباب. لأوّل مرّة في تاريخ قرندول تدور معركة كهذه بين عاهرة وقوّاد. عرفنا بعد ذلك أنّه كان زوجها دون أن يخبر أحداً. يتظاهر بأنّه مجرّد قوّاد. كان يطلق على نفسه اسم عيسوه لكي يخفي اسمه الحقيقي. كانت طوال تلك السنين تهدّده بأن تخبر الناس أنّه زوجها. عندما ضربها أمام مبروكة لم تصبر فخرجت إلى الشارع وهي تصيح: «يا ناس عيسوه زوجي تزوّجني على سنّة الله ورسوله». كادت تقول اسمه الحقيقي وتحكي لنا القصّة لكنه سحبها وأدخلها إلى البيت، وبعد ساعة تقريباً خرجت رجاء تصيح وتقطع شعرها. لقد انتحر. انتحر بعد أن انكشف أمره. ظنّ الجميع أن رجاء سوف تنسحب من قرندول. سوف تبحث عن حياة أخرى. غابت يومين ثم عادت وفتحت بيتها وعاودت العمل. كشفت عن حيويّة لم تكن معروفة عنها من قبل. لكنها مع ذلك لم تبلغ مجون مبروكة. فقط رفعت درجة التحدّي. لم يهدأ الصراع برغم أن المرأتين بعد أن تجاوزتا سن الشباب، بلغتا من القبح درجة لا تطاق. في عزّ الشباب كانتا تصرخان أيّهما أجمل وانتهتا تصرخان أيّهما أقبح. مشوار مرٌّ للتحوّل من الجمال إلى القبح. ليس غريباً أن تفوز مبروكة في معاركها ضد رجاء. كانت مبروكة رمزاً لكلّ شيء في قرندول. امرأة سرقت من أهلها وقادها ركضها وراء الحريّة إلى مهاوي الحضيض. مبروكة رمز للعار الذي ارتكبه الرجال في تاريخهم كلّه.

كلّ يوم يحدّثه قليلاً عن مبروكة وصراعاتها مع النساء الأخريات. من الواضح أنه سوف يتنقل في سرده من مبروكة إلى امرأة أخرى، هناك عشرات يستلقين في هذه الصنادق والبيوت الخربة. سرد مرتّب لتاريخ قرندول. لم يكن في حاجة إلى هذه الحكايات البائسة. يريده أن يتحدّث عن بنت مستورة فقط. لكن بنت مستورة جديدة في قرندول لم تصنع بعد حكايات تستحقّ السرد. إذا سار على هذا المنوال حسب السنّ فسيحتاج إلى سنوات طويلة حتّى يصل إلى فصل بنت مستورة في كتاب قرندول الحزين. قال له ذات يوم كأنّه يريد أن يختصر عليه الزمن الطويل: إن المرأة التي تدخل قرندول لا تخرج منه إلاّ ميتة. تجربة رجاء كافية لتقدّم الحقيقة. أُتيحت لرجاء فرصة للخروج من قرندول إلى الأبد، ولكنها لم تفعل لأنّها لا تستطيع. أين تذهب المرأة بعد قرندول. ما الذي تحمله معها المرأة من هذا المكان. ثم قال له بعد سؤال سريع عن بنت مستورة: سيأتي اليوم الذي تبلغ فيه بنت مستورة درجة القبح الذي يجعلها ترتاح من تدافع الرجال على مضجعها وتتخلّص من عرق العاهرين. سيأتي من يضاجعها كمن يضاجع مبروكة من أجل الذكرى فقط. تذكّر كلامي. ستأتي أنت بعد ثلاثين أو أربعين سنة تبحث عن بنت مستورة. ستأتي في شيخوختك لتغوص في قبحها لعلّك تصل إلى جمالها الغابر الذي ألهب شبابك.

شعر أن حسين أكثر خبرة من أيّ رجل صادفه في حياته. فيلسوف يتأمّل في البشر الذين يخوضون في الحضيض.

* * *

خرج الضابط وتبعه الطبيب والممرضة. التفت فوجد نفسه في غرفة واسعة مع ثلاثة مرضى. فبادره أحدهم: سلامات يا أخ. رفع رأسه ليرى الرجل الذي ألقى عليه التحيّة فأحسّ بألم شديد في رقبته، فعاد مرّة أخرى إلى وضعه السابق، فسمع أحد المرضى يقول: «لا تتحرك توك يبي لك وقت». فكر أن يسألهم عن حاله. كيف يرونه ولكنّه تردّد. يجب ألا يسأل! انكشف له كلّ شيء كما انكشفت الأمور للقوّاد حسين. إنما ورّطه السؤال. لا تطرح سؤالاً أساسياً. فأخذ ينادي حسين حسين: «وينك يا حسين». كان يريد أن يردّ عليه. لقد تعرّض لاعتداء. من يريد أن يقتله. العالم أكثر تعقيداً ممّا يتصوّر. هناك تفاصيل ستشمل الإنسان برعايتها. ما الفرق بين الاعتداء عليه والاعتداء على حسين؟ تورّط مرّة في الدفاع عن حسين. ما كان يجب أن يدافع عن قوّاد. في أحد الأيام كانوا في طريقهم إلى قرندول. ظلّ عبد الهواشم يحتقر حسين على الدوام. تقوده الروح العملية والتهوّر المطبوع والاعتزاز بالشرف. لا يرضى أن يمشي معهم قوّاد في الشارع. يطلب منه أن يسير في الرصيف المقابل، وإذا وصلنا إلى قرندول تعال معنا. نسير معك عندما ننخرط في عالمك. لم يكن حسين يحتجّ. الأمر بالنسبة إليه سيّان. ولكن ابن سويقي رفض الفكرة وقال: «لا أحد يعرفنا في جزيرة اللؤلؤ ما لك حق تهين الرجال ويا أخي الديرة اللي ما تعرف فيها أحد زق فيها». عندما قال هذا ظنّ أنّه يكرّم حسين ويدافع عنه. لكن موقف الإثنين عبد الهواشم وابن سويقي لا يختلف كثيراً. يختلف في التفاصيل فقط. احتدم الصراخ بين

ابن سويقي وعبد الهواشم. فسدّد عبد الهواشم لكمة عاجلة إلى وجه حسين. لم يتخيّل أحد أن يحدث هذا. كان حسين مطيعاً يسير حسب ما يُقال له. شعر سعندي بحقيقة الضعف وحقيقة الطغيان لأوّل مرّة. لم يدافع ابن سويقي عن حسين بل راح يسحب عبد الهواشم حتّى لا يكرر اعتداءه. استمر عبد الهواشم يسب ويلعن ابن سويقي ولكنه كان يتفلّت ليضرب حسين. لاحظ أنّ الكلام يوجّه إلى ابن سويقي والضرب والإهانة توجّه إلى حسين. لم يفهم هذا المنطق إلاّ بعد زيارات متعدّدة لقرندول. الأمانة والشرف والقوة تحدّدها الأماكن التي تترجم فيها. تنتظم في قاعدة واحدة: لا تسأل السؤال الأساسي إذا أردت أن يكون العالم سهلاً بين يديك. إذا أردت أن يكون العالم متّسقاً وواضحاً ومنطقياً فلا تسأل السؤال الأساسي. كلّ إنسان يعيش في داخل حظيرة بشرية. دولة، عشيرة، سجن، مبغى. عندما تكون في السجن يتحوّل القاتل إلى إنسان أخوي عطوف. وعندما تكون في قرندول يتحوّل القوّاد إلى رجل حكيم ذي قيمة. عندما تكون في قرندول أو السجن، عليك أن تدخل تحت مظلته الأخلاقية. تذكّر المرّة الوحيدة التي دخل فيها السجن. صودف وجود رجل في الخمسين من العمر بين المساجين. أمضى في السجن حوالي خمس عشرة سنة. بعد سنتين سوف ينفّذ فيه حكم الإعدام لجريمة قتل. خمس عشرة سنة في انتظار أن يبلغ آخر القصر سنّ المسؤولية. كان رجلاً حكيماً، لحيته البيضاء تضفي عليه الوقار. يصلّي في المساجين ويفضّ منازعاتهم ويؤوي صغارهم ويقرض فقراءهم ويحنّ على

الجميع. حتّى الوقحون من المساجين يكنّون له الاحترام والتقدير. عندما يجلس المرء إلى جانبه يشعر بالدفء. في السجن عليك أن تنسى أنّك في السجن. عليك أن تنسى سؤال الوجود الأساسي وتعيش تفاصيل المجتمع. سترى مجتمعاً متكاملاً تنتظمه الأخلاق والنبل والطيبة. إذا حضر السجين للمرّة الأولى يتحلّقون حوله ويسألونه عن جريمته مرّة واحدة ثم ينسونها. يأخذون بيده إلى عالمهم. ينضمّ بعد ذلك إليهم. يدخل في قوانينهم. يأخذ مكانه في مجتمعه الجديد. يتجاهلون نهائياً سبب وجوده هنا. كلّهم يتجاهلون سبب وجودهم لكي يعيشوا. في كلّ مجتمع تتجاهل الناس سبب وجودها فيه. في قرندول أو السجن أو القبيلة أو الكون بأسره يغرق الإنسان في التفاصيل. إذا تعالى وطرح السؤال الأساسي فسيكفر أو يتمرّد أو يصاب بالجنون. لاحظ أن المساجين يبكون عندما يطلق سراح أحد المساجين المزمنين. ولن ينسى أيضاً تلك المشادّة التي حصلت أمامه في قرندول: كانت مشادّة بين امرأتين تزنيان في بيت واحد. لا يعرف سبب الاختلاف، فقرندول حافل بالخلافات التفصيلية كبقيّة العوالم التي يوجد فيها الإنسان. سمع السباب والشتائم إلى أن تدخّل رجل مسنّ تجاوز عمره السبعين. انتهت المشادّة بسرعة وبطريقة سلسلة. فسمع حسين يقول: «جزاه الله خيراً أبو قماشة. لولاه وإلا قرندول ما يسوى من يجلس فيه ساعة». أمضى أبو قماشة أكثر من ثلاثين سنة في القوادة فتوّج حكيم قرندول وراعي لحمته العائلية. عندما تغوص في قرندول ستلبس قوانين قرندول. هناك قوّاد أفضل من

قوّاد. وهناك قوّاد أشرف من قوّاد. وهناك قوّاد أغنى من قوّاد. الحياة تكون مقبولة وطبيعية إذا اندمج الإنسان في محيطه وذاب فيه دون أن يرقى بالسؤال إلى أكثر من حاجاته. القاتل والقوّاد ورجل الدين والسياسي والمثقّف يحرّكهم قانون واحد. لا تطرح السؤال الأساسي. لا تطرح السؤال الأساسي. عليك أن تنغمر في التفاصيل. سُنّة الحياة الحقيقية.

عندما تعرّف على بنت مستورة كان غرّاً. طرأ على باله أن يسألها ما الذي جاء بها إلى قرندول. اكتشف بعد سنين أن بنت مستورة جاءت إلى قرندول من أجل رسالة لا يعرفها، ولكن ما يعرفه هو أنّها لم تكن تريد أن تقاوم حتفها. تحفر بعرقها وعرق الرجال النازف على جسدها مصيرها المحتوم. حكم عليها القدر أن تموت مسحوقة. قد يكون قرندول هو الجحيم التي تحدّثت عنها الكتب المقدّسة. لعلّ بنت مستورة تعاقب على جرائم ارتكبتها في حياة أخرى. فتخيّل سعندي أنه من زبانية الجحيم. تأكّد أن هناك قوّة قاهرة توجّهها. منذ أوّل يوم عرفها وعرف كيف يصل إليها. لاحظ أنّها لم تغب يوماً واحداً عن قرندول. في كلّ مرّة يأتي إلى بيتها يراها موجودة ومستلقية على ظهرها، وقد سبقه إليها عدد من الرجال. أخفق في أن يكون الأول في أيّ يوم من أيّام علاقته بها. كان يسكر في الليل حتّى الثمالة ويتأخّر في الذهاب إلى النوم، وينهض متأخّراً. وعندما يصل إلى قرندول تكون الحياة قد دبّت في مفاصله. ذات مرّة صادف رجلاً مسنّاً يأتي من الحسيوي. يقضي أربعة أو خمسة أيّام في قرندول. يقاتل

لكي يكون أول من يطأ بنت مستورة كلّ صباح. وصفها له عندما تكون نظيفة خالية من عرق الرجال. وصف ابتسامتها وحركاتها الأنثوية ومضاجعات الصباح المبكر قبل أن تستنفدها خضّات الرجال. قال أيضاً إنّها تبتسم. نصحه أن يقلع عن الخمر. لقد حرم الله الخمر لأنه يضعف الهمّة ويجعل الناس يتأخّرون عن مصالحهم. وبعد أن يسهب في سرد مضارّ الخمر يحمد الله على أنه لم يشرب الخمر في حياته. صحبه مرّة في جولة على سكيك قرندول. شاهد فتيات لم يشاهدهن من قبل. فكّر أن يدخل على إحداهنّ ولكنه تردّد ثمّ قرّر أن يوفّر فلوسه لبنت مستورة. جلس مع مسنّ الحسيوي في إحدى الأمسيات بعد جولة طويلة على سكيك قرندول. كان حسين قد أعد الشاي. بعد دقائق نشبت مشادّة عنيفة بين سبتوه وإحدى الفتيات على زبون شاذّ. ترك الزبون الفتاة بعد أن أغراه سبتوه. كان سبتوه قد تسلّل في غفلة من الفتاة واقترب من الزبون قبل أن يدخل إلى البيت، وقبض على عضوه التناسلي فطوّق الزبون عنق سبتوه تعبيراً عن الامتنان. استبطأت الفتاة الزبون فخرجت تنظر في الأمر، فوجدتهما يتهامسان فانهالت على سبتوه بالسباب والشتائم ولم تهدأ حتّى انقضّت عليه وضربته على وجهه. نهض حسينوه وفصل بينهما. بكى القومجدي واشتكى حاله. منذ أسبوع لم يزره زبون واحد. صرخ: «من أين آكل يا ناس». سحبه حسينوه حتّى يجنّبه ضرب الفتاة الغاضبة، وقال إن الرزق لا يأتي باختطاف أرزاق الآخرين. نصيحة تهدّئ من صراع المصالح ولكنّها لا تلغيه. في كل لحظة

تفترق المصالح ويصبح العالم في حاجة إلى حكمائه أو إلى القوة. لا يمكن أن يستمر مجتمع قرندول متماسكاً دون وجود حكمائه من القوّادين. حسب إحصاء سريع تبيّن لسعندي أن عدد القوّادين في قرندول يتعدّى الثلاثين، وهم يديرون ما يقارب سبعين امرأة وحوالي عشرين قومجدياً. تغيب الدقة عن هذه الأرقام بحكم حركة الحياة. حسب تقديرات حسين، كلّ أسبوع تموت امرأة تعوضها امرأة جديدة على الفور وكل بضعة أشهر يأتي قومجدي جديد. هناك نساء مسارقيات يقضين يوماً أو يومين ويرحلن ثم يأتين مرّة أخرى ويرحلن، ولكنهن في النهاية يتهاوين إلى الجحيم.

بعد حوالي عشرين سنة. ذهب سعندي مرّة واحدة وأخيرة إلى جزيرة اللؤلؤ. دخل من بوابتها المجيدة وشاهد رموز الماضي تتقوّض أمام تغيّر الزمان. سار بطيئاً ومترنّحاً متلمساً طريقه في السوق الشعبية المؤدّية دوماً إلى قرندول. يريد أن يرى المكان الذي تقرّر فيه أسلوب موته. لم يستطع أن يحدّد فندق النخيل ولا المدخل السريع الذي يأخذ الضيوف إلى قرندول.

كان قد زار جزيرة اللؤلؤ قبل سبع سنوات من هذه الزيارة عرف خلالها أن بنت مستورة قد ماتت. جلس وحيداً في الفندق وبكى. هجر بعدها قرندول. لن يعود إليه مرّة أخرى. لن ينسى الدقيقة التي اكتشف فيها أن بنت مستورة ماتت. كان اللنش قد

وصل إلى الفرضة الساعة السادسة مساءً بعد تأخر دام حوالي ثلاث ساعات قضاها في عرض البحر. لم يفكر في الذهاب إلى بنت مستورة في هذا الوقت. يعرف أنّها لن تتعرف عليه إذ ستكون مغمضة العينين شبه ميتة كما هي حالها كلّ مساء. فقرّر المبيت وزيارتها في الصباح الباكر. ستكون نشطة ومستعدّة. كانت قد تجاوزت العمر الجميل الذي بدأت فيه حياتها في قرندول. لا يعلم كم عمرها. كانت أكبر منه قليلاً. ربّما بلغت الأربعين. نضجت على نار قرندول الساحقة. استراح قليلاً ثم شرب عدداً من كؤوس الويسكي وخرج إلى سينما القصب. شاهد فيلم الحياة قبل مليون سنة. تمتع بمشاهد الفتيات العاريات والمداعبات البدائية التي تصوّرها الممثلة الأميركية راكيل ولش. من الصعب أن يتخيّل أنّ هناك مداعبات مثل هذه في الحياة العادية. بنت مستورة لا تتحرّك تحته. لا يتحرّك سوى مهفتها التي لا تتوقّف عن الهفّ. تلطف عجيزته العارية. أحياناً تجهد من كثرة الهفّ ولكنّها لا تستطيع أن تتوقّف، فالحرارة لا تطاق والعرق والرطوبة يعوّقان التنفّس، فتضطرّ إلى وضع مرفقها على جسده حتّى تستمر في الهفّ دون توقّف. حاول أن يقارن بينها وبين راكيل ولش ولكنّه عجز، فكفّ عن المقارنة. بنت مستورة لا تشبه امرأة أخرى سوى سميرة توفيق. عاد من السينما تلك الليلة سعيداً وقبل أن يأوي إلى فراشه فتح قارورة الويسكي وأخذ يشرب حتّى فقد الإحساس بالعالم. استيقظ متأخّراً. تناول الفطور على عجل وشرب كميّة كبيرة من الماء وتحرّك. لقد دبّت الحياة في قرندول.

لا يمكن أن ينسى تلك اللحظات التي واجه فيها باب بنت مستورة الموصد. لا أحد حوله أو بجانبه. كاد يصرخ. بنت مستورة لم تتغيّب عن قرندول منذ أن عرفها. لا يمكن أن تكون في إجازة أو مريضة. ليس هنالك سبب يبعدها عن قرندول سوى الموت. كان الباب مقفلاً. هزّه. حاول مرّة مرّتين وأخيراً انخلع الباب. شاهد الممرّ الذي اعتاد أن يجلس فيه في انتظار دوره. شاهد كل شيء خالياً. كأن أحداً لم يمرّ عليه من قبل. لأوّل مرّة يتأمّل في بيت بنت مستورة. لم يفكر البتة أن يتجوّل فيه. كان يجلس في المدخل حتّى يأتي دوره ليقضي وطره ويخرج دون أن يلتفت إلى تفاصيل البيت. بدا البيت صغيراً جداً. ساحة إسمنتية تحيط بها ثلاث حجرات. كلّ حجرة تطلّ منها نافذة خشبية واسعة عليها شبك حديدي. من الواضح أن الحجرات لم تُسكن منذ زمن طويل. شاهد بعض الأثاث القديم في الساحة والغرف خالية تماماً. قبل أن يخرج فتح باب الغرفة التي استُهلكت فيها بنت مستورة. يبدو أنّها بنيت كمجلس للضيوف. شاهد الفوطة التي تمسح بها بنت مستورة بقايا الرجال مرميّة بجانب الفرشة. اقترب منها ورفسها. بدت جافّة متكوّمة لا تريد أن تنفرد. وعلى بعد متر شاهد المهفة التي لطّفت الحياة في هذه الغرفة التعسة. لم يكن يتخيّل أن هذه القطع الثلاث هي كلّ الأثاث الذي زود آلاف الرجال الحبّ الذي كانوا يحتاجون إليه على مدى خمس عشرة سنة متواصلة. إلى من يعود هذا البيت أصلاً؟ لا يمكن أن يُبنى بيت مثل هذا من أجل الرذيلة. لا بدّ أن شرفاء نزلوا فيه يوماً من

الأيّام. متى تحوّل هذا الحي من الشرف إلى العار. من هي آخر امرأة ضاجعها زوجها في هذا البيت قبل أن تحتله بنت مستورة وزميلاتها. سؤال سيذهب به بعيداً عن أهدافه. ربّما يأخذه إلى السؤال الأساسي الخطير. تقرّرت نهاية الرحلة. يجب ألا يفتح ملفّاً لا نهاية للآلام المنطوية فيه. كلّ إنسان في هذا العالم لديه قصة تستثير الرثاء. يبستم الناس ويتضاحكون بفضل الإخفاء واضطهاد الحقيقة والتظاهر. المثل والأخلاق ليست سوى ديكور يخفي فيها الإنسان شوقه إلى عهره المسلوب بدعاوى الفضيلة. كم رجل تمنّى أن يضاجع زوجة جاره، وكم امرأة تمنّت أن تضاجع صديق زوجها. قرندول يضع الأخلاق في صورتها الحقيقية الساطعة الباهرة، سيراها حتّى أخوه سعيد الأعمى. قبل أن يعود إلى الفندق ويجلس ويبكي قرّر أن يقوم بجولة أخيرة على قرندول.

* * *

سار في أزقة قرندول وهو يتذكّر بنت مستورة. كيف كان يأتي إليها ويضاجعها بحبّ وإخلاص، وكيف كان ثغرها الجميل. وكيف كانت أهدابها الطويلة تنسدل على عينيها وتغلقها لكي لا تشاهد وجوه المضاجعين. آمن طوال تاريخه أنّها تميّزه من الآخرين، لكن دون دليل. اعتمد على مؤشّرات يصدّقها من يريد أن يصدّق. حافظت بنت مستورة فترة طويلة على نظام المضاجعة العادل. لا يحقّ للرجل أن يضاجعها مرّتين في دخلة واحدة. إذا أراد فعليه أن يخرج ويقف في الصف مرّة أخرى. تريد أن تعطي

كل واحد فرصته التي جاء من أجلها. ولكن بعد سنتين من المضاجعات المتواصلة تركت سعندي يخالف هذا القانون. سمحت له إذا أراد أن يفعلها مرّة ثانية. يدفع الأجر ويفعلها. ذات صباح فعلها ثلاث مرّات متتالية مما جعل الزبائن يضجّون بالشكوى. عندما خرج كانت العيون الغاضبة تترصّده وتتابعه. ابتسم في وجوههم ابتسامة يفهم منها اعتذار ويفهم منها شعور بالزهو، سرعان ما انطفأت الابتسامة وزالت معها كلّ المشاعر. خرج إلى الشارع. كان يرافقه في تلك السفرة عبد الهواشم. فكر أن يخبر عبد الهواشم بما حصل عليه اليوم من امتياز. فكر أن يتفاخر قليلاً ولكنه تردّد، خشي أن يذكّره أنّها من بنات قرندول. مجرّد مبولة كما قال مرّة عجوز الحسيوي. كتم جميع الأسرار البسيطة التي كوّنها من علاقته ببنت مستورة. يسمع في كثير من الأحيان الشباب يقصّون بتفاخر علاقاتهم بالبنات. أحداث تافهة. واحدة فتحت الباب وبحثت عنه ثم أشارت إليه وأغلقت الباب. أو واحدة رمت لحبيبها رسالة والتقطها بسرعة. لقد أعطته بنت مستورة شيئاً لا تعطيه بسهولة. الذي يقنع واحدة من بنات قرندول أن تميّزه من بقية زبائنها لا بدّ أنه إنسان آخر. ذات مرّة مدحه مسنّ الحسيوي قائلاً:

- ماشاء الله تعرفك وتميّزك أنا لي ثلاث سنين أزورها لو أقابلها في الشارع ما عرفتني. أظنّها ما قد شافت وجهي. يمكن عشانك صغير قريب من سنّها.

ثم أسرع إلى القول:

- وش يهمني أنا لي ها الفق أضربه وأمشي. لا أنا متزوجها أعوذ بالله أتزوج بنت مستورة. كل من جاء شخّ فيها ومشى.

لم يرد عليه. تركه يعزّي نفسه. رجل احتقرته امرأة في أقذر مكان يمكن أن توجد فيه امرأة. لم يتحسّس مأساة ذلك المسنّ إلاّ في هذه الزيارة.

ترك بيت بنت مستورة وتوغّل أكثر في القرندول، فأحسّ أن قرندول بدأت نهايته. لم يعد يعوض الفتيات اللواتي يختفين. ربّما بسبب تشدّد السلطات المحليّة، أو أن قرندولاً جديداً بدأ ينشط في الفنادق الفاخرة فانصرف الزبائن إلى مكان آخر. تجوّل في السكيك المتعفّنة. زار أكثر من بيت. عرف بعضهن. شاهد امرأة تجلس وحيدة في مدخل بيتها. ابتسمت له. تذكّرها. كانت المفضّلة عند عبد الهواشم. أجرها زهيد ولا تمانع مع كل الطرق حتّى من الخلف. تبلعه اللين الصاجة كما يتغنّى طرباً عبد الهواشم. زارها معه كثيراً. تصلح للرجال ذوي الشذوذ المتوسّط. بالإضافة إلى تسامحها الجسدي كانت خفيفة دم. تتفاحش مع الجميع. يسعد كثير من الرجال لدى زيارتها. يسمعون ما يريدون سماعه من امرأة تتحدّث عن الأحجام والاتّساعات وتروي جميع أنواع النكات. لقد تغيّرت. غارت وجنتاها وانحنى جسدها. يبدو أنّ الإنسان في داخلها قد انسحب. ولكنه عرفها من بيتها. بالقرب من كومة القمامة وأمام صندقة مبنيّة من تنك كانت مبغى لأختين بلوشيتين لا يزورهما أحد. اقترب من بابها. عندما أطل عليها ابتسمت ابتسامة ترحاب. لم تتحدّث ولكن من الواضح أنّها كانت

تحييه. تركها ومضى. تردّد. ربّما عرفته بعد تلك السنين. حتماً عرفته. كان عبد الهواشم يتحدّث عنها كثيراً. تذكّر أنه ضاجعها مرّة واحدة بناء على توصية مشدّدة. عاد مرّة أخرى يردّ عليها التحيّة. ليس من العدل تركها هكذا. عندما اقترب منها بدت كبيرة في السنّ وأقلّ تعاسة ممّا كانت عليه في السنوات القديمة. لربّما تركت هواجس الرحيل وسقطت في مهاوي قرندول الجهنمية. النساء عندما يأتين إلى قرندول يمنين النفس بالرحيل. كان حسين يقول وهو يضحك. المرأة إذا دخلت قرندول لا ترحل إلاّ إلى المقبرة. ثم يعمم قائلاً: «الفرج الذي يفتح من أجل الفلوس لا يغلق بعد ذلك أبداً». عاد مرّة أخرى. كانت قد استلقت على الكرسي الواسع وأرخت رأسها ناحية الباب. تردّد قبل أن يناديها وأخيراً ناداها بالاسم القديم: عويشة. نهضت والتفتت إليه. ابتسمت مرّة أخرى. تأكّد هذه المرة أنّها عرفته. دخل خطوة واحدة في البيت. نهضت وتحرّكت إلى حجرة المضاجعة وقالت بعد أن انطفأت الابتسامة في فمها: ثلاثة دنانير. فقال: «لم أعد لكي أسوّي شيء. حبيت أسلم عليك بس». فقالت بغضب:

شنو تسلم علي يا ابن القحبة.

صدمته العبارة والغضب المتطاير من عينيها. خرج مسرعاً. اكتشف أنه لم يتعلّم البتة. تذكّر مأساة شايب الحسيوي. ساقه القدر اليوم ليختم حياته مع قرندول بفراق بنت مستورة وقراءة قانون البغاء الأزلي. لا أحد يعرف أحداً بعد انقضاء الحاجة. علاقة قائمة على الاحتقار المتبادل والحقد. يترك في الجسد شيئاً

واحداً فقط. اللولبيات الشاحبة التي تجوب دمه. تحمل على رؤوس أنيابها الموت وتطوف به في غياهب جسده. هذا ما تركته له بنت مستورة. التذكار الذي يزيل جميع التذكارات.

عندما قال الطبيب إنه مصاب بمرض السفلس لم يكن يعرف ما الذي تعنيه هذه الكلمة. شيء جديد على أهل الرويض. أصيب بضع مرّات بالسيلان. كل أصدقائه أصيبوا بالسيلان مرّات عديدة. كلّهم أصبحوا زبائن لدى الدكتور الوخاوي. كان يعتقد أن المسألة لا تتعدّى ما قد عاناه سابقاً. بعض السائل في السروال الداخلي. ولكن الطبيب نبّهه أكثر من مرّة إلى أن الأمر ليس كما كان في السابق. أقلقته البقع الحمراء الصغيرة لكنها سرعان ما اختفت فنسيها. شاهدته أمّه مرّة وهو يتأمّل في البقع الحمراء ويتوجّع من صداع عظيم. كانت قد لاحظت قبل ذلك أنّه بدأ يفقد وزنه والصداع يعاوده إلى أن جاء ذلك اليوم الذي ارتفعت فيه درجة حرارته. أصيبت بالفزع. ظنّت أمّه أن الجدري دهمه على كبر. لبست عباءتها وأخذته بالقوّة إلى الطبيب الوخاوي. حاول أن يتمنّع ووعدها بأن يذهب إلى الطبيب بنفسه، ولكنّها لم تسمع كلامه. أخذته إلى الطبيب كما كانت تأخذه عندما كان طفلاً. قال الطبيب كلمة واحدة. سعندي يحتاج إلى المستشفى. لم تفهم الأمّ. تردّد قليلاً. ولكنّه لم يقوَ على المجاملة، فالتفت إلى الأمّ وقال لها بكلمات واضحة إن سعندي يعاني مرضاً خطيراً.

في اليوم نفسه هرعت إلى الأميرة وأخبرتها تاريخ بيتها وتاريخ

الأمراض التي فتكت بأهله. اصطحبت معها سعاد وسعيد وعرضتهما على الأميرة. وقالت: إذا مات سعندي فلن يبقى لي في هذه الدنيا سوى هذين الشقيين. إذا كان القدر رضي بذلك فهل ترضى الأميرة؟ لم تخرج أم سعندي من بيت الأميرة إلاّ وفي يدها رسالة استعطاف موجّهة من الأميرة إلى المقام السامي. وبعد بضعة أيّام ركب سعندي الطائرة يرافقه أحد أقاربها البعيدين. بعد سبع ساعات كان في لندن. شهران أمضاهما هناك لم يكونا كافيين لإعادة عقارب الساعة إلى الوراء. أجمع الأطباء على أن الحالة ميئوس منها. بعد أسابيع معدودة فقد الذاكرة والإحساس بالعالم. من حسن حظّه أنه أخذ في التدهور السريع. بعد ثلاثة أسابيع فقد بصره ثم دخل في الغيبوبة النهائية ثم سارع إلى الموت لعله يلتقي بنت مستورة في جحيم أخرى.

«عندما كان في الرقّ حلم بالحريّة. أصبح الآن في أقصى درجاتها. لا ولد ولا عائلة ولا أهل ولا شيء يمكن أن يحدّ من حريّته أو يقلّصها. يمتلك قوّة على جسده وعلى أخلاقه ويقرّر مصيره دقيقة بعد دقيقة. ليس هنالك أحد يخاف عليه أو يخجل منه. ترى أيّ قدر قذف به في هذه الحريّة الموحشة؟ كافأه الله بحريّة أشدّ قسوة من العبوديّة. يكفيه منها الشعور بالوحدة. ما كان على معدية أن تورّطه في حبّها ثم تختفي في المجهول. كان يجب أن تعرف أنّها لم تكن حبيبة قلبه ومنى حياته. كانت هي الحياة بالنسبة إليه. كانت نظامه الأخلاقي وقيده الجميل. إنّها اللحظة الوحيدة التي عاشها كإنسان. منذ أن ضمّها إلى صدره بدأت تتقلّص علاقاته الآثمة. دخل في حياته شيء يثير الخشية والخوف والخجل.»



